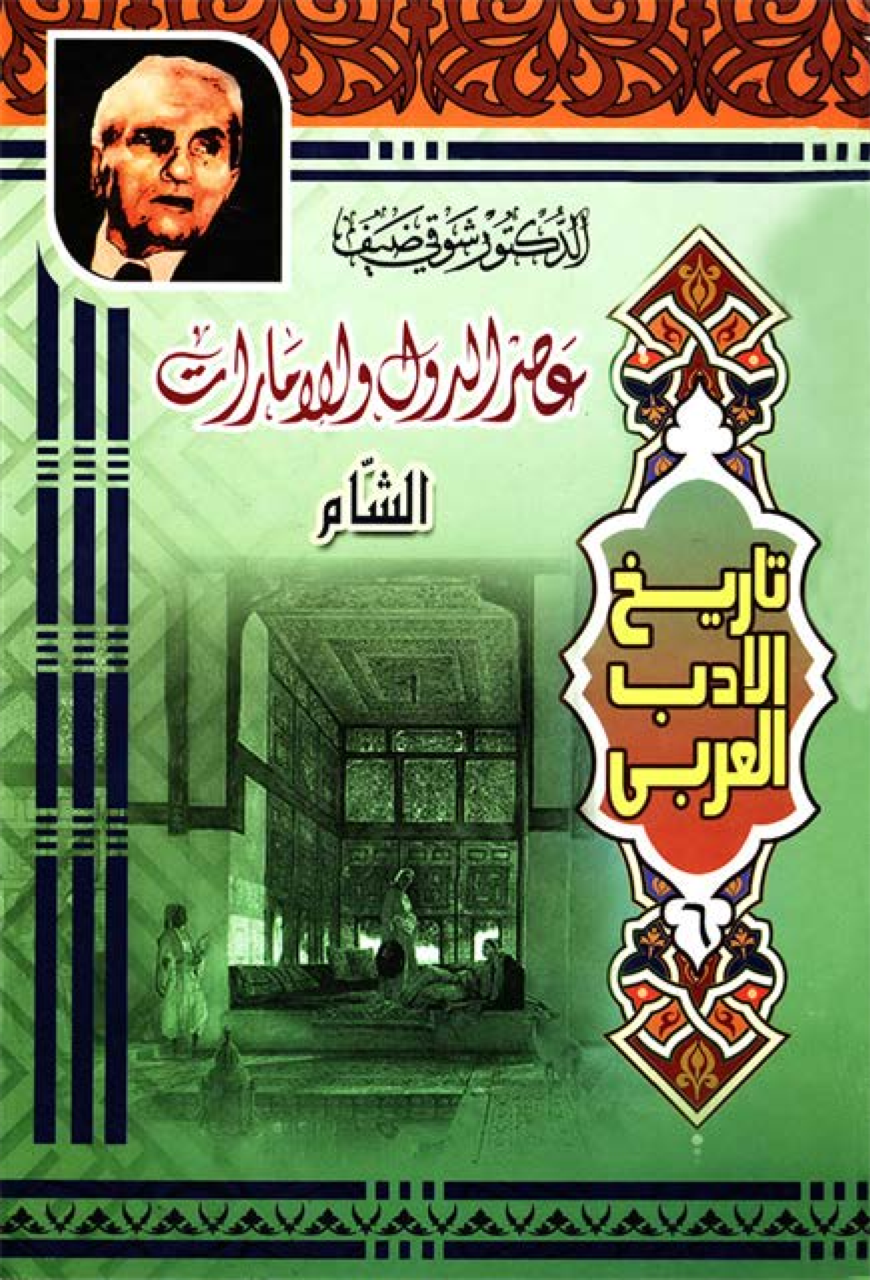

الدكتور شوقي ضيف
عصر الدول والإمارات
الشام
تاريخ الأدب العربي
٦

عصر
الدوَل والإمَارات
الشَّام

تاريخ
الأدب العربي
٦

عصر
الدول والإمارات
الشام

تأليف
الدكتور شوقي ضيف





منشورات ذوي القربىٰ

اسم الكتاب :	تاريخ الادب العربى (ج ٦)
المؤلف :	شوقى الضيف
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأُولىٰ
تاريخ الطبع :	١٤٢٨
الكمية :	١٠٠٠ نسخة
المطبعة :	ستاره
شابك ج ٥:	٣ ـ ١٨٩ ـ ٥١٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨

مركز التوزيع : قم ـ پاساژ قدس ـ الطابق الاول ـ رقم ٥٩ ـ تليفون: ٧٧٤٤٦٦٣ـ٢٥١ـ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدثت فى هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربى بالشام فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربى، وبالمثل عن مجتمعها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت فى الجزء الخاص بالعصر الإسلامى لشعرائها المبكرين: عدىّ بن الرِّقاع العاملىّ والطِّرِمّاح الطائى والوليد بن يزيد، وترجمت فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول لشعرائها الأفذاذ: منصور النَّمِرىّ والعَتّابى وأبى تمام، كما ترجمت فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الثانى لشاعريها البارعين: البُحْترى والصَّنَوْبَرىّ. ومنعًا للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعًا فى هذا الجزء وقَصْرَه فى تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسى الثانى.

وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربى لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظلُّ العالم الإسلامى من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسى، ثم ما كان من تحوُّل الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيّتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسّستا بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين فى شماليها بحلب ثم إمارة بنى مِرْداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها فى أواخر القرن الخامس الهجرى، وجهاد عماد الدين زنكى فى القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب - لهم - جهادا عظيما، وضربات صلاح الدين الأيوبى لجموعهم ضربات قاصمة وسَحْقه لهم فى حِطِّين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين، ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول فى عين جالوت شرّ ممزّق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائيا. ويدور الزمن دورات، فتنزلها - مع مصر - جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشْرق عليها أضواء العصر الحديث.

وكان المجتمع الشامى - حين الفتح العربى - يضمُّ أخلاطًا من أمم شتى آسيوية وأوربية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوِّنا منها أمة شامية عربية واحدة. وصبَّت

فيها - زمن الدولة الأموية - كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها فى تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت - بعدها - تَنْعَمُ بعيش رَغْدٍ لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونُقْل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون - من قديم - صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملوَّن والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بَوَّابة كبرى لتجارات آسيا وأوربا. وعَرَفَت - مثل شقيقاتها العربيات - كثيرًا من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع فى جوانب من ديارها وتعدَّدت بها فرقه المتطرفة من إسماعيلية ونُصَيْرِيَّة ودُروز وفِداويَّة، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية فى الشام نشيطة، وألممت بما كان بها - قديمًا - من تراث يونانى علمى وفلسفى، وتحدَّثت عن رعاية حكامها - منذ الفتح العربى - لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجرى وكثرتها كثرة مفرطة فى القرون التالية. وألممت بحركة الترجمة فى القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعًا عرضًا تاريخيًّا دقيقًا، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخيًّا، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهين فى السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية فى الشام على مر الزمن، واتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجلِّين.

وتحدثت عن اللغات فى الشام قبل الفتح العربى وكيف أنها كانت قد أخذت فى التعرب قبله بقرون، وتمَّ لها هذا التعرب سريعًا بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعًا. ولم يكن لها فى الشعر العربى نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت فى الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر فى ألسنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهون. وطوال أيام الأمويين كان شعراء الحجاز ونجد والعراق يفدون على دمشق لمديح الخلفاء، ونبغ فى البيت الأموى وبين خلفائه غير شاعر.

وتشارك الشام بقوة فى ازدهار الشعر العربى فى العصرين العباسيين: الأول والثانى.

ويتكاثر شعراء الشام فى القرن الرابع الهجرى وتموج بهم حلب فى عهد سيف الدولة الحمدانى، ويترجم الثعالبى فى كتابه «اليتيمة» لكثيرين منهم، كما يترجم الباخرزى فى كتابه «دُمية القصر» لطائفة من مشهوريهم فى القرن الخامس الهجرى، ويترجم العماد الأصبهانى وزير صلاح الدين الأيوبى فى القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم - بعده - بالشعراء الشاميين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام - منذ القرن السادس - مشاركة خصبة فى الأشكال الجديدة من الشعر الدورى فتكثر بها المسمَّطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غيرُ وشَّاح. ومنذ أبى تمام يُكْثِر شعراؤها من البديعيات، ويدخل الشعراء عليها صورًا مختلفة من التعقيدات.

وأخذتُ أحلل شخصيات شعراء الشام فى عصر الدول والإمارات منذ القرن الرابع الهجرى، فللمديح أعلامه يتقدمهم ابن الخياط بملكته الشعرية الخصبة، وللفلسفة والحكمة أعلامها يتقدمهم أبو العلاء المعرى مفخرة الشام الذى لا يماثله أديب سابق ولا لاحق فى الأدب العربى شعرًا ونثرًا، وللتشيع أعلامه يتقدمهم كُشاجِم بلوعاته وأنَّاته لفاجعة الحسين، وللغزل أعلامه يتقدمهم عبدالمحسن الصورى الذى نوَّه به ابن خفاجة دُرَّة الأندلس طويلًا فى ديوانه، وللفخر أعلامه يتقدمهم أبو فراس الحمدانى بروميَّاته التى جسَّد فيها الفروسية العربية بكل ما لها من فتوة وصلابة عاتية. ويتوالى أعلام فى شعر الطبيعة والزهد والتصوف والمدائح النبوية. ومع كل علم من الشعراء جمعًا ما يتميز به من الخصائص وروائع الأشعار. وبلغ عدد من ترجمت لهم من أعلام الشعراء فى الشام خمسة وثلاثين شاعرًا فذًا وذكرت بينهم فى كل غرض من أغراض الشعر شاعرا مجيدا من الشعراء فى أيام العثمانيين، ولم أترجم لعشرات من شعرائها ترجمتْ لهم كتبُ الطبقات لأنه لم يكن لأحدهم دور واضح فى تطور الشعر بالشام، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها، وإنما أكتب تاريخ شعرها ومَنْ تطوروا به وتركوا فيه بَصمات واضحة جعلتْ لهم حظا كثيرًا أو قليلًا من الشهرة والمجد الأدبى. وفسحتُ لدراسة الشعر الشعبى وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبى العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترْقى الرسائل الديوانية بالشام فى عهد الدولة الأموية وتوضع رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طُوِى فيها من رقىّ إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب فى الشام وأخذت تعنى بهذا

الديوان وتختار له كتّابًا بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية فى زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتّابى فى أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللببّغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهدى إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده - طوال العصر - شاكرةً أو مهنئة أو معاتبة أو معزّية، وهى - مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائمًا على السجع والمحسنات البديعية. ويُكْثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريرى فى مقاماته، وإنما تعتمد غالبًا على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهى بذلك أشبه برسائل مطولة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء، وجميعُه تسبيحٌ وتحميد وتمجيد فى الله العلىّ العظيم، ويُجْرى ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حِكَمًا بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، فى مقدمتها رسالة الغفران لأبى العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم - بشهادة المستشرقين - دانتى الشاعر الإيطالى كتابه «الكوميديا الإلهية». ومن الأعمال النثرية القيمة رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقى وفيها يسأل النسر البلبل عن السر فى جمال صوته وسحره، ويدور بينهما حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمنه، ومنها كتاب نسيم الصَّبا لابن حبيب فى وصف الطبيعة والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عَرَبْشاه، وفيه يتناول كثيرًا من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أنى عرضت فى صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربى فى الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربى وبالمثل صورة مجتمعها والنشاط الثقافى والعلمى بها مسترشدا بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أنى صوّرت ذلك كله تصويرًا تامًا، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله ولىُّ الهدى والتوفيق.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

فتح العرب للشام والحقب[1] الأولى

(أ) فتح العرب للشام

تقع الشام فى قلب الشرق الأوسط وَسَطَ العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط ، وهى سهل ساحلى يمتد من خليج إسكندرونة فى تركيا شمالا إلى طورسيناء جنوبا ، ومن البحر المتوسط غربا إلى بادية الشام شرقا ، والشام بذلك تشمل سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن . وتجرى فيها أنهار صغيرة أهمها العاصى المتجه إلى الشمال فى سوريا ، والليطانى المتجه إلى الجنوب ، وبَرَدى المتجه إلى الشرق مكونا بساتين دمشق المسماة بالغوطة ، ونهر الأردن الذى يصب فى البحر الميت ، وفى أطراف الأردن الشمالية بحيرة طَبَرِيّة . وبجنوبى دمشق هضبة حوران . وفى شمالى الهضبة الشرقى منطقة اللجأ وفى جنوبيها الشرقى جبل الدروز . وتنساب الشام شرقى حوران والأردن فى بادية الشام المتممة لصحراء العرب . ومن قديمٍ يُزْرعُ بها القمح والزيتون والتين والفواكه ، وبها فى الشمال أشجار النُّقْل المختلفة وهيأ ذلك أهلها لكى يعرفوا الاستقرار من أعتق الأزمنة ، كما هيأ البلاد لاندفاع بدو الجزيرة العربية إليها ، إذ تفيض عسلا ولبنا . وقد اندفعوا إليها فى شكل هجرات كبيرة ، لعل أقدمها هجرة الأموريين إلى شماليها حوالى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، وتلتها - وربما صحبتها - هجرة الكنعانيين أو الفينيقيين إلى السهل الساحلى . وقد استولى تحوتمس فرعون مصر حوالى سنة ١٤٤٠ ق . م على جزءٍ كبير من الشام ، وظل الأموريون والفينيقيون خاضعين لمصر نحو قرن إلى أن شُغلت عن ممتلكاتها فى الشام لعهد

---

(١) انظر فى تاريخ الشام القديم وزمن الدولة الأموية والولاة العباسيين كتاب تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (الترجمة العربية نشر دار الثقافة ببيروت) وراجع فى فتوحها وتاريخها الإسلامى تاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومروج الذهب للمسعودى والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والمغرب (قسم الفسطاط) لابن سعيد وتاريخ ابن خلدون وتاريخ الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن وتاريخ العرب - مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين) .

إخناتون بسبب ثورته الدينية المعروفة . وتفد على الشام هجرة كبيرة من الجزيرة العربية هى هجرة الآراميين إلى الشام الأوسط ومنطقة دمشق وهجرة العبرانيين إلى فلسطين .

ولم يكوِّن الفينيقيون لأنفسهم دولة فى السهل الساحلى بل ظلوا جماعات صغيرة لكل جماعة أميرها فى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعسقلان وغزة ، وكانوا شعبا بحريا تجاريا ، وازدهرت تجارتهم بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد ، وكوّنوا لهم مستعمرات فى إسبانيا ومراكز تجارية فى كورسيكا وسردينيا وصقلية وكريت وساموس فى اليونان . وقضى على النشاط التجارى لهذا الشعب الفتح الأشورى فى القرن الثامن قبل الميلاد . وكون العبرانيون لأنفسهم مملكة أورشليم فى القرن العاشر ق . م . وفيه بلغت ذروتها لعهد داود وسليمان ، ثم أخذت فى الضعف حتى قضى عليها الأشوريون فى القرن الثامن ق . م . ودمر بختنصر أورشليم فى القرن السادس ق . م . وجلاهم عنها إلى بابل ، حتى إذا سقطت دولة بابل سنة ٥٣٩ ق م . أذن كورش لمن يريد منهم العودة إلى أورشليم أن يعود . وظل الشام منذ هذا التاريخ تابعا للدولة الفارسية إلى أن فتحه الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٤ ق . م . وتولّت بعده شئونه دولة السلوقيين اليونانية حتى انتزعه منها الرومان فى القرن الأول ق . م . ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية كان الشام من نصيب الامبراطورية الشرقية وظل تابعا لبيزنطة حتى استخلصه العرب منها .

وقد استطاع العرب الشماليون أن يقيموا مملكتين أو إمارتين لهم فى أطراف الشام : إمارة النبط فى شرقى الأردن أقاموها منذ القرن الثالث ق . م وكان لها عاصمتان : بَطْرًا فى الجنوب بشرقى الأرْدُنّ وبُصْرَى فى الشمال بالقرب من دمشق ، وكانت تتكلم العربية فى أحاديثها اليومية بينما كانت تكتب نقوشها بالخط الآرامى ، وقضى الرومان على استقلالها سنة ١٠٦ للميلاد وضموها إلى دولتهم الرومانية . والمملكة الثانية مملكة تَدْمُر شمالى بادية الشام ، وبلغت أوجها فى القرنين الثانى والثالث للميلاد وخاصة فى عهد أميرها أُذَيْنة ، وقد نصبه الرومان ملكا على سوريا جميعها وعادوا فى عهد زوجته الزباء ، فقضوا عليها وعلى الإمارة فى سنة ٢٧٣ للميلاد . ولم تلبث قبيلة عربية أن شقَّت طريقها إلى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وهى قبيلة الغساسنة واستطاعت أن تقيم لها إمارة ، ولم تكن لها عاصمة مستقرة ، فقد كانت تنتقل من مكان إلى آخر ، فمرة تتخذ عاصمتها فى الجولان ومرة فى جِلِّق أو الجابية ، وكانت موالية لبيزنطة وتحارب فى صفوفها ضد إيران وعرب الحيرة . ومن أهم أمرائها الحارث بن جبلة وهزيمته للمنذر صاحب الحيرة يوم حَليمة بالقرب من قِنّسْرين سنة ٥٥٤ مشهورة وفيها خرَّ المنذر صريعا . وما نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادى

حتى تتمزق وحدة هذه الإمارة ، ويتوزع أجزاءها غير أمير . ونستطيع أن نميز بينهم النعمان بن الحارث ممدوح النابغة وأخاه عمرو ممدوح حسان ، ولحق منهم الفتوح الإسلامية جبلة بن الأيهم وأسلم ، ثم تنصر ولحق ببيزنطه .

وحين دخلت الجزيرة العربية جميعها فى دين الله الحنيف وانضوت تحت لوائه أحست دولة بيزنطة فى الشام ودولة الفرس فى العراق بأنها قوة ينبغى أن يُدْرَأ خطرها . وهو ماجعل أبا بكر الصديق يبادر بتجهيز الجيوش لتجاهد فى سبيل الله ونشر دعوة الإسلام الدولتين الكبيرتين قبل أن تتآزرا على حرب الإسلام والمسلمين فى الجزيرة شرقا وشمالا . وكان الفساد قد استشرى فى حكم الدولتين واستشرى معه ظلم الرعية والبغى الأثيم . واستولى المسلمون من الفرس سريعا على جنوبى العراق ، وتوالت انتصاراتهم عليهم ، وبادر الصديق فسيَّر فى سنة اثنتى عشرة للهجرة جيشين لحرب البيزنطيين أو الروم فى الشام : جيشا بقيادة يزيد بن أبى سفيان إلى البلقاء فى شرقى الأردن ، وجيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين ، وكتب إلى خالد بن الوليد فى العراق أن يلحق بجيشى الشام ، فلحق بهما وتولى قيادتهما ، وفتح بُصْرى شمالى البلقاء . ونازل الروم فى أجنادين بفلسطين بين بلدتى الرملة وبيت جبرين الحاليتين ، وهى أول معركة كبرى بين العرب والروم ، وفيها سحقهم سحقا ذريعا ، وتقدم إلى الشمال حتى دمشق وظل محاصرا لها حتى استسلمت . وجمع الروم صفوفهم فى اليرموك أحد روافد نهر الأردن فدمرهم خالد وجنوده ولم تقم لهم بعد ذلك فى الشام قائمة وفتحت بلدانها جميعا أبوابها للعرب المنتصرين . وبذلك استولى العرب على الشام فى نحو ستين .

وخرج عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ إلى الجابية – جنوبى دمشق على مسيرة يوم منها – وهى إحدى عواصم الغساسنة كما مر آنفا ، وبها عقد مؤتمرًا ضَمَّ ولاة الشام وقوادها لتنظيم الإدارة فى ديارها ، وفتحتْ له القدس أبوابها ، وأمَّن عمر النصارى بها ورهبانها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وحريتهم الدينية ، والتمسوا منه أن يُخْلِى القدس من اليهود وأجاب ملتمسهم ولم يبق بها يهودى . وقسّم الشام إلى أربعة أجناد : جند الأردن وجند فلسطين وجند دمشق وجند حمص ، وزيد فيما بعد لعهد الأمويين جند قِنّسْرين والعواصم والثغور . واشتهرت سنة ١٨ للهجرة باسم سنة طاعون عمواس ، وكانت بلدة بين نابلس والرَّملة الحاليتين ، وفيه توفى أبوعبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل ويزيد بن أبى سفيان والى دمشق ، وولاها عمر بن الخطاب بعده أخاه معاوية . وامتد لواء ولايته لها فى عهد عثمان حتى شمل الشام ، وعمل على الاستعانة ببدو الشام فى

شئون الإدارة مما جعلهم يلتفون حوله ، وظهر ذلك سريعا حين تولى الخلافة على بن أبى طالب ، وعزله ،. فإنه سرعان ماطالب بدم عثمان وناصره بدو الشام .

وتطورت الظروف سريعا إلى أن نشبت حرب صِفّين بين معاوية وبين على بن أبى طالب كما هو معروف ، حتى إذا أيقن معاوية بالهزيمة أمر جنده – استجابة لمشورة عمرو بن العاص – أن يرفعوا المصاحف على أسنة رماحهم داعين إلى الاحتكام إلى كتاب الله . ورضى على وأُقيم حكمان للفصل بين الطرفين : أما جند على العراقيون ، فاختاروا أبا موسى الأشعرى ، واختار معاوية وجند الشام عمرو بن العاص ، ويروى الجاحظ أن معاوية قال له : « ياعمرو إن أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى فأجدِ الحزّ وطبّق المَفْصِل ، ولاتلقه برأيك كله » . وصدق حَدْس معاوية فقد استطاع عمرو أن يقنع أبا موسى بعزل على عن الخلافة لوقف الحرب وحقن دماء المسلمين . وأُعلن الحكم ، وانقسم جيش على : فرقة معه وفرقة سَمَّت أنفسها الخوارج ، وهو أول ظهورهم فى التاريخ الإسلامى وحاربهم ونكّل بهم ، ولم يلبث أن اغتاله خارجى أثيم . وبذلك خلا الجو لمعاوية وخاصة حين أعلن الحسن بن على تنازله عن الخلافة له . وقد بايعه جنده وأمراؤه بالخلافة فى بيت المقدس واتخذ دمشق حاضرة لخلافته .

(ب) زمن الدولة الأموية

أسس معاوية فى الشام الدولة الأموية وتوزعها فرعان : فرع سفيانى نسبة إلى أبى سفيان ، معاويةُ على رأسه وابنه يزيد ، وفرع مروانى من البيت الأموى نسبة إلى مروان بن الحكم ومن خلفه من أبنائه وأحفاده . وكان معاوية بعيد النظر سيوسا حازما ، وكان له بصر بالشخصيات من حوله ، فاستعان بطائفة من صفوة الحكام فى مقدمتهم عمرو بن العاص فى مصر ، والمغيرة بن شعبة الذى ولاه الكوفة ، وزياد بن أبيه الذى اختاره للبصرة وإيران حتى إذا توفى المغيرة ضم إليه الكوفة وقد استطاع زياد أن يقضى على معارضة على فى شرقىّ الدولة وأن ينشر فى ربوعه الأمن . ووجه معاوية حملات مختلفة إلى بيزنطة واستطاع حصار القسطنطينية مرتين ووجه حملة بحرية إلى قبرص ، وكانت دمشق قاعدة الخلافة فى زمنه وكان يستعين بأهل الشام فى شئون الحكم وعمها الرخاء . وشمل المسيحيين بتسامح واسع واتخذ لنفسه مستشارا ماليا منهم هو سرجيوس ، إذ وكل إليه فيما يقال الشئون المالية . ويبدو أنه كان حاكما لدمشق قبل فتحها . على كل حال استعان به

معاوية فى الشئون المالية لدمشق ، وظلت أسرته بعده فى خدمة الأمويين فكان ابنه يشرف على الخراج لعهد عبد الملك ، وبالمثل استعان الأمويون بحفيده ، وفى عهده توغل عقبة بن نافع - ابن خالة عمرو بن العاص - فى البلاد المغربية ، وأسس فى وسطها القيروان بتونس ، وواصل فتوحه فى عهد معاوية وابنه يزيد حتى أشرف على المحيط الأطلسى .

ولما خلف معاوية ابنه يزيد أبى البيعة له عبد الله بن الزبير ولاذ بالحرم المكى ، كما أباها الحسين ابن على واتجه إلى العراق ، فلقيته طلائع جيش لعبيد الله بن زياد والى العراق قبيل دخوله الكوفة فى «كربلاء» غربى الفرات ولما أبى الاستسلام نازلوه واستشهد الحسين ومن كان معه من أهله وأنصاره مما كان له أكبر الأثر فى التطور السريع للشيعة ، ولايخلو ضريحه طوال العام من حُجّاجهم إليه حتى اليوم . وكانت المدينة قد انضمت إلى ابن الزبير فأرسل يزيد إليها جيشا بقيادة مسلم بن عقبة فنكل بها وفى طريقه إلى مكة لحرب ابن الزبير توفى وخلفه حصين بن نمير السكونى ، فمضى حتى حاصر ابن الزبير بمكة وجاءه نعى يزيد بن معاوية ، ففكّ عنها الحصار وعاد بجنده إلى الشام . وخلف يزيد ابنه معاوية وتوفى بعد أربعين يوما من خلافته . واضطربت العراق ، واضطر واليها عبيد الله بن زياد إلى مبارحتها ، وانتهز الفرصة مروان بن الحكم واعتلى عرش الخلافة يؤيده بدو الشام من اليمنية وأبى بَدْوُها من القيسية مبايعته وهزمهم فى موقعة مَرْج راهط ، وتبعته مصر ، أما العراق فظل الاضطراب سائدًا فيها ، وبايع قسم منها ابن الزبير وقسم تحرك للطلب بدم الحسين وكان عبيد الله بن زياد فكر فى العودة إلى العراق على رأس جيش فقضى عليه هذا القسم ، وحاول المختار الثقفى والى الكوفة أن يجمعه تحت لوائه وقضى عليه مصعب بن الزبير والى أخيه عبد الله على البصرة .

وكان مروان بن الحكم قد توفى وخلفه ابنه عبد الملك وسر سرورا عظيما لما حاق بالمختار الثقفى وجنوده على يد مصعب ، وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليه فى العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير فى مكة والحجاز ، أما مصعب فذهب إليه عبد الملك فى سنة ٧١ للهجرة على رأس جيش ضخم ، وقضى عليه ، وبايعه العراقيون . وأما عبد الله بن الزبير فأرسل إليه الحجاج فى جيش كثيف ، ومازال به حتى تفرق عنه أصحابه ، وظل يستبسل فى قتال القوم حتى خرَّ صريعا . وقد عُنى ببناء المسجد الأقصى وتعريب إدارة الدولة واستطاع أخوه عبد العزيز واليه على مصر أن يقضى نهائيا على المعارضة فى المغرب .

ويُعَدّ زمن الوليد بن عبد الملك أزهى أيام المروانيين لفتوحاته العظيمة شرقا وغربا ، أما فى

الشرق فاستطاع محمد بن القاسم فتح السند واستطاع قتيبة بن مسلم أن يمتد بانتصاراته إلى الإقليم المسمى الآن باسم أوزبكستان وعاصمته حينذاك سمرقند. وأما فى الغرب فقد استطاع موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد أن يقضيا على الدولة القوطية فى إسبانيا، وأن يبلغا بفتوحها هناك أصى الشما. وهذه الفتوح كانت تعود على الدولة بأموال عظيمة مما هيأ لرخاء واسع فى ديار الشام، كما هيأ للوليد نفسه أن يهتم فى دمشق بالعمران وأن يقيم بها الجامع الأموى العظيم ويقال إنه عمل به من البيزنطيين وحدهم ألف ومائتا عامل سوى من عمل به من الفرس وأهل الشام وقد زُيِّنت جدرانه وسقوفه بالرخام المطعم والفُسيفساء التى كانت تمثل مدنا وأشجارا من كل نوع سوى ما كان فيه من أعمدة وتراويق عجيبة.

وخلف الوليد أخوه سليمان واتخذ بلدة الرملة بفلسطين حاضرة له. وكان من سوء تدبيره أن نكَّل بقواد الوليد العظام، فقُتل قتيبة ولم يعرف مصير موسى بن نصير ولا محمد بن القاسم، وحَسنته الوحيدة انه استخلف بعده ابن عمه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، وقد ألغى سبَّ على بن أبى طالب على المنابر وعمل على استمالة الشيعة والخوارج والنصارى وخفَّف من ضرائب الجزية المفروضة على الأخيرين فى قبرس وأيلة (العقبة) ونجران ومصر، وسوَّى بين العرب والموالى فى الضرائب وأعفى منها المشتركين منهم فى حرب خراسان مع فرض أعطيات لهم، غير أن حكمه كان قصيرا من سنة ٩٩ إلى ١٠١. ولم يأخذ خلفاؤه بإصلاحاته، وعجَّل ذلك باضمحلال الدولة. وأولهم بعده يزيد بن عبد الملك الذى لم يأخذ بسيرته وإصلاحاته وانغمس فى الملاهى، وتلاه بعد نحو أربع سنوات أخوه هشام الذى اتخذ مقره فى الرُّصافة على الفرات، وفى عهده ثار زيد بن على بن الحسين فى الكوفة سنة ١٢١ وقُتل وصُلب، واستغلَّ ذلك دعاة العباسيين مما مهد السبيل لقيام خلافتهم بعد نحو عشر سنوات. ومُنى عرب الأندلس بهزيمتهم جنوبى فرنسا سنة ١١٤ للهجرة أمام شارل مارتل.

وتوفِّى هشام سنة ١٢٤ وخلفه عهد تضعضعت فيه الدولة الأموية وآذنت شمسها بالمغيب، فقد خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد وكان شاعرا ماجنا فلقى مصرعه سريعا، وجاء بعده يزيد بن الوليد وسرعان ماتوفى بعد خلافته بنحو خمسة أشهر وتلاه أخوه إبراهيم ولم يرضه الناس ولا الأسرة الأموية، وتحولت مقاليد الخلافة إلى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكأنه لم يعد فى أسرة عبد الملك من يصلح لها. وكان محاربا عالى الهمة، وأخطأ بنقله عاصمة الخلافة إلى حرَّان، فانفضَّ عنه بدو الشام، ونشبت فتن كثيرة أضعفت قواه، بعضها فى الشام وبعضها فى

العراق حيث الخوارج والشيعة . ولم تكد هذه الفتن تهدأ حتى تحرك العباسيون براياتهم السود من خراسان ، وأخذت المدن الإيرانية تسقط فى أيديهم ودخلوا العراق واستولوا على الكوفة ومضوا إلى شمالى العراق وهزموا مروان عند الزاب الأكبر ، فأخلى الجزيرة واتجه إلى الشام وتخلى عنه أهلها ، فالتجأ إلى مصر ، ولقى مصرعه بها فى بوصير . وكان السفاح قد أعلن الخلافة العباسية فى الكوفة وطورد الأمويون فى كل مكان وأبيدوا بوحشية ، ونُبِشَتْ قبور خلفائهم – عدا معاوية وعمر بن عبدالعزيز – وأُذْرِيت عظامهم ورفاتهم فى الهواء ، ونجا من هذا البطش والنكال عبدالرحمن الداخل أحد حفدة هشام بن عبدالملك ، إذ فرَّ إلى الأندلس وأسس بها دولة أموية جديدة ظلت نحو ثلاثة قرون .

(جـ) زمن الولاة العباسيين

فقدت الشام – بسقوط الدولة الأموية – السيادة المطلقة فى الإسلام وفقدها العرب معهم تدريجا . إذ أخذ الاعاجم يشغلون المناصب العليا فى الدولة العباسية ، وكان العباسيون يعرفون أن دولتهم إنما قامت على أسنة رماحهم ، فقربوهم منهم وفسحوا لهم فى الوزارة وغير الوزارة . وكان لذلك صداه السيىء فى نفوس أهل الشام ، مما هيَّأ بعد نحو عشرين عاما لثورة القيسية فى قِنَّسْرِين بزعامة أموى هو أبو محمد السفيانى ، وسرعان ماقضى عليها العباسيون وفرَّ السفيانى إلى الحجاز ولقى حتفه هناك ، ولم يصدق أتباعه وفاته فظلوا يترقبون عودته ليجدد للشام مجده الغابر .

ونمضى إلى سنة ١٩٥ فى عهد الخليفة الأمين فيظهر فى دمشق سفيانى جديد هو على بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، ويطرد عامل الأمين عن دمشق ، ويبايعه الدمشقيون بالخلافة . وشُغل عنه الأمين بحرب أخيه المأمون مدة . ولم يلبث أن قضى على ثورته.أعوان الأمين واختفى بالمِزَّة بالقرب من دمشق وأقام بها أياما ومات . وفى سنة ٢٢٧ لعهد المعتصم ثار بفلسطين المبَرْقع أبو حرب اليمانى وزعم أنه السفيانى المنتظر ودعا أولا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن.قويت شوكته فادَّعى النبوة ، وتبعه قوم من فلاحى القُرَى وقوى أمره وسار إليه أحد قواد المعتصم فى ألف فارس وأسره وحبسه ومات فى حبسه .

وكان أول من تولى الشام للسفاح عمه عبدالله بن على بعد قضائه على مروان بن محمد فى موقعة الزاب حتى إذا فرَّ مروان إلى الشام مضى يتبعه إلى دمشق ففتحها وهدم سورها وقتل من الأمويين ثمانين رجلا فى مذبحة مشهورة ببلدة الرَّمْلة . وولاه السفاح دمشق ، ولما ولى الخلافة بعده

أبوجعفر المنصور ، خرج عليه عبدالله ودعا لنفسه فهزمه أبومسلم الخراسانى ، وحبسه المنصور ومات فى حبسه . وتولى أمر الشام ودمشق بعد عبد الله كثير من الولاة وكان بعضهم من الأعاجم مؤيدى الدولة . واتبع العباسيون سياسة غير حكيمة أن لا يبقوا واليًا لهم فى بلد إلا مدة قصيرة . وكان هذا سببا فى أن لا يُعْنَى الولاة بالنهوض ببلدانهم من جهة ، كما كان سببا فى أن يحاولوا الإثراء سريعا قبل أن يُعْزَلوا من مناصبهم ، مما كان يدفعهم فى كثير من الأحيان إلى الزيادة فى الضرائب ، كما كان يدفع الناس إلى الثورة عليهم ، وسرعان ما كان يقضى على ثوراتهم كما حدث فى حلب سنة ١٦٢ وفى حمص سنة ١٩٤ .

ويبدو أن القبائل القيسية واليمنية لم تتعظ بما أصابها من فقدان موطنها لاستقلاله الذاتى ، فقد اندلعت بينها نار العصبية القديمة وأخذوا يمدونها بحطب جَزْل طوال العقد الثامن من القرن الثانى ، واغتنمت السوقة بدمشق الفرصة فنهبت ما استطاعت أيديها نهبه ، وتطاحن الفريقان وسُفكت دماء المئات منهما . وأخيرًا أرسل اليهما هرون الرشيد وزيره جعفرًا البرمكى ، فأطفأ نار العصبية المحتدمة بين الطرفين بتجريدهما من السلاح وعاد إلى دمشق الهدوء والسلام . وفى سنة ٢٢٧ يولى المعتصم موسى بن إبراهيم الرافقى دمشق فتثور عليه القيسية ويقتل منها خمسة عشر نفسا ، فتشتد ثورتها وتحاصر دمشق ، ويتوفى المعتصم فيرسل الواثق خلفا له أحد قواده فيهزم القيسية ويقتل منها ألفا وخمسمائة ، وتهدأ الثورة ، ويعود الأمن إلى دمشق .

وكان الخلفاء العباسيون يرحلون إلى الشام أحيانا ، لزيارة بيت المقدس أو للحج منه ، وأكثر رحلاتهم إنما كانت لحرب البيزنطيين ، والسقوط عليهم من ثغوره . ومما يذكر لهم أنهم أقاموا فى حدوده الشمالية كثيرا من الثغور للاندفاع منها إلى آسيا الصغرى . وكانت جيوشهم ماتنى ذاهبة إلى شمالى الشام آيبة منه ، مما عاد عليه بكثير من الرخاء وانتعاش التجارة . واشتهر المهدى والرشيد بنضالهما لبيزنطة وما كان من فتح هرقلة وضرب البيزنطيين ضربات قاصمة . وأخذ المأمون منذ سنة ٢١٥ يقود حملات عنيفة لمدة ثلاث سنوات متوالية استولى فى أثنائها على لؤلؤة أقوى وأمنع الحصون البيزنطية بالقرب من طَرسوس ، مما اضطر تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى التماس الصلح . وفى سنة ٢٢٣ دق المعتصم وقواده أعناق البيزنطيين دَقًّا وأوطئوهم ذُلًّا وصَغارا إذ هدموا أنقرة وحرقوا عَمُّورية أمنع بلادهم فى آسيا الصغرى . وظل قواده من أمثال محمد بن يوسف الثغرى وابنه يوسف يَكيلون لهم ضربات ساحقة . ويظل غزو البيزنطيين صيفا فى أيام الخليفة المتوكل ، ويغيرون على بعض الثغور فى شمالى الشام . وينكل بهم على بن يحيى الأرمنى والفارس المغوار عمر

ابن عبدالله الأقطع ، ويتم فتح صقلّية ، ويدمر أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول البيزنطيين . وزار المتوكل الشام فى آخر سنة ٢٤٣ ودخل دمشق وأعجبته ، وبنى له قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها . ويفطن قواده من الترك إلى مأربه ، وأنه يريد التخلص منهم ، فطالبوا برواتبهم حتى يضطروه إلى العودة إلى سامَّراء عاصمته فى العراق . ونزل على إرادتهم ، وبارح دمشق سريعا . وربما كان من أهم ماخلفه عصر الولاة العباسيين بالشام كثرة العناصر الفارسية التى دخلته بين ولاة وقضاة وعلماء وفقهاء مختلفين .

(د) الطولونيون — القرامطة

١- الطولونيون[١]

كان أحمد بن طولون تركى الأصل خدم العباسيين وولى مصر فأنشأ بها الدولة الطولونية محققا لها نوعا من الاستقلال اللبق ، وكان قد ولى إمرة الثغور وجاهد فى سبيل الله . ويقول مؤرخوه إنه نشأ يُعْنَى بالفقه مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وكان يقول : ينبغى للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه ، فإنه يملكهم ملكا لايزول به عن قلوبهم ، وقد عم الرخاء مصر منذ وليها فى سنة ٢٥٤ ويقال إنه كان يتصدق فى كل يوم بمائة دينار غير ما كان يرسله إلى الشام والعراق والحجاز . ومنذ توليه مصر وضع نصب عينيه الاستيلاء على الشام ، ولم يكن ذلك غائبا عن فكر الموفق القائم على تدبير دولة أخيه المعتمد ، غير أنه كان مشغولا بثورة الزنج والقضاء عليها ، وانتهز ابن طولون الفرصة بعد موت والى دمشق سنة ٢٦٤ وأناب عنه بها مولاه لؤلؤا ولم يلبث فى سنة ٢٦٨ أن أظهر الخلاف عليه وضرب نقودا باسمه وكاتب الموفق ليرسل إليه جيشًا يفتح به مصر . وخشى ابن طولون أن يهم الموفق بتلبيته ، فأرسل إلى الخليفة المعتمد وكان كالمحجور عليه يرغبه فى الرحيل إليه بمصر ، وتوجه إلى سوريا كى يكون فى استقباله . وعزم المعتمد على اللحاق به وتنبه للموفق ، فحال بينه وبين الرحيل عن العراق . ومضى ابن طولون يغاضب الموفق فقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة بمصر والشام إذ كان يُذْكر فيها وليا

---

(١) راجع فى هذه الدولة كتب التاريخ السالفة فى أول الفصل وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ودائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٠.

للعهد ، ولم يردّ على ذلك الموفق إذ كان يميل معه إلى السلام ، ولذلك لم يرسل إلى لؤلؤ جيشًا لغزو مصر . وعادت الشام إلى ابن طولون سريعا .

وكان عهد ابن طولون فى الشام عهد رخاء وأمن ، ويقال إنه أول دخول له فى دمشق وقع بها حريق ، فأمر بأن يعطى لكل من احترق له شيء من المال مايعوّضه ، ثم أمر بمال عظيم ففُرّق فى فقراء دمشق والغُوطة . وتوفى سنة ٢٧٠ فخلفه ابنه خُمارويه ، وثار عليه واليه على دمشق وولاة آخرون هناك . وأيدهم الموفق بجيش ، فمنى خمارويه بالهزيمة ، وتتابعت هزيمته فى سنتى ٢٧١ و٢٧٢ . وأخذ نجمه فى الصعود لسنة ٢٧٣ إذ كتب إلى الموفق فى الصلح فأجابه ، وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور لمدة ثلاثين سنة . وسُرّ خمارويه سرورا عظيما ، وأمر بإعادة الدعاء للموفق فى خطبة الجمعة ، وكان يتردد على الشام بجيشه الضخم كثيرا ، مما كان يعود على أهلها برواج واسع فى التجارة . وبدمشق قتله خادم له فى قصره سنة ٢٨٢ ويقال إن هذا الخادم كان أولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على قتله . وسرعان ما أخذت شمس الدولة الطولونية فى الغروب ، وولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » وعكف على الشرب واللهو فنفر القواد — ونفرت الناس — منه . وخلعه أخوه هرون بعد ولايته بتسعة أشهر ، وكان لايزال صبيا ضعيفا ، فأخذت الدولة فى التضعضع ، وعاث القرامطة فسادًا فى الشام ، ولم يستطع قواده وجنوده أن يردوهم عن دمشق وغيرها فاستغاث أهل الشام بجيوش الخليفة المكتفى وأغاثتهم . ووضح أنه لم يعد يوجد أى مسوغ للإبقاء على الأمير الطولونى المستضعف ، وخلفه عمه شيبان وكان لايقل عنه ضعفا ، ومنه تسلم مصر محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ .

٢ — القرامطة [١]

كان أول ظهور القرامطة فى العراق سنة ٢٧٧ ، وهى حركة سياسية دينية خطيرة تحدثنا عنها بالتفصيل فى كتابنا العصر العباسى الثانى ، وأوضحنا كيف أنها بدأت بإيحاء من عبدالله بن ميمون

(١) انظر فى القرامطة كتب التاريخ وخاصة الطبرى ، وكتب الملل والنحل وخاصة الفرق بين الفرق للبغدادى ، ودراسات فى العصور العباسية المتأخرة لعبدالعزيز الدورى ص ١٢٦ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٩ وكتابنا العصر العباسى الثانى ص ٣٣ ومابعدها .

القدّاح منظم الدعوة الاسماعيلية الشيعية من مركزه فى « سَلَمْيَة » بالقرب من اللاذقية . وكيف أنه أرسل دعاته إلى العراق وخاصة الكوفة وسوادها وعلى رأسهم الحسين الأهوازى ، وقد التقى فى لسواد بنبطى يلقب بَقْرمط ووجد فيه أمنيته من التحمس الشديد للدعوة . ولما دنا أجله عهد إليه بها فنظمها . وتبعه كثيرون مكونين فرقة القرامطة نسبة إليه . وسرعان ما تحولت الفرقة إلى فرقة مارقة تُحلُّ أتباعها من الفرائض الدينية وتفرض عليهم نظاما اشتراكيا فى الأموال . وانضم إلى قَرمط قليل من الطبقة الكادحة لا فى السواد والريف فقط بل أيضا فى المدن ، ومن أهم أتباعه الحسين بن بهرام الجنابى الفارسى الذى نشر الدعوة فى البحرين والأحساء . وخلفه فى سنة ٢٨٩ زكرويه القرمطى وكان أكثر نشاطا من قرمط ، فرأى أن يعنى بنشر الدعوة بين البدو فى جنوبى العراق ولم يتبعه إلا القليل ، حينئذ أرسل أولاده يحيى والحسين ومحمدا إلى عشائر قبيلة كلب فى بادية الشام وزعموا لها أنهم من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعهم كثيرون وخاصة بنى العُلَيْص . وكانوا قد جعلوا زعامتهم لأخيهم يحيى فبايعه البدو وكانت له عضد ناقصة فكشفها لهم وقال إن هذه آيته . والآية له ثانية هى ناقته ، وزعم أنهم إذا تبعوها فى لقاء عدو كُتب لهم النصر المبين . وساق جموعه فى الشام يعيثون ويفسدون ، وحاصر بهم دمشق فقُتل على أبوابها ، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة له ، وأظهر لهم شامة فى وجهه الملثم وقال إنها آيته ، ولذلك لُقّب صاحب الشامة . وخافه أهل دمشق فصالحوه على خراج يؤدونه إليه ، وتغلب على حمص وخُطب على منابرها بأنه المهدى المنتظر ، وهاجمت جموعه بعلبك وحماة والمعرة تقتل وتنهب . وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية كما مر بنا ، وكانت تعانى ضعفا شديدا ، فلم تستطع أن تنقذ الشام من القرامطة وما أحدثوه بها من الفوضى والدمار ، مما جعل أهل الشام يستغيثون منهم بالخليفة المكتفى ، ولبى استغاثتهم فأرسل إليهم محمد بن سليمان على رأس جيش كثيف ، فواقع القرامطة بالقرب من حماة فى المحرم سنة ٢٩١ وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، وفرَّ كثيرون منهم إلى البوادى . أما الحسين بن زكرويه فاتجه إلى الفرات ، وأُسر هناك وصُلب ببغداد مع عشرات من القرامطة . وكان أخوه محمد لايزال حيا بين بدو الشام ، فأخذ فى جمعهم حوله ، حتى إذا كانت سنة ٢٩٣ أغار بهم على دمشق وحارب أهلها ودخلها وأعمل فيها القتل والنهب ، ثم صار إلى طَبَريَّة فانتصر على أهلها ودخلها وفتك بكثير من رجالها ونسائها وعاد إلى البادية . وفى نفس السنة أرسل زكرويه داعية له يسمى أبا غانم إلى بادية الشام ، وتبعه كثيرون ونهب بهم بُصْرى وأذرعات ، وتعقَّبته جنود الخلافة ولم يلبث أحد أتباعه أن قتله . وبذلك تنتهى حركة

زكرويه وأولاده ودعاته فى الشام ، وكانت قد أصبحت منذ انتصار محمد بن سليمان على صاحب الشامة تابعة لبغداد ، ترسل إليها ولاة مختلفين .

(هـ) الإخشيديون – الحمدانيون (سيف الدولة)

١ – الإخشيديون(١)

الإخشيد هو محمد بن طُغُج ولى مصر فأسس بها الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ وما تُقبل سنة ٣٢٨ للهجرة حتى تحدثت محمد بن رائق صاحب دمشق نفسه بالاستيلاء على مصر ، ويلتقى به الإخشيد فى الفَرَما ، ويتم بينهما الصلح . وسرعان ماينقضه ابن رائق ويتهيأ الإخشيد لقتاله ، ويلتقيان ثانية فى العريش وتحدث بينهما وقعة عظيمة . ويصطلحان على أن تكون للإخشيد الرملة وجنوبيها فى فلسطين ، أما شماليها من بلاد الشام جميعا فتكون لابن رائق . وحدث فى سنة ٣٣٠ أن قتل الحمدانيون محمد بن رائق وانتهز الفرصة الإخشيد وجهز الجيوش إلى الشام واستولى عليها ، ودخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ، ثم عاد منها إلى الفسطاط فى السنة التالية . ووقعت بينه وبين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وحشة امتدت من سنة ثلاث وثلاثين إلى أول سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، واصطلحا على أن تكون لسيف الدولة حلب وحمص وأنطاكية وتظل بقية بلاد الشام للإخشيد . وسرعان ماتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ مستخلفا بعده على مصر والشام ابنه أنوجور وعاهدا إلى مولاه كافور الإخشيدى بتدبير أمور مملكته . وفى أوائل إمارة أنوجور لسنة ٣٣٥ استولى سيف الدولة الحمدانى على دمشق ، فحشد له أنوجور عسكرًا ضخمًا ولقيه فى مدينة الرملة ، ونشبت بينهما وقعة طاحنة انكسر فيها جند سيف الدولة وسار المصريون وراءهم إلى حلب . واستقر الأمر على الصلح وأن يظل لسيف الدولة مابيده من حلب وحمص وأنطاكية ، أما دمشق وبقية الشام فتظل لأنوجور . وينزل المتنبى مصر فى أيامه سنة ٣٤٦ ويتوفى أنوجور سنة ٣٤٩ قبل مبارحة المتنبى لها ويخلفه أخوه على ويظل كافور قائما بتدبير الدولة وتصريف شئونها . وفى سنة ٣٥٢ قدم قرامطة البحرين إلى الشام وعاثوا فيها فسادا ولم يستطع جند مصر دفعهم عنها لاضطراب أحوال الديار المصرية بسبب عظم الغلاء وكثرة الفتن ، وفسد فى أثناء ذلك مابين على

---

(١) انظر فى الإخشيديين كتب التاريخ المذكورة فى أول الفصل وخاصة النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى وانظر ترجمة الإخشيد وكافور فى ابن خلكان وخطط المقريزى ٦١٧/١ ومصر فى عصر الإخشيديين للدكتورة سيدة كاشف.

ابن الإخشيد وكافور ولم يلبث على أن توفى سنة ٣٥٥ وتولى أمر الدولة فى مصر والشام بعده كافور الحبشى باتفاق من أعيان مصر وجندها . وكان الإخشيد اشتراه من بعض رؤساء مصر وأعتقه ورقّاه حتى جعله من كبار قواده لما رأى فيه من الحزم وحسن التدبير ، وكان شجاعا مقداما . وظلت ولايته على مصر والشام إلى وفاته فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ وتولّى بعده على بن أحمد بن الإخشيد وكان صبيا، واضطربت أحوال الشام فى عهده اضطرابًا شديدًا بسبب غارات القرامطة المتكررة وما كان يصحبها من الفوضى والنهب والسلب. وسرعان ما سقطت مصر فى يد الفاطميين لسنة ٣٥٨ وبذلك انقرضت دولة الإخشيديين.

٢ - الحمدانيون[1] (سيف الدولة)

منذ أواخر القرن الثالث الهجرى أخذ يتألق اسم أسرة تغلبية عربية هى الأسرة الحمدانية ، وقد استطاع مؤسسها حمدان فى سنة ٢٧٧ أن يستولى على قلعة ماردين فى الموصل ، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع فى أحداث الخلافة المضطربة ، ولمع من بنيه مبكرًا اسم أبى الهيجاء لاستيلائه على مدينة الموصل سنة ٢٩٣ وظلت فى يده ويد ابنه ناصر الدولة وحفيده أبى تغلب المتوفى سنة ٣٦٩ . وقد استطاع ابنه على الملقب بسيف الدولة أن يستولى من الدولة الإخشيدية على حلب وحمص واللاذقية وأنطاكية وأسس فيها جميعا إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣ للهجرة متخذًا حلب عاصمة له . وحاول الاستيلاء على دمشق من الإخشيد – كما مربنا – غير أن المصريين ردوه على أعقابه فاكتفى بإمارته . وندب نفسه لمهمة عظمى طالما هيأ نفسه لها منذ شبابه ، وهى النهوض بعبء الحرب ضد الروم البيزنطيين . وكان أول لقاء له معهم فى سنة ٣٣٦ إذ أغاروا على أطراف الشام ونهبوا وسبوا فلحق بهم وأذاقهم نكالا شديدًا ، وردَّ منهم كل ماسلبوه من أهل الشام . ويُكتَبُ له منذ السنة التالية مجد حربى عظيم ضد الروم ، ويسجله له لوحات شعرية ناطقة المتنبى الذى نزل بلاطه حينئذ ، ولزمه حتى سنة ٣٤٦ يسجل ويصور ملاحمه الحربية الساحقة للروم سحقًا ذريعا .

---

(١) انظر فى الأسرة الحمدانية وسيف الدولة كتب التاريخ السالفة والجزء الأول من زبدة الحلب فى تاريخ حلب لابن العديم (طبع المعهد الفرنسى بدمشق – تحقيق الدكتور محمد سامى الدهان) وراجع اليتيمة للثعالبى ١٥/١ ومابعدها ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع فى الحمدانيين وسيف الدولة

ومضى البطل الحمدانى يدير مع الروم معارك باسلة كان ينصبُّ عليهم فيها سنويا كإعصار محرق مدمر . وشاعره المتنبي من ورائه يتغنى بانتصاراته وبخوارقه البطولية حين تلم به كارثة ، إذ يتخلص منها فى شجاعة نادرة . ومن أعظم بطولاته أنه كان يبنى الحصون فى أثناء نزاله للروم على نحو ماصنع بحصن مرّعش فى سنة ٣٤١ وهو يكيل لهم ضربات قاصمة . وقد أنزل بهم صواعق الموت التى لاتبقى ولاتذر فى سنة ٣٤٢ وأسر قسطنطين بن الدمستق وساقه بين يديه فى دخوله حلب مظفرًا منصورًا . وفى سنة ٣٤٣ جمع الروم له حشودا هائلة من الترك والروس والبلغار والخزر بقيادة الدمستق ، وسرعان ما أخذ يدق أعناقهم دقا ، وهرب الدمستق على وجهه لايلوى ، وأُسر صهره بينما كان البطارقة يقتلون ويؤسرون ، وأخذ سيف الدولة عسكرهم بكل مافيه . وسيف الدولة فى أثناء هذه المعركة ووطيسها المستعر يبنى حصن الحدث شمالى مرعش والمسلمون يكبّرون ويهلّلون . وفى سنة ٣٤٥ أنزل بهم ضربات مدمرة . وكان ماينى يمد يد المساعدة لأخيه ناصر الدولة فى نزاله للروم شمالى الموصل وكثيرا ماناز لهم هناك وفى شمالى الجزيرة . وما تقبل سنة ٣٤٦ حتى يكفهرّ الجو بين المتنبي وبين البطل العربى . ويرحل عنه وكأنما رحل معه مجده الحربى فقد واقع الروم فى السنوات ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ولم يُنْزِل بهم ماتعوّد من التنكيل الشديد .

ولم يلبث البطل العظيم أن أصابه فى سنة ٣٥٢ فالج فى يده ورجله ورغم هذا الفالج النصفى نهض البطل من فراشه وصدَّ بقوة هجوما للروم على حصن من حصون حلب . وفى سنة ٣٥٦ لبّى البطل نداء ربه ، وكان قد أوصى بأن يوضع خده فى لحده على لَبِنَةٍ بقدر الكف جمعها مما علق بثيابه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم . ونُفّذت وصيته . وكان يرعى العلوم والآداب أعظم رعاية . ولمع فى بلاطه أكبر تلامذة أرسطو حتى زمنه : الفارابى المعلم الثانى . ولمع كثير من الشعراء والكتاب يتقدمهم المتنبي ، وعقد لهم الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » فصولا طويلة فى الجزء الأول منه ، وفيه وفى أسرته يقول : «كان بنو حمدان ملوكا وأمراء أَوْجُهُهم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرَّجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسط قلادتهم ، وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقِبْلة الآمال ، ومحط الرِّحال ، وموسم الأدباء ، وحلْبة الشعراء » . وخلفه ابنه سعد الدولة ، وكان ابن عمه أبوفراس الشاعر المشهور عامل أبيه على حمص قد ظلم وأكثر من الظلم وكثرت الشكوى منه ، فقاتله وخرَّ أبوفراس فى ميدان الحرب صريعا . وفى نفس السنة علم باستعداد الروم لحربه ، فأسل إليهم قرْغُويه الحاجب وأُسر وأفلت منهم وانهزم أصحابه وخرَّب نقفور كثيرًا من بلدان الشام وأعمل النهب

والسلب . وعصى قرغويه سعد الدولة واستولى على حلب فى أول سنة ٣٥٨ ولم يلبث نقفور أن استولى على انطاكية ، وظلت فى أيدى الروم إلى أن فتحها السلاجقة سنة ٤٧٧ وأمضى معه قرغويه صلحا ذليلا ، واصطلح مع سعد الدولة الذى ظل أميرًا لحلب حتى توفى سنة ٣٨١ فخلفه ابنه سعيد الدولة ، وقد عقد مثل أبيه حلفا بينه وبين الروم ضد الفاطميين الخطر المشترك للطرفين ، وتوفِّى سنة ٣٩٢ . وخلفه ولدان له ، ولعب بهما لؤلؤ مولى جدهما واستولى على الأمور إلى أن توفى وقام مكانه ابنه منصور . وحاول ابن لسعد الدولة يسمى أبا الهيجاء أن يسترد إمارة آبائه ولم يلبث ان فرّ الى بلاد الروم فى مطالع القرن الخامس الهجرى ، وبذلك انتهت إمارة الحمدانيين بحلب وشمالى الشام ، ولم تكن إمارة لهم حقا إلا فى عهد سيف الدولة المجيد

٢

الفاطميون – بنو مرداس – السلاجقة – الصليبيون – آل زنكى (نور الدين) .

(ا) الفاطميون[١]

دولة شيعية إسماعيلية تأسست فى تونس وتحوّلت إلى مصر بعد فتح قائدها جوهر لها سنة ٣٥٨ ، ولم يلبث أن أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح على رأس جيش للاستيلاء عليها . ولم يلق مقاومة تذكر ، ودخل دمشق وخطب بها للمعز الخليفة الفاطمى فى المحرم سنة ٣٥٩ ، وفى السنة التالية أعلن المؤذنون فى الشام – بأمره – « حىَّ على خير العمل » شارة الأذان الشيعى . وأخذ القرامطة يغيرون على دمشق ومدن الشام وكان يردهم جعفر بن فلاح ، ولم يلبث كبيرهم فى البحرين الحسين بن أحمد – كما مر بنا فى الحديث عن الجزيرة العربية بعصر الدول والإمارات – أن قطع علاقته بالفاطميين فى مصر وأعلن خضوعه للخلافة العباسية ، وسأل الخليفة المطيع بالله العباسى على لسان عز الدولة البويهى أن يوليه مصر والشام ويعطيه مالا وسلاحا لحرب المعز لدين الله ، وأمده عز الدولة بالسلاح والمال فى سنة ٣٦٠ وقيل بل فى سنة ٣٦٢ فسار إلى الشام وملكها ولعن المعز الفاطمى وأباه على منبر دمشق ، وأقام الدعوة للعباسيين ، وسار إلى القاهرة بعساكره وحصلت – بالقرب منها – بينه وبين المعز مناوشات ، وتقهقر المعز ، وأغرى قواده بالمال فخرجوا

(١) انظر فى الفاطميين بالشام كتب التاريخ العامة : ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وابن خلكان فى تراجم الخلفاء وجوهر الصقلى والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) وتاريخ مصر لابن ميسر والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (طبع ليدن) فى السنوات ٣٦٣–٥٥٥ واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط ٢١/٢ والفاطميون فى مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن.

عليه وانضموا إلى المعز ، فعاد إلى الرملة بالشام ومنها إلى البحرين . وكان ذلك أول اضطراب شديد حدث فى الشام لعهد الفاطميين وانتشرت فى أثنائه وبعده الفوضى فى دمشق واشتعلت النار فى كثير من أحيائها .

وظل الفاطميون مسيطرين على الشام نحو قرن ، قلما وجدت فيه أمنا وسلاما بسبب كثرة الولاة الذين كانوا يولونهم عليها ، فكان هم الوالى أن يُثْرى بسرعة على حساب أهلها ومايفرض عليهم من الضرائب ، وقد وليها لهم نحو خمسين واليًا ، وكثيرًا ما كان يتولاها اثنان أو أكثر فى العام الواحد . وبسبب ظلم الولاة وكثرة الضرائب كانت تنشأ أحيانا ثورات محدودة لبعض العيَّارين بها كثورة قسَّام الحارثى سنة ٣٧٧ لعهد العزيز الفاطمى . وخلف العزيز ابنه الحاكم بهوسه وشذوذه النفسى ودعواه الألوهية مما صورناه فى قسم مصر ، وكان من أهم من أغراه بدعوى الألوهية رجل يعرف بالدرزى أمره الحاكم أن يخرج إلى الشام وينشر تلك الدعوة فى الجبال ، فنزل هناك وتبعه كثيرون من جبل حوران فى سوريا المعروف باسم جبل الدروز ، وانتشرت الدعوة بين سكان الإقليم الجبلى بلبنان ، ولاتزال فى المنطقتين إلى اليوم ، وسقطت منها أسراب إلى جبال فلسطين وإلى الجبال فى أعالى الشام على نهر العاصى وقرب أنطاكية . ومن المؤكد أن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية هى التى دفعت الحاكم ودعاته إلى ربوبيته إذ كانت تردِّد – كما مر بنا فى قسم مصر – أن الخلفاء تجسدٌ للذات العلية . وكان طبيعيا فى عهد هذا الخليفة الشاذ المخبول أن تضطرب شئون الحكم فى الشام . وكان أبوه وجده يستعينون ببدو الجزيرة العربية الشماليين من طيئ ورؤسائهم بنى الجراح ، ونرى حينئذ حسان بن المفرِّج بن دغفل لايكتفى بإقطاع الفاطميين لأبيه مدينة الرملة ، بل يستولى على أكثر الشام ، ويحاول أن يخلع الحاكم ، ويولى مكانه أبا الفتوح أمير مكة الحسنى ، ويَقْدُم عليه أبوالفتوح ، غير أن الحاكم يغرى ابن المفرج بالأموال فينفض يده من أبى الفتوح ويعود إلى إمارته .

(ب) بنو [1] مرداس

كانت حلب قد دخلت فى حكم الفاطميين منذ سنة ٤٠٦ ولاتمضى طويلا فى سنة ٤١٥ حتى يستقل بها صالح بن مرداس الكلابى ويضع فى سنة ٤٢٠ يده فى يد حسان بن المفرِّج الطائى ويجمعان الجموع ويستوليان على الأعمال فى الشام وينتهيان إلى غزة ، ويلتقى بهما جيش فاطمى ،

(١) انظر فى بنى مرداس كتب التاريخ العام وزبدة الحلب من تاريخ حلب : الجزءين : الأول والثانى .

فينهزم حسان ويقتل فى المعركة صالح وابنه الأصغر ، ويخلفه ابنه شبل الدولة نصر . وطمع صاحب أنطاكية فى حلب ، وجمع لها الجموع وأحاط بها وقاتل أهلها ، ولم يلبث نصر أن خرج إليه وفتك بمعظم جنوده وفر على وجهه وغنم منه نصر عسكره وأموالا عظيمة . وتوفى نصر سنة ٤٢٩ وخلفه أخوه ثمال وخضع للفاطميين وتوفى سنة ٤٥٤ . ونشب خلاف بعده على حكم البلدة بين أخيه عطية وبين محمود بن نصر واصطلحا . وتخلص حلب لمحمود منذ سنة ٤٥٧ ، ويواقع الروم ويهزمهم ويراسل ألب أرسلان السجلوقى ويستقر بينهما الأمر على إعادة الدعوة العباسية والخضوع للسلاجقة . وفى أيامه قاد ألب أرسلان حملة مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ وفدى الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، على نحو مامر بنا فى حديثنا عن السياسة بالعراق فى الجزء السابق من عصر الدول والإمارات . وظل محمود أميرًا لحلب حتى سنة ٤٦٧ وأعاد بها ذكرى الحركة الأدبية التى أحدثها بها سيف الدولة ، فالتف حوله كثير من الأدباء والشعراء ، وخلفه ابنه نصر وكان محبوبا من الحلبيين غير أن الموت اختطفه سريعًا بعد نحو عام من ولايته ، وجاء فى إثره أخوه سابق حتى نهاية سنة ٤٧٢ إذ سلم البلدة لمسلم بن قريش العقيلى صاحب الجزيرة فبقيت معه نحو خمسة أعوام وتسلمها منه السلاجقة .

(جـ) السلاجقة[1]

مر بنا فى حديثنا عن العراق بالجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى حديث مفصل عن السلاجقة واستيلائهم على دفة الحكم فى خراسان وإيران والعراق ، وقد أنزل ألب أرسلان بإمبراطور بيزنطة هزيمة ساحقة كانت إرهاصا قويا لزوال الحكم البيزنطى من آسيا الصغرى كما حدث فعلا . وكان طبيعيًّا أن يفكر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فى الاستيلاء على الشام ، وسرعان ماظهر فى سنة ٤٦٣ أتسز بن أوق الخوارزمى فى فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس ، وفى سنة ٤٦٨ استولى على دمشق ، وبذلك أصبح أكثر الشام تابعا للسلاجقة . حتى إذا كانت سنة ٤٧٢ تسلم تتش بن ألب أرسلان من أتسز دمشق وأصبح نائبا فيها لأخيه ملكشاه ، وافتتح فى سنة ٤٧٤ أنطرطوس على ساحل البحر المتوسط ، وهى أول أعمال حمص ، ولم يلبث أن استولى على

---

(١) راجع فى سلاجقة الشام كتب التاريخ العام وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وانظر فى أتسز تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/٣٣١ وفى تتش ابن عساكر ٣/٣٤٠ وفيه وفيمن وليها بعده حتى استيلاء نور الدين عليها ابن خلكان ١/٢٩٥

حمص نفسها . وظل ساحل الشام جنوبى صور تابعا لمصر . واستقل جلال الملك بن عمار قاضى طرابلس بها سنة ٤٧٠ وكان قد أقرّه عليها ملكشاه السلجوقى وظلت معه حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ . وفى هذه الأثناء استولى على بن منقذ من الروم على حصن شَيْزَر شمالى الشام سنة ٤٧٤ وظلت فى يده ويد أبنائه إلى أن هدمتها زلزلة شديدة سنة ٥٥٢ . وكان سليمان بن قُتُلْمش استولى على أنطاكية سنة ٤٧٧ فحاربه تُتُش وخرّ صريعا فى الحرب سنة ٤٧٩ . وبذلك صارت إلى تُتُش واستولى على حلب سنة ٤٨٧ ، وقُتل بالرى فى حرب مع ابن أخيه بَرْكياروق سنة ٤٨٨ . وخلفه على حلب ابنه رضوان ، ومن نوابه أخذ الصليبيون أنطاكية سنة ٤٩٢ وخلفه على دمشق ابنه دُقاق .

وتوفى دقاق سنة ٤٩٧ فخلفة عليها أتابكه « طُغْتِكين » وأسس بها دولة البوريين وله فى جهاد الصليبيين يد بيضاء وكان شجاعا عادلا فى الرعية توفى سنة ٥٢٢ فخلفه ابنه بورى حتى وفاته سنة ٥٢٦ وكان قد قتل جماعة كثيرة من الإسماعيلية فسلّطوا عليه رجلين ضرباه بالسكاكين وظلت جراحه تنتقض وتندمل إلى وفاته . وخلفه ابنه إسماعيل ، وكان ظالما سيئ السيرة محبا لسفك الدماء توفى سنة ٥٢٩ وكان أسوأ منه أخوه محمود الذى ولى بعده فقتله أمراؤه سنة ٥٣٣ وخلفه عاما واحدًا أخوه محمد ، وتوفى فخلفه ابنه مجير الدين آبق . وكان باغيا ظالما ، وكان يضع يده فى يد الصليبيين ضد نور الدين صاحب حلب غير مراعٍ إلاًّ ولا عهدا . واستجار منه أهل دمشق مرارًا بنور الدين حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ اضطر إلى تسليمها إليه وخرج منها ذليلا صاغرا . وكان تُتُش ولّى تركمانيا يسمى أرتق بيت المقدس فاستقلّ به مؤسسا دولة الملوك الأرتقية ، وتوفى سنة ٤٨٤ فخلفه عليها ولداه سُكْمان وإيلغازى ، ومنهما أخذها الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩١ وتوجها إلى بلاد الجزيرة وملكا - كما يقول ابن خلكان - ديار بكر .

(د) الصليبيون[1]

كانت الدولة الفاطمية قد أخذت فى التدهور منذ عهد الحاكم بسبب ما غرق الخلفاء الفاطميون فيه من ترف وما أصاب الحياة الاقتصادية من سوء حتى لقد عظمت المجاعة فى عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ). وحاول بدر الجمالى أن يتلافى الأمور، فعمل على

(١) انظر فى الصليبيين كتب التاريخ العام لابن الأثير وابن تغرى بردى وابن خلدون وماكتب عنهم حديثا فى العربية واللغات الأجنبية وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٤٥

إصلاحها ، ولكن الشام كانت قد أفلتت منه إلا ساحلها الجنوبي . وكان المظنون أن يرث السلاجقة تلك الدولة المنهارة ، غير أنهم اتبعوا في حكمهم نظاما سرعان ماضعضع دولتهم إذ اتخذوا فيها نظام الأتابكة ، وهو أن يكون مع كل حاكم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدير أمرها ، ولم يلبث نفوذ هؤلاء الأتابكة أن ازداد وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين . وبذلك تفككت سريعا أوصال دولتهم الضخمة وتحولت إلى دويلات على نحو ما مر بنا آنفا من دولة البوريين في دمشق والدولة الأرتقية في بيت المقدس ، حتى إذا قدم الصليبيون في العقد الأخير من القرن الخامس الهجرى لم يجدوا أمامهم قوة تدفعهم دفعا إلى البحر المتوسط وماوراءه فلا السلجوقيون محتفظون بقوتهم القديمة التي أزالوا بها بيزنطة ودفعوها من آسيا إلى أوربا ولا الفاطميون محتفظون بشيء من القوة يستطيعون أن يدفعوا به عن بلدانهم الساحلية في الشام هذا الوباء الصليبي الجارف .

ويظهر الجيش الصليبي أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ للهجرة ويظل محاصرا لها حتى يستولى عليها سنة ٤٩٢ مؤسسا بها إمارة ، بينما يتسلل بلدوين إلى الرُّها في سنة ٤٩١ ويستولى عليها دون مقاومة تذكر ويؤسس بها إمارة هي الأخرى . واجتاز الصليبيون جبال النُّصَيْرِية محاذين الساحل واستولوا سنة ٤٩٢ على بيت المقدس متخذين منه إمارة ثالثة جعلوا جودفرى رئيسا لها ، ولم يلبث أن رقى عرشها بعده بلدوين الأول وعهدوا إلى الكونت ريموندى تولوز حصار طرابلس والاستيلاء عليها وظلت تقاومه سنين عددا حتى سقطت سنة ٥٠٢ واتخذوا منها إمارة رابعة لهم . وأخذ بلدوين في نفس السنة ينشط في غزو مدن الساحل : عكا وقيسارية وصيداء وبيروت وقاومته مقاومة صلبة . وخلفه أخوه بلدوين الثاني الذي استولى على صور سنة ٥١٨ ولم يفلح في الاستيلاء على دمشق وظلت أيدى الصليبيين أقصر من أن تصل إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب .

(هـ) آل[1] زنكى (نور الدين)

لم يلبث أن تنبه أتابك عظيم من أتابكة السلجوقيين هو زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب

---

(١) انظر في آل زنكى ونور الدين التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية لابن الأثير وكذلك كتابه الكامل والجزء الخامس لابن خلدون والخامس والسادس من النجوم الزاهرة والعاشر من المنتظم والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضى شهبة (طبع بيروت) وابن خلكان ٣٢٧/٢ ، ١٨٤/٥ .

إلى أن الداء إنما يكمن فى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لحملة الصليب شيعا ودولا ، فصمم أن يجمع قوتها وكلمتها تحت لوائه ، وكان قد ركز لواءه على الموصل أولا ، فضم إليه حلب ومدن شمالى الشام مثل حماة وحمص وبعلبك . ومضى ينازل الصليبيين واستولى منهم على معرَّة النعمان وكفر طاب . ولم يلبث أن ضربهم ضربة قاصمة باستيلائه على مدينة الرُّها سنة ٥٣٩ للهجرة . وبذلك محا عار هذه الإمارة التى أقامها الصليبيون فى بلب الدولة السلجوقية . ولم تكد تمضى سنتان على ماحقق من هذا المجد البطولى حتى امتدت إلى جثمانه الطاهر أيد آثمة فى الظلام سفكت دمه الزكى .

وكان قد أوصى عماد الدين زنكى لابنه غازى بالموصل ولابنه نور الدين محمود بحلب ، واقتفى البطل الشاب نور الدين جهاد أبيه للصليبيين ، ونازلهم توًّا سنة ٥٤٢ وأخذ منهم حصن أرتاح من أعمال حلب ، وأبطل فى إمارته أذان الدولة الفاطمية بحىَّ على خير العمل . وفى سنة ٥٤٤ هزم حَملة الصليب هزيمة ساحقة إذ قتل منهم ألفًا وخمسمائة وفتح حصن فاميَة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ كما مر بنا . وفى سنة ٥٥٢ ملك حصن شيَّزر بعد أن نقضه زلزال شديد . وفى سنة ٥٦٠ فتح بانياس عنوة . وكان بعيد النظر بعدا جعله يرى أن المفتاح الحقيقى للنصر على حَملة الصليب هو مصر بإمكاناتها فى المال والرجال ولكن ماذا يصنع وبها دولة منهارة ، وأحسَّ أن حملة الصليب يشعرون أنها لقمة سائغة وخاف عليها منهم خوفا شديدا . ولم تلبث أن واتته فرصة عظيمة فإن وزيريها ضرغاما وشاوَر تحاربا ، ولجأ إليه شاور مستغيثا ، فأنجده بأميرين أيوبيين : شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويحدثهما بما فى نفسه من تخليص مصر من دولتها المريضة . وتتطور الظروف وتصبح مصر خالصة لصلاح الدين ويؤسس بها الدولة الأيوبية ومؤسسها الحقيقى ومنشئها إنما هو نور الدين. وكان مابقى ينازل حملة الصليب، وفتَح حصون «مرعش وإعزاز وحارم» وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا. وكان ملكا عادلا عابدا زاهدا ورعًا، بنى كثيرا من المدارس فى بلدان الشام الكبار وكثيرا من الجوامع وبيمارستان دمشق وبها توفى سنة ٥٦٩ وخلفه ابنه وكان صبيا وبقى على حلب حتى توفى سنة ٥٧٧ ودخلت فى حوزة صلاح الدين وحكمه.

٣

الأيوبيون (صلاح الدين) – المماليك – العثمانيون

(١) الأيوبيون[1] (صلاح الدين)

استقرت أمور الحكم وشئون الدولة فى مصر بيد صلاح الدين سنة ٥٦٧ للهجرة، فعاد بمصر إلى الخلافة العباسية ، وسار فى نفس السنة لحرب حملة الصليب فحاصر الشوبك ورفع الحصار عنها ، وعاد إليها فى السنة التالية ثم تركها إلى مصر . وتوفى نور الدين كما ذكرنا وأخذ يفكر جادا فى جمع كلمة البلدان المجاورة للصليبيين حتى يقضى عليهم قضاء مبرما . وخرج من مصر فى سنة ٥٧٠ فاستولى على حمص وحماة والمعرة وكفرطاب ، ويولّى على حماة أخاه تقى الدين وعلى بعلبك ابن أخيه فرُخشاه ويستولى على منبج وإعزاز ويواقع الصليبيين فى السنوات : ٥٧٣ و٥٧٤ و٥٧٥ وينصره الله عليهم نصرا عظيما . ويستولى على الموصل ، وتبلغه وفاة إسماعيل بن نور الدين . ويخرج إلى الشام سنة ٥٧٨ فى جيش جرار لجهاد حملة الصليب ، وهى آخر مرة يفارق فيها مصر لحربهم ويظل ينازلهم عشر سنوات طوالا ، وتتبعه حلب ويولى عليها ابنه الملك الظاهر . وفى سنة ٥٨٢ يقسم البلاد بين أبنائه وأهله فيعطى مصر ابنه العزيز عثمان وكان قد أعطى الظاهر حلب ، ويعطى للأفضل ابنه دمشق ويعطى حماة والمعرة ومنبج لابن أخيه تقى الدين عمر ، وسيتوالى هذا التوزيع . وهو من أكبر أغلاط صلاح الدين فإن بساطا قد يتسع لنوم عشرة من الرجال ولكن مملكة ضخمة لاتتسع لسلطان حاكمين ، ولذلك لم تكد تمضى سنة على وفاته حتى دب الخلاف بين أبنائه ثم بين أمراء أسرته . ويَغْفر له ذلك بلاؤه العظيم فى حرب حملة الصليب المعتدين .

ويقود صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ جحافل جرّارة ويتجه بها نحو طبرية ، وتتجمع له حشود الصليبيين بقيادة جاى لوزينان ملك بيت المقدس وتلتقى سريّة له فى حيفا بجماعة من الداوّية والإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين فلا تبقى منهم باقية ، ويلتقى الجمعان فى سهل حطّين إلى الغرب من بحيرة طبرية ، وتُدَقّ أعناق حَملة الصليب دقا شديدا ويفرّ على وجهه ريموند

(١) انظر فى الأيوبيين وصلاح الدين كتب التاريخ العام: ابن الأثير وابن خلدون وخطط المقريزى ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى، ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة والفتح القسى فى الفتح القدسى والبرق الشامى للعماد الأصبهانى وسيرة صلاح الدين لابن شداد وابن خلكان فى ترجمة صلاح الدين وسلاطين الدولة الأيوبية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين فى العربية حديثا وفى اللغات الأجنبية.

صاحب طرابلس ويستولى المسلمون على الصليب الأعظم صليب الصلبوت ، ويؤسر ملك بيت المقدس وغيره من زعمائهم أمثال مقدم الداوية وريجنالد صاحب الكَرَك وكان قد أعدَّ أسطولا وحاول غزو مكة والمدينة فقتله صلاح الدين بنفسه وعفا عن الباقين . وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال أبو شامة: «من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن شاهد الأسرى قال: ما هناك قتيل» ومما يدل على كثرة أسراهم أن الأسير منهم كان يباع بثلاثة دنانير.

وحاصر صلاح الدين بيت المقدس بعد نحو ثلاثة أشهر ، واستسلم له من فيه من حملة الصليب وأُزيلت كل آثارهم من القدس ، وفتحت البلدان والقلاع فى فلسطين وجنوبى لبنان أبوابها للبطل العظيم ، فاستولى على نابلس وحيفا وعكا وبيروت وصيداء والرملة وبيت جبريل (بئر سبع) وعسقلان وغزة وصَفد والكَرَك والشوبك واللاذقية . وأحيا سقوط القدس فى يد صلاح الدين فكرة الحرب الصليبية من جديد ، فحمل الصليبَ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وحاصر الأخيران عكا وسقطت فى أيديهما وعاد فيليب إلى فرنسا وظل ريتشارد يقود الجيوش الصليبية حتى سنة ٥٨٨ وعقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن تظل لحملة الصليب المدن الساحلية من صور إلى يافا . وبعد نحو سنة أشهر توفّى صلاح الدين بدمشق وبكاه المسلمون بدموع غزار فى كل مكان . وكان صلاح الدين عادلا ورعا عالما تقيا ، حطَّ عن ظهور أهل الشام ما كان يبهظهم من الضرائب وملأها بالمدارس والخانقاهات والبيمارستانات وكانت سماحته ونبله فى معاملة حَملة الصليب مضرب الأمثال ، وكان إلى ذلك بطلا مغوارا وغيثًا مدرارا .

وذكرنا آنفا أنه قسم البلاد بين أبنائه وأهل بيته ، فكانت دمشق للأفضل ومصر للعزيز وحلب للظاهر ، والديار الفراتية لأخيه العادل وبعلبك لبهرام شاه وحمص لشيركوه الثانى . وكان ذلك نذير شؤم فإن العادل أخذ يحرِّض أبناء صلاح الدين بعضهم على بعض واستطاع التخلص منهم ، وخلصت له البلاد من مصر إلى الفرات منذ سنة ٥٩٦ ماعدا حلب فإنها ظلت مع الظاهر وأبنائه حتى الغزو المغولى . وصنع صنيع أخيه فجعل مصر للسلطان الكامل ودمشق للسلطان المعظم والجزيرة الفراتية لثلاثة من أولاده على التعاقب هم الأوحد والفائز والأشرف موسى . ويغزو حملة الصليب مصر فى سنتى ٦٠٩ و٦١٥ وينكل بهم السلطان الكامل على نحو ماصورنا ذلك فى قسم مصر . ونمضى إلى سنة ٦٢٦ وإذا فردريك الثانى ملك صقلية يأتى على رأس حملة إلى فلسطين

وتصادف أن كان الكامل مشغولا بصراع مع داود ابن أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق فارتضى أن يتنازل لفردريك عن القدس فى مقابل عونه له ضد ابن أخيه وكان قد استعان بأخيه الملك الأشرف موسى ضده أيضا وحاصراه وتسلما منه دمشق وأعطاها الكامل لأخيه وعوض داود الشوبك بدلا منها .

وبمجرد أن تسلم فردريك القدس قامت قيامة الناس فلم يقم بها سوى ليلتين وعاد إلى يافا مذموما مدحورا . وتوفى الأشرف موسى صاحب دمشق سنة ٦٣٥ ولم يلبث أخوه الكامل أن توفى على أثره فى نفس السنة بدمشق ، وكان ابنه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبا له على الشرق وإقليم ديار بكر ، وكان ابنه العادل الصغير نائبا له على مصر فرأى أمراؤه أن يضيفوا إليه ملك الشام ، ولم يُرْضِ ذلك الملك الصالح فنحّى أخاه فى سنة ٦٣٧ عن ملك مصر وانتهز عمه إسماعيل صاحب بعلبك الفرصة واستولى فى نفس السنة على دمشق ونشب صراع بينه وبين الملك الصالح واستعان ضده بحملة الصليب وعقد بينه وبينهم تحالفا أثار سخط العالم الإسلامى ، وهزم الملك الصالح الحليفين فى غزة سنة ٦٤٣ ودخلت دمشق فى حوزته .

وبذلك أعاد الملك الصالح توحيد مملكة صلاح الدين من النيل إلى الفرات ، ولم ينعم بذلك طويلا إذ نزل به مرض شديد سنة ٦٤٧ وكان بدمشق وسمع بنزول لويس التاسع بدمياط ، فأسرع لمنازلته وهو مريض محمول على محفّة لشدة مرضه ، واتجه تَوًّا للقاء العدو بالمنصورة شمالى الدلتا فى الطريق إلى دمياط ، وهناك لبّى نداء ربه مجاهدا مدافعا عن الإسلام والمسلمين . وكتمت زوجته شجرة الدر موته حتى قدم ابنه المعظم توران شاه من الجزيرة وأدار المعركة ضد لويس – كما مر بنا فى قسم مصر – وسحق جيشه سحقا ذريعا ، وكبله بالسلاسل والأغلال ، إلى أن فدا نفسه وخرج من مصر . وسوّلت له شياطينه أن يذهب إلى حملة الصليب فى الساحل الشامى لعله يسترد كرامته التى أُهدرت بمصر وبقى بين حملة الصليب نحو أربع سنوات لم تسفر عن شىء ، فعاد إلى فرنسا كاسفا مقهورًا . أما توران شاه فجزاه مماليك أبيه جزاء سنمار إذ سفكوا دمه الطاهر . ورقيت إلى العرش شجرة الدر ثم تنازلت عنه للمعز أيبك مملوك أبيه فأسس دولة المماليك . أما دمشق فاستولى عليها الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب . وكان آخر من حكمها من الأيوبيين :

(ب) المماليك[1]

تأسست فى مصر بعد مقتل توران شاه سنة ٦٤٨ دولة المماليك ، وعدّهم الحكام الأيوبيون فى الشام مغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين ، وأعدوا بزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب جيشا لحربهم ، ولقيه المعز أيبك التركمانى فى غزة سنة ٦٤٨ وهزمه . وظلت العلاقات سيئة بين الطرفين حتى أصلح الخليفة العباسى بينهما لسنة ٦٥١ على أن يكون للمماليك نهر الأردن ونابلس والقدس وغزة والساحل ، وللأيوبيين بقية الشام ، وقد دفعهما إلى هذا الصلح اشتداد خطر التتار . وحاول الناصر يوسف أن يسترضى قائد هذا الوباء هولاكو سنة ٦٥٥ فأرسل إليه بهدية ، ولم يلبث هولاكو أن اندفع بسيول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ فأجرى الدماء فيها أنهارا وخرّبها وأحالها أنقاضا ، ودخل هولاكو فى السنة التالية ديار بكر وملّك حرّان وبلاد الجزيرة ، وتحقق الناصر أنه سيقصد حلب فتركها إلى شمالى دمشق ، وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ استولى التتار على حلب معملين فيها النهب والسلب ، وتقدموا فى ربيع الأول إلى دمشق واستولوا عليها ، وفرّ الناصر يوسف وأسره التتار ، وبقى معهم فى ذلّ وهوان مابعده هوان .

ومضى التتار يتقدمون فى ديار الشام حتى عين جالوت بين نابلس ونيسان ، وإذا الموت والتشريد ينتظرهم على يد المصريين والبطلين العظيمين المملوكين : قطز سلطان مصر والظاهر بيبرس قائده ، وقد أحدقوا بهم ونازلوهم حتى أفنوهم قتلا . وتبع بيبرس فلولهم إلى حلب وأطراف الشام . وأصبحت جميع الديار الشامية فى قبضة المماليك ماعدا حماة فإن أميرها الأيوبى للملك المنصور ناصر الدين محمد سليل عمر بن شاهنشاه كان قد وضع يده فى يد قطز وبيبرس فى حربهما للتتار وظل على حماة حتى سنة ٦٨٣ وولاها قلاوون ابنه تقى الدين واستولى عليها الناصر بن قلاوون سنة ٦٩٨ ثم ردها إلى للملك الصالح المؤيد أبى الفدا إسماعيل سنة ٧١٠ وظلت معه حتى سنة ٧٣٢ ووليها بعده ابنه الأفضل ثم أصبحت للمماليك يولون عليها من يشاءون مثلها مثل بقية بلدان الشام .

وعُنى الظاهر بيبرس حين أصبحت مقاليد الأمور بيده منذ سنة ٦٥٩ بالإعداد لحرب من تبقى من حملة الصليب فى ساحل الشام وأخذ يغير عليهم وينازلهم ، حتى إذا دخلت سنة ٦٦٤ خرج

(١) انظر فى المماليك النجوم الزاهرة وغيره من كتب التاريخ العام والسلوك للمقريزى والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا والبداية والنهاية وبدائع الزهور لابن إياس وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات وسيرة الملك المنصور (قلاوون) طبع القاهرة والتبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى وآخرة المماليك لابن زنبل وبروكلمان ص ٣٦٥.

إليهم على رأس جيش جرار واستولى على قيسارية ويافا وأرسوف وكان بها حامية من الإسبتارية الذين نذروا أنفسهم لحرب المسلمين . وفى العام التالى استولى على صفد وتبنين والرملة فى فلسطين . وتوالى هجومه عليهم واستولى على الشقيف وطبرية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين من حصون صفد وكان به حامية من الفرسان التيوتون . وأعظم أمجاده الحربية ضد حملة الصليب أخذه أنطاكية سنة ٦٦٧ ويقال إن أسراها بلغوا مائة ألف وأن الغلام من أهلها كان يباع باثنى عشر درهما والجارية بخمسة . والمهم أنه محا هذه الولاية التى أقامها حملة الصليب فى أول دخولهم للشام . وبدا فى الأفق من حينئذ أن خروج حملة الصليب نهائيا من الشام أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وقد استولى منهم قلاوون فى سنة ٦٨٦ على اللاذقية ولم يلبث ان استولى على طرابلس فى سنة ٦٨٨ وبذلك أزال آخر إمارة أو ولاية لحملة الصليب ، وسرعان ماسلمت بيروت وجبلة . حتى إذا تولى بعده ابنه السلطان خليل جهز جيشا ضخما للاستيلاء على عكا واستولى عليها سنة ٦٩٠ وتبعتها صور وصيداء وحيفا وأنطرطوس ، وخرج من بقى من الصليبيين إلى البحر المتوسط وما وراءه يحملون الذل والضعة والهوان والصغار .

وقد قسم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هى : دمشق وحلب وحماة فى سوريا وطرابلس فى لبنان وصفد فى فلسطين والكرك فى شرقىّ الأردن . وكانت دمشق أهم هذه النيابات ، وكان حاكمها يعد نائب السلطان المملوكى فى الشام مما أتاح له مكانة خاصة . وجعل نفرا منهم غير قليل يطمح إلى أن يكون هو السلطان التالى للسلطان القائم بمصر ، ولعل ذلك ماجعل سلاطين مصر يكثرون من عزلهم ، حتى ليتولى دمشق فى زمنهم الذى امتد نحو مائتين وخمسة وسبعين عاما أربعة وسبعون نائبا . وقد درسهم (فييت) وتبين له كما ذكر فى كتابه مساجد القاهرة ص ٥٦ : أن اثنين منهم هما لاجين (٦٩٦-٦٩٨) والمؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) رقيا إلى السلطنة ، وسبعة وعشرين منهم ثاروا على السلطان فرّ منهم خارج الحدود اثنان وسجن خمسة وأعدم خمسة وعفى عن خمسة . وكان لنائب دمشق من الدواوين مثل ما للسلطان مصر وكثيرا ما كان ينقل رئيس ديوان فى القاهرة إلى دمشق وبالعكس ، وكثر ذلك فى كتّاب السر والإنشاء . وبذلك كله كانت دمشق تعد المدينة الثانية فى دولة المماليك مما عاد عليها بغير قليل من الازدهار . وأمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٣ أن يتولى القضاء أربعة يمثلون مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وعمّ ذلك فى دمشق والمدن الكبرى بمملكته فى مصر والشام . وظل هذا النظام قائما طوال زمن المماليك .

وظل التتار يئنُّون من عار الهزيمة الفاضحة فى عيْن جالوت ، وظلوا يحاولون غسل هذا العار بغارات فاشلة على أطراف الشام ، وكَسَرتْهم جيوش الظاهر بيبرس مرارا ، من ذلك كَسْرتهم على حمص سنة ٦٥٩ ، وأغاروا على إلبيرة سنة ٦٦٤ وعلموا بتحرك بيبرس فولوا مدبرين . وفى سنة ٦٦٨ أغاروا على نهر الساجور بمنبج ، وسرعان ما انهزموا ، وعاودوا الهجوم على عيْنتاب وحارم سنة ٦٧٠ وساعدهم حملة الصليب فحاقت بهم الهزيمة جميعا . وظلوا يعاودون المناوشة وهاجموا إلبيرة فى سنة ٦٧١ وأشرفوا على أخذها فعبر إليهم الظاهر الفرات وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وتغنى الشعراء طويلا بهذا النصر المبين ، ونكل بهم فى سنة ٦٧٥ تنكيلا شديدا . وظل التتار يعاودون هذه الغارات والمناوشات فى عهد قلاوون ويبوءون منها بالهزيمة ، وقد استولى منهم ابنه السلطان خليل على قلعة الروم غربى الفرات سنة ٦٩٢ . وتولى شئون التتار غازان وكان قد دخل فى الإسلام مع جنوده . ومع ذلك أعد فى سنة ٦٩٩ حملة لغزو الشام ولقيه محمد الناصر بن قلاوون بين حمص وحماة ودارت الدوائر على الناصر ، واستولى جيش غازان على دمشق وغيرها من مدن الشام وعاثوا فيها فسادا . وعاد الناصر إلى مصر وجهز جيشا جرارا التقى به مع التتار قرب دمشق سنة ٧٠٢ وسحقهم سحقا ذريعا ، بحيث لم يعودوا يفكرون فى غزو الشام وإن هم فكروا ارتدوا إلى صوابهم سريعا .

ونمضى إلى سنة ٨٠٣ فيقدم تيمورلنك بجموعه غازيًا الشام ، ويلقاه جيش المماليك ، فيهزمه ويقتحم حلب ويُعْمل فيها السيف والسلب والنهب ، ويتقدم إلى دمشق وينزل بالسلطان فرج فى طريقه إليها هزيمة نكراء . وترضى دمشق بالتسليم وينهبها جنوده التتار ويشعلون فيها النيران وتأتى على جامعها الأموى وعلى كثير من آثارها ، ويقتلون مالا يكاد يحصى من أهلها نساء ورجالا وأطفالا : كارثة لم يُصب دمشق مثيلٌ لها لا من قبل ولا من بعد . وضاعفها أن تيمور جمع رجال الفن والهندسة والمعمار وصناع الزجاج والصلب وأخذهم معه إلى عاصمته سمرقند .

وتتحدث كتب التاريخ عن ثورات وفتن حدثت فى الشام لعهد المماليك ، غير أن أكثرها إن لم تكن كلها ، إنما كانت صراعا على السلطة بين السلاطين ونوابهم فى الشام . ومن هذا الصراع ماحدث من تحول الملك من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية الجراكسة على يد بَرْقوق سنة ٧٨٤ . وقد عانت الشام – كما عانت مصر – منَ النزاع المستمر بين أمراء المماليك ، حتى كانوا يقتتلون كل مع أنصاره فى شوارع دمشق والقاهرة . وكثر ذلك فى القرن الأخير من حكم

المماليك ، وأخذت دولتهم فى الضعف تدريجيا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة فى معاركها مع السلطان سليم العثمانى على أبواب الشام فى مرّج دابق .

(جـ) العثمانيون[١]

قضى سليم الأول العثمانى على دولة المماليك فى الشام ومصر بعد هزيمته لقانصوه الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ للهجرة. وبعد أربعة أيام من الموقعة دخل حلب ولقيه أهلها بترحاب شديد وأوقدوا له الشموع وتعالت أصواتهم له بالدعاء، وخطبوا له على منابرها. وفتحت له مدن الشام أبوابها. فاستولى على دمشق وقصده فيها أمراء لبنان وخاصة من بنى مَعْن الدروز النازلين بجبالها مما جعل سليما ومن خلفوه من سلاطين آل عثمان يعترفون لهم بالإمارة فى لبنان. ومضى سليم يستولى على بقية مدن الشام. وفتح مصر وظل بها ثمانية أشهر وعاد منها إلى دمشق، ورأى بوضوح تدهور الأوضاع الاقتصادية فى تلك الديار بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والنفوذ منه إلى الهند ونقل توابلها وتجاراتها منه مما أضر إضرارا شديدا بطريق البضاعة الهندية القديم خلال حلب والشام. وكانت حروب الصليبيين والتتار التى حوّلت الشام إلى ساحة حرب كبيرة لمدة قرنين من الزمان قد أحالت أجزاء كثيرة من مدنها إلى خرائب وخاصة مدن الساحل. وكأنما توسّم أهل الشام أن العثمانيين سيعيدون إلى طريق التجارة الهندية ازدهاره الماضى، ولذلك رحبوا بسليم والعثمانيين، وتلاشى هذا الحلم مع الأيام. وكان قد فرَّ إلى سليم من المماليك مملوك خائن هو الغزالى الذين زين له فتح الشام ومصر فكافأه بتوليته على الشام ما عدا حلب إذ جعلها لبعض الباشوات العثمانيين. وبمجرد أن توفى سليم الأول سنة ٩٢٦ أعلن الغزالى استقلاله بالشام ولقب نفسه بالملك الأشرف، وسرعان ماهزمته الجيوش العثمانية وخرَّ صريعا عند أبواب دمشق. ورأى العثمانيون أن تتوزع الشام ثلاث نيابات على رأس كل نيابة باشا: أولاها نيابة حلب وتشمل سوريا الشمالية، وثانيتها نيابة طرابلس وتشمل أربعة سناجق أو ألوية هى: حمص وحماة وسلمية وجبلة، وثالثتها نيابة دمشق وتشمل عشرة سناجق أهمها بيروت وصيداء ونابلس وبيت المقدس وغزة. وفى سنة ١٠٧٣ خصوا صيداء بنيابة مستقلة تشمل ساحل الشام ماعدا نيابة طرابلس فى لبنان.

---

(١) انظر فى العثمانيين بالشام بدائع الزهور لابن إياس، وآخرة المماليك لابن زنبل وتاريخ الجبرتى والخطط التوفيقية لعلى مبارك والبلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصرى، ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبدالكريم غرايبة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٤٤٨، وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى.

وكان يساعد الوالى فى الإدارة ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار أو رئيس العسكر والدفتردار أو مدير الخزانه والروزناجى أو حافظ السجلات وقاضى القضاة وأمير الحج ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة . وبجانب هذا الديوان ديوان صغير خاص بنائب الوالى ومعه دفتردار وروزناجى .. ومُنح أصحاب السناجق أو الألوية لقب بك . وكثير من الولاة كانوا يختارون من الإنكشارية وهم شبّان أوربيون من أجناس مختلفة كانوا يُرَبَّوْنَ تربية إسلامية عسكرية ، وكان هم الوالى منهم أن يجمع لنفسه فى مدة ولايته القليلة مايستطيع من الأموال مما جعلهم يرهقون أهل المدن بالضرائب ، وقلما كان حكم الوالى يتجاوز المدينة وضواحيها . أما داخل البلاد فقد تُرك للإقطاعيين من سكان الشام ومَنْ وراءهم من بدو الجزيرة ، وكان عددهم قد تزايد زيادة كبيرة منذ زمن المماليك ، وكان أكثرهم من الدروز مثل آل معن وآل أرسلان والشهابيين ومن التركمانيين مثل آل عساف ومن البدو مثل آل فضل . وفى كل مكان نجد هؤلاء الإقطاعيين مثل آل حرفوش ببعلبك وآل فريح فى البقاع وآل جبار فى سلمية ، ولم يكونوا يؤدون للعثمانيين أو الباب العالى إلا ضرائب محدودة ، وخاصة أن الموارد كانت قد تضاءلت إذ تدهورت التجارة وتدهورت أيضا الزراعة . ويدل على فساد الحكم العثمانى واضطرابه فى الشام كثرة من كانوا يولّون ويعزلون من الولاة ، حتى ليولّى على دمشق فى مائة وثمانين عاما مائة وثلاثة وثلاثون باشا أو واليا ، مما جعل فخر الدين من آل معن الدروز (٩٩٠-١٠٢٣هـ) يسيطر على أكثر أرجاء الشام من أنطاكية إلى صفد لنحو نصف قرن ، وأذن لفلورنسا بإقامة قنصلية لها فى بلاده ولم ير بأسا من الإذن لفرنسا بفتح فندق فى صيداء وأذن للمبشرين المسيحيين بالتبشير بين المسلمين والدروز . وتنبهت له أخيرا الدولة العثمانية فأرسلت إليه جيشا لتأديبه ففر من البلاد راكبا البحر إلى صديقه فرديناند أمير توسكانيا . ونمضى إلى سنة ١١٦٤ هـ/١٧٥٠ م فيبسط ضاهر العمر صاحب صَفد سلطانه على عكا ويعلن استقلاله وعصيانه للباب العالى بفضل معونة على بك الكبير المملوك المشهور أيضا بعصيانه للعثمانيين ومحاولته الاستقلال عنهم بمصر . ويحاصر العثمانيون ضاهر العمر وتدركه المنية سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م . ويليها بعده أحمد الجزار ويلعب دورا شبيها بدور ضاهر العمر ويحصّن عكا . وعبثا يستطيع نابليون فتحها ويضطر إلى رفع حصاره عنها بعد ثلاثة أشهر ، إذ باء حصاره لها بالإخفاق الذريع سنة ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . وكانت الأحوال الاقتصادية فى الشام تتردّى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثمانى ، وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادى بل طوال شطر كبير من العصر الحديث .

٤

المجتمع [1]

حين دخل العرب الشام وجدوا فيها أخلاطًا من أجناس شتى لموقعها على أبواب آسيا الغربية وفى قلب الشرق القديم ولكثرة من نزلوها من الكنعانيين الفينيقيين ومن الفلسطينيين الأوربيين القدماء وكثرة المهاجرين إليها من البابليين والكلدانيين والحيثيين والآشوريين والآراميين والعبرانيين واليونانيين والرومانيين ومن العرب أنفسهم : الغساسنة وغير الغساسنة . وهذا الخليط من الاجناس فى الشام ربما هو الذى هيأها من قديم لأن تكثر فيها الدويلات والمدن المستقلة بعضها عن بعض .

وأخذ الإسلام سريعا يضم هذا الشتات الجنسى فى وحدة سياسية ، بل سرعان ما أصبح لواء الشام يضم العالم الإسلامى جميعه فى وحدة عربية منذ رقى إلى عرش الخلافة معاوية مؤسس الدولة الأموية ، إذ اتخذ دمشق حاضرة لهذا العالم ، واتخذ من أهلها عونه فى الحكم وإدارة دَفّة الأمور فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . وبذلك كانت كنوز هذه الإمبراطورية تتدفق إلى دمشق والشام وعاش أهلها طوال العصر الأموى فى رخاء لم يبلغه هذا الاقليم فى أى عصر من عصوره .

ومر بنا وصف سريع لجغرافيتها وأنها كثيرة الأنهار والوديان والعيون والزروع ، ومن قديم تنتج العنب والفواكه وصنوف النُّقْل من فستق وغير فستق إلى ماتنتج من قمح وغير قمح . ومن قديم أيضا عُنى أهلها بالصناعات : صناعات الخزف الملون والخشب المحفور أثاثا وغير أثاث والمعادن والأسلحة سيوفا وغير سيوف والزجاج الملون والقاشانى ونقش الفولاذ بالذهب والفضة ونسج الأقمشة والعمارة .

وحياة الشام بذلك كانت تقوم على إتقان كثير من الصناعات والزروع ، وأيضا على المهارة فى التجارة ، وكانت نافذة كبرى لتبادل تجارات آسيا وأوربا من قديم ، وظلت تجاراتها تكوّن مصدرا أساسيًّا لثروتها فى عهد الفينيقيين وبعدهم حتى احتلال العثمانيين لديارها ، فقد كانت من أعتق

---

(١) انظر فى مجتمع الشام كتب التاريخ العام وفتوح البلدان للبلاذرى وأدب الكتاب للصولى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى والجبابة فى الشام لمحمد كرد على فى الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمى العربى بدمشق .

الأزمنة إلى نهاية زمن المماليك الباب الكبير لمرور توابل الهند وعُروض آسيا إلى الغرب . ومهر أهلها فى التجارة ومعرفة أسرارها والقدرة على إغراء الأسواق التجارية ومعرفة متطلباتها من لُبان جنوبى الجزيرة العربية ونباتات العطور والعقاقير ، مما أتاح لكثير من تجارها على مر الأزمنة الثراء الطائل .

وتحفُّ الشامَ فى الشرق بوادى الجزيرة العربية ، وكان لذلك أثره البعيد فى تكوين سكانها فأكثرهم نزحوا إليها قديما من الجزيرة على نحو ماهو معروف عن الكنعانيين والآراميين والعبرانيين ، وقد ظلت أبوابها الشرقية مفتوحة على مصاريعها لبدو الجزيرة ، مما جعل الغساسنة يقيمون على الحدود بينها وبين الجزيرة دولتهم الغسانية . ولا يقفون هم ومن كانوا وراءهم من البدو عند الحدود بل يتغلغلون إلى داخل الشام ، حتى ليمكن أن يقال إنه قد أخذ فى التعرب قبل الإسلام . وظل بدو الجزيرة طوال الأزمنة الإسلامية يكوّنون شطرا مهما فى سكان الشام ، وكان الشطر الثانى ، وهو الأكبر ، متحضرًا ويقيم فى المدن . وبذلك كان سكان الشام ينقسمون طوال الحقب الإسلامية إلى بدو وحضر . وكان البدو يعتمدون على الأغنام والأنعام ، بينما كان الحضر يعتمدون على الزراعة والصناعة والتجارة . وكان حكام مصر والشام يقرّبون زعماء البدو ، ولكى يدرءوا عن الشام شرهم كانوا أحيانا يُقْطعونهم بعض مدن فلسطين على نحو ما هو معروف من إقطاع الفاطميين للمفرّج بن دغفل مدينة الرَّمْلة .

على كل حال كان اعتماد الشام فى حياتها الاقتصادية طوال الحقب الإسلامية على سكان الحضر ومايؤدونه للدولة من الخراج والعشور والجوالى أو الجزية ، وكانت ضريبة محدودة قلما زادت عن دينارين ، وكانت تؤخذ من أهل الكتاب : النصارى واليهود نظير عدم انتظامهم فى الجيش العربى . وهى بذلك كانت ضريبة دفاع ولم تكن تؤخذ إلا من القادرين ، أما النساء والأطفال والشيوخ والقساوسة والرهبان فلاتؤخذ منهم البتّة .

وحين عقد عمر بن الخطاب مؤتمر الجابية سنة ١٦ للهجرة أوصى عماله أن يرفقوا بالرعية فيما تؤدى من ضرائب للدولة ، وبلغ خراج الشام على عهده – كما يقول الصولى – خمسمائة ألف دينار . وبمجرد أن أصبحت الخلافة خالصة لمعاوية جعل خراج كل من دمشق وقنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار ، وخراج كل من فلسطين والأردن مائة وثمانين ألفا . وأخذ يهب بعض أصفيائه إقطاعات واسعة ، وتارة يكون الإقطاع إقطاع تمليك ، وتارة يكون إقطاع استئمار ، وكان عثمان بن عفان أول من سنّ هذه السنة فى الإسلام .

وجاءت معاوية كنوز الأرض فكان يكثر من توزيعها على الشخصيات المهمة فى قريش

والأنصار وعلى زعماء القبائل فى الجزيرة العربية والعراق ، وعُنى عناية واسعة بأبهته ونفقاته . وبنى لنفسه دارًا كبيرة فى دمشق سماها « الخضراء » ودورا أخرى فى مكة ، وسنَّ للخلفاء الأمويين من بعده البذخ . ويُرْوَى أنه كان يستقبل من عماله هدايا العيدين الفارسيين : عيد النَّيْروز وعيد المهرجان ، ولابد أن كانت تقدم له الهدايا فى أعياد النصارى لما انعقد بينه وبينهم من علاقة وثيقة ، ولما منحهم من الإشراف على الشئون الما للدولة ، وخاصة سرجيوس وأسرته ، وأيضا لابد أن كانت تقدم ل الهدايا فى الأعياد الإسلامية .

ويبدو أن الدولة ظلت تنعم برخاء واسع بعد معاوية ، مما دفع الوليد بن عبدالملك إلى تشييد الجامع الأموى بصورة هندسية بالغة الفخامة فى زخرفته وتصويره ، وقد استخدم –كما مرَّ بنا– لصنع الفُسَيْفساء فى جُدره وفصوصه اثنى عشر ألف عامل من بيزنطة ، غير من استخدمهم فى تشييده ونقشه من مصر وفارس ، وقد مُثّلت فيه أشجار وفُرِّعت أغصان منظومة بالفصوص المذهبة ، ويقال إنه أنفق فيه خراج الشام سنتين وكان خراجها على عهده مليون دينار ومائتى ألف ، وفى رواية أنه أنفق عليه أحد عشر مليونا من الدنانير ومائتى ألف . وعُدَّ الجامع عجيبة من عجائب الدنيا ، وبه حظيت دمشق بمجد وشهرة عظيمين . ويبدو أن الوليد زاد ، بسبب هذه النفقة الباهظة على جامعه ، الضرائب على أهل الشام ، أو لعل أخاه سليمان الذى خلفه هو الذى صنع ذلك . ويخلفه عمر بن عبدالعزيز فيأمر عماله أن يأخذوا أهل الكتاب من النصارى واليهود بالرفق وأن تُمْنَعَ السخرة منعا باتا كما يمنع أخذ الضرائب على الجسور والمعابر وأن يكتفى فى المعادن بالصدقة ولايؤخذ منها العشر . وأمر أمرا صارما أن تُرْفعَ الجزية عمن أسلموا من الموالى بحيث يسوَّى بينهم وبين المسلمين فى الخراج والعشور . ويتوفَّى عمر فيعود العمال إلى الضرائب الاستثنائية ظلما وعدوانا . ولابد أن نذكر للأمويين أن الشام كانت تحظى برخاء غير قليل فى أيامهم ، ويشهد بذلك ماشادوه فى دمشق والبوادى من قصور ، وقد أصبحت دمشق بفضلهم عاصمة ومدينة عربية كبرى .

وكان المجتمع الشامى فى دمشق وغير دمشق يتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا ، والطبقة الأولى تشمل الحكام وكبار الموظفين فى الدواوين وأصحاب الثراء الطائل من التجار والإقطاعيين . وتشمل الطبقة الوسطى العلماء وأوساط الزراع والتجار والصناع ، أما الطبقة الدنيا فهى طبقة العامة من صغار الفلاحين والعماله. وكان يتبع هذه الطبقة الرقيق الذى يؤسر فى الحروب أو يبيعه النخاسون ، وكان أخلاطا من البيزنطيين والأوربيين والإفريقيين . وظلت هذه

الصورة لطبقات المجتمع الشامى متصلة طوال الحقب التالية ، مع ماحدث للشام من تحول الخلافة منها إلى بغداد ، ومن مشرفة على الدولة الإسلامية الكبرى إلى ولاية منذ أن استولى العباسيون على أداة الحكم . وكان من أهم أعمالهم فيها إنشاء المراكز العسكرية على حدودها مع الروم المعروفة باسم العواصم والثغور ، وكانت جيوشهم ماتنى تخرج منها لحرب الروم . محدثة فيها غير قليل من الرواج التجارى .

وكان العباسيون فى القرن الأول من خلافتهم يأخذونها بغير قليل من الرفق واللين . ويروى أن بعض ولاة الخراج بها لعهد هرون الرشيد شدَّد فى استخراج الأموال من أهلها فسخط عليه الرشيد سخطا شديدا وأنزل به عقابا صارما ، قائلا له : وليت الشام وهى جنات وعيون وجعلتها أجردَ من الصخر وأوحش من القفر . وحين ضمها ابن طولون إلى دولته فى مصر أخذت تنتعش وخاصة فى عهد خمارويه لكثرة ما كان يُجْرى على الناس فى رعيته بمصر والشام من الأموال ولما كان ينفقه على جيشه بها من الارزاق ، وقد بنى لنفسه بالقرب من دمشق قصرًا فخما . وعُنى الإخشيد بالشام ، كما عنى بها كافور . وكانا يكثران من الخلع والهبات على أهلها ، وكانت حلب والثغور بيد الحمدانيين وفرضوا فيها ضرائب ثقيلة[1] .

وتتبع بقية الشام مصر أيام الفاطميين حقبا متصلة . وعلى الرغم من أن المقدسى يقول إن ضرائب العروض والسلع التجارية فيها هينة لزمنه فى أواخر القرن الرابع الهجرى فإن من المؤكد أن الضرائب زادت واضطربت تبعا لكثرة الولاة الفاطميين وعملِ كل منهم على جمع كل مايستطيع من الأموال لنفسه ، فكانت تدخل على الضرائب والجبايات زيادات ترهق الشعب الشامى إرهاقا شديدا . وبلغ هذا الارهاق غايته فى ولاية المعلى بن حيدرة الكتامى لها سنة ٤٦١ ، حتى هجر الفلاحون مزارعهم فى الغوطة بدمشق وغير الغوطة ، وعظم شغب العامة سخطًا على هذا الظلم الصارخ وشبت النار حينئذ فى الجامع الأموى العظيم ، وكادت أن تذهب ببهائه ورونقه لولا أن تداركه الناس . ولعل أحدًا لم يصور ما كان يقع على أهل الشام من ظلم فادح فى جمع الضرائب دون أن تُسْتَخْدَمَ فى مصالح الرعية كما صوَّر ذلك أبو العلاء ساخطا بمثل قوله :

وأرى ملوكا لاتحوطُ رعيَّةً … فعلامَ تُؤْخَذُ جزيةٌ ومكوسُ

ومانصل إلى سنة ٤٦٨ حتى تتحول دمشق إلى السلاجقة ، وينحسر الحكم الفاطمى إلى

---

(١) اضطرت الحمدانيين إلى ذلك حروبهم مع بيزنطة . ويقول المقدسى إن الضرائب كانت ثقيلة حينئذ على العواصم والثغور وإنها كانت ثلاثمائة وستين ألف دينار .

الجنوب . ومانكاد نشرف على نهاية القرن الخامس حتى تأتى جحافل الصليبيين وتستولى على ساحل الشام منذ سنة ٤٩٢ . ويتدارك طُغْتِكين أتابك الدولة البورية نسخة من النسخ القرآنية التى وزعها عثمان فى الأمصار كانت بطبريَّة فينقلها إلى دمشق ، وكان ذلك عملا جليلا زاد دمشق مجدا وجلالا ، وخلص له الأمر بها . ومن أهم ماقام به بناء مارَستان وخانقاه وأول مدرسة أنشئت بها . وتصبح الشام ساحة حرب كبرى أيام الصليبيين ، ولايقرُّ لأهلها قرار .

وأخذ حكام الشام من الأرتقيين أصحاب دمشق وغيرهم يضيفون بعض ضرائب استثنائية لجهاد الصليبيين والإنفاق عليه . وكان طُغْتكين عادلا ، ولكن أبناءه أخذوا يرهقون الدمشقيين بالضرائب الاستثنائية وصنع صنيعهم حكام المدن الأخرى ، حتى إذا نهض عماد الدين زنكى واستولى على شمالى الشام ، وكان قد أصبح خرابًا من ظلم الولاة ومن حرب الصليبيين ، نشر فيه العدل وفتح الُرها وامتلأت كل هذه البقاع أهلا وسكانا .

وخلف عماد الدين زنكى ابنه نور الدين محمودوحين خضعت له دمشق وحماة وبعلبك وغيرها من المدن الشمالية أبطل كل ماكان بها من الضرائب الاستثنائية على الأسواق ومايباع فيها من الفواكه والبقول والحلوى والغنم والجبن واللبن . وسار نفس هذه السيرة بعده صلاح الدين فألغى جميع المكوس والمغارم من ديار الشام وسامح الناس فى أموال عظيمة . ووزع فى عماله منشورا جاء فيه : إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه ، وأهزلُ الخلق وأبعدهم من الله من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وعمَّ الرخاء فى عهده وعهد نور الدين ديار الشام لكثرة ماصبَّا فى حجور الناس من القناطير المقنطرة من أموال حملة الصليب المدحورين . وسار بعد صلاح الدين سيرته فى حط المغارم عن كواهل الناس أخوه السلطان العادل ويقال إن مجموع ماخص دمشق من ذلك لعهده بلغ مائة ألف دينار . وقد عاد بعض هذه المغارم والمكوس فى بعض بلدان الشام بأخرة من أيام الأيوبيين وخاصة فى بعلبك ودمشق حين أظلها حكم الصالح إسماعيل .

وقد يكون من المفارقات أن نعرف أنه على الرغم من الحروب التى كانت متصلة بين أهل الشام وحملة الصليب نشطت التجارة بينهما نشاطا واسعا ، فتجار المسلمين ينزلون بلادهم وحصونهم وبالمثل ينزل حملة الصليب بلاد المسلمين حاملين لسلعهم ومشترين سلعا جديدة . وكأن الحرب شىء والتجارة شىء آخر ، ويعرض علينا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » صورًا لافتة من تواصل الحياة بين العرب المدنيين والصليبيين . ورأى ذلك ابن جبير رأى العيان ووصفه فى رحلته المشهورة متعجبا قائلا : من أعجب مايحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين : مسلمين

ونصارى ، وقد يلتقى الجمعان ويتقاتلون وتجارهم تختلف بينهم دون اعتراض ، وهكذا دائما أهل الحرب من الفئتين مشتغلون بحربهم ، والناس من ورائهم – كما يقول ابن جبير – فى عافية : يتعايشون ويتبادلون السلع وعُروض التجارة ، وكان حملة الصليب يرسلون ببعض هذه العروض فى سفن لهم كانت تجوب البحر المتوسط والمحيط الأطلسى حتى السويد . وورثت الشام عنهم ذلك حين جلوا عنها فكانت تجاراتها تتغلغل فى البلاد الأوربية .

ولم نعرض حتى الآن لما كان فى المجتمع الشامى طوال هذه الحقب من فنون اللهو . وكان طبيعيًّا والشام دائما حاملة للسيف أن يشيع فيها مبكرا سباق الخيل واللعب بالصوالجة والتنافس فى إحسان الرماية . وكان أهلها يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب ، وكانوا يخرجون للصيد . وكانت أسواقهم تموج بالأقمشة الحريرية وبالطيب والعطور . وعُنى خلفاؤها الأمويون مبكرين بالغناء وبدأ ذلك منذ عبد الملك بن مروان الذى استقبل ابن مِسْجح مغنى مكة وغنَّاه الغناء المتقن على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا الشعر والغناء فى المدينة ومكة واستقبل أيضا بُدَيْحًا واستمع إلى غنائه ، واستقبل ابنه الوليد بعده ابن سُرَيج مغنى مكة . وتحول يزيد بن عبد الملك بقصره إلى مسرح لمغنى الحجاز من أمثال معبد وابن عائشة ، واشترى جاريتين من جوارى المدينة المغنيات ، وهما حَبابة وسَلَّامة القَسّ ، ووصفه أبو حمزة الخارجى ، فقال إنه يشرب الخمر ويلبس الحُلَّة قُوِّمتْ بألف دينار .. حَبابة عن يمينه وسلامة عن يساره » . ونشأ ابنه الوليد فى هذا الجو المشبع بالترف والخمر والغناء ، وكان شاعرا بارعا ، وله خمريات تكتظ بها ترجمته فى كتاب الأغانى ، وحين استولى على مقاليد الخلافة بعد عمه هشام تحول بقصره إلى مقصف للخمر والعزف والغناء ، وندماؤه من حوله يشاركونه قصفة ولهوه وطربه ، وكاد أن لايترك مغنيا مشهورا فى المدينة أو مكة إلا استقدمه وعقد له فى قصره مجالس للطرب والسماع ، ويقول أبوالفرج فى ترجمته إنه « كان يضرب بالعود ويوقِّع بالطبل ويمشى بالدُّفّ على مذهب أهل الحجاز » .

ولا ريب فى أن شيئا من ذلك كان ينعكس على أهل الشام فى دمشق وغير دمشق . إذ يوجد فى كل زمن منحرفون ينغمسون فى اللهو والخمر وشرب الدِّنان ، وكان يهيئ لهم ذلك فى الشام كثرة مايزرع فيها من كروم وكثرة ما كان بها من أديرة . وكانوا يشربون فى الطبيعة بين الأزهار وغناء الطير وفى قاعات الأديرة والبيوت ، وكانوا يفرشون القاعات بالورود والنرجس والأقحوان والأزهار المختلفة . وكان يكثر فى تلك المجالس سماع المغنين والمغنيات وهم يعزفون على آلات الطرب المختلفة . ويسوق ابنُ حِجَّة الحموى فى كتابه ثمرات الأوراق خبرا طويلا عن جماعة من

كتاب القرن الرابع الهجرى كانوا قاصدين مصر . فنزلوا بدمشق فى طريقهم ، والتقوا فيها بشاب أضافهم . فقبلوا الضيافة وأمضوا فى منزله ليلة ماجنة أحضر لهم فيها نبيذًا على عَشائهم ، فشربوا ، وسرعان ماخرجت عليهم طائفة من الجوارى مابين عوّادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقّاصة ودفّافة وهن يلبسن فاخر الثياب والحلىّ وسألهم فى الصباح أتحبون الذهاب إلى بعض البساتين للتفرج أو الجلوس فى المنزل واللعب بالشطرنج والنَّرْد أو القراءة فى الكتب . والخبر تداخله مبالغات تجعله أشبه بأسطورة ، لكنه على كل حال يدل على ماكان بدمشق من فنون لهو .

ولا ريب فى أن حرب أهل الشام بعد ذلك مع حملة الصليب أتاح لهم كثرة من الجوارى الأوربيات المسترَقّات . ويبدو أنهن كن من عوامل شيوع البِغاء ، إذ نقرأ فى تراجم نور الدين وصلاح الدين والعادل أنهم طهّروا البلاد من الفواحش والخمور والقمار . وكانت هناك دور النخاسين تحمل الجوارى من كل جنس وكل بلد . ويدل على كثرة الجوارى فى الشام من بعض الوجوه أن نجد فقيها دمشقيا توفى سنة ٦٣٢ هو عبد السلام بن المطهر بن أبى عصرون يروى عنه أنه كان ببيته نيف وعشرون جارية فما بالنا بأهل الثراء وبالحكام وكبار الموظفين ذوى الرواتب الضخمة .ولم يقف المنحرفون بالمجتمع فى لهوهم حينئذ عند شرب الخمر. فقد أخذ يشيع بينهم شرب الحشيس ، ولذلك أمر الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٥ بهدم دور الحشيش والخمر جميعا وإقامة الحدود بشدة على من يتعاطونهما . ومن حين إلى آخر نسمع عند بعض السلاطين بمثل هذا الأمر ، ولكن المجّان كانوا يعودون إلى تعاطيهما ولا يزدجرون . وظل الغناء مزدهرًا طوال زمن المماليك ، ونجد مغنيا بدمشق يلزم واليها تنكز نائب الناصر محمد بن قلاوون ويختص به ويعلم جواريه الغناء ، وكان يعاصره شمس الدين الدمشقى محمد بن على وكان يجيد العزف واللعب بالقانون وينظم الشعر ويلّحنه ويأخذه عنه الملحنون وأهل الملاهى .

وظلت الشام تعيش فى رخاء إلى نهاية القرن الثامن الهجرى إلا فترات كانت تدب فيها وخاصة فى دمشق الفوضى بسبب ماكان يحدث فيها من نزاع بين الأمراء على السلطة كما حدث فى السنوات ٧٥٣و٧٦٢ و٧٩٠ و٧٩٦ و٨٠١ ولعل هذا كان أحد العوامل فى انتصار تيمور لنك السريع على المدافعين عن حلب وما وراءها من البلدان إلى دمشق ، وقد عاث جنوده فيها -كما مرّ بنا - نهبا وسفكا للدماء . وعلى الرغم من أن دمشق استسلمت له بميثاق أو عهد أخذه على نفسه أن لايمس أهلها بأذى لم يكد يدخلها مع جنده حتى نكث عهده وميثاقه فسبى جنوده النساء وشدوا الرجال والأولاد فى حِبال وأشعلوا النار فى المنازل والدور والمساجد ثلاثة أيام فاحترقت المدينة ، وسقطت

سقوف الجامع الأموى وصارت دمشق أطلالا عافية أو بالية ، بعد أن كانت فردوسا من فراديس الجنان ، وهى طامة كبرى ظلت دمشق تعانى منها طويلا . وزاد تيمور لنك الطين بلّة بتجريد دمشق - كما مرّبنا من صفوة صناعها ومهندسيها ، إذ أخذهم معه الى عاصمته سمرقند . وحاول سلاطين المماليك بعد خروجه من دمشق لحرب السلاجقة فى آسيا الصغرى أن يعيدوا لدمشق والشام شيئا من الرخاء بإلغاء المغارم والمكوس وكل ما كان يبهظهم من الضرائب الاستثنائية .

واستعادت دمشق مبانيها وعمارتها بعد تيمور ، ولابد أنها ظلت تعانى من خسائر الحريق وأنقاض عمائرها الباذخة فترة طويلة . وسرعان ما نسمع أنه أصبح بها مائة حمام . وشاد حكامها فيها قصورا فخمة على مر السنين ، واتسع ذلك فى بلدان الشام جميعا : من حلب شمالا إلى غزة جنوبا ، وبدأ ذلك منذ أوائل عهدها بالاسلام لزمن الأمويين ، فإن خلفاءهم وأمراءهم وبعض نسائهم شادوا فى دمشق لأنفسهم قصورا باذخة ، وامتد ذلك إلى حلب وغير حلب من مدن الشام وإلى البوادى . وظلت هذه العناية بتشييد القصور لحكام الشام على مر السنين ، ومر بنا أن خمارويه بنى لنفسه بجوار دمشق قصرًا ، وتتابع بناء حكام دمشق وبلدان الشام للقصور ، سوى ما كانوا يبنون من المساجد والخانقاهات والمارستانات والمدارس . وتحدث المؤرخون طويلا عن قصر أنيق بدمشق بناه الظاهر بيبرس . وعُنى الصليبيون ببناء الحصون كما عنى الأيوبيون والمماليك ببناء المساجد والمدارس والرباطات والمارستانات والقلاع والجسور وكان لكل ذلك أثر واسع فى نشاط الحياة بالشام ورواج الصناعة والتجارة .

وترزح الشام - كما رزحت مصر - تحت حكم العثمانيين ، ويظلون بها أربعة قرون ، ويتقوض كل أمل لأهل الشام فى تدارك الأمور ، وبدأ ذلك الغزالى نائب سليم بما أخذ يفرض على أهل الشام من ضرائب ثقيلة ، وزال حكمه ، كما مر بنا ، وظلت المكوس تزداد وظلت البلاد تتردى من سيىء إلى أسوأ إذ دأب العثمانيون على التغيير السريع لحكامهم فى البلاد ، ودأب الحكام على اعتصار خيراتها حتى آخر قطرة . وكانت الدولة العثمانية تدفع إلى استنزاف كل ما فى ديار الشام من أموال وظلموا الناس أشد ظلم ، بل نهبوهم أعسف نهب وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز . وهيأ ذلك لمظالم لاتطاق فى المدن بين الصناع والتجار وفى القرى بين الزراع ، مما جعل بعض الفلاحين يفرون من قراهم إلى الجبال أو يتنزلون عن ممتلكاتهم فيها إلى بعض ذوى الجاه مفضلين أن يعيشوا فقراء على معيشة الحرية التعسة المنهكة . وانتكست بذلك الزراعة ، ولم تعد هناك عناية بإنتاج القطن

والحرير ، فانتكست أيضا الصناعة والتجارة . وزاد فى انتكاس التجارة اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح واستعمارهم للهند وحملهم عُروضها وتوابلها عن هذا الطريق مستغنين بذلك عن طريق الشام ومصر القديم . وبذلك فقدت الشام فى أيام العثمانيين موردا ماليا ضخما كان على رأس مواردها التى أتاحت لحكامها بناء منشآتهم المعمارية الكثيرة من الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد والمدارس . وعم الكساد الشام طوال الحقب العثمانية . بل عم البؤس والظلم والخراب ، كما عمت الفوضى الإدارية ، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثمانى ازدادت الشام انتكاسا وفسادًا وظل ذلك سائدًا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم .

٥

التشيع : الإسماعلية والإمامية – النصيرية – الدروز – الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين .

(ا) الإسماعلية والإمامية

مرَّ بنا – فى كتاب العصر العباسى الثانى – أن عبد الله بن ميمون القداح اتخذ سَلَمْية قرب حماة بالشام حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى مركزا للدعوة الإسماعيلية التى كانت تجعل الإمامة بعد جعفر الصادق فى ابنه إسماعيل لا فى ابنه موسى الكاظم مخالفين بذلك فرقة الإمامية الاثنى عشرية الشيعية . وانتقلت بعد إسماعيل فى أئمة مستورين ، إلى أن فرَّ المهدى بالله من سلمية إلى تونس وأسس هناك الدولة الفاطمية وصار إليها حكم مصر والشام منذ أواسط القرن الرابع الهجرى . ونشط دعاتهم فى الديار الشامية يدعون إلى عقيدتهم التى تَقْصر إمامة المسلمين على أبناء علىّ بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء ، زاعمة لهم العصمة وحق تأويل الذكر الحكيم ومعرفة أسراره ، ولذلك سموا باسم الباطنية ، وزعموا أن الأئمة يتوالون فى أدوار كل دور يتألف من سبعة منهم ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى وإليه تنتقل قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية للأئمة الستة قبله ، وأطلقوا اسم الذات العلية وكل صفات الله على أئمتهم .

وعرفت الشام بجانب العقيدة الإسماعيلية العقيدة الإمامية أو الاثنا عشرية التى يتوالى فى الإمامة بها عندهم اثنا عشر إماما يختمون بالإمام أبى القاسم محمد الذى اختفى وهو فى الثامنة من

عمره حوالى سنة ٢٦٠ ويؤمنون بأنه لايزال حيا باقيا وأنه لابد من عودته يوما أو رجعته ليهدى الناس إلى طريق الرشاد ويعيد سنن الرسول ﷺ ويرد حق أسرته المسلوب ويملأ الدنيا حقا وعدلا ، ويسمونه فى أثناء غيبته الجسدية قائم الزمان وإمام الوقت . وهو بذلك كله المهدى المنتظر الذى ينقذ العالم من مفاسده وشروره . وعند الإمامية أن أئمتهم وحدهم يتميزون بمعرفة المعانى الباطنة أو المستترة وراء ظاهر النصوص القرآنية ، ولذلك يعد التأويل من أسس العقيدة الإمامية ، ويرون أئمتهم فوق الطبيعة البشرية ، ولذلك يعتقدون فيهم العصمة وأنهم مطهرون لايستهويهم أى ضرب من ضروب المعاصى والآثام .

وإذا كان مركز العقيدة الإسماعيلية منذ أوائل هذا العصر فى القرن الرابع مصر فإن مركز العقيدة الإمامية كان العراق وإيران . وكان قرب معتنقيها من الشام سببا فى أن يدخلها كثيرون منه منذ وقت مبكر وكانوا ينبثون فى حلب وأيضا بين بعلبك وصفد ، ويسمون باسم المتوالية الإمامية ومنهم أمراء حرفوش . ونقف لنتحدث عن فرق شيعية غالية هى فرق النصيرية والدروز والإسماعيلية النزارية المسمون بالفداوية والحشاشين .

(ب) النُّصَيْرِيَّة(١)

فرقة شيعية غالية غلوًّا مفرطًا ، ولم تكن تتبع الفرقة الإسماعيلية ، بل كانت تتبع الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، أو قل إنها تفرعت منها ، وكانت تسكن فى قرى بسفوح الجبال الممتدة من طرابلس إلى أنطاكية أنشأها فيها داعية يسمى محمد بن نصير النميرى زعم لهم أنه مبعوث الإمام الحادى عشر حسن العسكرى وأخذ ينشر فيهم عقيدته منفصلا بها عن العقيدة الإمامية إذ جعل مبدأها أو محورها الأساسى ألوهية على بن أبى طالب وأنه خالد فى طبيعته الإلهية ومسكنه السحاب ، والرعد إنما هو صوته الهائل ، والبرق إنما هو ضحكه العالى ، ولايلعنون ابن ملجم قاتله ، بل يقولون إنه خلّص اللاهوت أو الجزء الإلهى من الناسوت أو الجسم المادى ، ويعظمون الخمر ويرونها من النور الإلهى ، ويحتفلون بالأعياد المسيحية ويزعمون أن سلمان الفارسى إنما كان رسولا لعلى بن أبى طالب ، ويحلفون بعلى قائلين : وحق على العلىّ الأعلى ، كما يحلفون بالنور

---

(١) انظر فى النصيرية فرق الشيعة للنوبختى والملل والنحل للشهرستانى وصبح الأعشى ٣٥/١٣ ، ٢٤٩ والتعريف لابن فضل الله العمرى ورحلة ابن بطوطة وحديثه فيها حين زار ديارهم بالشام عن عقيدتهم وكتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر ص ٢٢٠ ومابعدها وتاريخ النصيرية ودياناتهم لدوسو طبع باريس .

قائلين وحق النور وما نشأ منه . وواضح أنه تختلط بعقيدتهم عناصر فارسية كعنصر النور وعناصر مسيحية كعنصر قداس الخمر والطعام وهو شبيه بالعشاء الربانى ، ويروون عن الرسول ﷺ أنه قال لعلى : « لولا أن يقول الناس فيك ماقالوا فى عيسى لقلت فيك مقالا » وهو حديث موضوع .

ويقول النوبختى فى فرق الشيعة وابن فضل الله فى التعريف إنهم يحلُّون المحارم ، ولهم كتاب مقدس يخفونه عن الناس كما يخفون عقيدتهم ولا يبيحون لأحد منهم أن يذيع شيئا من مبادئها وأسرارها المصونة عندهم . ويقول الشهرستانى إنهم يقولون بأن عليا كان موجودا قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه . ولكل ماسبق قال جولد تسيهر : « تغلب على تلك الفرقة أفكار وعقائد وثنية » ويقول « إن إسلامها إسلام اسمى فحسب » . ونظن ظنا أن استيلاء الفاطميين على الشام ونشر دعاتهم لنحلتهم الغالية المفرطة فى الغلو هناك . ثم ما كان من انشغال الأيوبيين بحربهم لحملة الصليب ، كل ذلك كان سببا فى اتساع حركتهم حتى إذا كان عهد الناصر بن قلاوون رأيناه يكتب فى سنة ٧١٧ للهجرة إلى ولاته فى الشام أن يأخذوا على أيديهم، ويأمروهم أن يعمروا فى كل قرية من قراهم مسجدا وأن يمحوا منها الخمور وكل ما يتصل بالآثام، وصدعت قراهم لأمره.

(جـ) الدروز [1]

الدروز فرقة شيعية تفرعت عن الفرقة الإسماعيلية الكبرى ، آمنت بأن التجسُّد الإلهى حلَّ فى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١هـ) أسسها أو أنشأها بالشام داع إسماعيلى أعجمى من دعاة الحاكم يسمى محمد بن إسماعيل الدرزى ، وكان من غلاة الدعاة الباطنية يؤمن بالتناسخ ، فأغوى الحاكم على ادعاء هذا التجسد ، وصَنَّف له كتابا ذكر فيه أن روح الله مازالت تنتقل من رسول إلى رسول ، وبعد النبى ﷺ انتقلت إلى على بن أبى طالب وتناسخت فى الأئمة من أبنائه حتى انتهت إلى الحاكم ، فهو ليس بشرا ، إنما هو لاهوت تجسد فى الناسوت . وعلمت الرعية فى مصر بما يوسوس له الدرزى فصممت على قتله ، وأنقذه منها الحاكم وقال له اخرج إلى الشام وانشر دعوتك فى الجبال فإن أهلها سريعو الانقياد ، فخرج إلى الشام ونزل فى قبيلة تنوخ بوادى التيم من

---

(١) راجع فى الدروز صبح الأعشى ٢٤٨/١٣ وكتاب طائفة الدروز : تاريخها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين وجولد تسيهر ص ٢١٦

ودبان قرية بانياس غربى دمشق ، وأخذ ينشر دعوته فى منازل تلك القبيلة بجبل حوران وأيضا فى القسم الجبلى من لبنان . وتوفى فقام بالدعوة بعده حمزة بن أحمد الهادى وكثر أتباعها وعُرفوا بالدروز نسبة إلى مؤسس الدعوة . وانتشارُها على هذا النحو فى جبل لبنان وحوران بسوريا جعلها تذيع بين قبائل وعشائر عربية ، وسقطت إلى الجنوب حتى جبل كَرْمَل بالقرب من صَفَد فى فلسطين ، وصعدت إلى الشمال حتى الجبل الأعلى بين حلب وأنطاكية . وأتاح لها ذلك أن تشيع بين عرب ذوى بأس وأهل شجاعة ، ومنذ وطئت أقدام الصليبيين الشام وضعوا أيديهم فى أيدى الدولة البوريّة صاحبة دمشق ثم فى أيدى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين ضد حملة الصليب . وظلوا يجاهدونهم فى زمن الأيوبين والمماليك متعاونين أوثق تعاون مع سلاطين الدولتين فى طردهم من الشام . وأبلوا بلاء حسنا فى حرب التتار . ولعل ذلك هو الذى دفع الدولتين إلى مسالمتهم والإبقاء عليهم مع إقرارهم على إقطاعاتهم ، حتى يظلوا غُصَّة فى حلوق أعداء الإسلام والعروبة .

ولديهم رسائل مقدسة لمؤسس دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزى وخليفته حمزة بن أحمد وتلميذه بهاء الدين . ويردد حمزة أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لاتدركها الحواس ولا الأوهام ، ويقول إنه ليس له مكان وإن حل فى كل مكان . وحاول هو وأستاذه الدرزى وتلميذه بهاء الدين أن يقنعوا الناس من حولهم بأن الحاكم تجسُّدٌ إلهى وأنه يتشكل فى صورة بشرية هى الصورة الإنسية التى عاش بها مع الناس كأنه فرد مثلهم . وليس الحاكم أول صورة بشرية تشكل فيها الله بل هو آخر صورة تجسد فيها ، فقد تجسد قبله فى الأنبياء والأئمة مما يفسح عند الدروز لفكرة التناسخ . ويصور القلقشندى عقيدتهم قائلا : « إنهم يقولون بأن الألوهية انتهت إلى الحاكم وتديرت (سكنت) ناسوته كما يقولون برجعته وإنه يغيب ويظهر بهيئته ويقتل أعداءه قتل إبادة لامعاد بعده إذ ينكرون المعاد » . فلا معاد عندهم ولا بعث ولا قيامة ، إذ القيامة فى رأيهم يوم رجعة الحاكم وظهوره فى صورته الناسوتية . وحينئذ يوقع العذاب والثواب على الناس ، أما الثواب فارتفاع بالدرجة فى العلوم الدينية ، وأما العذاب فهبط بالدرجة إذ يستمر الشخص ينتقل من جسد إلى جسد أو قل تستمر روحه تنتقل فى أجساد تهبط به فى الدين درجة بعد درجة .

وتُسْقِط شريعة الدروز الفروض الدينية وتوجب صيام الأيام التسعة الأولى من شهر ذى

الحجة ، ويقول القلقشندى إنهم يذهبون مذهب الطبائعية فى قولهم إن الطبائع هى المولّدة ، والموتَ بفناء الحرارة الغريزية كانطفاء السراج بفناء الزيت ، ويقول : إنهم زادوا فى البسملة أيام الحاكم : باسم الحاكم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلوها باسم الله الحاكم الرحمن الرحيم . ولهم أدعية خاصة يتجهون بها إلى ربهم ، من ذلك مانقله الدكتور محمد كامل حسين من رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد لحمزة بن أحمد من مثل : « سبحان مولانا جلَّ ذكره عن إحاطة الأشياء به وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » .

على أنه ينبغى أن نعود فنذكر أن عقيدة الدروز أصابها بعض التعديل فى فروعها بمايتلاءم والإسلام ومن أهم من عملوا على ذلك عبدالله التنوخى الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ وقد حاول العودة بهم إلى مذهب الجماعة .

(د) الإسماعيلية[1] النزارية أو الفداوية أو الحشاشون

مرَّ بنا فى الحديث عن التشيع بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى أن داعية من دعاة الحركة الإسماعيلية الفاطمية بإيران هو الحسن بن الصبَّاح زار مصر لعهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) وسأله من الخليفة بعدك ؟ فقال له : ابنى نزار ، فعاد إلى إيران يدعو للمستنصر وابنه نزار ، واستطاع مع طائفة من أتباعه أن يستولى على قلعة « ألموت » الجبلية الشاهقة ، واتسعت دعوته حتى ضم إليه قلاعا وحصونًا كثيرة بإيران وبعض بلدانها فى قزوين وطبرستان . وكانت الأمور تتطور بالقاهرة فتوفى المستنصر ورأى الأفضل بن بدر الجمالى أن لا يولى نزارا بعده وإنما يولى أخاه المستعلى . وبذلك انقسمت الإسماعيلية الفاطمية قسمين : قسما عربيا فى مصر والشام بيده مقاليد الحكم يدعو للمستعلى وقسما شرقيا فى إيران يمثله الحسن بن الصباح يدعو لنزار .

واستطاع الحسن بن الصبَّاح أن يحول فرقته أو طائفة كبيرة منها إلى فرقة إرهابية مهمتها اغتيال خصوم الدعوة من حكام الأقاليم والدول ووزرائهم ومن العلماء والفقهاء المناوئين لها ، وكان ممن اغتالوه الوزير السلجوقى العظيم نظام الملك سنة ٤٨٤ . ومن أجل ذلك أطلق على اسم هذه الفرقة

---

(١) انظر فى هذه الفرقة وقلاعها بالشام ونشأتها صبح الأعشى ١٢١/١ و١٤٦/٤ و١٧٩ ورحلتى ابن جبير وابن بطوطة وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٨٢ . ٣٥٥ ، ٣٦٦ وكتاب طائفة الإسماعيلية : تاريخها . نظمها . عقائدها للدكتور محمد كامل حسين .

اسم الفدائيين أو الفداوية كما غلب اسم الحشاشين لأنهم - فيما يظهر - كانوا يتعاطون الحشيش المخدر . وعمل الحَسَن بن الصبَّاح على نشر الدعوة الإسماعيلية لا فى أقاليم إيران فحسب ، بل أيضا فى إقليم الشام ، فأرسل إليها دعاته ، وبادر بإرساله الحكيم المنجم أسعد إلى حلب فى أيام حاكمها رضوان بن تُتش السلجوقى (٤٨٨ - ٥٠٧ هـ) فنشر بها الدعوة وكثر أتباعه وأوعز إلى بعض الحشاشين معه باغتيال جناح الدولة صاحب حمص ، واغتيل سنة ٤٩٦ . ووفد على حلب داعية ثان للحسن بن الصباح هو أبو طاهر واستولى مع شيعته على حصن فامِيَة من الصليبيين ثم استردوه منه . وأخذ الفدائيون من فرقة ابن الصباح يفدون على الموصل والشام واغتالوا فى سنة ٥٢٠ صاحب الموصل آق سنقر . وفى نفس السنة وفد على دمشق نزارى من ألموت ، وتقرب من طُغْتِكين صاحبها ، وتنازل له عن قلعة بانْياس فأخذ يدير دعوته منها ، وكثر أتباعه ، وأدخل المردغانى وزير بورى (٥٢٢ - ٥٢٦) فى دعوته فعيَّن أحد رجاله ، وهو أبو الوفا قاضيا لقضاة دمشق . وبعث أبو الوفاء سرا لبلدوين الثانى صاحب بيت المقدس أنه على استعداد لتمكينه من الاستيلاء على دمشق فى نظير تنازله له عن صور ، وقدم حَمَلَةُ الصليب إلى دمشق سنة ٥٢٤ لتنفيذ المؤامرة وفطن بورى فقتل أبا الوفاء ووزيره المردغانى ورد الله حَملة الصليب عن دمشق مدحورين .

وأخذ الإسماعيليون النزاريون فى بانياس يمكنون لأنفسهم بالاستيلاء على طائفة من القلاع فى السفوح الشرقية لجبال النصيرية بالقرب من طرابلس إلى الشمال بينها وبين حماة ، حتى إذا خلص الأمر لرشيد الدين سنان منذ سنة ٥٥٨ أخذ ينظم هذه الجماعة الإرهابية الخطيرة جاعلا من قلاعها وهى مصياف والرصافة وقُدْموس والخوابى والكهف والمَيْنَقة والعُلَّيْقة ، مركزًا للدعوة . ويُعدّ دوره فى الدعوة بالشام كدور الحسن بن الصبَّاح فى إيران ، فقد ضاعف تحصينات قلاعها وزودها بالسلاح والعتاد ، وكان سنان مباينا لنور الدين ولم يحاول أن يساعده فى حربه لحملة الصليب ، وفكر نور الدين فى منازلته ولكنه توفى قبل تحقيق فكرته . وبالمثل كانت بين سنان وصلاح الدين مباينة ، وأرسل إليه بعض فدائييه أو حَشَّاشيه مرتين ليغتالوه ونجَّى الله صلاح الدين من خناجرهم ، وجرَّد لهم فى سنة ٥٧٢ جيشا جرارا حاصر به قلاعهم وضيق عليهم ، فسألوه الصفح عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ليتفرغ سريعا لحرب حملة الصليب مؤملا أن يمدوا له يد العون فى تلك الحرب ، وكانوا قد وعدوه أن يقفوا معه ضدهم ، فلم يتعرض صلاح الدين بعد ذلك لقلاعهم .

ونمضي معهم إلى أيام هجوم التتار على الشام فنجد داعيتهم أبا المعالى رضى الدين يرضخ لهم ويسلمهم بعض القلاع سنة ٦٥٨ بينما ظل الدروز يقاومون التتار – كما مرَّ بنا – ولعل ذلك ماجعل الظاهر بيبرس بعد قضائه على التتار يفكر فى الاستيلاء على قلاعهم منذ سنة ٦٦٤ وسرعان ما أعلنوا له الطاعة وأنهم جزء من رعيته . وفى سنة ٦٦٩ عزل داعيتهم نجم الدين وولى مكانه داعية ثانيا يسمى صارم الدين ، غير أنه أعلن الثورة عليه ، وسرعان ما أخفقت ثورته . وأخذ الظاهر بيبرس يستولى على قلاعهم حتى سلمت له وخضعت جميعا ، ولم يعمد إلى إجلائهم عن قلاعهم كما صنع هولاكو حين استولى على قلعة ألموت وغيرها من قلاعهم بإيران ، بل أبقى عليهم ليفيد من سفاكيهم فى القضاء على خصومه . وظل سلاطين المماليك بعده يستخدمونهم لنفس الغاية .

ويسجل ذلك ابن بطوطة حين زار حصونهم لعهد الناصر بن قلاوون سنة ٧٢٧ إذ يقول : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداوية ، ولايدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فإن سلم بعد تأدية مايراد منه فهى له ، وإن أصيب فهى لولده » . ويقول القلقشندى نقلا عن ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة : « ولصاحب مصر بمشايعة الفداوية مزية يخافه بها عدوه ، لأنه يرسل منهم من يقتله ولايبالى أن يُقتل بعده ، ومن بعثه السلطان إلى عدو له فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم ، وإن هرب تبعوه وقتلوه » . وبالقاهرة جامع منسوب إلى هذه الجماعة الإرهابية يسمى جامع الفداوية ، ويقال إن الفداوى الإرهابى الخطير الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو « شبحة » المدفون بدمياط .

٦

الزهد [1] والتصوف

الشام – من قديم – بلد دين سماوى ، بل دينين سماويين هما اليهودية والمسيحية ، مما جعل لها تأثيرًا بعيدًا فى تاريخ العالم الروحى ، إذ عملت بقوة على نقله من دور الوثنية إلى دور الديانات السماوية ، وبدأ ذلك منذ أعتق الأزمنة ونقصد زمن إبراهيم الخليل عليه السلام الذى آمن بوحدانية الله ، وحاول أن يحمل عليها قومه ، وتتابعت بعده الرسل تؤكد دعوته وتدعو إلى عبادة الله وإعلاء القيم الروحية ، حتى إذا كانت المسيحية وأدخلت فيها مصر نظام الرهبنة والمعيشة الخالصة لتعبد الله والنسك فى الأديرة والصوامع عَمَّت هذه الروح فى الشام واعتزل كثيرون منه – فى أيام الرومان الظالمة – الحياة اليومية العاملة إلى الرهبنة . وتعتنق كثرة السكان فى الشام الدين الحنيف ويقبلون على تعاليمه وعبادة الله الواحد الأحد حق عبادته وعلى ماتدفع إليه من النسك والتقوى ، مقتدين بمن نزل بينهم من جِلَّة الصحابة وبخاصة من أهل الصُّفَّة الذين كانوا يلازمون المسجد النبوى مقبلين على عبادة الله زاهدين فى الدنيا ومتاعها الزائل من أمثال بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ وأبى عبيدة فاتح الشام مع خالد بن الوليد ، وكان على غرارهما زهدا فى الدنيا معاذ بن جبل المتوفى مع أبى عبيدة فى سنة ١٨ للهجرة بطاعون عمواس ، ويؤثر عنه أنه كان يقول حين نزل به القضاء : « مرحبا بالموت ، مرحبا بزائر حبيب جاء على فاقة ، اللهم إنك تعلم أنى كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، وإنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حلقات الذكر » .

---

(١) انظر فى الزهد والتصوف بالشام كتب تراجم الصحابة ، وبخاصة من سميناهم ، وراجع فى معاذ تهذيب النووى وفى أبى الدرداء البيان والتبين للجاحظ : الجزء الثالث (انظر الفهرس) وانظر فى الأسماء التالية طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى والطبقات الكبرى للشعرانى والرسالة القشيرية (طبعة عبدالحليم محمود) وكشف المحجوب للهجويرى (الترجمة العربية) وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وأحسن التقاسيم للمقدسى والسلوك للمقريزى والدرر لابن حجر والأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الخاص بمدينة دمشق (تحقيق د. سامى الدهان) ووفيات الأعيان وفوات الوفيات فى تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تغرى بردى والبدر الطالع للشوكانى وروض الرياحين لليافعى وخلاصة الأثر للمحبى وسلك الدرر للمرادى وتاريخ الجبرتى وجولد تسيهر ودائرة المعارف الإسلامية والجزء الرابع من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان

وعلى شاكلة معاذ فى الورع والتقوى من صحابة رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الشام أبو الدرداء الأنصارى ، وهو أحد حفظة القرآن الكريم لعهد الرسول وأول من تقلد القضاء بدمشق إلى أن توفى سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو من أهل الصُّفَّة الأتقياء ، ويروى الجاحظ عنه أنه كان يقول « نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسه وبصره ، وإياكم والجلوس فى الأسواق فإنها تلهى وتحمل على اللغو فى الكلام » ويروى عنه أيضا قوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لايُغْفَلُ عنه ، وضاحك ملء فيه ولايدرى ساخطٌ ربه أم راض ، وأبكانى هول المطَّلع [1] ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله لاأَدْرَى أيُؤمر بى إلى الجنة أم إلى النار » . وأخذ يتكاثر بعد جيل الصحابة فى الشام العباد والأتقياء ونلتقى بهم فى كل طائفة : فى القضاة والفقهاء والمحدِّثين وقُرَّاء الذكر الحكيم .

واتسع ذلك حتى شمل بعض الحكام على نحو ماهو معروف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز وهو يمثل نموذج الحاكم المتقشف الزاهد الذى يخشى الله فى كل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومرَّ بنا أنه رفع المكوس وضرائب السدود والمعابر عن الناس وأنه سوَّى بين المسلمين الجدد من الموالى والمسلمين من العرب فحطَّ عنهم - مثلهم الجزية - واكتفى بالزكاة . وكتب إليه أحد عماله : إن أهل الذمة قد أقبلوا على الإسلام حتى يتخلصوا من الجزية ، فأجابه : إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابيا . ويفيض ابن سعد فى ترجمته له بطبقاته فى بيان زهده ورفضه لمتاع الحياة من رقيق يملكه ومن عطر يتطيب به . وعمل بكل جهده على نشر العدل فى دولته ورفع المظالم عن الناس . وكان يجهد نفسه فى النسك والتعبد حتى اصفرَّ لونه ونحل جسمه ، وأنكر منه بعض الزهاد ممن كانوا يلمون به ذلك فقال له : كيف بك لو رأيتنى فى قبرى وقد سالت الحدقتان - بعد ثلاث ليال - على وجنتى وتقلَّصت الشفتان لكنت إذن أشد نكرا . وطبيعى أن يكون عمر من أسباب اتساع موجة الزهد فى الشام . ونكتفى بذكر بعض من تموج بهم كتب القراء والفقهاء والتاريخ من هؤلاء الزهاد العباد . من ذلك مايقولونه عن شيبان الراعى المتوفى سنة ١٥٨ وكان من كبار الفقهاء الزهاد وكان من أكابر أهل دمشق وعكف على النسك ، وبلغ به ذلك أن ترك الدنيا واتخذ له صومعة فى جبل لبنان فانقطع بها يتعبد الله .

ونسمع كثيرا عن عباد انقطعوا بهذا الجبل مؤثرين الإقامة به للتعبد [2] ، ومنهم من كان يتعبد الله فى جبال أنطاكية والمصِّيصة ، ومنهم من يتخذ الصوامع ، وظل ذلك متبعا حتى زمن ابن

(١) الاستشراف للآخرة

(٢) راجع مقدمة أحسن التقاسيم للمقدسى .

جبير[1] . وكان منهم من لايبعد عن دمشق إلى الجبال النائية مثل فهر بن جابر الطائى المتوفى عام ٢٢٠ فإنه لما بلغ الخمسين من عمره اعتزل الناس بجوار دمشق ، وأخلص نفسه للتقوى والنسك ، وله فى الزهد كتاب سماه : « العروج فى دَرَج الكمال والخروج من دركْ الضلال » . ونلتقى بمعاصره أبى سليمان الدارانى عبدالرحمن بن أحمد بن عطية المتوفى سنة ٢١٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان من واسط وتحول إلى الشام ونزل قرية دَارَيّا غربى دمشق ، وكان إماما حافظا كبير الشأن فى علوم الحقائق والورع أثنى عليه الأئمة ، وكان له الرياضات والسياحات ، ويقول الهجويرى : « كان ريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة » . وتسلكه كتب الصوفية ، فى تراجمهم . ولم يكن التصوف حتى زمنه استقل عن الزهد بأحواله ومقاماته ، فهو إلى أن يكون زاهدًا أقرب منه إلى أن يكون متصوفا . وحمل عنه نزعته النسكية تلميذان أو مريدان ، هما أحمد ابن عاصم الأنطاكى وابن أبى الحوارى الدمشقى ، أما ابن عاصم فتوفى بعد أستاذه بخمس سنوات ، ويسلكه المتصوفة بين أوائلهم ويقولون إنه كان يجمع بين الأصول والفروع فى الشريعة ، وكان يقول : « أنفع الفقر ماكنت به متجملا وعنه راضيا » ويذكر بروكلمان له كتابا فى الزهد سماه « دواء القلوب ومعرفة هم النفس وآدابها » ويقول إن الغزالى ينقل عن هذا الكتاب كثيرا . وتلميذ الدارانى الثانى أو مريده ابن أبى الحَوَارِىّ أحمد توفى سنة ٢٣٠ وكان من بيت زهد ، فأبوه من الورعين وكذلك ابنه عبدالله ، وذُكر عند الجنيد متصوف بغداد فقال : « ريحانة الشام » . وكان يعاصره الشيخ أبو عبيد وان عابدا تقيا صالحا توفى سنة ٢٣٨ وقد وهب نفسه للغزو وجهاد أعداء الله .

ونلتقى فى طَرَسُوس دار حرب الروم بالشيخ أبى الحارث الفيض بن الخضر الأولاسى المتوفى سنة ٢٩٧ وكان أحد الزهاد العباد وله إشارات ولسان حلو وأقوال عالية ، وهو منسوب إلى أولاس فى نواحى طرسوس ، وكان بها حصن يسمى حصن الزهاد ، وكأنما اتخذوه رباطا لحرب أعداء الإسلام . وهو شاهد على ماقلناه مرارا فى كتاباتنا من أن زهادنا ومتصوفتنا كانوا دائما يرون من تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطوا له فى الثغور ، حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون . وكان يعاصر الأولاسى أحمد بن يحيى

---

(١) يقول ابن جبير فى كلامه عن دمشق سنة ٥٧٨ كان الخير يتال على الغرباء من الخطباء والمطعين لاف دمشق وحدها بل أيضا فى القرى والضياع ، ومن سئم المقام فيها متى سئم المقام يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودى (شمالى الموصل) فيلتى بهما المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء .

المعروف باسم ابن الجلّاء المتوفى سنة ٣٠٦ تلميذ ذى النون المصرى مؤسس التصوف الإسلامى كما سنذكر ذلك فى حديثنا بجزء مصر، وتلمذته لذى النون تجعله أول متصوف شامى بالمعنى الحقيقى. وكان ذو النون يجمع بين الشريعة وفروضها وبين الحقيقة الصوفية الروحية ، فلا تعارض بين الشرع والتصوف ، بل هما متلاحمان ، وعنه أخذ ذلك ابن الجلاّء كما أخذ بقية مبادئه الصوفية من التوكل والحب الإلهى . ويقول ابن تغرى بردى إنه أحد مشايخ الصوفية الكبار ، ويقول مريده وتلميذه الرُّقّى محمد بن داود : « لقيت نيفا وثلاثمائة من المشايخ المشهورين ، فما لقيت أحدا بين يدى الله وهو يعلم أنه بين يديه أهيب من ابن الجلاء » . وعاش الرقى بعده فى الشام إذ توفى بعد سنة ٣٥٠ . ومن مريديه وتلامذته فى الشام أبوعمرو الدمشقى المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يقول : « التصوف رؤية الكون بعين النقص بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهَد مَنْ هو منزه عن كل نقص » يريد تعلق التصوف بالرؤية الإلهية التى يغض فيها المتصوف بصره عن كل مايشاهده فى الكون أملا فى أن يفنى فى الذات الربانية ، وذكر مترجموه أن له كتابا فى الرد على القائلين بقدم الأرواح .

ومن كبار المشايخ فى الشام أحمد بن عطاء الروذْبارى المتوفى سنة ٣٦٩ وهو ابن أخت أبى على الروذْبارىّ شيخ الصوفية فى الفسطاط ، أما هو فكان شيخ الشام فى وقته ، وكان ممن جمع بين الحقيقة وعلم الشريعة . ودخل الشام محمد بن خَفِيف الشيرازى شيخ المشايخ المتوفى سنة ٣٧١ ويحكى أنه : « دخل مدينة صُور وهو جائع عطشان وفى وسطه خرقة المتصوفة ، يقول : فدخلت المسجد ، فإذا شابّان مستقبلا القبلة فسلمت عليهما فما أجابانى ، فقلت : ناشدتكما الله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع أحدهما رأسه من مرقّعته الصوفية فنظر إلىّ وردّ السلام وقال لى : يابن خفيف الدنيا قليل ومابقى من القليل إلا قليل ، فخُذْ من القليل الكثير ، فذهب جوعى وعطشى ونَصبى (تعبى) فلما كان وقت العصر قلت له : عِظْنى ، فقال : يابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا عظة . وربما كان أهم تلامذة أحمد بن عطاء الروذبارى ومريديه محمد بن إبراهيم السوسى شيخ الصوفية بدمشق المتوفى سنة ٣٨٦ وكان زاهدا عابدا ماعقد على درهم ولادينار . وظل كثيرون من العباد والنساك يؤثرون جبال الشام ويقيمون بين ربوعها ويذكر المقدسى الجغرافى المتوفى حوالى سنة ٣٧٥ أنه لقى فى جبل الجَوْلان شرقى الشام أباإسحق البلوطى فى أربعين رجلا يقتاتون البلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برّىّ ويلبسون الصوف . وينبغى أن نذكر أن المتصوفة كانوا غالبا لايستقرون فى أوطانهم ، بل يرحلون سائحين للقاء مشايخ

الصوفية . ومعنى ذلك أن الشام كانت تستقبل كثيرين منهم . وكان يحدث كثيرا أن يتخذوها دار مقام كما صنع الدارانى الواسطى وأحمد بن عطاء الروذبارى . وغيرهما كثيرون مثل الختلى نزيل الشام المتوفى سنة ٤٥٣ وهو أستاذ الهجويرى الغزنوى الأفغانى ، وكانت أكثر إقامته بالديار الشامية . ومعنى ذلك أن الشام كانت دائما ساحة كبرى للنسك والتقوى والعبادة .

ومانصل إلى سنة ٤٨٨ حتى ينزل الإمام الغزالى الطوسى الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ، وكانت قد انتابته أزمة روحية من الخلافات العنيفة بين الفرق والملل وحتى بين الفقهاء فى فروع الشريعة . وقد أوضحنا ذلك فى حديثنا عن الزهد والتصوف بإيران فى الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربى وكيف أخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ، وحمل على فرقة الإسماعيلية الشيعية حملة عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » . وكان قد رأى فى موطنه ضعف الوازع الدينى عند طوائف الصوفية ، وأن جماعات منهم كانت تُسْقط عن نفسها الفرائض الدينية ، بينما كان منهم من يؤمن بالحلول والاتحاد بالله والفناء فيه . وكل ذلك أشعل بينهم وبين الفقهاء حربا شعواء ، وأخذ الغزالى يفكر فى كل ذلك على هدى ما كتبه أبو نصر السراج والقشيرى فى رسالته ، ورأى أنه لابد من الوصل بين التصوف والشرع ، فلا تصوف بدون الفرائض والنوافل ولاصلاة بدون عمل القلب والإخلاص وصدق السريرة ، وأخذ يؤلف موسوعته الرائعة « إحياء علوم الدين » بقصد تنمية الجوانب الروحية فى الفرائض الشرعية وبيان الوسائل إلى ذلك بحيث تصل النفس إلى مبتغاها من محبة الله . وأتمَّ الكتاب فى دمشق . واستقبلته استقبالا عظيما لأن متصوفتها لم يكونوا قد انحرفوا بتصوفهم إلى مزالقه التى وصفناها فى إيران ، بل كانوا دائما يجمعون بين التصوف والشريعة ، إلا من دفعته السياحة إلى ديارهم من متصوفة إيران .

على كل حال كانت إقامة الغزالى بدمشق وبيت المقدس فاتحة التئام وثيق بين الفقهاء والمتصوفة ، وزاد هذا الالتئام توثقا نزول حملة الصليب بديار الشام ، ولعل ذلك ماجعل حكامها التابعين للدولة السلجوقية يأخذون فى العناية ببناء الخانقاهات للمتصوفة ، من ذلك بناء دقاق بن تتش لخانقاه الطواويس بدمشق . ودعم هذا التصوف السنى عناية نور الدين ثم صلاح الدين وسلاطين الحكم الأيوبى ونساؤهم وأمراؤهم ببناء الخانقاهات والرُّبُط فى ديار الشام ووَقْف الرواتب والأموال التى تنفق على متصوفتها عن سعة . وقد عدَّ ابن شداد فى الجزء المنشور من كتابه الأعلاق الخطيرة الخاص بدمشق خانقاهاتها وحدها فبلغت تسع عشرة وبالمثل عد رباطاتها فبلغت أيضا تسعة عشر رباطا . وكان لايزال يخرج منها صفوف وجنود لجهاد حملة الصليب . وفى هذه

الأثناء ظهرت ببغداد طريقة صوفية سنية هى الطريقة القادرية لمؤسسها الشيخ عبدالقادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ واعتنقها كثيرون لا فى العراق وحدها بل أيضا فى الشام والبلدان العربية . وتبعها ظهور طريقة صوفية سنية ثانية هى الطريقة الرفاعية لمؤسسها الشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ وانتظم فيها كثيرون فى العراق والشام وشاعت سريعا فى العالم العربى .

ومعنى ذلك أن التصوف السنى الجامع بين علم الحقيقة أو علم التصوف وبين علم الشريعة أو علم الفقه وما يتصل به من السنة تداخلت عوامل كثيرة فى أن يكون هو التصوف الشائع فى الديار الشامية . وحاول التصوف الفلسفى القائم على أفكار الحلول والاتحاد بالله أن يتسرب إلى الشام عن طريق يحيى السهروردى الإيرانى ، وكانت له فلسفة صوفية إشراقية ألممنا بها فى حديثنا عنه فى الفصل الرابع من قسم إيران ، وذكرنا هناك بأنه كان يؤمن بأن النبوات لا تتقطع وأن الحكيم الصوفى من أمثاله أفضل من الأنبياء ، وكفَّره فقهاء حلب وحملوا الملك الظاهر بن صلاح الدين على قتله ، فقتله سنة ٥٨٧ للهجرة .

وكان من أثر دخول الشعوذة على التصوف ، وخاصة فى إيران ، ظهور فرقة بدمشق سنة ٦١٩ تسمى القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، لا يتقشفون ولا يتنسَّكون ولا يصلون سوى الفرائض ، ويحلقون لحاهم وحواجبهم . وتسرَّب ثانية إلى الشام جدول صوفى فلسفى زاخر على لسان محيى الدين بن عربى المولود بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠ وقد تلقى تعاليمه فى إشبيلية وفارقها فى الثلاثين من عمره إلى المشرق لحج بيت الله الحرام . وظل فى مكة فترة ثم بارحها مطوِّفا فى البلاد العربية ودخَل الأناضول ، وألقى عصاه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ . وكان إماما فى التصوف الفلسفى القائل بوحدة الوجود وصنَّف كثيرا من الكتب أهمها الفتوحات المكية والفصوص ، وله غير ديوان ، ومن أهم دواوينه ترجمان الأشواق ، وكان شاعرا مبدعا كما كان كاتبا بارعا . وعلى الرغم من اتجاهه الفلسفى فى التصوف استطاع أن ينجو من العامة والفقهاء ، فلم يحكموا عليه بالكفر أو الإلحاد كما حكموا على السهروردى ، بل لقد وجد بينهم مريدين كثيرين مما هيأ فيما بعد لكى يظل التصوف الفلسفى – على قلة – حيًّا بجانب التصوف السنى ، وكانت عباراته فى كتاباته تحتمل ظاهرا وباطنا ، ظاهرا مع السنة وباطنا مع التصوف الفلسفى ، وجعل ظاهرها كثيرين يبرئونه من تهمة الإلحاد على نحو ما مر بنا فى مصر عند الشعرانى .

وتُعنَى دولة المماليك بالخانقاهات والرُّبُط وزوايا المتصوفة ، وترصد لها أموالا كثيرة ، مما كان سببا فى ازدهار التصوف وازدياد طرقه بجانب طريقتى القادرية والرفاعية السالفتين ، فشاعت فيه

كما مر بنا آنفا الطريقة القلندرية . ودخلته الطريقة المولوية ، ومؤسسها جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٣ وتبع هذه الطريقة كثيرون . ونزل الشام عفيف الدين التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٠ وكان صوفيا فلسفيا يؤمن بمذهب وحدة الوجود واحتمله فقهاء الشام فيما يبدو لحسن عشرته .

ولعل فقيها لم يحمل على الصوفية كما حمل ابن تيمية الحنبلى المتوفى سنة ٧٢٨ . وكان يحمل على أصحاب التصوف الفلسفى . وهذا طبيعى . وحمل أيضا على أصحاب التصوف السنى من أتباع الشيخ أحمد الرفاعى لما كانوا يأتون من أعمال شاذة كنفوذهم من النار المضطرمة ، وأكلهم الحيات وهى حية ، ولبسهم أطواق الحديد الثقيلة فى أيديهم ، ولفهم شعورهم وتلبيدها . وثار عليهم ثورة عنيفة بدمشق واجتمع الناس إليه ، فذهب بهم إلى نائب السلطان وعرَّفه ماتصنعه هذه الطائفة من بدع عجيبة ، فأمرهم بالكف عنها . أما أصحاب التصوف الفلسفى وما يتصل به من القول بالحلول ووحدة الوجود فقد أشعل ابن تيمية ضدهم نارا حامية ظل يُذْكيها بوقود جزل يزيدها لهبا واضطراما ، واصطلى النار الباجريقى محمد بن عبد الرحمن ، وكان قد تزهد وتصوف فصحبه جماعة من الأراذل ، فهوَّن لهم أمر الشرائع وأراهم بوارق شيطانية ، وكان يقول لهم : إن الرسل طوَّلتْ على الأمم الطريق إلى الله تعالى ، وزعم أنه وصل فى سلوكه إلى السماء الرابعة ، وحُكم عليه بإراقة دمه فاختفى إلى أن مات سنة ٧٢٤ . ودعا إلى مقالاته بعده متصوف من متصوفة خانقاه السميساطية بدمشق يسمى عثمان بن عبد الله الدُّوكالى ، وشاع أمره فقُبض عليه ، وكان ممن شهد عليه فقيهان كبيران هما المزّىّ والذهبى ، فحُكم عليه بالقتل سنة ٧٤١ .

وشاعت فى الشام لأواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجرى الطريقة النقشبندية ، ومؤسسها محمد النقشبندى المتوفى سنة ٧٩١ . وأخذت تشيع معها لأواخر زمن المماليك الطريقة البكتاشية التى تدين بالنظريات الحلولية ولاتقيم وزنا للسنن والفرائض الدينية وتقدس عليا والأئمة من بعده . ومنذ القرن الثامن الهجرى نحس بوضوح أن العامة تخضع لمشايخ الطرق الصوفية بأكثر مما تخضع للفقهاء وعلماء الدين ربما بسبب خضوعهم للحكام بخلاف مشايخ الطرق الصوفية فإنه لم يكن لهم أى تعلق بالدنيا وكانوا يكتفون بما يجرى على خانقاهاتهم من أموال ولم يكن الشيخ يمدُّ يده للحاكم يأخذ منه مالا . وكانوا كثيرا مايحملون على الحكام إذا رأوهم انحرفوا عن الطريق السَّوىّ . وتحول كثير من أتباعهم إلى دراويش يطوفون فى العالم الإسلامى ، وكان لهم أثر غير قليل فى حِفاظ العامة على الروح الإسلامية .

ونمضى إلى زمن العثمانيين فتنشط الطرق الصوفية لاهتمامهم بها ورعايتهم لها ، وتشيع معها

الطريقة الخلوتية ، وبعظم أمر الدراويش ويكثرون فى العالم الإسلامى . ومما لا شك فيه أنه كانت تكثر الطرق الصوفية المخلصة التى تعنى بالنسك والعبادة ، وإن كان من الحق أنه أساء إلى هذه الطرق الدراويش المتسولون الذين كانوا يتكففون الناس . وهم دراويش رُحّل كانوا يعيشون معيشة مطلقة ، وقد يتحللون فيها من الفرائض الشرعية . وبدون ريب كان بينهم من يتخذ الدروشة خداعا للناس ووسيلة إلى البطالة . ومع ذلك لانعدم أن نجد من حين إلى حين صوفيا حقيقيا يحاول النفوذ إلى معرفة أسرار الكون وخفاياه والتخلص من عالم الحس المادى للفناء فى عالم الحقيقة والحب الإلهى ، على نحو مانجد عند عبد الغنى النابلسى المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة وقد تقلب بين الطرق الصوفية وعكف على دراسة أئمة التصوف الفلسفى وغير الفلسفى ، ولقى كثيرا من شيوخ الصوفية فى لبنان وفلسطين ومدن الشام والحجاز ومصر ، وكان شاعرا كما كان ناثرا .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظهرت الشام على مسرح الحضارة العالمية منذ أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهيأها لذلك موقعها بين حضارتى وادى النيل ووادى دجلة والفرات ، مما جعلها تنتقل سريعا من عالم البداوة والرعى إلى عالم الزراعة والاستقرار ، وكان مما أسرع بها إلى هذه الغاية وقوعها فى مفترق طريق العالم على الحافة الشرقية للبحر المتوسط ، مما أتاح لها أن تكون دولة بحرية على الأقل فى شواطئها فتشارك فى الملاحة والتجارة على نحو ماهو معروف عن الفينيقيين وإتقانهم لفنى التجارة والملاحة ، وقد استطاعوا أن يشتقوا من حلل الحروف الهيروغليفية المصرية أبجدية لهم ، هى أم الأبجديتين اليونانية والرومانية اللاتينية . وقد أخذت الشام تعيش عصرا هيلينيا منذ دخلها الإسكندر المقدونى ، ومضت تتعمق الثقافة الهيلينية فى زمن خلفائه السلوقيين اليونانيين وزمن الرومان ، واستطاع كثيرون من أهلها أن يتقنوا اليونانية وأن يسهموا فى تراث اليونان الفكرى والأدبى ، وبخاصة سكان الثغور من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا . ولمعت أسماء كثيرين من أبناء هذه الثغور فى مجال المشاركة الفلسفية وبخاصة فى صور وصيداء ، سماهم وتحدث عن نشاطهم الفكرى فيليب حتى وخاصة فى مجال الفلسفة الرواقية والأفلاطونية الحديثة ، إذ ذكر أنه كان فى بيروت مدرسة تعنى بدراسة القانون الرومانى منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، ويستظهر أن تكون اللاتينية لغة التعليم بتلك المدرسة ، وإن كانت قد عادت مع أوائل القرن الخامس وسيطرة القسطنطينية عليها إلى اللغة اليونانية . وبالمثل شارك أبناء الثغور الشامية فى الأدب اليونانى ولمع فى صيداء اسم غير شاعر كان ينظم باليونانية .

وكل ذلك كان يصل الشام فكريا وفلسفيا وأدبيا ولغويا بالثقافة اليونانية ، وإذا كانت قد اشتقت أبجديتها من الأبجدية الفرعونية ، فإن مصر أثرت فيها تأثيرا بعيدا فى عصرها المسيحى ، إذ

أخذت عنها الرهبنة التي أسسها أحد قساوستها في أواسط القرن الرابع للميلاد ، وكانت أول بلدة شامية استجابت إليها غزّة لقربها من مصر ، ومنها انتقلت إلى كل بلدان الشام حتى أنطاكية ، وكانت طوال العصر الهيليني تُعدّ ثالثة المدن في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية والإسكندرية .

ومما يدل بوضوح على مدى تأثير الهيلينية في الشام أن نراها تتعمق باديتها أيام الرومان إلى دولة تدمر النبطية حين بلغت الذروَة الطامحة إليها في عهد أُذَيْنَة . وحين خلفته في الحكم أرملته زنوبيا اتخذت لونجينوس الذى علمها اليونانية مستشارًا لها ، ويظن أنه كان حمصى الموطن ، وقد أعدمه الرومان بعد قضائهم على زنوبيا سنة ٢٧٣ م . وهو يوضع في سلسلة النقاد المتأخرين من اليونان لما خلف من أفكار نقدية وبلاغية كثيرة .

وكل ذلك معناه أن الشام حين فتحها المسلمون كان بها تراث يونانى ومسيحى[١] يعدها للمشاركة سريعا في نشاطها العلمى والأدبى بمجرد دخول الإسلام في ربوعها الذى كان يدفع أتباعه دفعا إلى التزود بالعلم والمعرفة . وقد دخل أهل الشام في دين الله أفواجا ، وكان من حولهم الصحابة الفاتحون لديارهم ، وُعنى كثيرون منهم بإقراء من أسلموا القرآن وعرّض أحاديث الرسول عليهم ، حتى يفقهوا فقها حسنا تعاليم دينهم الحنيف . وكانوا مايزالون يفتونهم في المسائل حتى يتبينوا الحلال فيتبعوه والحرام فينبذوه . وكان من حسن حظ أهل دمشق خاصة أن نزل بين ظهرانيهم أبو الدرداء أحد حفظة القرآن لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما مر بنا ، وكان أول من تقلد القضاء بدمشق حتى توفى ، وحبس وقت فراغه على إقراء الناس القرآن ، وقد بلغ مَنْ أقرأهم ألفا وستمائة ونيفا ، وكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريف مقرئ ، وكان يقف في محراب الجامع يراقبهم ويرمقهم ببصره . وإذا غلط واحد من أى عشرة رجع إلى عريفه ، وإذا شك العريف في شيء رجع إلى أبى الدرداء ، وأيضا يرجع إليه كل قارئ من العشرة إذا أحكم قراءة القرآن واستظهره جيدا[٢] . وهذا العدد الضخم من حفظة القرآن في دمشق لأول عهدها بالإسلام يوضح مدى إقبال أهلها على العلم بالإسلام ، وكان هناك كثيرون يفسرون لهم آيات منه كما كان هناك كثيرون يفتونهم ، ونهض بذلك من نزل ديارهم من الصحابة واتخذوها موطنا ، ثم

---

(١) انظر في هذا التراث وكل ماذكرت آنفا كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » لفيليب حتى – الجزء الأول – الترجمة العربية .

(٢) انظر ترجمته في كتاب « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزرى (نشرة برجستراسر) ١/٦٠٦ .

من حملوا عنهم علمهم من التابعين . وأصبحت دمشق سريعا حاضرة الخلافة الإسلامية منذ وليها معاوية ، وطبيعي أن يعنى الأمويون بمن يفقّه الناس فى شئون دينهم ، ومن يَرْوى لهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كبار الحفاظ ، ومن يفسر لهم بعض آى الذكر الحكيم ، ومَنْ يعظهم ويبلغ تأثير وعظه شغاف قلوبهم . وكان هناك القضاة الذين يحكمون بين الناس بالحق ، ويفتونهم فيما يجدُّ من شئونهم .

ومعروف أمْر عمر بن عبد العزيز لواليه على المدينة أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم : أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أوسنته أو نحو هذا فاكتبه لى ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، وكتب بمثل ذلك إلى الآفاق ، وتوفى سريعا قبل تمامه . وكان أول من صدر عن هذه الرغبة العظيمة ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة . وتدوينه للحديث أول تدوين عام له ، وأخذ تدوينه بعده يتسع فى الشام وغير الشام .

وسجلت الشام مبكرة سبقا فى قراءة القرآن وإتقانها ، فإن عريفا ممن كانوا يقومون على عشرة من حفظة القرآن بين يدى أبى الدرداء هو عبد الله بن عامر المتوفى سنة ١١٨ للهجرة استطاع أن يبلغ من إحكام قراءة الذكر الحكيم أن يكون له قراءة مستقلة ، وأن يكون أحد القراء السبعة المشهورين فى الأمصار الإسلامية لزمنه وبعد زمنه . وماتلبث بأخرة من العصر الأموى وأوائل زمن الولاة فى العصر أن نلتقى بفقيه مجتهد ، وبلغ من اجتهاده أن أصبح إماما فى الفقه وصاحب مذهب مستقل هو الأوزاعى أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو المتوفى سنة ١٥٧ ببيروت مسقط رأسه . ومعنى ذلك أن الحركة العلمية التى بعثها الأمويون فى الشام وقاموا عليها بما كانوا ينفقون على علماء الدين فى كل بلد شامى من أموال آتت ثمارها ، فإذا الشام يصبح لها إمام فقيه يتدارس الفقهاء فقهه وكتبه فى الأجيال التالية ، وكذلك يصبح لها قارئ من القراء السبعة يقرأ أهل الشام بقراءته حقبا متعاقبة .

ونشطت الدولة الأموية لترجمة علوم الأوائل اليونانية وبعض الرسائل الأدبية الفارسية ، وسنلمُّ بذلك فى غير هذا الموضع ، إنما نهتم الآن بمتابعة الحركة العلمية الدينية واللغوية ، ودائما توجد مع العناية بالقراءات عناية واسعة باللغة والنحو ويقوم عليهما مؤدبون ، يعلمون الناس العربية فى المساجد حتى لايخطئوا فى تلاوة الذكر الحكيم . ولم يقصِّر الخلفاء وأمراء البيت الأموى فى تأديب أبنائهم وإحضار المعلمين لهم ، وفى كتب الأدب لهم وصايا لمؤدبى أبنائهم وكيف يهذبونهم ويقوِّمون ألسنتهم . وكانوا ابتغاء دربتهم على العربية والنطق الفصيح يرسلون أحيانا بهم

إلى البادية ، حتى يتزودوا باللغة من ينابيعها الأصلية ، وكان الوليد بن عبد الملك يلحن أحيانا ، ولاحظ ذلك أبوه فقال : «أضرَّ بالوليد حبُّنا له فلم نوجِّهه إلى البادية»[1] .

وظل هذا النشاط فى تعلم اللغة بجانب النشاط فى تعلم الدراسات الدينية ، وأخذت تتوالى طبقات فى زمن الولاة العباسيين تجعل همها التعليم فى المدن وأيضا فى القرى ، والدولة لاتقصّر ، بل دائما تُجْرى عليهم الرواتب ، مما دفع إلى ظهور علماء فى كل فرع من فروع الدراسات الدينية واللغوية .

ويُظِلُّ الشامَ عهدُ الطولونيين ثم عهد الإخشيديين وتزيد إدْرارات الرواتب على العلماء ويطَّرد النشاط العلمى فى الشام . واهتم معاوية أول خليفة أموى بأخبار الأمم القديمة ، واستقدم لذلك من اليمن عَبِيد بن شَرْيَة الجرهمى ، وجعلها عيد موضوعا لسمره وأحاديث معه ، وجمَع كثيرًا من هذه الأحاديث فى كتاب له سماه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» ، طُبِعَ له فى حيدر آباد مع كتاب التيجان فى ملوك حمير ويلقانا منذ القرن الرابع للهجرة مؤرخون مختلفون فى الشام ، على نحو ماسيتضح ذلك فى نهاية الفصل ..

وجدير بنا أن نقف قليلا عند حركة علمية وأدبية باهرة دفع إليها سيف الدولة الحمدانى (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ) حين أظلَّ لواءه حلب وإقليمها ومادان لحكمه من أنطاكية وحماة وغيرهما من بلاد الشام ، ومر بنا حديث عن بطولته الخارقة وكيف كان يقف درعا ، بل سَدًّا منيعا للبلاد العربية أمام البيزنطيين وكيف نكّل بهم وبجموعهم مرارا وتكرارا . وبجانب هذه البطولة الخارقة كان راعيا عظيما للعلوم والآداب والفنون فى زمنه ، مما جعل حلب عاصمته تصبح كعبة للقصاد من الفلاسفة أمثال الفارابى المعلم الثانى أكبر فلاسفة المسلمين حتى أيامه ، ومن اللغويين والنحاة أمثال أبى على الفارسى وابن جنى وابن خالويه . وسنراه عما قليل يرعى علماء الطب وأفذاذه ، كما يرعى بعض المنجمين . أما الشعراء فلم يجتمع بباب أحد من الأمراء – بعد الخلفاء – مااجتمع ببابه كما يقول الثعالبى ، وقد أفرد له ولشعرائه فصولا طويلة فى الجزء الأول من كتابه اليتيمة أمثال النامى والببغاء والوأواء الدمشقى والخالديين والسَّرِىّ الرَّفاء وكُشاجم وابن نباتة السعدى . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق شاعر فى الشام والعراق وإيران إلا قدم إليه مدائحه ، ويكفى أنه نزل عنده لمدة

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٠٥ .

تسع سنوات أعظم كوكب فى سماء الشعر العربى لزمنه : المتنبى الذى ملأ الدنيا بوصفه لبطولته وملاحمه مع الروم .

وتحكم الدولة الفاطمية الشام نحو قرن ، وفى أثنائه يتقلص حكمها عن حلب إذ لم تكد تستقر فى يدها لأوائل القرن الخامس الهجرى حتى استولى عليها بنومرداس كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ولايبقى معها فى العقد السابع من هذا القرن سوى صور وجنوبيها على شاطئ البحر المتوسط حتى غزة . ومن يرجع إلى كتب التراجم فى تلك الفترة يجد هناك كثيرا من طبقات العلماء من محدثين وفقهاء وقراء ومفسرين ونحاة . وليس بين أيدينا نصوص توضح مدى الرواتب والأموال التى كان يبذلها الفاطميون ونوابهم وولاتهم لعلماء الشام . ولكن يكفى أن تكون الشام أنتجت فى هذه الحقب أبا العلاء أكبر مفكر متفلسف إسلامى . وأكبر من تحمل مؤلفاته وأشعاره كل فروع الثقافة لزمنه ، يكفى ذلك للدلالة على ما كانت تحظى به الحركة العلمية والفلسفية والشعرية من خصب وازدهار رائع . وقد استقل بنو مرداس بحلب ، ويصور ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب من تاريخ حلب رعايتهم للشعر والشعراء ، وكان الشعر فيها لايزال حيًّا ناشطا منذ سيف الدولة ، على الأقل من حيث استقبال الشعراء وبذل العطاء لهم . وكان جلال الملك ابن عمار قاضى طرابلس استقل بها لسنة ٤٧٠ وحاول أن يحدث بها حركة علمية شبيهة بما أحدث الفاطميون من دار العلم لعهد خليفتهم الحاكم ، فأنشأ بها دارًا سماها بنفس الاسم ، وجعلها على غرارها فى تنوع الدراسات بها وفى جَلْب الكتب الكثيرة إليها[1] ، وكان من الممكن أن تحدث هذه الدار نشاطا علميا واسعا فى الشام ، غير أن حملة الصليب سرعان ماقدموا واستولوا على طرابلس سنة ٥٠٢ وأقاموا فيها إحدى إمارتهم ، وبذلك وُئِدَتْ حركتها العلمية وهى لاتزال ناشئة فى المهد .

ويدخل أكثر الشام فى حكم السلاجقة كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، وكان وزيرهم نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥ رأى أن ينشئ مجموعة من المدارس فى المدن الكبيرة لدولتهم فى إيران والعراق لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر المذهب الشافعى والعقيدة الأشعرية الكلامية ، وعُرفت كل مدرسة من هذه المدارس باسم المدرسة النظامية . وكان السلاجقة كلما دان لهم بلد لم يلبثوا أن أسَّسوا فيه مدرسة ، وظلت المساجد بجانب مدارسهم ساحات كبيرة للعلم والمعرفة ، وهو ماجعل العلم العربى بجميع فروعه شعبيًّا ، فكل فرد من أفراد الشعب يحق له أن يجلس إلى أى حلقة من

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد على ٦/٦٧ وما بعدها

حلقات الشيوخ ، أما إذا انتظم فى مدرسة فإنه كان يأخذ راتبا معينًا يكفل له الحياة . وكان السلاجقة يفسحون فى بناء المدارس لقوادهم ولذوى الثراء . وأول مدرسة بنيت فى دمشق المدرسة الصادرية[١] بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله لدراسة الفقه الحنفى سنة ٤٩١ . وفى سنة ٥١٤ بنى أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة أول مدرسة [٢] للشافعية ، ثم بُنيت للأحناف المدرسة الطرخانية سنة ٥٢٥ وبعدها بقليل بنيت لهم المدرسة البلخية . وبنيت فى هذه الأثناء أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ وهى المدرسة الزجاجية بناها حاكمها الأرتقى بدر الدولة أبو الربيع سليمان

ويُظلُّ الشام لواء الزنكيِّين عماد الدين ونور الدين محمود وخليفته صلاح الدين ثم الأيوبيين ، وتتنفس الصعداء ، فبالرغم من أن هؤلاء الحكام كانوا فى شغل مستمر بحروب حَملة الصليب وهدم قلاعهم وحصونهم كانوا يبنون ويؤسسون المدارس لفقهاء المذاهب الأربعة ، ومضى على منوالهم المماليك بحيث تزدهر فى الشام نهضة علمية رائعة . وكان يوقف على كل مدرسة أوقاف دارَّة تكفل للمدرسين والمعيدين رواتب مجزية . وكان يلحق بالمدرسة مبان للطلاب ، يقدَّم لهم فيها الغذاء ، ويقيمون فيها للراحة والنوم . وكانت تلحق أيضًا بالمدرسة خزانة كتب يختلف إليها الطلاب للقراءة والبحث ، وكان يقدَّم إليهم الورق وأدوات الكتابة . ويذكر ابن جبير فى رحلته لسنة ٥٧٨ أنه رأى بدمشق عشرين مدرسة وبحلب خمس مدارس يقول : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين ، وبها قبره نوَّره الله ، وهى قصر من القصور الأنيقة » بناها سنة ٥٦٣ لأصحاب الفقة الحنفى . وقد أخذت المدارس تتكاثر كثرة مفرطة فى دمشق وحلب وغيرهما من بلدان الشام . ولم يقف تشييدها عند السلاطين الأيوبيين ، فقد اشترك معهم فيها نساؤهم وقوادهم والأمراء من بينهم خاصة حكام البلدان الشامية ، كما اشترك بعض ذوى اليسار . وقد عدَّ ابن الشحنة منها فى كتابه الدر المنتخب فى مدارس حلب نحو خمسين مدرسة فى بلدة شامية واحدة أُسست بين سنتى ٥١٦ و ٥٦٥ وجاء بعده ابن شداد ، فعد للدمشق فى سنة ٦٨٠ وهى سنة تأليفه للأعلاق الخطيرة أربعة وثلاثين مدرسة حنفية وأربعين مدرسة شافعية وثلاثة مالكية وعشرة حنبلية . ويعكس هذا العدد حقيقة كبرى هى مدى شيوع هذه المذاهب فى الشام فأكثرها انتشارًا

---

(١) الأعلاق الخطيرة لابن شداد : تاريخ مدينة دمشق ص ١٩٩ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٤٢٩/١ .

(٢) سميت الأمينية نسبة إلى مؤسسها ، ويقال إنه بنيت قبلها مدرسة سميت الجاروخية وانظر فى حديثنا عن المدارس للمصريين السابقين .

فيه المذهب الشافعى ثم المذهب الحنفى ثم المذهب الحنبلى ثم المذهب المالكى . ولم يُبنَ للمذهبين الأخيرين مدارس إلا فى عهد الأيوبيين منذ صلاح الدين . وكان بيت المقدس يحتفظ هو الآخر بمدارس المذاهب الأربعة ، وعلى شاكلته كثير من مدن الشام الكبرى ، وفى ذلك يقول ابن خلكان عن نور الدين محمود إنه « بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج »[1] . وبجانب مدارس المذاهب الفقهية عنوا بتأسيس مدارس الحديث النبوى ، من ذلك دار الحديث النورية التى أسسها نور الدين محمود بدمشق ، وولّى مشيختها الحافظ المؤرخ الكبير ابن عساكر . وبنى الأشرف موسى الأيوبى صاحب دمشق دار حديث بها ثانية سنة ٦٣٠ وألحق بها خزانة كتب ومسكنًا لشيخها ، ووقف عليها أوقافًا كافية ، وأسند مشيختها إلى ابن الصلاح الحافظ المحدث المشهور ، وفيمابعد أسندت إلى الإمام الشافعى : النووى .

وبدون ريب بعثت هذه المدارس الكثيرة كثرة مفرطة بالشام نهضة علمية باهرة ، فكثر العلماء فى كل علم حتى ليروى العماد الكاتب فى كتابه « الفتح القدسى » أنه وُزِّع فى إحدى المناسبات على علماء دمشق ستمائة دينار فخصَّ كل عالم دينار واحد[2] ، أى أنه كان بها حينئذ ستمائة عالم غير من لم يشملهم التوزيع ومن لم يحضروه . ومابالنا إذن بما كان ينفقه نور الدين بل صلاح الدين بعده على العلماء والمدارس ، لابد أنه كان يبلغ مئات الألوف من الدنانير . وساعد على هذه النهضة نور الدين وصلاح الدين وسلاطين أسرته : ويروى ابن خلكان فى ترجمة نور الدين إنه كان لايزال يحتاج إلى الأموال الكثيرة فى حربه لحملة الصليب فقال له بعض أصحابه إن فى بلادك إدرارات وصدقات وصلات كثيرة على قراء الذكر الحكيم والفقهاء والصوفية ، ولو استعنت بها لكانت أصلح ، فغضب من ذلك غضبا شديدًا وزجر صاحبه زجرًا عنيفا . وكان صلاح الدين على شاكلته فى العناية بالفقهاء والقراء والصوفية ، وكان يختلس من أوقاته مايعطيه الفرصة لحضور مجالس العلماء مهما بعدت الشقة كما حدث فى ذهابه إلى الإسكندرية للاختلاف إلى حلقة السِّلَفى الحافظ المشهور[3] واشتهر المعظم عيسى صاحب دمشق بتعمقه فى الفقه وأنه ألف فيه كتابا وأيضا

(١) ابن خلكان فى ترجمة نور الدين محمود ٥/١٨٥ .

(٢) الفتح القدسىّ ص ٤٨١ .

(٣) سمع ابنه العزيز صاحب مصر بعده الحديث على السلفى أيضا : انظر النجوم الزاهرة ٦/١٢٧ .

فإنه كان يتعمق فى دراسة النحو[١] . فسلاطين بنى أيوب كانوا مثقفين[٢] ، ولذلك حاولوا أن يدفعوا الحركة العلمية إلى الذروة .

ويَعُدُّ صاحب الأعلاق الخطيرة لدمشق نحو ثلاثمائة مسجد غير الزوايا والخانقاهات ، وكثير منها كانت تُلقَى فيه المحاضرات والدروس . وظل هذا الحشد الهائل من الخانقاهات والمساجد والمدارس فى زمن المماليك وأخذوا يضيفون كثيرًا من الخانقاهات ومدارس الفقهاء وغيرهم من علماء الدين والعربية . وحقا كانت كثرة المماليك غير مثقفين ، وهم من هذه الناحية يختلفون عن سلاطين بنى أيوب ، ومع ذلك عنوا عناية واسعة بالثقافة وبناء للمدارس والمساجد والخانقاهات والإنفاق عليها عن سعة ، على أنه عُرِف بعض متأخريهم بمدارسة العلم ورعاية العلماء والأدباء مثل السلاطين : برقوق والمؤيد شيخ وقايتباى والغورى .

ومعنى ذلك أن الحركة العلمية ظلت مزدهرة طوال أيام المماليك ، غير أنه يلاحظ أن نفوذ الفقهاء ازداد فى هذا العصر وازداد معه نفوذ المتصوفة وشاع معه الاعتقاد فى كراماتهم والمبالغة فى ذلك ، وبدون ريب كان بينهم كثيرون أجلاء على معرفة وفقه بصير بالشرع ، ولكن كان بينهم دخلاء مشعوذون جعلوا العامة يتعلقون بالأولياء ، ومنحوهم علم الغيب والقدرة على إنفاذ مايريده المتوسلون بهم . ويقف المستشرقون عندما نزل بابن[٣] تَيمية من محن ، ويحاولون أن يتخذوا من ذلك دليلا على جمود الفكر الدينى حينئذ غير ملاحظين أن ابن تيمية نفسه كان إماما حنبليا يدين بمذهب ابن حنبل وهو أكثر المذاهب سلفية . ومع ذلك كان من أكثر فقهاء عصره تحررًا فكريًّا ، وقد حارب الصوفيةَ فى منازعهم الفلسفية وكل ماقالوا به فى الحلول ووحدة الوجود ، وحارب الشيعة الإسماعيلية ومايزعمون لأئمتهم من العصمة وتمثيل العقل الكلى ومايتصل به من تجسد الإله

---

(١) مختصر مرآة الزمان ٤٢٦ ومابعدها

(٢) مما يذكر عن هؤلاء السلاطين أنه كان لهم بعض مؤلفات ، فكما كان للمعظم عيسى كتاب فى الفقه الحنفى كان للمنصور محمد الأيوبى صاحب حماة كتاب فى تاريخها ومن زارها أو اتخذها مسكنا من الأعلام (مختصر مرآة الزمان ٤٢١) وكان الامجد الأيوبى صاحب بعلبك يحضر دروس الحافظ اليونينى ، وكانوا يعدون حضور مجلس العلماء شرفا ما بعده شرف .

(٣) انظر فى ترجمة ابن تيمية فوات الوفيات ٦٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٩ والمنهل الصافى ٣٣٦/١ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢٢٨/٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٨٤/٢ والدرر الكامنة ١٥٤/١ والقول الجلىّ فى ترجمة الشيخ تقى الدين بن تيمية الحنبلى لصفى الدين الحنفى والكواكب الدرية فى مناقب ابن تيمية لمرعى الكرمى وابن تيمية للشيخ محمد أبوزهرة وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى وأسبوع الفقه الإسلامى ومهرجان ابن تيمية طبع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ودائرة المعارف الإسلامية ومابها من مراجع .

فى الخليفة ، وخصهم بكتابه عن الباطنية . وجعله تحرره الفكرى يفتح باب الاجتهاد على مصاريعه ويفتى فتاوى حرة فى كثير من مسائل الشرع . وجلب عليه ذلك سخط فئات كثيرة وخاصة من الفقهاء وعلماء الكلام الأشعرية ، إذ شملتهم هجماته . وهى هجمات صريحة جريئة ألبت عليه كثيرين من الخصوم فى بيئات مختلفة ، وبدأ ذلك بوضوح منذ سنة ٦٩٨ إذ جاءه سؤال من حماة عما فى القرآن الكريم من آيات قد تفيد التشبيه على الذات العلية إذا فُهمت على ظاهرها مثل : (الرَّحْمن على العرش استوى) و (يَدُ الله فوق أيديهم) ومذهب المعتزلة والأشعرية تأويل مثل هذه الآيات ، وأن المراد فى الآية الاستيلاء على العرش ، ومعنى كلمة يد فى الآية الثانية القدرة . ومذهب الحنابلة ، وهو ماأجاب به ابن تيمية فى رسالة مستقلة : أن واجبًا أن نؤمن بما جاء فى القرآن من هذه الصفات دون كيفية ودون تشبيه بالمخلوقات وأيضًا دون تأويلها فوق طاقة الإنسان . وسرعان مااتهمه الفقهاء الأشاعرة بأنه يرى فى الذات العلية رأى المجسمة أو المشبهة ، ورفعوا أمره إلى قاضى القضاة بدمشق فبرَّأه من التهمة . ونجاه الله من هذه المحنة .

ثم كانت التهمة الثانية لابن تيمية فى سنة ٧٠٥ بسبب حملته على الطريقة الصوفية الرفاعية ومايموِّه به أصحابها على الناس من النفوذ من النار وغير ذلك من كرامات يدَّعونها ، وشكوه إلى نائب السلطنة بدمشق ، فأمرهم النائب أن يكفوا عن حيلهم وخداعهم للناس كما مر بنا . وفى نفس السنة طُلب إلى القاهرة لمناظرة علمائها واجتمعوا له – وخاصة فقهاء الشافعية الأشاعرة – وأخذوا يناقشونه فى إثبات الصفات على الله حسب ظاهرها القرآنى ، فالله استوى – كما يقول – حقيقة على العرش ونحو ذلك . وجادلهم ابن تيمية طويلا موضحًا رأيه فى الإيمان بهذه الصفات دون كيفية ودون إثبات تجسيد على الله ، غير أنهم حكموا عليه بالسجن وظل فيه عاما وبضعة أشهر . ولبث فى القاهرة يعلِّم ويعظ ، وسرعان ماأوقع به خصومه بدعوى حَمْلته على أصحاب المنزع الفلسفى فى التصوف القائلين بالحلول ووحدة الوجود . وسُجن بالإسكندرية ، حتى إذا رقى عرش مصر الناصر بن قلاوون سنة ٧٠٩ ردَّ إليه حريته وأكرمه إكراما عظيما . وفى سنة ٧١٢ عاد إلى دمشق وتفرغ للتأليف والإفتاء ، حتى إذا كانت سنة ٧١٨ وأفتى أن الحلف بالطلاق كالحلف بالله يكفَّر عنه وأن الطلاق بالثلاث يُعَدُّ طلقة واحدة . حينئذ ثارت ثائرة الفقهاء ، حتى أجبروا السلطان على منعه من الفتوى بذلك ، وصدع السلطان لمشيئتهم . غير أنه عاد إلى الإفتاء بما ذكرنا فى سنة ٧٢٠ وعُقد بدمشق مجلس لمحاكمته ، وسُجن ولبث فى السجن خمسة أشهر وأياما ثم رُدَّت إليه حريته . حتى إذا كانت سنة ٧٢٦ أفتى بأن الرحلة إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين

معصية من أشد المعاصى ، فاعتُقل بسبب هذه الفتوى وجُعل فى قاعة حسنة بقلعة دمشق وأقام بها مشغولا بالتصنيف والتأليف ، وبأخرة من أيام سجنه مُنع من الأوراق والدواة والقلم ، ولم يلبث أن توفى سنة ٧٢٨ .

وواضح أن محنة ابن تيمية وسجنه لم يكونا بسبب اجتهاده فى مسائل الشرع وإنما بسبب تعرضه لمسألة عقيدية تتصل بصفات الله وأخرى تتصل بزيارة قبور الأنبياء والأولياء . وكان فى الصفات يأخذ برأى السلف ويترك رأى الأشاعرة والمعتزلة أى أنه لم يكن اجتهادا منه ، أما مسألة الاجتهاد فى الشرع فقد تركها العلماء له . ولسنا بصدد إحصاء آرائه الفقهية الجديدة . إنما حسبنا أن نشير إليها وأن نتخذ منها دليلا — كما مر بنا آنفا — على أن باب الاجتهاد ظل مفتوحا على مصاريعه طوال زمن المماليك حتى بين الحنابلة . واشتهر فى كل مذهب فقهى مجتهدون جدد مثل النووى فى المذهب الشافعى . ونفس آراء ابن تيمية ظلت حية عاملة بعده إلى أن استمدت منها الحركة الوهابية بواعثها بعد أربعمائة من السنين . وإذا كان قد تورط بعض فقهاء الشافعية فى محاكمته بدمشق والقاهرة فإن ابن تغرى بردى يذكر أن كبيرهم فى دمشق ابن الزَّمْلكانى ونظيره فى مصر ابن دقيق العيد أثنيا عليه ثناء عطرا وينقل عن ابن الزملكانى قوله عنه : « العلامة الأوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة إمام الأئمة ، وقدوة الأمة ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، آخر المجتهدين ، أوحد علماء الدين .. محيى السُّنَّة ومن عظمت به لله علينا المِنَّة » .

وعلى هذا النحو كانت الحياة العلمية نشطة مزدهرة فى زمن المماليك ، وكانوا يشجعون العلماء والأدباء ، وطالما اقترحوا على بعض المؤلفين تأليف هذا الكتاب أو ذاك ، وكانت البلاد دارَّة وقضاتها على المذاهب الأربعة يحكمون بين الناس بالعدل . فلما أطل لواء العثمانيين الشام أصابها ماأصاب مصر من انتكاس الحركتين العلمية والأدبية ، ومع ذلك ظلت جذوة منها متقدة فى بعض المدارس والجوامع وخاصة فى الجامع الأموى بدمشق ، إذ ظلت فيه حلقات التدريس . ومرَّ بنا أن الحكم العثمانى بالشام أخذ يسوء سوءًا شديدًا ، وأخذت المظالم فيه تزداد والضرائب تتضاعف ، وكان لذلك أثره فى تدهور الحركتين العلمية والأدبية . وألغى العثمانيون نظام قضاة المذاهب الأربعة الذى وضعه الظاهر بيبرس وظل قائما طوال أيام المماليك ، حتى إذا حكموا البلاد استعاضوا عن هؤلاء القضاة بقاضٍ عام واحد هو قاضى العسكر ، وألغوا استخدام العربية فى دواوين الولاية ، واستخدموا مكانها التركية ، وكان لذلك تأثيره على الكتابة والكتاب ، فلم تعد تكتب رسائل ديوانية ولامناشير وتقاليد بالعربية ، غير أن العربية كانت لغةَ الدين الحنيف ، فظلت

حية فى ديار الشام هى والعلوم الدينية ، وأيضا العلوم اللغوية ، حتى ليلقانا من حين إلى حين نابغون فى الدراسات الدينية وفى الشعر والنقد والتصوف والتاريخ .

٢

علوم الأوائل– علم الجغرافيا

(ا) علوم الأوائل

مرَّ بنا – فى فاتحة الفصل – أن الشام شاركت فى التراث اليونانى منذ انتشرت فيها الثقافة الهيلينية وبخاصة فى ثغورها : صور وصيداء وبيروت وأنطاكية . وظلت هذه المشاركة مستمرة حين اعتنقت المسيحية . فكان كثيرون من سكان الأديرة ورهبانها يعرفون ما لليونان من تراث فى الفكر الفلسفى والعلمى ، ومنهم من كان يحذق اليونانية ، وبذلك كانت الأديرة مراكز للثقافة الهيلينية قبل الفتح الإسلامى وبعده . وبالمثل ظلت أنطاكية وبعض الثغور الشامية تعنى بتلك الثقافة .

ويلقانا فى عهد معاوية طبيبان من الأطباء المتميزين فى دمشق حينئذ هما ابن أثال ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه كان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة[١] ، وأبو الحكم وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية[٢] . وهما يرمزان إلى ما نقوله من أن التراث العلمى اليونانى ، وبخاصة علم الطب ، ظل حيا فى ديار الشام ، مما أتاح لخالد بن يزيد بن معاوية أن يتعلق به ، وقال مترجموه إنه كان يشغف بكتب الكيمياء والطب والنجوم ، كما قالوا إنه أحضر من الإسكندرية بعض الفلاسفة الحاذقين لليونانية والعربية وأمرهم أن يترجموا له كتبا فى الكيمياء ، ويبدو أنه تعمقها حتى استطاع أن يؤلف فيها كتبا ورسائل ، يقول صاحب الفهرست : « رأيت من كتبه كتاب الحرارات وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصيته فى الصنعة (الكيمياء) »[٣] . ونمضى بعد خالد فنلتقى بالخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه نقل تدريس علوم الأوائل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحرّان[٤] وناقش ماكس مايرهوف هذا القول وأثبت بطلانه[٥] ، إذ كانت أنطاكية وحران جميعا من المراكز التى عنيت قديما بدراسة التراث اليونانى . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أنه رأى عمر يستقدم طبيبا من الإسكندرية هو عبد الملك بن

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٥

(٣) الفهرست ص ٣٣٨

(٤) ابن أبى اصيبعة ١٧١

(٥) انظر مقالة ماكس مايرهوف : من الاسكندرية إلى بغداد فى كتاب التراث اليونانى للدكتور عبد الرحمن بدوى

أبجر ، ويتخذه طبيبا[١] له ، ويبدو أنه كان قد تعرف عليه فى أثناء ولاية أبيه على مصر ، فلما ولى الخلافة استقدمه وأسلم على يديه ، وظل يعتمد عليه فى صناعة الطب . وربما دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أيضا أنه أمر بنقل كتاب القس أهرون الإسكندرى فى الطب إلى العربية ، ويبدو أنه كان قد نال شهرة فى علم الطب لزمنه ، ومع ذلك لم يترجمه أحد علماء أنطاكية لعمر ، وإنما ترجمه ماسرجويه[٢] البصرى . ولو أنه فكر حقا فى نقل التعليم – وخاصة تعليم الطب – إلى بلد بالشام لنقله إلى عاصمته دمشق كما صنع خالد بن يزيد بن معاوية .

على كل حال كان التراث اليونانى الفلسفى والعلمى معروفا – طوال زمن بنى أمية – فى أنطاكية وبعض مدن الشام وفى الأديرة ، وأخذت تؤلف بعض الكتب على ضوئه كما صنع خالد ابن يزيد بن معاوية ، كما أخذت تنقل منه إلى العربية بعض الرسائل والكتب . ويروى أن سالما رئيس ديوان الإنشاء لهشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل أرسطاليس إلى العربية[٣] ، ويذكر بروكلمان أنه تُرجِمَ – أيام الأمويين سنة ١٢٥ – كتاب مفتاح أسرار النجوم[٤] . وكل ذلك يؤكد أن جو الشام كان مشبعا بالتراث اليونانى العلمى والفلسفى . وظل المعنيون بعلوم الأوائل يتنفسون فى هذا الجو طوال زمن الولاة العباسيين . ويبدو أن دمشق ظلت تعنى بها وبخاصة الطب ، ومن أطبائها فى القرن الثانى الحكم[٥] بن أبى الحكم ، وكان أبوه طبيب معاوية وقد عُمِّر طويلا حتى لحق القرن الثالث ، وكان طبيبا مسيحيا عالما بأنواع العلاج والأدوية . وكان ابنه عيسى[٦] – على غراره – طبيبا ، واستقدمته أم ولد للرشيد لعلاجها ، وله فى الطب كناش كبير . ويبدو أنه أُسِّس فى دمشق مرصد كبير ، إذ نرى للمأمون يطلب مراجعة جداول بطليموس الفلكية على أرصاد تمت فى بغداد ودمشق ، وقد طلب أن تقاس إحدى درجات خط الزوال[٧] ويعلق على ذلك بروكلمان بأن المسلمين استطاعوا ببحوثهم المستقلة أن يسبقوا معلميهم من الهنود والإغريق فى وقت قصير .

وظلت الشام تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى ، ومن كبار مترجميها عبد المسيح[٨]

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ص ٨٠ ، ٣٢٤

(٣) الفهرست ص ١٧١

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٩٠/٤

(٥) ابن أبى اصيبعة ص ١٧٦

(٦) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٧

(٧) بروكلمان ١٩٦/٤ ويذكر القفطى ص ٢٨١ منجما خبيرا بالكواكب تولى الرصد للمأمون على جبل قاسيون بدمشق ، انظر القفطى ص ٣٥٧

(٨) انظر فى عبد المسيح بروكلمان ٩٥/٤ ودى بور ص ٢٢ وعلوم اليونان لأوليرى ص ٢٢٧

ابن عبد الله بن ناعمة الحمصى المتوفى لعهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو وشرح يحيى النحوى على كتابه : السماع الطبيعى ، وترجم أيضا عن اليونانية كتابًا منسوبًا إلى أرسطو خطأ وهو المسمى أثولوجيا أو ربوبية ، وهو تلخيص مقتبس من تاسوعات أفلوطين الإسكندرى ، ولذلك تشيع فيه نزعة أفلاطونية محدثة .

ونمضى إلى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ويلمع اسم قُسْطا[1] بن لوقا المولود ببعلبك فى أوائل القرن ، وقد ترجم للخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥١ هـ) كتابين : كتاب لثيودوسيوس وكتاب الحيل لهيرون . وذكر له ألدوميلى ترجمات أخرى . وترك مؤلفات كثيرة منها رسالة فى العمل بالكرة الفلكية ، والجامع فى الدخول إلى علم الطب ، ومقدمة إلى علم الرياضيات ، والمدخل إلى الهندسة ، والمدخل إلى علم المنطق ، إلى مؤلفات أخرى كثيرة تتناول فروع العلم والفلسفة ، توفى سنة ٣٠٠ للهجرة . وكان يعاصره مترجم كبير هو حُبَيْش[2] بن الحسن الأعسم الدمشقى وهو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه ، وكان يترجم عن اليونانية والسريانية ، وساعد خاله فى كثير من تراجمه ، ومما ترجمه عهد بقراط وكتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكل كتب جالينوس ، وله كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأغذية . ومن كبار أطباء دمشق سعيد[3] ابن يعقوب الدمشقى وقد ولاه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر أمر مارَستان بغداد سنة ٣٠٢ وله ترجمات كثيرة ، ترجم إيساغوجى (لفوفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب الجدل لأرسطو ، وعُنى بترجمة الكتب الرياضية اليونانية وفى مقدمتها الجزء العاشر من أصول إقليدس وشرحه لبابوس ، ولا يوجد من هذا الشرح سوى ترجمته العربية ، وترجم أيضا كتبا لجالينوس .

وهذه الأسماء التى ذكرناها إنما هى رمز لما ظل بديار الشام من نشاط لعلوم الأوائل والمتعلقين بها طوال القرون الثلاثة الأولى وحقبا من القرن الرابع ، وفيه يقود سيف الدولة - كما مر بنا - حركة أدبية وفلسفية علمية ناشطة فى عاصمته حلب ، مما جعل كثيرين من أعلام الفكر والعلم والأدب فى زمنه يلمُّون بحضرته ، وكثيرا ما كانوا يختارون الإقامة عنده ، وكان ممن اختار المقام ببلاطه فى حلب أكبر فيلسوف عربى فى زمنه الفارابى[4] ، وقد ظل عنده حتى لبىَّ نداء ربه سنة

---

(١) انظر فى ترجمة قسطا القفطى ٢٦٢ وابن أبى أصيبعة ٣٢٩ وبروكلمان ٩٧/٤ وألدوميلى ص ١٦٥ وما بعدها

(٢) راجع فى حبيش القفطى ١٧٧ وابن أبى أصيبعة ٢٧٦ وبروكلمان ١١٧/٤ وألدوميلى ص ١٤٣

(٣) انظر فى سعيد ابن أبى أصيبعة ٢٨٢ وبروكلمان ١١٨/٤ وألدوميلى ص ٢١١

(٤) راجع فى الفارابى وفلسفته ومراجعه كتابنا العصر العباسى الثانى ص ١٤٠ وما بعدها

٣٣٩ . وأحدث نزول الفارابي بحلب نشاطا فلسفيًا وفكريًا ظل سنوات مقامه بها وامتد بعد وفاته ، ومعروف أنه عُنى بمزج فلسفة أرسطو بالمذهب الأفلاطوني الجديد . ولعل مما يدل على اتساع النشاط الطبي والعلمي والفلسفي بالشام لتلك الأيام ماذكره القفطي عن سيف الدولة من أنه كان إذا أكل الطعام وقف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ثم يقول : كان فيهم من يأخذ راتبين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة رواتب لتعاطيه ثلاثة علوم ، ويذكر أن طبيبه المسمى عيسى النفيسي كان يأخذ ثلاثة رواتب : راتبين بسبب إحسانه لعلمين وراتبا ثالثا جزاء ترجمته من السريانية إلى العربية(١) . وذكر القفطي بينهم في موضع آخر من كتابه ابن كشكرايا(٢) وكان طبيبا مشهورا عيَّنه فيما بعد عضد الدولة البويهي بالبيمارستان المنسوب إليه ببغداد ، كما ذكر أيضا بين من كانوا يحضرون مجالس سيف الدولة أبا القاسم(٣) الرقي ، وكان من أصحاب التنجيم وعلم الهيئة والطب .

وهذا نشاط لعلماء الأوائل في بيئة واحدة من بيئات الشام أثناء القرن الرابع ، ويبدو أنه بقيت بقايا من هذا النشاط زمن الفاطميين بدمشق وشاطئ الشام وعند المرداسيين بحلب والسلاجقة في حلب ودمشق ، يدل على ذلك مايلقانا من أطباء مختلفين في تلك الديار مثل اليبرودي(٤) في القرن الخامس وظافر(٥) بن جابر السكرى ومبشر(٦) بن فاتك في نفس القرن ومثل ابن الصلاح(٧) وابن البذوخ(٨) في القرن السادس . ومن المؤكد أن نزول حملة الصليب بديار الشام أصاب هذه الحركة بغير قليل من العطل ، ومع ذلك فقد تحولوا تلامذة لأطباء العرب يتعلمون على أيديهم فنونًا من الجراحة والطب ، ورأى بعض أطباء العرب – كما روى أسامة بن منقذ – أحد أطبائهم يعالج بعض مرضاه علاجا يدل على جهله بالطب ، فسخر منه سخرية شديدة ، وسجل على الصليبيين عامة انحطاط الطب عندهم انحطاطا مزريا ، على نحو ماصور ذلك في كتابه « الاعتبار » .

وندخل في زمن الزنكيين ونور الدين محمود وصلاح الدين والأيوبيين ، ويعظم الاهتمام بالمرضى ومن يعالجهم من الأطباء ، وتنشأ لهم بيمارَستانات ، ينزلونها وتقدم لهم فيها الأدوية

---

(١) القفطي ص ٢٥٠
(٢) القفطي ص ٤٠٣
(٣) القفطي ص ٤٢٩
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٠
(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٦١٤
(٦) القفطي ص ٢٦٩
(٧) القفطي ص ٤٢٨ وابن أبي أصيبعة ص ٦٣٨
(٨) ابن أبي أصيبعة ص ٦٢٨

والأغذية حتى يتم شفاؤهم . ويذكر ابن جبير فى رحلته بيمارستانين رآهما بدمشق سنة ٥٧٨ : أحدهما قديم والثانى حديث ، ويقول إن الحديث أحفلها وأكبرهما وجرايته (نفقته) فى اليوم نحو خمسة عشر دينارًا ، وله قومة (موظفون) بأيديهم الأوراق المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكّرون إليه كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق لكل إنسان منهم . ويقول إن المارستان القديم على هذا الرسم ولكن الاحتفال فى الجديد أكثر ، ويذكر أن للمجانين المعتقلين ضربا من العلاج وهم فى سلاسل موثقون . ثم يقول : وهذان المارستانان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام . ولم تكن المارستانات دور علاج فحسب ، بل أيضا كانت مدارس يمرّن فيها شباب الأطباء ويتلقون فيها عن شيوخ الطب محاضرات متنوعة . وأخذت البيمارستانات تُبْنَى فى ديار الشام حتى لنلتقى بمارستانات فى صَرْخد بفلسطين . وجعل ذلك الطب يعود إلى نشاطه ، فيتكاثر الأطباء ويتكاثر المهتمون بعلوم الأوائل حتى ليعدون فى كتاب ابن أبى أصيبعة بالعشرات . ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعا إنما نقف عند مشهوريهم ، ونبدأ بشمس[1] الدين اللبودى المتوفى بدمشق سنة ٦٢١ وكان يَطُبُّ فى البيمارستان النورى الكبير بدمشق ، وكان له مجلس للاشتغال عليه بصناعة الطب وغيرها . وكان يعاصره الدَّخْوار[2] مهذب الدين عبد الرحيم بن على الدمشقى مولدا ودارا رئيس بيمارستان دمشق الذى أسسه نور الدين محمود ، توفى سنة ٦٢٨ وأفرد ابن أبى أصيبعة له فى طبقاته فصلا طويلا تحدث فيه عن حياته ، وله مؤلفات كثيرة ، وكان يتخذ داره مدرسة لتعليم الطب ، وقَفها على هذه الغاية فى حياته وبعد مماته . وكان أثره فى تعليم الطب بدمشق واسعا ، وتثقفت على يديه جماعة كبيرة .

وكان مما ساعد على ازدهار الدراسة لعلوم الأوائل ماذكرناه فى الفصل الماضى من أن أمراء البيت الأيوبى توزعوا بلدان الشام فيما بينهم ، وتحول كل أمير منهم فى بلد إلى راع للعلوم والآداب بها ، ودفع ذلك إلى تنافس بينهم ، مما أكثر من العلماء فى كل فروع العلم ، ونلتقى بمنصور بن فضل المشهور باسم رشيد[3] الدين الصورى المتوفى سنة ٦٣٩ وُلد بصور ، ولذلك نسب إليها واشتغل بالطب على أساتذته ، وأقام بالقدس سنتين يعالج الناس فى بيمارستانها ، ثم انتقل إلى

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٦٦٢

(٢) انظر فى الدخوار ابن أبى أصيبعة ص ٧٢٨ وفوات الوفيات ٥٦٣/١ والدوميلى ص ٣٢٠

(٣) راجع فى رشيد الدين ابن أبى أصيبعة ص ٦٩٩ والدوميلى ص ٣٢٠

دمشق وفُوِّضتْ إليه رياسة الطب والأطباء بها ، وكان بارعا فى معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصها وتأثيراتها كما يقول ابن أبى أصيبعة ، وبذلك كان صيدليا كما كان طبيبا . وينوه ابن أبى أصيبعة بكتابه فى الأدوية المفردة وكيف كان يتحقها ويسجلها إذ كان يصطحب معه مصورا ومعه الأصباغ واللِّيَقُ (جمع ليقة) على اختلافها وتنوعها وكان يتوجه إلى مواضع النبات فى الشام مثل جبل لبنان وغيره مما به نبات يختص به ، ويشاهد النبات ويحققه ، ويُريه للمصوِّر فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصوِّره . وسلك فى تصوير النبات مسلكا فريدا ، ذلك أنه كان يريه للمصوِّر فى إبان بزوغه فيصوره ، ثم يريه له فى وقت اكتمال نموه وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه له فى وقت يبسه وذبوله فيصوره . وبذلك ينظر قارئ كتابه إلى النبات فى أطوار نموه ، حتى تتحقق له معرفته بدقة . ولسوء الحظ سقط هذا الكتاب الرائع من يد الزمن .

ويتوفى نجم[1] الدين اللبودى سنة ٦٦٦ وكان يتعمق بحوث الفلسفة والفلك وعلم الطب وروى له ابن أبى أصيبعة مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا شرح له على كتاب القانون فى الطب لابن سينا ورسالة فى مسائل فسيولوجية . ورعاه فى الشطر الأول من حياته الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وتقلب فى البلاد ثم استقر بدمشق ، وأسس بها مدرسة طبية وأخرى هندسية ، إذ كان رياضيا بارعا كما كان طبيبا ، وكانت له كتب فى الحساب والجبر والمقابلة . وكان يعاصره ابن أبى أصيبعة[2] الطبيب صاحب طبقات الأطباء الذى يتكرر ذكره فى الهوامش ، توفى سنة ٦٦٨ وقد ولد بدمشق وفى شبابه نزل القاهرة ، وشُغف بالطب وتلقاه على كبار الأطباء المصريين ، حتى برع فيه ، واشتغل فى البيمارستان الناصرى مدة ، ثم جذبه إليه أمير صَرْخد بفلسطين فى الزمن الذى ذكرناه . زمن رعاة العلوم والآداب المتعددين من الأيوبيين ، وأقام بها حتى وفاته ، وكتابه الطبقات يحمل معارف واسعة عن المشتغلين بعلوم الأوائل : طب وغير طب حتى زمنه .

ونمضى إلى زمن المماليك ، ويظل الاهتمام بعلوم الأوائل مطردا ويلقانا أبو الفرج يعقوب بن إسحق المشهور باسم ابن القف[3] المتوفى بدمشق سنة ٦٨٥ وكان مسيحيا وهو تلميذ ابن

(١) انظر فى اللبودى ابن أبى أصيبعة ص٦٦٣ وخطط الشام لكرد على ٤/٤٦ ، ٦/١٠٣ والدوميلى ص٣٢١

(٢) راجع فى ابن أبى أصيبعة النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩ وابن كثير ١٣/٢٥٧ والشذرات ٥/٣٢٧ والدوميلى ص ٣٣٠

(٣) انظر ابن أبى أصيبعة ص ٧٦٧ والدوميلى ص ٣٢٢ ، ٣٢٦

أبي أصيبعة ، وكان طبيبا حاذقا ، واشتهر له كتابان : جامع الغرض فى حفظ الصحة ودفع المرض ، والعمدة فى صناعة الجراحة . وكان يعاصره ابن [١] السويدى إبراهيم بن طرخان شيخ الأطباء والصيادلة بدمشق المتوفى سنة ٦٩٠ وهو تلميذ الدخوار ، أخذ الطب عنه وله فى الطب « التذكرة الهادية » وفى الصيدلة « الباهر فى الجواهر » ذكر فيه كثيرين من العلماء الموثوق بهم فى هذا الموضوع كالبيرونى والرازى وأبى حنيفة الدينورى . ولابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء الذين ذكرناهم كان وراءهم عشرات فى بلدان الشام المختلفة ، ويفيض ابن أبى أصيبعة فى الحديث عنهم ، وأيضا لابد أن نلاحظ أن كل هؤلاء الأطباء كانوا دارسين للفلسفة اليونانية وفروع العلم المختلفة من رياضيات وفلك وتنجيم ، يصور ذلك أوضح تصوير مايذكره لهم ابن أبى أصيبعة من مؤلفات تتناول علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهيئة أو الفلك . وقد مضت الأجيال فى زمن المماليك تنهل من موارد هذه العلوم واضعة نصب عيونها ممارسة الطب فى البيمارستانات المنتشرة فى بلدان الشام .

ومن نبغوا فى الهندسة وعلم الفلك والرياضيات علاء الدين [٢] بن الشاطر الموقِّت فى الجامع الأموى بدمشق وله كتاب فى الزيج توفى سنة ٧٧٧ ومثله ابن [٣] الهائم الفرضى شهاب الدين المدرس بالقدس فى المدرسة الصلاحية ، وله كتب مختلفة فى الحساب والجبر ، توفى سنة ٨١٥ . وعُنى كثيرون بالتأليف فى علم المنطق . وألفت كتب كثيرة فى ميادين الحرب والحركات العسكرية نكتفى بأن نذكر منها كتاب بغية القاصدين فى العمل بالميادين لمحمد بن لاجين الطرابلسى الرماح المتوفى سنة ٧٨٠ ألفه لصاحب حلب .

ومع ماأصاب الحركة العلمية فى الشام من تدهور فى أيام العثمانيين ظل دائما بصيص من نورها يتراءى من حين إلى حين فى الاهتمام بعلوم الأوائل وخاصة بالطب بلسم المرضى الشافى وأيضا بالفلك وفروعه ، واشتهرت حينئذ تذكرة [٤] داود الأنطاكى المتوفى سنة ١٠٠٨ للهجرة ، وهى مهمة فى وصف الأدوية والعقاقير والأمراض مع أن مؤلفها كان ضريرا ، وله كتاب يسمى الكامل فى الطب طبع مرارا .

---

(١) انظر فى ابن السويدى فوات الوفيات ٥٤/١ والمنهل الصافى ١٢٤/١ وألدوميلى ص ٣١٩

(٢) راجع فى علاء الدين الشذرات ٢٥٢/٦ وألدوميلى ص ٥٥٣

(٣) انظر الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٤٤٩ والشذرات ١٠٩/٧ وألدوميلى ص ٥٠٦ ، ٥١٣

(٤) راجع فى داود الأنطاكى البدر الطالع للشوكانى ٢٤٦/١ وخلاصة الأثر ١٤٠/٢ وألدوميلى ص ٤١٧ . ٥١٣

(ب) علم الجغرافيا

من أقدم المرويات الجغرافية عن أهل الشام رحلات تنسب إلى بعض الصحابة من أهلها أو من ولاتها ، من ذلك رحلة تنسب إلى تميم الدارى الفلسطينى الأصل المتوفى حوالى سنة ٤٠ للهجرة ، وهى رحلة بحرية قذفت به فيها عاصفة إلى جزيرة مهجورة فى البحر المتوسط . ومن ذلك أيضا رحلة تنسب إلى عبادة بن الصامت والى حمص المتوفى سنة ٣٤ للهجرة ، وهى رحلة برية إلى القسطنطينية . وذهب كراتشكوفسكى إلى أنهما قصتان ملفقتان بل منحولتان[١] . وتلقانا مرويات أخرى مشابهة ، وجميعها لاتدخل فى الجغرافيا بمعناها العلمى ، إذ يتأخر هذا المعنى إلى عصر الترجمة والاطلاع على مالدى الأمم الأجنبية من مصنفات جغرافية ، ونفس الكلمة التى سُمّى بها العلم كلمة يونانية ، وأعجبهم من التراث اليونانى إلى أقصى حد كتاب المِجَسْطى لبطليموس ، وأخذت تنشأ على هديه مدرسة جغرافية عربية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . وإذا مضينا إلى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وجدنا القدس ينجب أهم جغرافى حتى زمنه ، ونقصد المقدسى[٢] محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء البشارى ، وجدُّه أبو بكر البناء هو الذى بنى سور عكا وأبوابها لأحمد بن طولون . وقد طاف بأرجاء العالم الإسلامى فيما عدا الهند وسجستان والأندلس ، ودوّن معلوماته فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » سنة ٣٧٥ وأعاد كتابته فى سنة ٣٧٨ وعلى النسخة الأخيرة اعتمد ياقوت فى معجمه الجغرافى . ويذكر فى مقدمة كتابه أنه اعتمد على ثلاثة مصادر : المشاهدة أو المعاينة بنفسه ، وماسمعه من الثقات ، وما وجده فى الكتب المصنفة ، واتبع فى وصفه لكل قطر منهجا ثابتا ذا ثلاث شعب : الشعبة الأولى تتناول أقسام القطر ومدنه ومواضعه العامرة ، والشعبة الثانية تتناول المناخ والزرع والطوائف والفرق واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن المقدسة وأخلاق السكان والتبعية السياسية للقطر والخراج ، والشعبة الثالثة تتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات . وهو يقدم معلومات مهمة عن العادات والمعتقدات والتجارة . ويبدأ القسم الأول

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى (الترجمة العربية) ص ٥٣ ومابعدها

(٢) انظر فى المقدسى دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٢٥٣/٤ وما بهما من مراجع ومقدمة كتابه حتى ص ٤٤ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ٨٢ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لمتز ٤/٢ وألدوميلى ص ٢٢٧ وكراتشكوفسكى ٢٠٨/١ - ٢١٥

فى الكتاب بجزيرة العرب فالعراق فالجزيرة شماليّه فالشام فمصر فالمغرب فبادية الشام . والقسم الثانى ، جعله للمشرق ، يبدأ ببلاد المياطلة فخراسان فالديلم فأرمينيا ومعها أذربيجان فالجبال فخوزستان ففارس فكرمان فالسند فمفازة فارس . وأضاف إلى كتابه خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودها وخططها . ولم تصل إلينا خريطته ، ويقول إنه أوضح فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار المالحة بالخضرة ، والأنهار العذبة بالزرقة ، والجبال المشهورة بالغبرة . وكان يتحرى الثقات ويسألهم عن بلدانهم كما صنع بالأندلس ومثل سؤاله بساحل عدن لشيخ كان أعلم الناس بالبحر الصينى . والكتاب يعرض البلدان الإسلامية التى زارها بكل مشاهدها حتى لكأنما يبصرها قارؤه بكل سكانها ومعتقداتها وعاداتها ، وهو لا يبارَى فى عرضه لهذه المشاهد . ويتضح السجع أو النثر المقفى فى مقدمته الطويلة وفى مواضع مختلفة من الكتاب مما يدل على أنه كان يحاول أن يختار لكتابه لغة أدبية مصقولة . وكان يعاصره المطهر [١] بن طاهر المقدسى ، وهو مثله لا تعرف سنة وفاته ، وله كتاب بدء الخلق والتاريخ كتبه سنة ٣٥٥ للهجرة وهو جمع غير منسق لمعارف كثيرة تتصل بالأديان والعقائد والتاريخ المتصل بالأنبياء والملوك والخلفاء حتى زمنه ، وبه فصل جغرافى كتبه عن صفة الأرض ومبلغ عمرانها وعدد أقاليمها وصفة البحار والأنهار وعجائب الأرض والخلق ، ويعرض للمساجد المشهورة . ونلتقى فى النصف الأول من القرن الخامس بأبى الحسن على [٢] بن محمد بن شجاع الربعى المالكى المتوفى سنة ٤٣٥ وله «كتاب الإعلام فى فضائل الشام ودمشق وذكر ما فيها من الآثار والبقاع الشريفة» .

ويصبح موضوع فضائل بلدان الشام أساسيًّا منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، حين استولى حَملة الصليب على أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، إذهبَّ الشاميون – والعرب معهم فى كل مكان – يصرخون فى وجوه حَملة الصليب أن غادروا ترابنا الطاهر وأماكننا المقدسة . وأخذ الشعراء والعلماء يلوّحون فى وجوههم ، الشعراء بما يستطيعون أن يصوبوه من سهام الشعر ، والعلماء بما يكتبون عن فريضة الجهاد لأعداء الإسلام . وانتظم الجغرافيون معهم يكتبون عن فضائل بيت المقدس والشام ، وأول من تصدّى لذلك من الجغرافيين المشرّف [٣] بن المرجّى المقدسى الذى صنف بأخرة من القرن الخامس بعد استيلاء حملة الصليب على بيت المقدس سنة

---

(١) انظر فى المطهر بروكلمان ٦٢/٣ وكراتشكوفسكى ٥٠٨/١ .

(٢) راجع فى الربعى بروكلمان ٦٨/٦ وكراتشكوفسكى ٢٢٤/١ .

(٣) انظر فى المشرف بروكلمان ٧٣/٦ وكراتشكوفسكى ٥٠٨/١ وما بعدها .

٤٩٢ كتابه : « فضائل البيت المقدّس والشام » ليستثير حماسة الناس من حوله حتى يضربوا حملة الصليب الضربة القاضية ويطهروا أرض الشام الزكية من رِجْسهم . وفى نفس هذه اللحظة التاريخية ألف أبو بكر[1] بن محمد بن أحمد الواسطى سنة ٥٠٠ للهجرة كتابا عن « فضائل بيت المقدس » . وأخذ يتوالى هذا النوع من الكتب حافزًا لسحق الصليبيين . وألف أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر[2] المتوفى سنة ٦٧١ تاريخ مدينة دمشق عرض فيه أسماء الأنبياء والعلماء والصالحين فى ثمانين مجلدا ، وممن ذكرهم من الأنبياء سليمان وشعيب . كل ذلك ليحيط مدينته بهالة قدسية كى يدافع عنها أبناؤها والعرب ضد حملة الصليب حتى النفاء الأخير . ويستولى صلاح الدين على بيت المقدس – كما مر بنا – سنة ٥٨٣ بعد أن حطم حَملة الصليب ودمرهم فى حِطِّين تدميرا لم يكد يبقى منهم ولايذر . وتكون لذلك فرحة مابعدها فرحة فى نفوس المسلمين . ولايكاد يمضى على ذلك ثلاثة عشر عاما حتى نجد ابن هذا الحافظ المؤرخ الكبير المسمى باسم القاسم[3] ، وكان يشتغل بالوعظ فى دمشق ، يذهب بنفسه إلى بيت المقدس سنة ٥٩٦ ليقرأ على الناس هناك كتابه : « الجامع المستقصَى فى فضائل المسجد الأقصى » .

ويلقانا على[4] الهروى السائح المتوفى بحلب سنة ٦١١ وكان قد أكثر من التجوال والترحال لزيارة أضرحة الأولياء فى الشام وغير الشام ، وكان قد ألقى عصا تسياره بحلب وألف كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وأصبح له نفوذ كبير عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، فشيد له مدرسة بظاهر حلب ، وهى صورة من صور رعاية أمراء البيت الأيوبى فى الشام لالعلماء بلدهم فحسب ، بل أيضا بمن ينزل بها من جِلّة العلماء ، حتى ليبنون لهم المدارس ليحاضروا فيها الطلاب . ونلتقى بعثمان[5] النابلسى المتوفى حوالى سنة ٦٤٥ وله كتاب « لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » وهو فيه يستمد من كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى وُعُيِّن حاكما لمحافظة الفيوم فكتب عنها كتابا تاريخيا جغرافيا سماه « إظهار صنعة الحى القيوم فى

(١) راجع كراتشكوفسكى ٦٩/١

(٢) انظر فى الجغرافى المؤرخ الحافظ ابن عساكر معجم الأدباء ٧٣/١٣ وخريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٢٧٤/١ والمنتظم ٢٦١/١٠ ومرآة الزمان ٣٣٦/٨ وتذكرة الحفاظ ١٣٢٨/٤ وعبر الذهبى ٢١٢/٤ ومرآة الجنان ٣٩٣/٣ وطبقات الشافعية للسبكى ٢١٥/٧ وابن خلكان ٣٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٧٧/٦ والبداية والنهاية ٢٩٤/١٢

(٣) انظر فى القاسم بن عساكر طبقات الشافعية ٣٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ١٨٦/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٦٧/٤ والعبر ٣١٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٤ وكراتشكوفسكى ٥٠٩/٢

(٤) راجع فى الهروى ابن خلكان ٣٤٦/٣ والشذرات ٤٩/٥ وكراتشكوفسكى ٣٢٠/١

(٥) انظر عثمان النابلسى فى كراتشكوفسكى ٣٤٩/١

ترتيب بلاد الفيوم » ويؤلف [1] ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ - هو غير بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين - كتابا بديعا سماه الأعلاق الخطيرة فى أمراء الشام والجزيرة نُشر منه جزآن عن دمشق وحلب ، وهو يعطى بيانات دقيقة عما فى البلدين من المساجد والخانقاهات والمزارات والحمامات ، وقد رجعنا إليه مرارا فى حديثنا عن الحركة العلمية .

وتأخذ الكتب الجغرافية المليئة بالعجائب والغرائب فى الظهور . ونقرأ منها كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر لشمس [2] الدين محمد بن أبى طالب الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٧ وكان إماما لمسجد الربوة بدمشق ، والكتاب يفيض بمعلومات كثيرة تدخل فى التاريخ الطبيعى ومايتصل به من نباتات البلدان شرقا وغربا وحيواناتها ومعادنها ، وللشام أو بعبارة أدق لسوريا وفلسطين نصيب جغرافى كبير ، وألحق به بعض الخرائط وفُقدت منه .

وكان حملة الصليب قد خرجوا نهائيا من الشام ، فكان من الطبيعى أن يعنى إبراهيم [3] بن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٧ بتأليف كتابيه : « الإعلام بفضائل الشام » و « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » . ويلقانا أبو الفدا الملك المؤيد [4] إسماعيل الأيوبى صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ ويشتهر بكتابين فى التاريخ والجغرافيا ، ويهمنا الثانى وعنوانه « تقويم البلدان » وهو كتاب جغرافى للعالم فى زمنه ، وقد ظل أهم كتاب جغرافى عربى حتى العصر الحديث ، ودائما يذكر مصادره كأحدث الكتابات الجغرافية . ويؤلف شهاب [5] الدين القدسى المتوفى سنة ٧٦٥ كتابه « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » ، ويلقانا عمر [6] بن الوردى المتوفى سنة ٨٥٠ - وهو غير زين الدين بن الوردى المتوفى قبله بقرن - وله كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، وهو مع وصفه الجغرافى للبلاد والأرض والبحار يعنى بالقصص الغريبة ، وقد جلبنا منه قصصا طريفة فى كتابنا « عجائب وأساطير » . ويؤلف عبد [7] الرحمن العليمى المتوفى لأوائل زمن العثمانيين سنة

---

(١) انظر فى عز الدين بن شداد تاريخ ابن الفرات (طبع بيروت) ٣٣/٨ والبداية والنهاية ٣٠٥/١٣ وشذرات الذهب ٣٨٨/٥ وكراتشكوفسكى ٣٦٩/١

(٢) راجع شمس الدين الدمشقى فى كراتشكوفسكى ٣٨٦/١

(٣) انظر ابن الفركاح فى الدرر ٣٥/١ والشذرات ٨٨/٦ وكراتشكوفسكى ٥١٠/٢

(٤) راجع الملك المؤيد فى فوات الوفيات ٢٨/١ والدرر ٣٩٦/١ وطبقات الشافعية ٤٠٣/٩ والبداية والنهاية ١٥٨/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٢٩٧/٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٩ وكراتشكوفسكى ٣٨٩/١

(٥) انظر فى شهاب الدين الدرر ٢٥٧/١ وكراتشكوفسكى ٥١١/٢

(٦) راجع فى عمر بن الوردى ابن إياس ٣٠/٢ وكراتشكوفسكى ٥٠٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٧) انظر العليمى فى كراتشكوفسكى ٥١٥/٢

٩٢٨ كتابه « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » . وتكثر أيام العثمانيين كتب الرحلات والفضائل وتقل قلة شديدة الكتب الجغرافية بمعناها الدقيق . وربما كان أكثر أهل الشام حينئذ نشاطا فى الكتابة عن دمشق ومساجدها ومدارسها ومواضع أحيائها وضواحيها ومزاراتها ابن [1] طولون الصالحى المتوفى سنة ٩٥٣ وله فى ذلك رسائل متعددة ، وله أيضا وصف للطريق من الشام إلى مكة باسم « منازل الحج الشامى » . ويكثر وصف الرحلات إلى القسطنطينية ، وبدأها بدر[2] الدين محمد الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ بكتابه « المطالع البدرية فى المنازل الرومية » وتلاه محمد [3] بن أحمد سكيكر المتوفى سنة ٩٨٧ للهجرة بوصف رحلته من حماة إلى القسطنطينية فى كتابه « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه من الأسفار » . ونلتقى برحلات متعددة إلى مصر ، مثل « حاوى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » لأحمد[4] بن داود الحموى المتوفى سنة ١٠١٦ ووصَفَ محمد[5] بن أحمد بن حافظ الدين القدسى المتوفى سنة ١٠٥٥ زياراته لدمشق والقدس والقاهرة فى كتابة « إسفار الأسفار فى أبكار الأفكار » كتبه بلغة مسجوعة بها غير قليل من التكلف . ولعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى سنترجم له فيما بعد المتوفى سنة ١١٤٣ أربع رحلات إلى طرابلس وبعلبك والقدس ومصر . وربما كان أهم من جاءوا بعد ذلك فى زمن العثمانيين أحمد[6] المنينى الطرابلسى المتوفى سنة ١١٧٢ ، وكان مدرسا بالجامع الأموى . وله كتاب « الإنعام (أو الإعلام) بفضائل الشام وهو شارح السيرة المشهورة التى ألفها العتبى للسلطان محمود الغزنوى .

٣

علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة

أخذت الشام تُعنى بتعلم العربية منذ وضع فيها العرب أقدامهم حتى تُحسن النطق بالذكر الحكيم ، وبمجرد أن تحولت مقاليد الخلافة إلى معاوية وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية

---

(١) انظر فى ابن طولون ترجمة شخصية له طبعت بدمشق بعنوان : الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون وراجع الكواكب السائرة ٥٢/٢ وشذرات الذهب ٢٩٨/٨ وكراتشكوفسكى ٦٨١/٢ ومابعدها

(٢) انظر كراتشكوفسكى ٦٨٥/٢

(٣) راجع كراتشكوفسكى ٦٨٧/٢

(٤) انظر كراتشكوفسكى ٦٩٠/٢

(٥) راجع كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢

(٦) انظر فى المنينى سلك الدرر للمرادى ١٣٣/١ وكراتشكوفسكى ٧٥٧/٢

ازدادت الرغبة حتى عند المسيحيين فى معرفة العربية لغة الحاكم وإدارته الجديدة ، وحقا كانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام ، ولكن كان لايزال بها كثيرون لايعرفون العربية ، بل قل إن الكثرة كانت لاتعرفها ، وكان الذين اعتنقوا الإسلام شغوفين بالتزود منها ، ويمكن أن نتخذ مما ينسب إلى عبيد بن شَرِيَّة جليس معاوية ومحدثه بأخبار الأمم السالفة من أنه وضع للناس كتابا فى الأمثال [1] رمزا لتلبية هذا الشغف عند أهل الشام ، ولباه أيضا فى أيام يزيد بن معاوية أخبارى يسمى علاقة بن كرم الكلابى ، فوضع للناس كتابا ثانيا فى الأمثال[2] والحكم . وأخذ ينشأ حينئذ معلمون يعلمون الناس العربية ، كانوا يسمون باسم المؤدبين ، ولم تهتم الكتب بإعطاء بيانات عمن كانوا يعلمون العامة منهم ، ولاشك أن كثرتهم كانت من قُرَّاء الذكر الحكيم ، حتى يحسن القارئ تلاوته ، أما من كانوا يعلمون الخاصة من أبناء الخلفاء وأمراء البيت الأموى فزوَّدتنا المصادر ببعض أسمائهم ، ومنهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب[3] أولاد عتبة بن أبى سفيان ، وهو أيضا مؤدب[4] الوليد بن يزيد ، ويقال إنه هو الذى دفعه إلى المجون ، إذ كان زنديقًا ماجنا . وكان معبد الجهنى مؤدبا[5] لسعيد بن عبد الملك ، واتخذ هشام بن عبد الملك فى خلافته الزهرى المحدِّث مؤدبا[6] لأبنائه .

ومضت الشام طوال القرنين الثانى والثالث تُعْنَى بتعلم العربية وإتقان الناشئة لها وقيام أمثال من سميناهم على تعليمها من المؤدبين والمعلمين . ويبدو أنهم كانوا يعدون تلاميذهم إعدادا واسعا ، يدل على ذلك أن شاعرين ممن خرَّجوهما – تخرج أولهما وهو أبو تمام فى الربع الأخير من القرن الثانى وتخرج الثانى فى أوائل القرن الثالث وهو البحترى – وضعا أقْيَم مجموعتين من اختيارات الشعر حتى زمنهما ، وسمَّى كل منهما مجموعته باسم الحماسة على نحو ماهو معروف . وكانت بغداد – مركز الخلافة – تجذب إليها بعض هؤلاء المؤدبين ، وكان الخلفاء يتخذون منهم أحيانا مؤدبى أبنائهم ، مثل أحمد بن سعيد الدمشقى وكان مؤدبا لأبناء الخليفة المعتز واختص بتخريج عبد الله بن المعتز الشاعر المشهور . ويبدو أن علماء اللغة فى الشام لم يستقلوا عن علماء النحو إلى حقب متطاولة ،

---

(١) الفهرست ص ١٣٢

(٢) الفهرست ص ١٣٢ ونسب ابن النديم كتابا فى الأمثال لصحار العبدى معاصر معاوية .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٥٢

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٧ ولسان الميزان لابن حجر ٢١/٤

(٥) البيان والتبيين ١/٢٥١

(٦) بروكلمان (الطبعة العربية بدار المعارف) ١/٢٥٤ .

بمعنى أن عالم اللغة والنحو كان واحدا ، وكان يؤلف فى الميدانين معا ، وقد يكون شاميا أصيلا وقد يكون من نزلاء الشام .

وأول نحوى ولغوى كبير نلتقى به فى الشام الزجّاجى [1] عبد الرحمن بن إسحق ، كان قد لزم الزجّاج العالم النحوى ببغداد ، فنُسب إليه ، ونزل الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها يعلّم كتابه الجُمَل ، وهو كتاب بارع فى تعليم الناشئة ، وظل يُدْرَسُ بعده فى مصر والمغرب والحجاز واليمن فضلا عن الشام مددًا متطاولة لوضوح عبارته ودقة تبويبه . وله أمالٍ تزخر بالمعارف اللغوية وهى منشورة ، وله فى علل النحو كتاب نفيس سماه الإيضاح وهو أقدم كتاب تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا دقيقا ، نشره الدكتور مازن مبارك مع مقدمة لى تحليلية . وقد ترجمت للزجاجى فى كتابى « المدارس النحوية » وأوضحت أنه من مؤسسى المدرسة البغدادية التى تعتمد على الآراء النحوية البصرية وتضم إليها بعض الآراء النحوية الكوفية مع النفوذ إلى آراء جديدة . وخرج فى سنة ٣٤٠ مع عامل الضياع الإخشيدية - إذ كانت الشام حينئذ تتبع الإخشيد - إلى طَبَرِيَّة فتوفى بها .

وكانت حلب قد أخذت تنافس بغداد فى النهضة الفكرية ، إذ بعث فيها سيف الدولة - كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع - حياة أدبية وعلمية باهرة بما جمع فى بلاطه من الفلاسفة مثل الفارابى والمترجمين مثل عيسى النفيسى والأطباء مثل أبى القاسم الرقى . وكان للغة والنحو حظ وافر من العلماء ، إذ كان بحلب حينئذ أبو الطيب [2] عبد الواحد اللغوى ، وله كتاب مراتب النحويين وكتاب فى الأضداد ، غير كتب لغوية أخرى . ونزل حلب ابن خالويه [3] اللغوى النحوى واتخذه سيف الدولة مؤدبًا لأبنائه ، وله فى اللغة كتاب الاشتقاق وكتاب المقصور والممدود وكتاب المذكر والمؤنث وله فى النحو كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز وطبعته دار الكتب المصرية ، وله كتاب فى القراءات منشور ، وعنى بدراسة لغة العامة لأيامه ، ومن أجل ذلك ألّف كتابه « ليس » فى كلام العرب ، وعقب عليه الحافظ المصرى مغلطاى فى مواضع وسمى كتابه « الميْس على ليس » ويريد بالميس الاختيال . وكان ينزع فى آرائه منزع الكوفة وتوفى بحلب سنة ٣٧٠ .

---

(١) انظر فى الزجاجى إنباه الرواة ١٦٠/٢ وابن خلكان ١٧٦/٣ وكتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٥٢ وبروكلمان ١٧٣/٢

(٢) راجع فى أبى الطيب مقدمة الناشر لكتابه مراتب النحويين وبغية الوعاة وبروكلمان ٢٤٢/٢

(٣) انظر فى ابن خالويه إنباه الرواة ٣٢٤/١ وابن خلكان ١٧٨/٢ ومعجم الأدباء ٢٠٠/٩ ويتيمة الدهر ٨٨/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٦٩/٣

وبجانب ابن خالويه وأبي الطيب اللغوى كانت هناك طائفة من نحاة أقل شهرة مثل أحمد بن البازيار وأحمد السميساطى وعلى بن محمد العدوى وعبد[1] الله بن عمرو الفياضى ، وكان معهم النامى الشاعر ، وكان سيف الدولة يعجب بشعره ، وبدأ حياته نحويا فى بلدته المِصِّيصة ، ثم تحول شاعرا ، وكانت له إملاءات لغوية ونحوية بحلب والتف حوله كثيرون من التلاميذ .

وكان كُشاجم على شاكلة النامى لغويا وشاعرًا وله كتاب المصايد والمطارد وهو منشور ، وكان له كتاب فى البيزرة وكتاب ثان فى أدب النديم . ومثله كان الخالديان : عثمان وأخوه أبو بكر محمد ، ولهما تصانيف فى الشعر والشعراء مثل كتاب الحماسة وأخبار أبى تمام وأخبار ابن الرومى . ولمع حينئذ فى سماء حلب كوكبان نحويان لغويان كبيران هما أبوعلى الفارسى وتلميذه ابن جنى . وقد تحدثنا عن نشاطهما اللغوى والنحوى فى كتابنا « المدارس النحوية » ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن جنى لزم المتنبى فى بلاط سيف الدولة وبعد ذلك فى بغداد وإيران وروى عنه ديوانه وشرحه شرحين ، صغير مختصر وكبير مطول وعلى أساسهما بُنيت شروحه فيما بعد . وأهم مَنْ شَرحه بعده من أهل الشام أبو العلاء المعرى ، وله عليه شرحان : كبير ومتوسط وهما معجز أحمد واللامع العزيزى سماه بهذا الاسم لأنه قدمه إلى عزيز الدولة ثابت[2] بن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ وربما كان يتولى المعرة حينذاك . وفى ذلك مايشير إلى ماقلناه مرارا من أن حكام الإمارات والمدن كانوا رعاة للعلم والأدب ، ولعل فيه مايشير أيضا إلى أن بنى مرداس الذين خلفوا الحمدانيين وظلوا حكاما على إمارة حلب من سنة ٤١٥ إلى سنة ٤٦٧ أعادوا لها ذكرى الحركة الفكرية التى بعثها فيها سيف الدولة الحمدانى وأسرته .

ولعل بلدًا عربيا لم يظفر بما ظفرت به الشام فى أبى العلاء الشاعر اللغوى العبقرى المولود سنة ٣٦٣ والمتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة وقد استوعب كل تراث زمنه من العلوم اللغوية والشرعية وعلوم الأوائل واستظهر ذلك كله فى أشعاره وفى رسائله وكتاباته النثرية ، وكان للغة وغرائبها الحظ الأكبر ، وكأن ليس هناك شاذة ولا شاردة لغوية إلا سلكها فى أشعاره ورسائله . ولذلك كان يفرد دائما شروحا لغوية لأعماله ، وقد أفرد لديوانه سقط الزند شرحًا سماه ضوء السقط وهو منشور ، وأفرد للزوميات شرحا سقط من يد الزمن ، ويقال إنه كان فى مائة كراسة ، وأفرد للفصول والغايات وهى فى الزهد والعظات شرحًا ، أنشأه فى غريبها وسماه « السادن » كان فى

---

(١) انظر كتاب (أبو الطيب المتنبى) لبلاشير (ترجمة الدكتور الكيلانى) ص ٢٢٨

(٢) راجع إنباه الرواة ١/٦٥ وانظر معجم الأدباء ١٦٢/٣

عشرين كراسة . ولعل فى ذلك مايشير إلى أنه كان ينبغى فى نشر هذا الكتاب إفراد الشرح عن متنه ، وكان قد وضع فى غاياته شرحا سماه إقليد الغايات مقداره عشر كراريس كان ينبغى أيضا أن يُفْرَدَ عنه شرح غاية أو قافية كل فصل من فصوله . وهذا نفسه يلاحظ فى رسالته البديعة : رسالة الغفران ، فقد نشرت مع شرح يتخللها وينتظم فى تضاعيفها ، وكان ينبغى أن ينحّى عنها ويوضع فى هوامشها بحيث يكون لها هوامش من إملاء أبى العلاء وهوامش أخرى خاصة بالتحقيق . ومثلها رسالة الصاهل والشاحج التى كتبها على لسان فرس وبغل : فقد أتبعها بشرح سماه « لسان الصاهل والشاحج » . وقد نشرتها هى ورسالة الغفران الدكتورة بنت الشاطئ ، ويقال إنه قدم رسالة الصاهل والشاحج لعزيز الدولة فاتك الذى كان واليًا للفاطميين على حلب[1] من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٣ وقدم رسالته السَّندية إلى والى حلب الذى خلف فاتكا : سند[2] الدولة بن عثمان الكُتامى . ولعل فى الرسالتين ما يشير إلى أن ولاة الفاطميين فى المدة القصيرة التى تبعت فيها حلب القاهرة من سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ كانوا يرعون الأدباء والعلماء بها ، وبالمثل فى البلدان الشامية الأخرى التى كانت تتبع القاهرة قبل استيلاء السلاجقة عليها وقبل استيلاء حملة الصليب . وعملُ أبى العلاء اللغوى لم يقتصر على ما أنتج من شعر ونثر فقد مرَّ بنا أنه شرح ديوان المتنبى وبالمثل شرح ديوان أبى تمام حبيب بن أوس وسماه ذكرى حبيب وشرح ديوان البحترى وسماه عبث الوليد . وشرح من كتب اللغة فصيح ثعلب . وكان طلابه وتلاميذه الذين يتحلقون حوله يقرءون عليه كتبا لغوية مختلفة ويثبتون على نسخهم تعليقاته ، من ذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت وكتاب غريب الحديث لأبى عبيد . ويروى أنه ألف فى النحو كتابا سماه النافع وكان فى خمسة كراريس ولعله صنفه للناشئة . وفى الحق أنه كان إماما كبيرا فى اللغة ، ويقول عنه تلميذه التبريزى : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى »[3] ويعدد الصفدى من رُزقوا السعادة فى أشياء لم يأت بعدهم من نالها ويذكر منهم أبا العلاء فى الاطلاع على اللغة . ويقول الذهبى : كان أبو العلاء عجبا فى الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها »[4] ويقول ابن فضل الله العمرى : « كان أبو العلاء مطلعا على العلوم لايخلو فى علم من الأخذ بطرف ، متبحرًا فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية[5] » . وإذا عرفنا أن هذا الإمام اللغوى الكبير

---

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣١

(٢) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٣٤

(٣) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣

(٤) تعريف القدماء ص ١٩٠

(٥) تعريف القدماء ص ٢٦٨

لم ينشأ فى مدن الشام الثلاث الكبرى : حلب أو دمشق أو بيت المقدس ، وإنما نشأ فى بلدة المعرَّة الصغيرة القريبة من حلب ، وأخذ العربية واللغة عن علماء منها كبنى كوثر[١] ومن يجرى مجراهم من تلامذة ابن خالويه وطبقته ، إذا عرفنا ذلك اتضح لنا النشاط اللغوى والنحوى الكبير الذى كان مبثوثا لافى مدن الشام الكبرى فحسب ، بل أيضا فى مدنها وبلدانها الصغرى .

وفى كتب التراجم نحاة مختلفون كانوا يدرسون اللغة والنحو ويعلمونهما للناشئة ومن تجاوزوا سن الناشئة نذكر منهم فى زمن أبى العلاء ، أحمد[٢] بن عبد الرحمن الطرابلسى ويذكر مترجموه أنه كان لايزال حيا يعلم ويدرس سنة ٤١٣ لطلابه بطرابلس إلى أن وافاه بها القدر . وكان يعاصره عالى[٣] بن أبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٤٥٢ وكان يعلم العربية ى صور وصيداء ونلتقى من شراح المتنبى بالوأواء[٤] الحلبى اللغوى المتوفى سنة ٥٥١ وهو غير الوأواء الدمشقى شاعر سيف الدولة ، كما نلتقى فى شَيْزر بمرهف بن أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٦١٣ وله شرح[٥] على ديوان المتنبى ، وتوفى معه فى نفس السنة أبو اليمن التاج الكندى زيد[٦] بن الحسن نحوىُّ دمشق المشهور . وتزدهر الدراسات اللغوية والنحوية فى الشام أثناء القرن السابع الهجرى ، ويلقانا أعلام ثلاثة كان لكل منهم شطر فى هذا الازدهار ، أولهم يعيش[٧] بن على بن يعيش الحلبى الدار والمولد ، ولد بحلب سنة ٥٥٦ للهجرة وأكب فى نشأته على تعلم العربية وأخذها عن نحاة موطنه ، ولم يكتف بذلك فقد رحل إلى بغداد ثم دمشق يأخذ عن شيوخها ، وعاد إلى حلب يعلم العربية حتى وفاته سنة ٦٤٣ وكان يقرأ على طلابه بعض كتب ابن جنى ويشرحها مثل اللمع والتصريف ، وأهم من شرحيه عليهما شرحه على كتاب المفصل للزمخشرى وهو منشور فى عشر مجلدات استقصى فيه آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين ، ويكثر من انتصاره للبصريين ، وقلما يستحسن آراء الكوفيين ، وكثيرًا ما يؤثر آراء البغداديين من أمثال أبى على الفارسى ، وهو بذلك يُسْلَكُ فى المدرسة البغدادية التى كانت تجمع فى مصنفاتها بين آراء النحاة البصريين والكوفيين وتنفذ إلى آراء جديدة فى هذه المسألة أو تلك ، وفى كتابنا « المدارس النحوية » توضيح كاف لمنهج ابن يعيش فى النحو واختياره لآراء النحاة فيه من بصريين وكوفيين وبغداديين . .

---

(١) إنباه الرواة ٤٩/١

(٢) راجع ترجمة الطرابلسى فى إنباه الرواة ٨٦/١

(٣) انظر إنباه الرواة ٢٨٥/٢

(٤) انظر فى الوأواء الحلبى إنباه الرواة ١٨٦/٢

(٥) بروكلمان ٩٠/٢

(٦) سنذكر مصادر ترجمته بين القراء .

(٧) راجع فى ترجمة ابن يعيش ابن خلكان ٤٦/٧ وابن الوردى ١٧٦/٢ والشذرات ٢٢٨/٥ وبغية الوعاة ص ٤١٩

والعلم الثانى لم يكن شاميا بل كان مصريًّا ، ومنذ العصر الأيوبى كان علماء الشام ومصر يتبادلون التدريس والتعليم فى البلدتين ، وكثيرًا مادرَّس وعلَّم جِلَّة العلماء الحلبيين والدمشقيين والمقدسيين فى مدارس القاهرة ومساجدها مثل يحيى بن معطى المتوفى بمصر سنة ٦٢٨ وقد وضعناه بين نحاتها للمصريين. وكثيرا مانزل ببيت المقدس ودمشق وحلب مصريون واستوطنوها وأمضوا حياتهم هناك يعلمون ويدرسون ويفيدون ، لا علماء النحو فحسب بل جميع العلماء من كل فرع من فروع العلم . وكان العلم المصرى النحوى الذى نزل الشام ابن الحاجب[1] عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ وهو مذكور بين النحاة فى القسم المصرى . ويهمنا هنا أن نعرف أنه حين أحسَّ نضجه العلمى رحل إلى دمشق وكان مالكيا ، فنزل بزاوية المالكية فى جامعها الأموى ، وأخذ يدرس لطلابه هناك كتابيه الرائعين فى النحو والتصريف : الكافية والشافية ، وأملى شرحين لها . وتوالت بعده لنفاستها الشروح عليهما بين عربية وفارسية حتى بلغت على الكافية — كما استقصاها بروكلمان — سبعة وستين شرحا ، وعلى الشافية — ستة وعشرين . وظل ابن الحاجب طويلا فى دمشق وطلاب العربية مكبُّون عليه حتى دخلت سنة ٦٣٩ وتحالف الملك الصالح إسماعيل مع حملة الصليب ضد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب وتنازل لهم عن صفد وقلعة شَقيف ، وجاء ابن الحاجب نبأ الكارثة ، وكان يخطب الجمعة فى المسجد الأموى ، وكان إسماعيل قد ملك دمشق برهة ، وغلا الدم فى عروقه فقطع اسم الملك إسماعيل من الخطبة معلنا بذلك احتجاجه على عمله المزرى ، وردَّ عليه إسماعيل بإبعاده إلى موطنه ، فعاد إلى القاهرة وتركها إلى الإسكندرية وبها توفى سنة ٦٤٣ .

والعَلَمُ الثالث لم يكن مصريا ولاشاميا ، بل كان أندلسيا ، وهو ابن[2] مالك محمد بن عبد الله ، ولد ونشأ وعكف على دراسة اللغة والنحو فى بلدته جيَّان ، حتى إذا شعر باكتمال تكوينه العلمى رحل سنة ٦٣٠ وهو فى الثلاثين من عمره إلى دمشق ، وظل مدة فى حلب يأخذ عن ابن يعيش . ثم عاد إلى دمشق واستوطنها متوليا بها مشيخة المدرسة العادلية ، ولم يلبث أن طار صيته فى آفاق الشام ، فقصده الطلاب من كل فجٍّ ، وكان يحسن إلى أبعد حد نظم الشعر العلمى فنظم فى النحو ألفيته المشهورة ، وتوالت بعده شروحها حتى بلغت تسعة وأربعين شرحا ، غير ماعلى بعض شروحها من حواش . وألف فى النحو بجانبها كتابه التسهيل وله عشرة شروح ، وله فى

(١) انظر فى ابن الحاجب ابن خلكان ٢٤٨/٣ وابن فرحون ص٣٧٢ وبروكلمان ٣٠٨/٥ والمدارس النحوية ص٣٤٣.

(٢) انظر فى ابن مالك ومصادره كتابنا المدارس النحوية ص٣٠٩ وبروكلمان ٢٧٥/٥-٢٩٦.

الصرف لامية الأفعال ولها أيضا عشرة شروح ، وتحفة المودود فى المقصور والممدود ، وإيجاد التعريف فى علم التصريف . وبلغت مصنفاته نحو ثلاثين مصنفا بين منظوم ومنثور ، وأوضحت فى كتاب المدارس النحوية منهجه فى النحو وأنه كان منهجا بغداديا مع ميله لاستخدام بعض الرخص الكوفية ، وسنعود إلى الترجمة له ترجمة أكثر تفصيلا فى السِّفْر الخاص بالأندلس والمغرب إذ عداده حقا إنما هو فى الأندلسيين .

ونظل دراسات اللغة والنحو فى الشام بعد هؤلاء الأعلام الثلاثة مزدهرة ، ويظل التبادل فيها موصولا بين علماء الشام ومصر طوال أيام المماليك ونذكر من نحاة الشام ولغوييها الذين تكوّنوا فى موطنهم ثم نزلوا القاهرة ودرَّسوا النحو واللغة فيها للطلاب بهاء[1] الدين بن النحاس الحلبى المولود سنة ٦٢٧ سمع مواطنه ابن يعيش وتلقى عنه العلم ثم بارح حلب إلى القاهرة والتفَّ الطلاب حوله وصار شيخ العربية بالديار المصرية حتى توفى سنة ٦٩٨ ويُنْسَبُ له شرح على ديوان امرئ القيس نشره الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم مع مجموع شروح الديوان بدار المعارف . ومن هؤلاء اللغويين والنحاة المستوطنين لمصر ابن الصائغ [2] محمد بن الحسن المولود بدمشق سنة ٦٤٥ نزل القاهرة وأقام بها يقرئ الناس العربية وكان شاعرا كما كان لغويا ، وله شرح على مقصورة ابن دريد وشرح على ملحة الحريرى ومختصر لصحاح الجوهرى جرَّده فيه من الشواهد ، توفى بالقاهرة سنة ٧٢٢ . ومن أهم هؤلاء النحاة المهاجرين من الشام إلى مصر وأشهرهم بهاء[3] الدين بن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن الحلبى الأصل والمولد ، وقد لزم شيوخ الفقه الشافعى والحديث والعربية بمصر يأخذ عنهم ، وخاصة النحوى الكبير أبا حيان ، وألف شرحه المشهور على الألفية ويمتاز بالوضوح ونصاعة العبارة ، ولذلك عُنِى به الشراح فشرحوه مرارا وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، وظل يشتغل بالتدريس فى مدارس متعددة حتى توفى سنة ٧٦٩ . وإنما أردنا بذكر اللغويين والنحويين الشاميين النازلين بالقاهرة إلى أن ندل من جهة على أن التبادل العلمى بين القاهرة والشام فى النحو ظل طوال زمن المماليك نشيطا ، وظلت دراساته حية قوية إلى أبعد حد ، وتتوالى أمامنا تراجم كثيرة طوال القرن التاسع الهجرى نقرأ فيها أن هذا الشيخ أو ذاك كان بارعا فى القراءات أو فى الفقه وأصوله وأيضا فى العربية ، ولم تكن توجد بلدة لا فى الشام فحسب بل أيضا

---

(١) راجع ابن النحاس فوات الوفيات ٢/٣٥٠ وبغية الوعاة ص٦ والشذرات ٥/٤٤٢

(٢) انظر فى ابن الصائغ فوات الوفيات ٢/٣٨٠ والبداية والنهاية ١٤/٩٨ والنجوم الزاهرة ٩/٢٤٨

(٣) راجع فى ترجمة ابن عقيل الدرر الكامنة ٢/٣٧٢ والبغية ص٢٨٤ وكتابنا المدارس النحوية ص٣٥٥

فى كل العالم العربى الاوهى تعنى بدراسة اللغة والنحو. وظل كثيرون من شيوخ العربية يضعون الشروح لطلابهم على كثير من متون النحو ومختصراته .

ونمضى إلى زمن العثمانيين وتظل دراسات العربية بالشام نشيطة ، إذ لايستقيم لسان الناس وتلاوتهم للذكر الحكيم بدونها ، بل لقد ظلت جميع الدراسات العلمية وانبرى لها علماء فى كل الفروع يدرسونها للطلاب دراسة مرتبة مفصلة ، وأخذ النحو نصيبه من ذلك فظهر فيه علماء نابهون فى مقدمتهم الشيخ ياسين[1] بن زين الدين العليمى المتوفى سنة ١٠٦١ للهجرة ، وله حاشية على شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى المصرى ، وهو شرح على التوضيح أو أوضح المسالك لابن هشام . والحاشية تدل بوضوح على أن الشيخ ياسين لم يكد يترك كتابا من كتب النحو الكبرى التى تجمع آراء النحاة من بصريين وكوفيين وبغداديين وأندلسيين ومصريين حتى زمنه من مثل همع الهوامع للسيوطى والمغنى لابن هشام وارتشاف الضَّرَب (عسل النحو) لأبى حيان . بل لَقد أمعن فى قراءة النحو عند ابن يعيش ، وتجاوزه إلى من سبقوه ، من أئمة المذاهب النحوية ، بحيث تحول بحاشيته إلى مايشبه موسوعة نحوية كبرى ، فإذا قلنا إن الدراسات النحوية واللغوية بالشام فى زمن العثمانيين كانت لاتزال نشيطة تَخْفُقُ بغير قليل من الحيوية لم نكن مبالغين .

وإذا تركنا النحو واللغة إلى مباحث البلاغة والنقد وجدنا شعراء الشام متصلين اتصالا وثيقا بالتطور الذى حدث فى الشعر لأول أيام بنى العباس وما اصطنعه فيه الشعراء من المحسنات المعنوية واللفظية مما سمى فيما بعد باسم البديع ، ويلاحظ ذلك الجاحظ على العتّابى الشاعر الشامى لزمن الرشيد فيقول إنه كان يحتذى حذو بشار[2] زعيم المجددين فى العصر العباسى الأول . ومايزال الشعراء العباسيون يعنون بتلك المحسنات حتى استطاع مسلم بن الوليد أن ينميها حتى ليتخذها كالمذهب له ، ومايلبث أبو تمام الشاعر الشامى أن يتناولها منه ويبلغ بها الغاية المتظرة من تكوين هذا المذهبَ الجديد الذى كان يسميه مسلم باسم البديع وفيه يقول أبو الفرج الأصبهانى . (هو فيما زعموا أولُ من قال الشعر المعروف بالبديع وهو لقّب هذا الجنس البديع واللطيف وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى)[3] . وآثرنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » أن نسميه مذهب

---

(١) انظر فى الشيخ ياسين خلاصة الأثر للمحبى ٤/٤٩١ وحاشيته طبعت بمصر مرارا

(٢) البيان والتبيين ١/٥١

(٣) أنظر ترجمة مسلم بن الوليد للمحققة بديوانه نشر الدكتور سامى الدهان

التصنيع أى التنميق حتى يشمل البديع وألوانه الحسية المعروفة كما يشمل الزخرف المعنوى على نحو ماصورنا ذلك عند أبي تمام[١] . على كل حال شاعر الشام أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة هو الذى تلقى بسرعة البرق هذا المذهب الجديد عن مسلم بن الوليد قبل اكتماله وأعطاه صورته النهائية[٢] . ومن ذلك نخلص إلى أن الشام إن كانت قد تأخرت فى صنع كتب البلاغة والنقد من الوجهة النظرية فإنها سبقت إلى الرقى ببلاغة الكلام نثرا وشعرا كما عند العتابى الكاتب والشاعر البليغ وأبى تمام حامل لواء الشعر فى زمنه غير منازَع .

ومانتقدم طويلا فى القرن الرابع الهجرى حتى نلتقى بأكبر حلقة نقدية أدبية طالما طمحت إليها أنظار الشعراء الشاميين ، ونقصد حلقة حلب التى تكونت حول سيف الدولة بطل القوى العربية المصارعة للبيزنطيين . وكان سيدا بالمعنى العربى الكامل شجاعا كريما نبيلا مثقفا شاعرا ، وهب نفسه لحرب البيزنطيين وسَحْقهم ، كما وهبها هى وماله لإحداث حركة أدبية تُنافس بها حلب بغداد إن لم تتفوق عليها ، وطارت شهرته فى إكرام العلماء والشعراء كل مطار ، وسرعان ماالتفَّ حوله وعاش فى كنفه من تحدثنا عنهم آنفا من الفلاسفة والأطباء وعلماء التنجيم واللغويين والنحاة وكثرة من الشعراء وكأنما لم يبق شاعر نابه فى إيران والعراق والموصل والشام إلا أقبل إلى هذه الندوة الفكرية التى عاش فيها المتنبى تسع سنوات طوالا ، وحوله من العلماء أمثال ابن جنى اللغوى والشعراء أمثال النامى والكتاب أمثال أبى بكر الخوارزمى ، وهم يدوِّنون شعره ويتدارسونه ويتناقشون معه حوله . ولزمه ابن جنى - كما مر بنا - وشرح ديوانه شرحين : كبيرا وصغيرًا ، وكان أبو على الفارسى يراه حجة فى اللغة لانظير له . وكان إذا سُئل عن لفظة فى شعره أو تعبيره ساق عليه الشواهد الكثيرة من أشعار العرب ، وتصادف أن أنشد سيف الدولة أولى قصائده[٣] :

وفاؤُكما كالرَّبْع أشْجاهُ طاسِمُهْ ... بأن تُسْعِدَا والدمعُ أشفاه ساجِمُهْ

وكان ابن خالويه حاضرًا فقال له : ياأبا الطيب إنما يقال شجاه ، توهمه فعلا ماضيا وهو صيغة تفضيل فقال له أبو الطيب : اسكتْ فما وصل الأمر إليك [٤] . وكان ذلك سببا فى أن فسد

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة - نشر دار المعارف) ص ٢٣٩ .

(٢) الفن ومذاهبه ص ٢٤٧

(٣) يخاطب المتنبى بالبيت صاحبين له على عادة العرب . أشجاه : أحزنه . طاسمه : دارسه . بأن تسعدا : بالمساعدة فى البكاء . يقول لصاحبيه : اسكبا معى الدمع فإنه أشفى للغليل كما أن الربع أكثر شجا للمحب إذا درس .

(٤) نزهة الألباء بتحقيق الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم (طبع ونشر دار نهضة مصر) ص ٢٩٨ .

مابينهما طوال مقام المتنبي عند سيف الدولة . وظل ابن خالويه يكنُّ له الضغينة ، واستطاع أن يؤلّب عليه أبا فراس وبعض من كانوا حول سيف الدولة ، مما جعل المتنبي يغادر حلب إلى غير مآب . والمهم أنه كان ينعقد من حين لآخر غبار من النقد اللغوى حول شعر المتنبي فى حلقة سيف الدولة ، وصورٌ من هذا النقد كانت تنعقد بين شعراء الحلقة ، وكثيرا ما كانوا يتحاورون فى سرقاتهم ممن سبقوهم من الشعراء ، وهم أثناء ذلك يتناشدون أشعارهم أو أشعار سابقيهم مستحسنين تارة ومستهجنين أخرى . وجميعها صور من النقد الذى يصقل الملكة الأدبية ، وصوَّر ذلك أبو بكر الخوارزمى الكاتب المشهور وأحد من تزود بما كان فى الحلقة من نقد خصب ، فقال : « مافتق قلبى وشحذ فهمى وصقل ذهنى وأرهف حَدَّ لسانى وبلغ هذا المبلغ بى إلا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التى علقت بحفظى وامتزجت بأجزاء نفسى ، وغصنُ الشباب رَطيب ورداء الحداثة قَشيب »[1] .

ونلتقى بعد هذه الحلقة بأبى العلاء ، وقد تعددت وجوه نقده اللغوى ، فهو يضمنها شروحه لدواوين أبى تمام وسمَّاه ديوان حبيب وديوان المتنبى وسماه معجز أحمد – كما مر بنا – وراجع البحترى مرارًا ناقدًا له ولذلك سمى شرحه لديوانه – كما أسلفنا – عبث الوليد وهو اسمه والبحترى لقبه ، واختار الاسم للكتاب لما فيه من تورية واضحة . وهو يتكلم فى شروحه للشعراء الثلاثة عما فى أشعارهم من غريب ومآخذهم من غيرهم ومآُخذ عليهم ، وأحيانا ينتصر لهم وأحيانا ينتقدهم مع التوجيه – ما استطاع – لما يُظَنُّ أن أبا تمام والمتنبى أخطآ فيه . ولأبى العلاء فى رسالة الغفران نقد كثير أجراه فى القسم الأول على لسان صديقه ابن القارح حين أدخله الجنة وجعله يلقى الشعراء والرجاز ويعرض أثناء ذلك نقدا متنوعا لرواية الأشعار ولألفاظها العويصة وتراكيبها النحوية وبعض العيوب فى أوزانها وقوافيها . وسوَّى من هذا النقد فى الرسالة الدكتور أمجد الطرابلسى كتابا بعنوان : « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ويظل النقد نشيطًا فى الشام حتى أيام العثمانيين إذ نجد يوسف البديعى[2] المتوفى سنة ١٠٧٣ يؤلف كتابين نفيسين فى النقد والتاريخ الأدبى ، هما « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و« الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » وهو يعرض فى الكتابين سيرة الشاعرين عرضًا تفصيليا كما يعرض آراء النقاد السابقين فيهما ، ولا يكاد يترك خبرًا مهما يتصل

---

(١) اليتيمة للثعالبى (بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ١٤/١

(٢) انظر فى البديعى خلاصة الأثر ٥١٠/٤ .

بنيرتها ولا رأيا نقديا يتصل بأشعارهما مما يحيل الكتابين إلى مبحثين تاريخيين نقديين بارعين للشاعرين .

واهتمت الشام بالدراسات البلاغية اهتماما واسعا ، وكان أول كتاب صدر لها فى هذه الدراسات كتاب [١] سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٤٦٦ وسنترجم له بين الشعراء . والكتاب - كما يتضح من عنوانه - يناقش قضية الفصاحة ويقدّم لها بحديث عن أحكام الأصوات ومخارجها ، ثم يصور الفرق بينها وبين البلاغة ، فيجعلها خاصة بالألفاظ ويجعل البلاغة عامة تشمل الألفاظ والمعانى . ويتناول صفات الفصاحة فى الكلمة المفردة ثم فى الكلام ، ويخوض فى تحليلات دقيقة تتصل بفنون الفصاحة ومايرتبط بها من البلاغة والبديع ومحسناته . ونلتقى بأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وسنترجم له بين الشعراء ، وله كتاب سماه البديع فى نقد الشعر ، وهو فيه يعنى بالمحسنات البديعية ، وقد عرض منها فى الكتاب خمسة وتسعين محسنا . ويصنف الزملكانى ، الدمشقى عبد[٢] الواحد بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٥١ كتابا بعنوان « التبيان فى علم البيان » استضاء فيه كما قال فى مقدمته بكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، وقد عرض فيه مباحث كثيرة تتصل بعلوم المعانى والبيان والبديع مع إقحام بعض المباحث النحوية والمنطقية . ونلتقى سريعا ببدر[٣] الدين بن محمد بن مالك الأندلسى العالم النحوى الذى تحدثنا عنه آنفا بين النحاة ، وله مثل أبيه مباحث نحوية ، وعُنى بتلخيص كتاب المفتاح للسكاكى فى كتابه « المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع » وقد أخلى ملخصه أو مختصره من تعقيدات كتاب المفتاح المنطقية والكلامية والفلسفية ، ولم يجعل البديع - مثل السكاكى - ذيلا لعلمى المعانى والبيان ، بل جعله علما مستقلا كما يتضح من عنوان كتابه . وقد أحصى من محسناته أربعة وخمسين محسنا .

ولم يلبث الخطيب[٤] القزوينى الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٩ أن ألف تلخيصا دقيقا واضحا

(١) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا « البلاغة تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢ .

(٢) انظر فى ترجمة الزملكانى السلوك للمقريزى ٣٨٩/١ والسبكى ٣١٦/٨ والشذرات ٢٥٤/٥ وبغية الوعاة ص ٣١٦ وراجع فى تحليل كتابه « البلاغة تطور وتاريخ » ص ٣١٤ .

(٣) راجع فى ترجمة بدر الدين السلوك ٧٣٨/١ والسبكى ٩٨/٨ والنجوم الزاهرة ٢٧٣/٧ والشذرات ٣٩٨/٥ والبغية ص ٩٠٦ وانظر فى تحليل كتابه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٥ .

(٤) انظر الخطيب فى الدرر الكامنة لابن حجر ١٢٠/٤ والنجوم الزاهرة ٣١٨/٩ والشذرات ١٢٣/٦ وراجع فى تحليل كتابيه « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣٣٥ ومابعدها .

لكتاب المفتاح كُتب له أن يذيع بين علماء البلاغة وأن يكتبوا له كثيرا من الشروح بحيث أصبح محور الدراسة للبلاغة وفنونها شرقا وغربا منذ زمنه إلى اليوم . وعُنى يبسط قضايا علوم البلاغة : المعانى والبيان والبديع فى كتاب ثان له سماه الإيضاح ، وله نفس الشهرة التى حظى بها تلخيصه .
ويصنِّف ابن قيم [١] الجوزية الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١ كتابه « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان » وفيه يتحدث عن الفصاحة والبلاغة وفنون البيان والمعانى والبديع . وتنقص الكتاب دقة الترتيب والتبويب . وكان يعاصره الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنترجم له بين المؤرخين ، وعُنى بثلاثة فنون من فنون البديع : الجناس وله فيه كتاب جِنان الجناس وهو مطبوع ، والتورية والاستخدام وله فيهما كتاب فض الختام فى التورية والاستخدام وبدار الكتب المصرية مخطوطة منه . ونصبح فى زمن تأليف البديعيات وشروحها وهى قصائد فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم يتضمن كل بيت فيها محسنا من محسنات البديع . وينظم ابن حجة الحموى المتوفى بسنة ٨٣٧ بديعية فى مائة واثنين وأربعين بيتا أحصى فيها محسنات البديع ، وقد بلغت عنده نحو مائة وأربعين محسنا وشرحها شرحا مفصلا سماه بحق خزانة الأدب ، إذ يشتمل على نظرات تحليلية نقدية وبلاغية كثيرة تتصل بالشعر والشعراء وخاصة فى زمن الأيوبيين والمماليك ، بحيث يصبح مصدرا مهما لمن يكتبون عن الأدبين المصرى والشامى فى تلك الحقب ، مع منتخبات بديعة للشعراء والكتّاب تدل على ذوق أدبى مرهف ، وسنترجم له بين الكتّاب . وظل نشاط البديعيات متصلا أيام العثمانيين ، ولعبد الغنى النابلسى الذى سنترجم له فى غير هذا الموضع بديعيتان [٢] ومع كل بديعية شرح خاص بها .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذت الشام تُعْنَى بقراءة الذكر الحكيم منذ دخلها الإسلام مع الأفواج الأولى من الصحابة ، ومن أهم قرائها فى الصدر الأول أبو الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة وكان إذا صلَّى الغداة فى جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه . ومرَّ بنا ذكر ذلك وأنه كان

(١) راجع فى ابن القيم الدرر الكامنة لابن حجر ٢١/٤ والبدر الطالع ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٩/١٠ وطبقات الحنابلة للشطى ص ٦١ وكتابنا « البلاغة : تطور وتاريخ » ص ٣١٩

(٢) انظر الحديث عنهما فى كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ٣٦٤ وما بعدها

يجعل الناس عشرة عشرة ويجعل على كل عشرة عريفا ، وعدَّ يوما من يقرءون عنده فوجدهم ألفا وستمائة ونيفا ، ولعل فى ذلك مايوضح إقبال الناس فى الشام سريعا على قراءة الذكر الحكيم ، وظلوا يدوّون به فى مساجدها . وخلَفَ أبا الدرداء فى إقراء الناس بدمشق عبد[١] الله بن عامر اليحصبى العربى المتوفى سنة ١١٨ للهجرة وكان عريفا على عشرة عنده ممن يقرأون . ولم يكتف بأخذ القرآن وسماعه منه وعرضه عليه فقد أضاف إليه المغيرة بن أبى شهاب ، فقرأ عليه القرآن ، وكان المغيرة قرأه على عثمان بن عفان . واستطاع أن يبلغ من إحكام قراءته ماجعل ابن مجاهد بعدُ يختاره بين القراء السبعة المقدَّمين ، إذ كان بحق إمام أهل الشام فى القراءة ، ويقول ابن مجاهد فى أوائل القرن الرابع : على قراءته أهل الشام والجزيرة ثم يعود ، فيقول : « والغالب على أهل الشام قراءة ابن عامر » ويقول ابن الجزرى فى ترجمته : « لازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب من سنة خمسمائة » .

وخلف ابن عامر على قراءته بدمشق يحيى[٢] بن الحارث الذِّمارى الدمشقى إمام الجامع الأموى المتوفى سنة ١٤٥ وخلفه بالقيام على قراءة ابن عامر تلميذان بدمشق : أيوب[٣] بن تميم الدمشقى المتوفى سنة ١٩٨ وعنه أخذها عبد[٤] الله بن ذكوان إمام جامع دمشق وشيخ الاقراء بالشام المتوفى سنة ٢٤٢ والتلميذ الثانى عراك[٥] بن خالد شيخ أهل دمشق فى زمنه المتوفى قبل المائتين ، وعنه وعن أيوب بن تميم أخذها هشام[٦] بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم المتوفى سنة ٢٤٥ . وبذلك أصبح لقراءة ابن عامر فى الشام طريقان : طريق ابن ذكوان وطريق هشام بن عمار ، وهما تتقابلان فى كتاب السبعة لابن مجاهد : الأولى أخذها عن أحمد بن يوسف التغلبى ، والثانية أخذها عن أحمد بن محمد بن بكر . ولابد أن نلاحظ أنه كان بالشام من اختار لنفسه قراءة غير قراءة ابن عامر حتى منذ القرن الثانى فقد نزل المدينة عتبة بن حماد الدمشقى ، فقرأ الموطأ على الإمام مالك وأخذ عن نافع أحد القراء المشهورين قراءته[٧] ، وبالمثل أخذها عنه أبو مسهر[٨] الغسانى عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨ . ويغلب أن يكون هناك آخرون قرءوا بقراءة ابن كثير قارئ مكة أو غيره من القراء السبعة .

---

(١) راجع فى ابن عامر وقراءته وأسانيده كتاب السبعة لابن مجاهد بتحقيق نشر دار المعارف ص ٨٥ ، ١٠١ وكتاب طبقات القراء لابن الجزرى ٤٢٣/١

(٢) ابن الجزرى ٣٦٧/٢

(٣) ابن الجزرى ١٧٢/١

(٤) ابن الجزرى ٤٠٤/١

(٥) ابن الجزرى ٥١١/١

(٦) ابن الجزرى ٣٥٤/٢

(٧) ابن الجزرى ٤٩٩/١

(٨) ابن الجزرى ٣٥٥/١

ومرَّ بنا ذكر ابن خالويه فى بلاط سيف الدولة وكان قد تصدّر فى حلب لإفادة الطلاب عشرات السنين ، ونظن أنه عرض عليهم – فيما عرض القراءات السبع ، إذ كان قد حملها عن ابن مجاهد كما ذكر ابن الجزرى ، وأيضا فإن له فى توجيه تلك القراءات كتابا معروفا . ويشهد لما نقول أننا نجد بين تلاميذه الحلبيين قارئا كبيرا هو أبو الطيب عبد [1] المنعم بن غلبون الحلبى المتوفى سنة ٣٨٩ وله كتاب الإرشاد فى القراءات السبع ، ومن أهم تلاميذه ابنه طاهر [2] المتوفى سنة ٣٩٩ مؤلف التذكرة فى القراءات الثمان وهو أستاذ أبى عمرو الدانى صاحب كتاب التيسير المشهور فى القراءات . وذكرنا فى مقدمة الطبعة الأولى لكتاب السبعة أنه كان من بين مااعتمدنا عليه فى تحقيقه مخطوطة لكتاب الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى تلميذ ابن مجاهد تحتفظ بها مكتبة جامعة القاهرة ومجلداتها الأولى بخط طاهر بن عبد المنعم بن غلبون . وربما كان أبوه حمل هذا الكتاب عن أبى على الفارسى مباشرة حين مقامه بحلب ، كما مر بنا . ويصنف عبد [3] الجبار الطرسوسى المتوفى سنة ٤٢٠ كتاب المجتبى فى القراءات . ونلتقى بالحسن [4] بن على الأهوازى شيخ القراء بدمشق منذ سنة أربعمائة حتى وفاته سنة ٤٤٦ وكان قد استوطنها منذ سنة ٣٩١ وكان يكثر من الحملة على الأشعرى والأشعرية ، ومن أجله صنف ابن عساكر – فيما بعد – كتابه : تبيين كذب المفترى فيما نُسب إلى أبى الحسن الأشعرى ، وكانت له مؤلفات كثيرة فى القراءات والقرآن وعلومه .

ومايزال التأليف فى القراءات والقرآن وعلومه مستمرا فى الشام حتى نلتقى بابن [5] الطحان عبد العزيز بن سلمة نزيل حلب المتوفى حول سنة ٥٦٠ وله تصانيف مفيدة فى علوم القرآن منها كتاب الوقف والابتداء ، وكان على علم واسع بالقراءات . ونلتقى فى أيام الأيوبيين بأبى اليمن [6] الكندى زيد بن الحسن نزيل دمشق المتوفى سنة ٦١٣ وهو من المعمَّرين ويقال إنه قرأ القراءات العشر وهو

---

(١) انظر فى عبدالمنعم بن غلبون طبقات القراء ٤٧٠/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٣٣٨/٣

(٢) راجع فى « طاهر » ابن الجزرى ٣٣٩/١

(٣) انظر فى عبدالجبار ابن الجزرى ٣٥٧/١

(٤) راجع فى الأهوازى ابن الجزرى ٢٢٠/١ والنجوم الزاهرة ٥٦/٥

(٥) انظر فى ابن الطحان ابن الجزرى ٣٩٥/١

(٦) راجع فى أبى اليمن ابن الجزرى ٢٩٧/١ ومعجم الأدباء ١٧١/١١ وخطط الشام ٤٧/٢ والبداية والنهاية ٧١/١٣ وإنباه الرواة ١٠/٢ وابن خلكان ٣٣٩/٢

ابن عشر سنين وظل يقرأ القراءات ثلاثا وثمانين سنة . ومن تلاميذه علم [١] الدين السخاوى على بن محمد شيخ مشايخ الإقراء بدمشق وقد ظل يقرئ الناس نيفا وأربعين سنة حتى توفى سنة ٦٤٣ وله مصنفات كثيرة فى القراءات والتفسير منها شرح الشاطبية وهو أجل شروحها ، ومنها جمال القراء وكمال الاقراء . ومن تلاميذه الذين تصدّروا القراءة فى دمشق أبو الفتح [٢] محمد بن على ولىَ مشيخة القراءة بتربة أم الصالح ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ تولّى مشيخة الحديث الكبرى بالأشرفية ، وسنذكر مصادر ترجمته بين المؤرخين ، والقاضى عبد السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وسنذكر مصادر ترجمته بين فقهاء المالكية ، تولى مشيخة الإقراء الكبرى بالتربة الصالحية بعد وفاة شيخها أبى الفتح وإليه انتهت رياسة الإقراء بالشام . ومن كبار القراء بالشام فى القرن الثامن ابن [٣] جبارة المقدسى ، درس القراءات بمصر وطاف بدمشق وحلب ثم استقر فى بيت المقدس موطنه مدرسا للقراءات وعلوم العربية حتى توفى سنة ٧٢٨ . وكان يعاصره برهان [٤] الدين الجعبرى استوطن بلدة الخليل بجوار بيت المقدس حتى توفى سنة ٧٣٢ وكان يقرئ الناس بها وصنّف فى القراءات كتاب نزهة البررة فى القراءات العشرة . ونلتقى بابن البارزى قاضى حماة ومفتى الشام المتوفى سنة ٧٣٨ وله شرح على الشاطبية وكتاب الشرعة فى قراءات السبعة . ومانزال نقرأ عن مؤلفات شامية فى القراءات حتى نصل إلى ابن [٥] الجزرى محمد بن محمد المتوفى سنة ٨٣٣ وله كتاب النشر فى القراءات العشر وهو منشور وكتاب غاية النهاية فى طبقات القراء وهو مصدرنا الأساسى فى الحديث عنهم . ومن كبار القراء والحفاظ بعده شمس الدين الرملى الدمشقى أحمد بن أحمد بن محمد ، ولد بالرملة ورحل إلى دمشق للقاء علمائها وفيها أكب على القراءات والحديث والفقه ، وتولّى مشيخة الإقراء بالجامع الأموى حتى توفى سنة ٩٢٣ . وظلت القراءات بالشام نشيطة أيام العثمانيين حتى العصر الحديث ، يتجرّد لها العلماء تارة ، وتارة ثانية يجمعون بينها وبين بعض العلوم كالتفسير أو الفقه أو علوم العربية .

وعلى نحو ماعُنيت الشام بالقراءات عنيت بتفسير القرآن الكريم ، حتى إذا أخرج الطبرى

---

(١) انظر فى علم الدين السخاوى معجم الأدباء ١٥/٦٥ وابن خلكان ٣/٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/٣١١ وطبقات القراء ١/٥٦٨ والسبكى ٨/٢٩٧

(٢) راجع ابن الجزرى ٢/٢١١

(٣) انظر فى ابن جباره ابن الجزرى ١/١٢٢ والدرر رقم ٦٦٧ والشذرات ٦/٨٧

(٤) راجع فى الجعبرى ابن الجزرى ١/٢١ والدرر رقم ١٣٠ والشذرات ٦/٩٧

(٥) ترجم ابن الجزرى لنفسه فى كتابه طبقات القراء ٢/٢٤٧ وألحقت بالترجمة زيادة عن سنة وفاته لبعض تلاميذه وانظر الفوائد البهية للكنوى ١٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية

تفسيره أكبت عليه تدرسه ، ويلقانا لها مفسر مهم هو عبد [١] الله بن عطية الدمشقي المفسر المتوفى سنة ٣٨٣ كان يحفظ الآلاف من أبيات الشعر العربي واستخدمها فى تفسيره لمعانى الألفاظ القرآنية . ونلتقى بعده بسليم بن أيوب المتوفى سنة ٥٤٧ وله تفسير [٢] للقرآن الكريم . ويلقانا فى أيام نور الدين محمد بن ظفر المكى الذى عرضنا له فى الحديث عن شعراء الزهد فى الجزيرة العربية المتوفى سنة ٥٦٥ استوطن حماة بأخرة من حياته وألف فيها تفسيره المسمى « ينبوع الحياة » [٣] . واستوطن حلب تلميذ من تلامذة الزمخشرى هو عالى [٤] بن إبراهيم الغزنوى وأقام بها يدرس ويصنف حتى وفاته سنة ٥٨٢ وفيها ألف تفسيرا كبيرا فى مجلدين سماه تفسير التفسير . واستوطن دمشق الصوفى الكبير ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ وله تفسير صوفى لم يتمه وهو مطبوع . وللعز بن عبد السلام الفقيه الشافعى الدمشقى نزيل مصر الذى عرضنا له فيها بين فقهاء الشافعية تفسير بلاغى ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة منه .

ونلتقى فى أوائل القرن الثامن بمفسرين كبيرين هما هبة الله بن البارزى وابن تيمية ، أما هبة [٥] الله فكان قاضيا لحماة وإليه انتهت مشيخة المذهب الشافعى بالشام وله شرح على الشاطبية فى القراءات ، وله روضات الجنان فى تفسير القرآن فى عشر مجلدات توفى سنة ٧٣٨ . أما ابن تيمية فقد مر بنا حديث مفصل عنه فى الحركة العلمية ، ونعرض هنا منهجه فى التفسير القرآنى وقد صوره فى رسالة عنوانها أصول التفسير ، ومن خلالها أجملناه فى مقدمة كتابنا : « سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة » موضحين أنه حمل على الإسرائيليات المدسوسة فى التفاسير وعلى المعتزلة والشيعة الباطنية الذين يؤولون ألفاظ القرآن وعباراته كما حمل على المتصوفة فى تفاسيرهم من مثل تفسير ابن عربى ، ورأى أن خير طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يف القرآن أحيانا رجع المفسر إلى الحديث النبوى وأقوال الصحابة والتابعين الذين عايشوهم وعرفوا منهم معانى القرآن الكريم . وبعد استيفاء ذلك كله ومايتصل به من إتقان العربية وتعمق علوم الشريعة والوقوف بدقة على دلالات القرآن وحسن تذوقه لخصائصه البلاغية يستطيع المفسر أن يجتهد فى التفسير ويستنبط استنباطات سديدة . وطبق منهجه على سورة النور وسورتى المعوذتين القصيرتين

---

(١) انظر فى ابن عطية الدمشقى طبقات المفسرين للسيوطى رقم ٤٣ والنجوم الزاهرة ١٦٥/٤ وبروكلمان ١٥/٤

(٢) خطط الشام لكرد على ٤١/٤

(٣) تتمة المختصر لابن الوردى ٨٧/٢

(٤) راجعه فى تاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٤٩ والنهاية ١١٤/١٣

(٥) انظر فى ابن البارزى الدرر جـ٣ رقم ١١٠٣ وطبقات القراء ٣٥١/٢ والشذرات ١١٩/٦

وخصَّ سورة الإخلاص أو التوحيد بكتاب . ويتحول تفسيره للآية الكريمة إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن جميعه .

ونهج نهج ابن تيمية فى تفسير الذكر الحكيم تلميذه ابن قيم الجوزية على نحو مايتضح فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » وفى تفسيره للمعوِّذتين . وكان يعاصره السمين[1] الحلبى أحمد بن يوسف وكان نحويا مقرئا ونزل مصر وبها توفى سنة ٧٥٦ وله تفسير ضخم فى عشرين مجلدا ، وكتاب فى إعراب القرآن فى ثلاثة مجلدات باسم الدر المصون ، وكتاب فى أحكام القرآن ، وله شَرْح على الشاطبية فى القراءات ، وشرح ثان على التسهيل لابن مالك فى النحو . ونلتقى بابن[2] كثير أكبر المفسرين الشاميين وأهمهم المتوفى بدمشق سنة ٧٧٤ نشرتْ تفسيره مطبعةُ المنار فى تسعة أجزاء ، وعماده فى التفسير بالمأثور من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والمفسرين السابقين ، وفيه يقول ابن حجر ناقدا : « لم يكن ابن كثير على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم وإنما هو من محدثى الفقهاء » ويقول الشوكانى مُثْنيا على تفسيره : « جمع فيه فأوعى ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه ، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها » ويصنف العليمى عبد الرحمن بن محمد الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ للهجرة تفسيرًا للذكر الحكيم ، وتؤلف كتب تفسير أخرى ، ويظل تفسير ابن كثير التفسير المتداول بين علماء الشام إلى العصر الحديث .

وشُغلت الشام منذ دخلت فى الدين الحنيف بتلاوة الذكر الحكيم وتفسيره كما شغلت بالحديث النبوى مكمِّل الدين القيم ومبينه وموضح تعاليمه ، وكان أول المحدثين بها صحابة رسول الله ﷺ ، ثم حمله عنهم التابعون يحدثون به الناس من أمثال مكحول[3] مفتى الشام ومحدثها المتوفى سنة ١١٨ . وكان يعاصره محمد[4] بن شهاب الزهرى أول من دوَّن الحديث تدوينا عاما ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لاتجدون أحدا أعلم بالسنة الماضية منه ، وعاش بعد عمر ثلاثةً وعشرين عاما إذ توفى سنة ١٢٤ ويقال إنه روى عن عشرة من

---

(١) راجع فى السمين الحلبى طبقات القراء ١/١٥٢ والدرر الجزء الأول رقم ٨٤٦ والشذرات ٦/١٧٩

(٢) انظر فى ترجمة ابن كثير الدرر جـ١ رقم ٩٤٨ والشذرات ٦/٢٣١ والبدر الطالع ١/١٥٣

(٣) راجع فى مكحول حلية الأولياء ٥/١٧٧ وابن خلكان ٥/٢٨٠ وميزان الاعتدال ٤/١٧٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٢٨٩ والشذرات ١/١٤٦

(٤) انظر فى الزهرى صفة الصفوة ٢/٧٧ وابن خلكان ٤/١٧٧ وميزان الاعتدال ٤/٤٠ وتهذيب التهذيب ٩/٤٤٥ وطبقات القراء ٢/٢٦٢

الصحابة لحقهم ، وقد أتاح للشام أن تكون أول جامعة وناشرة للحديث النبوى وكان موظفا لدى الأمويين وعمل قاضيا ليزيد بن عبد الملك ، وعنه حمل الحديث الأوزاعى فقيه الشام المتوفى سنة ١٥٧ وعداده فى الفقهاء ، كما حمله الإمام مالك فقيه المدينة والليث بن سعد فقيه مصر وسفيان ابن عُيَيْنة وسفيان الثورى فقيها العراق . وعن تلاميذ الزهرى والأوزاعى فى الشام حمل الحديث هشام ابن عمار مقرئ دمشق ومفتيها الذى مرّ بنا ذكره بين القراء . وممن حمل عنه الحديث القاضى عبد [١] الصمد بن عبد الله قاضى دمشق ، وعنه روى الحديث أبو زرعة الدمشقى شيخ الشام فى الحديث. ونلتقى بخيثمة[٢] بن سليمان الطرابلسى أحد الحفّاظ الثقات المشهورين المتوفى سنة ٣٤٣. ولا تلبث بلدة طبريّة بالشام أن تقدّم سليمان[٣] بن أحمد الطبرانى المولود سنة ٢٦٠ والمتوفى سنة ٣٦٠ صاحب المعاجم الثلاثة: الكبير والأوسط والصغير. وقد جمع فى الكبير أحاديث جميع الصحابة ما عدا أبا هُرَيْرة إذ أفرد له كتابا خاصا. وكان يعاصره الحسين[٤] بن محمد الماسَرْجِسِيّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ أخذ بدمشق عن أصحاب هشام بن عمار. صنّف المسند الكبير مهذّبا معلّلا فى ألف وثلاثمائة جزء ولم يصنّف فى الإسلام أكبر من مُسْنده وجمع حديث ابن شهاب الزهرى جمعا لم يسبقه إليه أحد وكان يحفظه مثل الماء. ونلتقى بحافظ من صَيْداء هو أبو الحسين[٥] محمد بن أحمد الغسانى المولود سنة ٣٠٥ والمتوفى سنة ٤٠٢ وله مسند على ترتيب أوائل أسماء الرواة. ويلقانا حافظ من صور هو محمد[٦] بن على الصورى المتوفى سنة ٤٤٦ قدم بغداد وأخذ عنه حفاظها الثقات. ويلقانا حافظ بيت المقدس محمد[٧] بن طاهر المقدسى المعروف باسم ابن القيسرانى المتوفى سنة ٥٠٧ وله مصنفات فى الحديث النبوى متعددة، منها: «أطراف الكتب الستة» وهى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة.

---

(١) راجعه فى النجوم الزاهرة ١٩٣/٣ وانظر فى أبى زرعة النجوم ٨٧/٣

(٢) انظر فى خيثمة تذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٧٥/٣ والشذرات ٣٣٤/٢

(٣) راجع فى الطبرانى تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٤٠/٦ وابن خلكان ٢٠٧/٢ والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ وعبر الذهبى ٣١٥/٢

(٤) انظر فى الماسرجسى النجوم الزاهرة ١١١/٤

(٥) راجع الغسانى فى النجوم ٢٣١/٤ وبروكلمان ٢١٤/٣

(٦) انظر فى الصورى تاريخ بغداد ١٠٣/٣ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣١١/٣ وبروكلمان ٢٣١/٣

(٧) راجع فى ابن القيسرانى المنتظم ١٧٧/٩ وابن خلكان ٢٨٧/٤ والوافى للصفدى ١٦٦/٣ وميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ وعبر الذهبى ١٤/٤ والشذرات ١٨/٤

وينشط المحدثون أيام نور الدين والأيوبيين فى مقدمتهم أبو القاسم[١] بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ وبنى له نور الدين دار الحديث النورية بدمشق ، وله فى الحديث مصنفات كثيرة مفيدة ، منها « الأطراف » جمع فيه ماتفق عليه الأئمة الثقات فى الحديث ، وله ورله ذلك أمالى كثيرة . وجاء بعده عبد[٢] الغنى الجمّاعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ وله كتاب فى أحاديث الأحكام الشرعية سماه « عمدة الأحكام فى معالم الحلال والحرام عن خير الأنام » وكتبت له الأجيال التالية شروحا كثيرة ، وهو صاحب كتاب الكمال فى معرفة أسماء الرجال . وكتب له جمال الدين يوسف المزّى الآتى ذكره تكملة بعنوان « تهذيب الكمال » وله مختصرات كثيرة . وأكمل التهذيب مُغُلْطاى بعنوان إكمال تهذيب الكمال ، ونلتقى بابن[٣] الصلاح عثمان بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٤٣ وهو حافظ كبير تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق وله كتاب أقصى الأمل والشوق فى علوم حديث الرسول ، طُبع مرارا بعنوان مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث وله مختصرات كثيرة . ويلقانا محيى الدين النووى الفقيه الكبير المتوفى سنة ٦٧٦ وعداده بين فقهاء الشافعية ، وكان حافظا متقنا ، وله شرح على صحيح مسلم هو أهم شروحه ، وله رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين وكتاب الأذكار المنتخَب من كلام سيد الأبرار وله الأربعون النووية وكتاب التقريب فى مصطلح الحديث وكتاب تهذيب الأسماء واللغات ، ودرَّس بدار الحديث الأشرفية فى دمشق وغيرها .

وكان يعاصر النووى اليونينى على[٤] بن محمد بن أحمد شرف الدين المتوفى سنة ٧٠١ وله خدمة عظيمة أداها لصحيح البخارى ، اذ حاول أن يخرج من مخطوطاته نسخة فى أدق صورة ممكنة لمنفعة المسلمين فى العالم الإسلامى ، واختار أصلا لهذا الإخراج نسخة وثيقة كانت موقوفة بمدرسة أقبغا آص بالقاهرة وقابلها فى واحد وسبعين مجلسا على أصل مسموع للحافظ أبى ذر الهروى وأصل ثان مسموع للحافظ أبى محمد الأصيلى وأصل ثالث مسموع لأبى القاسم بن عساكر المذكور آنفا وأصل رابع مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة السمعانى . وكان بجواره فى تلك المجالس الإمام النحوى ابن مالك للمراجعة والتصحيح مما جعله فيما بعد يملى كتابا مستقلا

---

(١) مرت مصادر ترجمته فى ص ٥٦٣ .

(٢) راجع فى الجماعيلى تذكرة الحفاظ ٤/١٦٠ وطبقات الحفاظ للسيوطى ١٨ وكتابه حسن المحاضرة ١/٣٥٤ والعبر ٤/٣١٣

(٣) انظر فى ابن الصلاح ابن خلكان ٣/٢٤٣ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٣٠ والسبكى ٨/٣٢٦ والبداية والنهاية ١٣/١٦٨ والشذرات ٥/٢٢١

(٤) راجع اليونينى فى الدرر لابن حجر ٣/١٧١ والسلوك ١/٥٢٤ والنجوم الزاهرة ٨/١٩٨ والشذرات ٦/٣

بعنوان « شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » وكان أمام اليونيني فى مجالسه المذكورة جمع من طلاب الحديث وعلمائه وفى أيديهم نسخ من صحيح البخارى للمقابلة . واتخذ اليونينى رموزا لرواة تلك النسخ ولرواة آخرين بحيث بلغت رموزه خمسة عشر رمزا . وقد طبعت مطبعة بولاق الكتاب من نسخة فرعية لتلك النسخة اليونينية ، وهى نسخة ابن مالك وعليها شهادة من اليونينى بسماعه النسخة عليه ، وشهادة من ابن مالك بسماعها منه . وهى ذروة فى التحقيق لم يبلغها أحد بعد اليونينى ، كما أشرنا إلى ذلك فى كتابنا « البحث[1] الأدبى » .

ومن كبار المحدثين فى القرن الثامن الهجرى المِزِّى [2] يوسف بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٤٢ وإليه انتهت رياسة المحدثين بالشام ، ومن تصانيفه تحفة الإشراف بمعرفة الأطراف » طبع فى الهند ، وله « تهذيب الكمال » المجمع على أنه لم يصنف مثله . وكان يعاصره الذهبى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ حافظ الشام وهو مع المزى من مفاخر دمشق فى زمنهما وله فى الحديث تصانيف كثيرة مثل مختصر سنن البيهقى ومختصر الأطراف للمزى والمعجم الكبير والصغير ، وسنعود للحديث عنه بين المؤرخين . ومن محدثى القرن التاسع بدر [3] الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ صاحب كتاب « عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى » والخيضرى[4] الدمشقى محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٨٩٤ وله تعليقات على شرح ابن حجر للبخارى المسمى بالفتح البارى . وظل هذا التراث الضخم بأعين المحدثين أيام العثمانيين ، وكان أكثر اهتمامهم بكتب الصحاح الستة وخاصة بشروح ابن حجر والقسطلانى على صحيح البخارى وشرح النووى على صحيح مسلم .

وطبيعى أن يكون الفقه نشيطا فى الشام مع الدراسات الدينية السابقة لحاجة أهل الشام إلى الفتوى فى القضايا الشرعية ومايعرض لهم منها فى حياتهم اليومية ، وفعلا تكوّن للشام إمام أنشأ مذهبا فقهيا ظل فيها طويلا بجوار المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى

---

(١) البحث الأدبى (طبع دار المعارف) ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) انظر المزى فى الدرر ٢٣٣/٥ والنجوم الزاهرة ٧٦/١٠ وشذرات الذهب ١٣٦/٦ والبداية والنهاية ١٩١/١٤ والسبكى ٣٩٥/١٠ وتاريخ ابن الوردى ٣٣٢/٢ وطبقات الحفاظ للسيوطى ٥١٧ والدارس فى أخبار المدارس ٣٥/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٩٨/٤ والبدر الطالع ٣٥٣/٢

(٣) انظر فى العينى حسن المحاضرة ٤٧٣/١ والفوائد البهية ٢٠٧ والضوء اللامع جـ ١٠ رقم ٥٤٥ والشذرات ٢٨٦/٧ والبدر الطالع ٢٩٤/٢

(٤) راجع فى الخيضرى الضوء اللامع ج ٩ رقم ٣٠٥

وابن حنبل ونقصد الإمام الأوزاعي [١] صاحب المذهب المنسوب إليه أصحابه من الأوزاعية ، وقد توفى سنة ١٥٧ للهجرة ، ومولده ببعلبك ومنشؤه ببيروت ، واتخذها موطنه إلى وفاته ، ويقول السبكي إنه : « لم يكن يلى القضاء بدمشق والخطابة والإمامة – قبل ظهور مذهب الشافعي فيها لأواخر القرن الثالث كما سيتضح عما قليل – إلا أوزاعيّ على مذهب الإمام الأوزاعي [٢] . ويذكر المؤرخون أنه ولى القضاء بدمشق يحيى بن حمزة منذ سنة ١٥٤ إلى سنة ١٨٣ ثم وليه بعده ابنه محمد[٣] إلى سنة ٢٣١ . وأكبر الظن أن كلام السبكي يشملها وأنهما كانا يقضيان بين الناس بمذهب الأوزاعي . ويبدو أنه ظل بعدهما من كان يقضي بهذا المذهب ، إذ يذكر ابن تغرى بردى أنه توفى لسنة ٣٤٧ قاضي دمشق أحمد[٤] بن سليمان بن حَذْلَم الأوزاعي المذهب ، ويقول إنه كان له حلقة بالجامع الأموى وأكبر الظن أنه كان يدرس للناس فيها المذهب . ومعنى ذلك أن مذهب الأوزاعي كان لايزال حيًّا فى دمشق والشام إلى أواسط القرن الرابع الهجرى . ومعروف أن الأمويين فى أول تأسيس حكمهم بالأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام وظلوا عليه إلى أن انتقلوا عنه إلى مذهب مالك فى أواخر القرن الثانى للهجرة[٥] ، وكأنهم كانوا أسبق من أهل الشام انفصالا عن مذهب الأوزاعي .

وتذكر كتب التراجم والتاريخ أن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة حين ولى قضاء القضاة لعهد الخليفة الرشيد وأصبح هو المسيطر على تولية القضاة فى الدولة الإسلامية كان لايولى قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال أفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه الحنفى ، ونظن ظنا أنه كان يوجد فى دمشق أحيانا قاض حنفى بجانب القاضى الأوزاعي ، وربما كانا يتداولان الحكم . وممن تذكرهم كتب التاريخ من قضاة الأحناف قاضى دمشق على[٦] بن محمد بن كاس المتوفى سنة ٣٢٥ للهجرة ، ونظن ظنا أن حلب كانت أسرع من دمشق فى الانصياع لمذهب أبي حنيفة

---

(١) انظر فى الأوزاعي الجزء السابع من طبقات ابن سعد والأنساب للسمعانى ٥٣ وابن خلكان ١٢٦/٣ وتاريخ بغداد ١٩٩/١٠ وتذكرة الحفاظ ٥٨/١ وشذرات الذهب ٢٤١/١ والنجوم الزاهرة ٣٠/٢ ومحاسن المساعى فى مناقب الأوزاعي (طبع القاهرة) صنفه مؤلف مجهول سنة ٨٥٠ وضحى الإسلام ٩٨/٢

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ٣٢٦/١

(٣) انظر فيه وفى أبيه النجوم الزاهرة ٢٢/٢ ، ١١٣ ، ٢٦٠

(٤) راجع فى ابن حذلم النجوم الزاهرة ٣٢٠/٣ وفى السبكى ١٩٦/٣ : ابن خذيم

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي لبالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤١٣ ، ٤١٧

(٦) النجوم الزاهرة ٢٦٠/٣

بحكم قربها أكثر من العراق ، ومثلها فى ذلك أنطاكية ، ويلقانا فيها ابن أبى الفهم[1] التنوخى الأنطاكى المتوفى سنة ٣٤٢ وكان فقيها حنفيًّا بارعا . ونلتقى فى حلب بأحمد[2] بن يحيى بن زهير الحلبى المتوفى سنة ٤٢٤ وله كتاب ذكر فيه الخلاف بين أبى حنيفة وأصحابه من مثل أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى تلميذيه ، وأخذ عن ابن زهير المذهب بحلب جد بنى أبى جرادة هبة الله بن أحمد ، وتولى القضاء بمدينته ، وكانت أسرته على ثراء غير قليل فأكبت على المذهب تدرسه وتتعمقه منذ هبة الله إلى حفيده عمر بن العديم فى القرن السابع كما سنذكر عما قليل .

ونخلص من ذلك إلى أنه كان من الأسباب المهمة فى دخول مذهب أبى حنيفة إلى الشام أن كثيرين من القضاة منذ أواخر القرن الثانى كانوا أحنافا ، فأخذ المذهب يشيع ، وتكاثر طلاب العلم الذين يبغون اعتناقه ، وأخذ يدرسه لهم غير عالم حنفى . ويلقانا المفضل[3] بن محمد المعرى الحنفى المتوفى سنة ٤٤٤ تلميذ الإمام القدورى الحنفى البغدادى وَلِىَ القضاء ببعلبك وناب فى القضاء بدمشق ، ومن تصانيفه كتاب فى الرد على الإمام الشافعى . ويلقانا البلاساغونى[4] محمد بن موسى المتوفى سنة ٥٠٦ مصنف « أصول الفقه » على مذهب أبى حنيفة ، ولىّ قضاء بيت المقدس ودمشق مدة . وكان القضاة قبله فى الشام شافعية وكذلك كان أئمة الجامع الأموى ، فحاول أن يقيم فيه إماما حنفيًّا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ولم يمكّنوه وعُزل وعاد القضاء فى دمشق إلى الشافعية .

وكانت قد أخذت المدارس تنشأ بالشام وكانت قد أُسست فى دمشق – كما مر بنا – المدرسة الصادرية سنة ٤٩١ ويعدُّ ابن شداد من فقهائها حتى سنة ٦٥٨ أحد عشر فقيها حنفيًّا ، وذكر النعيمى بعده فقهاءها إلى نهاية أيام المماليك . وقد ذكر ابن شداد بجوارها فى دمشق وضواحيها حتى سنة ٦٧٠ أربعا وثلاثين مدرسة للأحناف ويذكر أسماء فقهائها حتى سنة ٦٧٠ ويتابع ذلك النعيمى . ويصنع ابن شداد نفس الصنيع بحلب وماأنشئ فيها من مدارس حنفية منذ أسست فيها المدرسة الزجاجية سنة ٥١٦ وكانت حلب قد أقبلت أكثر من دمشق – على المذهب الحنفى من قديم كما مرَّ بنا . واشتهرت فيها أسر بتوارث هذا المذهب مثل أسرة بنى العديم ، وعنى نور الدين

---

(١) النجوم الزاهرة ٣١٠/٣ وتاج التراجم رقم ١٣٥

(٢) انظر ابن زهير فى تاج التراجم رقم ٤١ وقابل بمعجم الأدباء ١٦/٥ ومابعدها .

(٣) راجع المفضل فى النجوم الزاهرة ٥٢/٥ وتاج التراجم رقم ٢٢٤

(٤) انظر فى البلاساغونى النجوم الزاهرة ٢٠٤/٥ والسبكى ٣٢٦/١

بالمذهب وكان حنفيا وأسس له مدرستين : مدرسة بحلب وأخرى بدمشق سميت كل منهما بالمدرسة النورية . ومضى الأيوبيون بعده يعنون بالمذهب ومدارسه ، وكانوا شافعية ، وانفرد من بينهم المعظم عيسى صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) باعتناقه المذهب الحنفى وتعمقه فيه ، على هدى من أستاذه جمال الدين الحصيرى [١] الذى انتهت إليه رياسة المذهب بدمشق والمتوفى سنة ٦٣٦ وله شرحان على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى : شرح مفصل فى ثمان مجلدات سماه التحرير ، وشرح مختصر فى مجلدين سماه الوجيز ، ومع إيجازه زاد فيه ١٦٣٠ مسألة مع الإيضاح بالنظائر والشواهد . وشرح أيضا للشيبانى كتاب السير الكبير وهو فى الأحكام الفقهية المتعلقة بالغزوات والحرب ، وله كتاب فى الخلاف بين الشافعية والحنفية ، ودفع المعظم للتعمق فى المذهب حتى ألف فيه كتابا[٢] . وليس ذلك فحسب ، فقد كلّف الحصيرى وفقهاء المذهب بتأليف كتاب جامع فيه ، فألفوا كتابا فى عشر مجلدات سموه كتاب التذكرة .

وتَظلُّ الشامَ أيامُ المماليك ويقرر الظاهر بيبرس أن لا يُقْتَصَر فى مصر على قاض شافعى كما كان الشأن منذ عهد صلاح الدين ، بل يشترك معه فى القضاء قاض حنفى وقاض مالكى وقاض حنبلى وعمم ذلك فى دولته بدمشق وحلب وغيرهما من مدن الشام ، واطرد العمل بذلك إلى أيام العثمانيين ، فكان من الأسباب المهمة فى ازدهار المذهب الحنفى بديار الشام بجوار ما كان له من مدارس ، مما دفع إلى حركة علمية نشيطة فيه ، وكان أول من تولى القضاء بدمشق من فقهاء الأحناف حسب قرار بيبرس عبد[٣] الله بن محمد بن عطا الأذرعى المتوفى سنة ٦٧٣ ، وتوالى القضاة الأحناف فيها بعده ، منهم شمس الدين الأذرعى المتوفى سنة ٧٢٢ ولى قضاء دمشق عشرين سنة ودرّس طويلا بمدارسها الحنفية . وتتكاثر أسماء القضاة والفقهاء الأحناف فى كتب التاريخ والتراجم ، وحسبنا أن نعرف أن نشاطًا وافرًا أداه فقهاء الأحناف فى ديار الشام بالحقب التالية . وظل هذا النشاط أيام العثمانيين ، ولبرهان[٤] الدين الحلبى المتوفى سنة ٩٥٦ كتاب ملتقى

---

(١) راجع فى الحصيرى الفوائد البهية فى طبقات الحنفية ٨٤ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ٢/١٥٥ وتاج التراجم رقم ٢٠٨ والبداية والنهاية ١٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة ٦/٢١٣

(٢) انظر فى المعظم عيسى ونشاطه فى الفقه الحنفى مختصر مرآة الزمان ٤٢٦

(٣) انظر فى الأذرعى النجوم الزاهرة ٧/٢٤٦ والسلوك للمقريزى ١/٦١٩

(٤) راجع فى برهان الدين دائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/٤٣٣

الأبحر فى فروع الفقه الحنفى ، وقد ترجم قديما إلى التركية والفرنسية . وصنف شمس الدين التمرتاشى الغزى المتوفى سنة ١٠٠٤ للهجرة كتاب تنوير الأبصار وجامع البحار فى الفقه الحنفى ، ومنه ومن شروحه مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وكان أقل المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى انتشارا وأتباعا فى الشام المذهب المالكى ، ويأخذ فى النشاط هناك متأخرا زمن الدولة الأيوبية ، منذ بنى صلاح الدين بدمشق للمالكية مدرسته الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى ، ويذكر ابن شداد من أساتذتها المهمين ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ وقد مرَّ بنا ذكره بين النحاة وله مختصران نفيسان فى الفقه المالكى وعلم الأصول ، ودرَّس الفقه المالكى أيضا فى زاوية المالكية الملاصقة لغربى الجامع الأموى ، بناها أيضا للمالكية صلاح الدين . وخلفه فى المدرسة الصلاحية عبد [1] السلام الزواوى المتوفى سنة ٦٨١ وإليه انتهت رياسة المالكية بالشام ومشيخة القرّاء ، وكان معمرا ، توفى عن ٩٢ عاما . ولايذكر ابن شداد للمالكية وراء المدرسة الصلاحية سوى مدرسة واحدة هى مدرسة الشرابيشى فى حين ذكر للحنفية كما أسلفنا أربعة وثلاثين مدرسة . وكان قد انتعش المذهب المالكى كغيره من المذاهب حين قرر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ إسناد الحكم فى بلدان الشام الكبرى : دمشق وغيرها إلى أربعة قضاة بينهم قاض مالكى ، وكان أول من تولى القضاء المالكى بدمشق حينئذ عبد السلام الزواوى المذكور آنفا ، وتعاقب بعده القضاة ، كما تعاقب فقهاء المالكية يدرسون للناس المذهب ، ومن أهمهم عيسى [2] بن مسعود مدرس الفقه المالكى بالجامع الأموى المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح جيد على مختصر ابن الحاجب ، وشرح المدونة للفقه المالكى لمصنفها سحنون ناشر المذهب فى الديار المغربية ، وله شرح موسع على صحيح مسلم وكتاب فى مناقب مالك ، وإليه انتهت رياسة المالكية فى الشام . ويلقانا فى كتب التراجم كثيرون يتنقلون بين القاهرة ودمشق متولين لمنصب القضاء المالكى . ويأخذ نشاط المالكية أيام العثمانيين فى التضاؤل والشحوب .

وكان أولَ من أدخل مذهب الشافعى — فيما يبدو — إلى الشام أبو زرعة [3] بن عثمان الدمشقى ولى القضاء بالقاهرة ثمانى سنوات ، ثم ولىَ القضاء بدمشق سنة ٢٩٢ حتى توفى سنة ٣٠٢ ويقول

---

(١) راجع فى عبد السلام الزواوى النجوم الزاهرة ٣٥٦/٧ وطبقات القراء ٣٨٦/١ والبداية والنهاية ٣٠٠/١٣ والسلوك ٥٤٢/١

(٢) انظر فى ابن مسعود الدرر الكامنة لابن حجر ٢٩٠/٣

(٣) راجع أبا زرعة فى قضاة دمشق لابن طولون (طبع دمشق) ٢٢ والبداية والنهاية ١٢٢/١١ والشذرات ٢٣٩/٢ والسبكى ١٩٦/٣ وقابل على ٣٢٦/١

السبكى فى كتابه طبقات الشافعية : لم يل القضاء بعده فى الشام إلا شافعى المذهب غير ابن حذلم قاضى الشام فإنه كان أوزاعى المذهب كما مرّ بنا . ومرّ بنا أيضا أنه ولى قضاء الشام حتى توفى سنة ٣٢٥ . ويغلب أن يكون هذا شذوذا وأن تكون عبارة السبكى صحيحة ، كما يتضح ذلك لمن يرجع إلى كتاب قضاة دمشق لابن طولون . ومنهم عبد [١] الله بن محمد القزوينى قاضى الرملة المتوفى سنة ٣١٥ والحسين [٢] بن أبى زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٢٧ وكان قاضيا للدمشق فى زمن الإخشيد ، وأبو [٣] يحيى البلخى زكريا بن أحمد المتوفى سنة ٣٣٠ وكان مثل سابقه قاضيا للدمشق . ومنهم أيضا أيام الفاطميين أبو بكر المَيَانَجِىّ قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٧٥ . ويبدو أنه تجرد فى القرن الرابع فقهاء شافعية لعرض المذهب الشافعى ودراسته فى مدن الشام الكبرى ، إذ نجد عبد المنعم بن غلبون الحلبى المتوفى سنة ٣٨٩ مقرئ حلب يسلكه السبكى بين فقهاء الشافعية ، ويقول إنه تلقن المذهب على الحصائرى [٤] الحسن بن حبيب الدمشقى إمام مسجد باب الجابية بدمشق المتوفى سنة ٣٣٨ ، ويلقانا فى القرن الخامس فقيه شافعى هو أبو [٥] الخير المروزى يستوطن المعرَّة سنة ٤١٨ ويدرس بها للطلاب حتى وفاته سنة ٤٤٧ وله كتاب فى فقه الشافعى يسمى الذخيرة حمله عنه طلابه . ونلتقى من قضاة دمشق بأبى المظفر عبد [٦] الجليل بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٧٩ وكان يعاصره نصر [٧] بن إبراهيم المقدسى المتوفى سنة ٤٩٠ تفقه على الفقيه سليم بصور ودرس فيها عشر سنوات ثم انتقل إلى دمشق يدرس ويفتى ويحدِّث . وكان قد نزل بصوامع بيت المقدس ودمشق الإمام الغزالى منذ سنة ٤٨٨ وله ثلاثة كتب فى الفقه الشافعى : البسيط والوسيط والوجيز ، وشُغف بها الشافعية منذ زمنه فى الشام وغير الشام .

ويدخل مذهب الشافعى فى مرحلة كبرى جديدة ينتشر فيها بالشام أوسع انتشار ، ونقصد مرحلة تأسيس مدارس الشافعية منذ تأسيس المدرسة الأمينية فى سنة ٥١٤ ويعدُّ ابن شداد فى

---

(١) انظر قضاة دمشق ٢٦ والبداية والنهاية ١١/١٥٧ والعبر ٢/١٦٢ والسبكى ٣/٣٢٠

(٢) راجع الحسين فى السبكى ٣/٢٨١ وقضاة دمشق ٢٧

(٣) انظر البلخى فى قضاة دمشق ٢٨ والسبكى ٣/٢٩٨ والشذرات ٢/٣٢٦ والعبر ٢/٢٢٢

(٤) راجع فى الحصائرى السبكى ٣/٢٥٥ وقارن مع ابن غلبون فى السبكى ٣/٣٣٨

(٥) انظر أبا الخير فى السبكى ٤/٢٩٩

(٦) راجع فى أبى المظفر قضاة دمشق ٤٢ والسبكى ٥/١٠٠

(٧) انظر نصر بن إبراهيم فى تهذيب الأسماء واللغات ٢/١٢٥ والسبكى ٥/٣٥١ والعبر ٣/٣٢٩ ومرآة الجنان ٣/١٥٢ والنجوم الزاهرة ٥/١٦٠ والشذرات ٣/٣٩٥

كتابه « الأعلاق الخطيرة » من مدرسى هذه المدرسة حتى زمن تأليفه لكتابه حوالى سنة ٦٧٠ عشرةً من كبار فقهاء الشافعية ، ولاتتجاوز مدارس الشافعية بدمشق حتى عهد نور الدين عد أصابع اليد الواحدة ، حتى إذا خلص الأمر لصلاح الدين والأيوبيين - وكانوا شافعية إلا ماكان من اعتناق المعظم عيسى للمذهب الحنفى - ازدهر المذهب الشافعى منذ هذا التاريخ ، وقد جعل صلاح الدين قاضى القضاة بدمشق شافعيا ، وبلغت مدارس الشافعية -كما أحصاها ابن شداد - أربعين مدرسة حتى أيامه . وإذا تصورنا أن المدرسين التابعين لكل مدرسة من هذه المدارس بلغوا حتى زمنه فى المتوسط أربعة من المدرسين يكون معنى ذلك أن المذهب الشافعى حظى حتى أواخر القرن السابع الهجرى فى دمشق وحدها بما لايقل عن مائة وستين فقيها نابها ، واطرد العمل بذلك فى هذه المدارس بدمشق وفيما أحصاه بعدها النعيمى فى كتابه « الدارس » وأيضا فيما قابلها من مدارس للشافعية فى حلب وغيرها من بلدان الشام الكبرى .

ومن المؤكد أن قرار الظاهر بيبرس بأن يكون للمذاهب الكبرى بجانب مذهب الشافعى قاض لم يحدث أثرا عكسيا فى المذهب كما كان يُظنّ ، إذكان زمام القضاء فى أيام الأيوبيين بيد الشافعية وحدهم ، بل ظل للمذهب ازدهاره ، وظل له الجمهور الأكبر من الناس والفقهاء فى الشام ، ونكتفى بالوقوف عند بعض مشهوريهم ، فنهم ابن (١) أبى عصرون قاضى القضاة بدمشق لعهد صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٥ وبنى له قبل ذلك نور الدين المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك ، وبنى هو لنفسه مدرستين بحلب ودمشق ، ويقول السبكى عنه : ملأ البلاد تصانيف وتلامذة ، ويذكر من تصانيفه « صفوة المذهب » فى سبع مجلدات وكتاب الانتصار فى أربع مجلدات وكتاب المرشد فى مجلدين وكتاب الذريعة فى معرفة الشريعة ، إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . ومن كبار فقهاء الشام بعده العز بن عبد السلام ، ذكرناه بين فقهاء الشافعية بمصر ، إذ استوطنها حتى وفاته .

وفى رأينا أن أعظم فقيه شافعى أنجبته الشام هو محيى الدين النووى (٢) المتوفى سنة ٦٧٦ عن

---

(١) انظر فى ابن أبى عصرون خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ٣٥١/٢ وابن خلكان ٥٣/٣ والسبكى ١٣٢/٥ ونكت الهميان ١٨٦ وطبقات القراء ٤٥٥/١ والعبر ٢٥٦/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٩/٦ وتذكرة الحفاظ ١٣٥٧/٤ والبداية والنهاية ٣٣٣/١٢ والشذرات ٢٨٣/٤

(٢) راجع فى النووى السبكى ٣٩٥/٨ والبداية والنهاية ٢٧٨/١٣ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٠/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٧ والعبر ٣١٢/٥ وشذرات الذهب ٣٥٤/٥ والسلوك ٦٤٨/١ والدارس فى أخبار المدارس ٢٤/١

خمسة وأربعين عاما ، ومر بنا ذكره بين المحدثين ، وكان إماما مجتهدا واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى بعده وكذلك آراؤه ، ومن أهم مصنفاته فى فقه الشافعية منهاج الطالبين لخص به كتاب المحرّر للرافعى القزوينى ، واختصر المنهاج فيما بعد الشيخ زكريا الأنصارى ، وسمى مختصره المنهج ، وصنف النووى فى فتاويه الفقهية كتابين : كبير وصغير . ومن فقهاء الشافعية الكبار فى زمنه وبعد زمنه علاء[1] الدين الباجى المتوفى سنة ٧١٤ وكمال الدين محمد الزّملكانى حفيد عبد الواحد الذى ذكرناه بين البلاغيين توفى سنة ٧٢٧ . وتفيض كتب التراجم والتاريخ بأسماء جلّة من هؤلاء الفقهاء ، ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من فقهاء الشافعية الكبار بمصر كانوا ينزلون فى الشام مثل تقى الدين السبكى قاضى قضاة الشام وابنه تاج الدين عبد الوهاب خطيب الجامع الأموى مؤلف طبقات الشافعية ، ويظل المذهب الشافعى مزدهرا بالشام أيام المماليك والعثمانيين .

وكان المذهب الحنبلى فى الشام أقل أشياعا وأنصارًا من المذهب الشافعى والحنفى ، ومن أوائل من أدخلوه إلى دمشق والشام علم من أعلام المذهب الحنبلى هو أبو القاسم الخِرَقىّ عمر[2] بن الحسين المتوفى بدمشق سنة ٣٣٤ وكان قد استوطنها بأخرة من عمره ودرس المذهب فيها ، وله كتاب دوّت شهرته هو « المختصر » فى الفقه الحنبلى ، ظل طلاب المذهب يعتمدون عليه طويلا ، ويقال إن عدد مسائله بلغ ٢٣٠٠ مسألة . وظل المذهب لاينتعش فى ديار الشام حتى قُيِّض له فى القرن الخامس أبو الفرج[3] الشيرازى المقدسى الدمشقى المتوفى سنة ٤٨٦ وكان قد تفقه فى بغداد على أبى يَعْلَى صاحب طبقات الحنابلة ، وقدم الشام فسكن بيت المقدس ونشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل فيما حوله من بلدان فلسطين ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها وأخذ ينشر المذهب حتى أصبح له أتباع وتلامذة كثيرون لا فى دمشق فحسب بل أيضا فى بيت المقدس وغيرهما من بلدان الشام ، وله تصانيف عدة فى الفقه الحنبلى والأصول ، منها : المبهج والإيضاح ، ومختصر فى الحدود وفى أصول الفقه ، والتبصرة فى أصول الدين ، وله كتاب الجواهر فى التفسير ثلاثون

---

(١) انظر فى علاء الدين الباجى الدرر الكامنة ٣/١٧٦ وطبقات الشافعية للسبكى ١٠/٣٣٩ وفوات الوفيات ٢/١٥٠ وحسن المحاضرة ١/٥٤٤ والشذرات ٦/٣٤

(٢) انظر فى الخرقى تاريخ بغداد ١١/٢٣٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٣٣١ والأنساب للسمعانى ١٩٥ وابن خلكان ٣/٤٤١ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٩

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (طبعة دمشق) ١/٨٥ وما بعدها

مجلدا . وكان يعاصره الفقيه الحنبلي عبد [1] الوهاب بن طالب التيمي نزيل دمشق وإمام مسجد الريحان .

وخلف أبا الفرج الشيرازى على المذهب ابنه عبد الوهاب المتوفى سنة ٥٣٦ وتخرج من بيته فقهاء حنابلة كثيرون ، ويعرفون فى دمشق والشام ببيت ابن الحنبلى ، ولعبد الوهاب مثل أبيه تصانيف فى الفقه الحنبلى والأصول ، منها المنتخب فى الفقه الحنبلى فى مجلدين والبرهان فى أصول الدين . ولعبد الوهاب على المذهب فى الشام يد سابغة ، فقد بنى له بدمشق مدرسة تعرف بالمدرسة الحنبلية ، ويذكر ابن شداد أساتذتها من الحنابلة الفقهاء حتى أيام تأليف كتابه « الأعلاق الخطيرة » بعد سنة ٦٧٠ . ويذكر بدمشق معها تسعة مدارس أخرى للحنابلة بُنيت بعدها حتى زمن ابن شداد . ونشط بناء المدارس الحنبلية فى بيت المقدس وظل بعد ابن شداد على نحو مايصوره ذلك النعيمى فى كتابه « الدارس فى تاريخ المدارس » . وكان مما ضاعف نشاط هذا المذهب قرار الظاهر بيبرس أن يكون للحنابلة فى ديار الشام - كما فى ديار مصر - قاض فى كل بلد كبير بجانب قضاة الحنفية والمالكية والشافعية . ويتضح هذا النشاط وتتضح معه كثرة الفقهاء من الحنابلة منذ أيام الأيوبيين ، ومن كبارهم حينئذ موفق [2] الدين بن قدامة الجمّاعيلى المقدسى عبد الله بن أحمد المتوفى بدمشق سنة ٦٢٠ وهو من أئمة المذهب ، وله كتب كثيرة فى الفقه الحنبلى وأصوله وأصول الدين ، منها المغنى شرح به مختصر الخرقى المار ذكره فى عشر مجلدات ، وهو مطبوع ، والكافى فى أربع مجلدات ، وله فى أصول الفقه كتاب روضة الناظر ، وفى أصول الدين كتاب الاعتقاد . ويلقانا بعده فقهاء كثيرون من بيته يتردد ذكرهم طوال القرنين السابع والثامن .

ومانكاد نبلغ نهاية القرن السابع أيام المماليك حتى يتألق فى المذهب اسم الإمام ابن [3] تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ وقد صورنا جانبا من تحرره الفكرى واجتهاده فى غير هذا الموضع ، ومرَّ بنا حديثنا عن منهجه فى التفسير القرآنى ، وله عشرات الرسائل والكتب فى المسائل التشريعية والعقيدية ، ويقول الذهبى فى تذكرة الحفاظ إن مصنفاته التى سارت بها الركبان نحو ثلاثمائة مجلد ، ومن أهم كتبه الفقهية فتاويه وهى مطبوعة قديما فى خمسة مجلدات كبار . ومن أعلام الفقهاء الحنابلة بعده تلميذه ابن قيم الجوزية المذكور بين البلاغيين وهو حامل فقهه وعلمه وناشرهما فى الناس وأضاف

---

(١) ابن رجب ١/٩٦

(٢) راجع فى ابن قدامة ابن رجب ٢/١٧٠ والبداية والنهاية ١٣/٩٩ والشذرات ٥/٨٨ والنجوم الزاهرة ٦/٢٥٦

(٣) مرت مصادر ابن تيمية فى الحركة العلمية ص ٥٥١

إليهما كثيرا من روائع الكتب ، مع نزعة صوفية قوية فيه . وتصدى فى دمشق بعد أستاذه للإقراء والإفتاء وصنّف كثيرا فى الفقه والتفسير والحديث والأصول والفروع ، ومن تصانيفه إعلام الموقعين وشرح منازل السائرين ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وطرق السعادتين ، ويقول ابن حجر فى الدرر : هو طويل النفس فى كتاباته يحاول الإيضاح جهده فيسهب جدا ، ويقول الشوكانى فى البدر الطالع : « له من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق مالا يقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الأفهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب » . ويزخر كتاب النجوم الزاهرة بأسماء فقهاء الحنابلة وقضاتهم بدمشق وغيرها حتى نهاية زمن تأليفه سنة ٨٧٢ . ويلقانا بأخره من أيام المماليك مجير الدين العليمى عبد الرحمن بن محمد قاضى بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ وله كتاب فى طبقات الحنابلة سماه « المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد » . ويظل للفقهاء الحنابلة نشاطهم أيام العثمانيين مثلهم فى ذلك مثل بقية أصحاب المذاهب الثلاثة الأخرى .

ومنذ ظهرت المذاهب الفقهية والكلامية والجدل يحتدم بين أصحابها ، مما أتاح مبكرًا لنشأة علم الجدل وما تبعه من نشأة علم آداب البحث والمناظرة ، ويكثر التأليف فيهما لهذا العصر كما يكثر التأليف فى علم الأصول الذى وضعه الإمام الشافعى وفاق الأولين والآخرين فيه الآمدى الذى سنلم به فى حديثنا عن علم الكلام بجزء مصر ، وكان قد نزل مصر ثم استوطن حماة حتى وفاته سنة ٦٣١ ، وكتابه «الإحكام فى أصول الأحكام» ربما كان أروع كتاب فى علم الأصول على مدى الأزمنة الماضية . والشام - مثل مصر - انصرفت عن الاعتزال وعن الفرق الكلامية الكثيرة التى نشأت فى بغداد ، حتى إذا ظهر الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ وانضم تحت لوائه شافعية خراسان انضم مثلهم شافعية الشام ومصر بحيث تعانق المذهبان . الشافعى والأشعرى فى كل مكان . ولم يلبث أن خاصمها الحنابلة الآخذون بظاهر الكتاب والسنة ، واستمر هذا الخصام على مدار السنين فى أزمنة الأيوبيين والمماليك . ومن حين إلى آخر يتوقف السبكى فى طبقاته ليصور تعصب بعض الحنابلة ضد الأشاعرة وخاصة أستاذه الذهبى ، فقد كان يتعصب تعصبا شديدا ضدهم على نحو ما سنعرض ذلك فى غير هذا الموضع . وفى الوقت نفسه يشيد بفقهاء الشافعية الذين يردّون على خصوم الأشعرية ، على نحو ما أشاد بفخر الدين بن عساكر فى رده المفحم على الحسن بن على الأهوازى المار بين القراء فى كتابه « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى » . ويشيد السبكى

بصفى[1] الدين بن الهندى المتوفى بدمشق سنة ٧١٥ لقيامه بنصرة المذهب الأشعرى ، ويقول : إنه كان من أعلم الناس بمذهبه وأدراهم بأسراره ، ويذكر من تصانيفه فى نصرة المذهب كتابه « زبدة الكلام » ويذكر له بجواره كتابا فى الأصول هو « نهاية الوصول فى دراية الأصول » .. وظلت نصرة الشافعية لمذهب الأشعرى على مدار السنين فى أيام المماليك والعثمانيين .

٥

التاريخ

نشطت دمشق والشام فى كتابة التاريخ بجميع صوره من السير المفردة وتاريخ المدن وتاريخ الدول أو دولة معينة والتراجم أوكتب الطبقات . ونبدأ حديثنا بالسير المفردة ، وأولها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الزكية ، وأول شامى ندب نفسه للكتابة فيها أبو[2] زُرْعة عبد الرحمن بن عمرو شيخ الشام المتوفى سنة ٢٨٢ وله بجانبها كتاب عن تاريخ الخلفاء الراشدين ، سقط مثل السيرة النبوية من يد الزمن . وعنى بعض الشاميين بالكتابة فيها ولم تصلنا كتاباتهم ، مثل السيرة النبوية لابن أبى طى المتوفى سنة ٦٣٠ . ونلتقى فى أيام العثمانيين بشمس الدين الدمشقى محمد[3] بن يوسف المتوفى سنة ٩٤٢ وله سيرة نبوية تسمى السيرة الشامية جمعها من نحو ٣٠٠ كتاب ، وتعنى مصر بإخراجها الآن . وصنّف نور الدين الحلبى المولود بمصر السيرة الحلبية ، ومر ذكرها فى حديثنا عن التاريخ بقسم مصر ، وهى مطبوعة . ونلتقى بثلاث سير أو تراجم شخصية صور أصحابها فيها حياتهم ، وأول مايلقانا منها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ وهو يصور فيها حياة الشاميين وحملة الصليب لزمنه ، نشرها فيليب حتى وكان قد نشرها قبله ديرنبورج . ولأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ترجمة شخصية بقلمه أودعها كتابه « ذيل الروضتين » وبالمثل لابن طولون الصالحى المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ ترجمة شخصية بعنوان « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهى مطبوعة بدمشق .

---

(١) راجع فى صفى الدين طبقات السبكى ١٦٢/٩ والوافى بالوفيات ٢٣٩/٣ والدرر لابن حجر ١٣٢/٤ ومرآة الجنان ٢٧٢/٤ والشذرات ٣٧/٦ والبدر الطالع ١٨٧/٢

(٢) انظر فى أبى زرعة النجوم الزاهرة ٨٧/٣ وقارن بالجزء ١٢٨/١ وتاريخ ابن عساكر ٢٧٤/٧ وابن حجر فى التهذيب ٥٥/٢ . وراجع بروكلمان ٢١/٣

(٣) انظر فى شمس الدين الشذرات ٢٤٩/٨

وشغل صلاح الدين بسيرته المؤرخين ، وأولهم العماد الأصبهانى وفيه ألف كتابه « البرق الشامى » ذكر فيه أخبار صلاح الدين وفتوحاته وأحداث الشام فى عهده ، وهو فى سبع مجلدات . ويتصل بهذه السيرة كتابه « الفيح القُسىّ فى الفتح القدسى » صوّر فيه فتح صلاح الدين للقدس تصويرا أدبيا بديعا . وصنّف بهاء[1] الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ سيرة لصلاح الدين بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » اعتمد فيها على السيرة الصلاحية لابن أبى طى . ولابن عنين الشاعر المتوفى سنة ٦٣٠ سيرة[2] للملك العزيز سماها التاريخ العزيزى : وكتب أحد أولاد الناصر داود بن عيسى بن الملك العادل سيرة له باسم « الفوائد[3] الجلية فى الفرائد الناصرية» . وللنووى المذكور بين الفقهاء كتاب فى سيرة الإمام الشافعى ، ولابن عربشاه[4] الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٤ سيرة مفصلة لتيمورلنك تعقب فيها مولده ونشأته وملكه ودولته ومن خلفوه حتى سنة ٨٤٠ وسمى هذه السيرة « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » مصورًا إفساده فى الأرض وإهلاكه الحرث والنسل ومارتكب من الفظائع ، غير أنه كتبها بأسلوب مسجوع شديد التكلف ، ونزل مصر بأخرة من عمره فى عهد السلطان جَقْمق وكتب سيرته بعنوان « التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر » . ولبدر الدين العينى المار ذكره كتاب السيف المهند فى سيرة السلطان المؤيد ، ولبدر الدين محمد[5] بن أبى بكر الدمشقى المتوفى سنة ٨٧٤ سيرتان : سيرة لنور الدين ، والسيرة الثانية للسلطان قايتباى . وله سير كثيرة فى العصر . ولابن طولون الذى ذكرناه آنفا بين الجغرافيين سيرة لابن العربى المتصوف . وصنف شمس الدين الدمشقى المار ذكره سيرة لأبى حنيفة ، ومنها مخطوطة فى دار الكتب المصرية . ولمحمد بن يحيى الحنبلى سيرة صنفها عن عبد القادر الجيلانى المتصوف ، وهى مطبوعة ، ولمرعى[6] بن يوسف الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ سيرة صنفها فى مناقب ابن تيمية .

هذا بعض ماصادفنا من كتب السير المفردة ، أما كتب تاريخ المدن فقد عرضنا طائفة منها فى

---

(١) راجع بهاء الدين فى ابن خلكان ٨٤/٧ والسبكى ٣٦٠/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٦٠/٢ وتذكرة الحفاظ ١٤٥٩/٤ وطبقات القراء ٣٩٥/٢ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ والمختصر لأبى الفدا ١٥٦/٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٢/٦ والشذرات ١٥٨/٥

(٢) انظر كشف الظنون لحاجى خليفة (الطبعة الثانية) ٢٩٨

(٣) بروكلمان (الطبعة العربية) ١٨/٦

(٤) انظر مصادر ترجمة ابن عربشاه فى ص ٨٢٩

(٥) راجع ترجمته فى الضوء اللامع ١٥٦/٧

(٦) انظر فى مرعى الكرمى خلاصة الأثر ٣٥٨/٤

حديثنا عن علم الجغرافيا وخاصة مااتصل منها بفضائل دمشق والشام وبيت المقدس ، ونبسط الكلام فى كتابين ذكرناهما هناك ، أما أولهما فتاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ ابن عساكر على بن الحسن المتوفى سنة ٥٧١ ويقال إنه فى ثمانين مجلدا بدأه بالحديث عن فضائل الشام وفتوحها وخططها ومساجدها وكنائسها ودورها ثم ترجم لكل من دخل دمشق والشام منذ الجاهلية إلى زمنه من الأنبياء والخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب . وهذّبه بحذف الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران ، ونشر من تهذيبه سبعة « مجلدات » حتى ترجمة عبد الله بن سيار ، وقلما يذكر فى المراجع باسم تهذيب تاريخ ابن عساكر ، بل يقال مباشرة تاريخ ابن عساكر . والكتاب الثانى الذى سبق أن عرضنا له ونرى الوقوف عنده كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن شداد ، وهو يذكر خططها ثم يسهب فى ذكر الجامع الأموى وذكر مساجدها حتى زمنه ، ويتحدث عن مزاراتها فى باطنها وظاهرها وخوانقها ورُبُطها ومدارسها الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وكنائسها ودياراتها وحماماتها ومامُدحت به نثرا وشعرًا ، وهو بذلك تاريخ اجتماعى ثقافى حضارى . وقد عُنى ابن شداد بحلب كما عنى بدمشق . ولعل أهم كتاب عُنى بها قبله كتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » لابن العديم [1] عمر بن أحمد المتوفى سنة ٦٦٠ صنفه فى عشر مجلدات أرّخ فيها لعلمائها وأدبائها على الترتيب الأبجدى وجعل له تاريخا لحلب على السنين فى كتابه : « زبدة الحلب من تاريخ حلب » وصل به إلى نهاية أيام نور الدين محمود سنة ٥٦٩ حققه ونشره الدكتور سامى الدهان بدمشق . ولابن خطيب [2] الناصرية على بن محمد المتوفى سنة ٨٤٣ تتمة لبغية الطلب فى مجلدات سماها « الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » وأكمله محمد بن محمد بن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ وسمى تكملته « نزهة النواظر » . وعنى بكل ذلك أيام العثمانيين ابن [3] الحنبلى محمد بن إبراهيم الحلبى المتوفى سنة ٩٧١ وصنف كتابه « الزبد والضَّرَب (عسل النحل) فى تاريخ حلب » مع تكملته إلى سنة ٩٥١ . ولمجير الدين العليمى المتوفى سنة ٩٢٧ كتاب الأنيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل مطبوع . ومن يرجع إلى كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » سيجد بلدان الشام مع من كتبوا تاريخها تتعاقب ، تُذْكَرُ أولا حلب ثم حمص فالخليل فداريًا ضاحية لدمشق فدمشق فصفد فصور فطرابلس فعسقلان ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبق بلدة

---

(١) انظر فى ابن العديم معجم الأدباء ٥/١٦ وفوات الوفيات ٢/٢٠٠ والشذرات ٥/٣٠٣ وتاج التراجم ص ٤٨ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لكتابه : زبدة الحلب

(٢) راجع ابن خطيب الناصرية فى الضوء اللامع جـ ٥ رقم ١٠١٦ والشذرات ٧/٢٤٧

(٣) انظر ابن الحنبلى فى الشذرات ٨/٦٦٥

فى الشام إلا لمجرد عالم لكتابة تاريخها ومنها ماوصلنا ومنها مالم يصلنا وضاع مع الأيام.

ونترك تاريخ البلدان إلى التاريخ العام، وأول مايلقانا فيه ابن القلانسى حمزة[١] بن أسد المتوفى سنة ٥٥٥ وله تاريخ للحوادث على السنين سماه تاريخ دمشق ذيّل به على كتاب التاريخ لهلال الصابى ابتدأ به كما يقول ياقوت من سنة ٤٤١ إلى حين وفاته سنة ٥٥٥ . وكان يعاصره العظيمى[٢] الحلبى المتوفى بعد سنة ٥٥٦ ، ومحمد بن عمر بن شاهنشاه كتاب عن حماة وتاريخها وله أيضا تاريخ على السنين. وجاء بعدهما ابن أبى الدم[٣] الحموى قاضى حماة المتوفى سنة ٦٤٢ وله التاريخ المظفرى وهو تاريخ عام فى ستة مجلدات حتى سنة ٦٢٧ ، وسبط ابن الجوزى الحنفى المولود ببغداد والمستوطن لدمشق منذ مطلع القرن السابع حتى وفاته سنة ٦٥٤ وله كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان بدأ به من أول الخليقة ورتبه منذ الهجرة النبوية على السنين حتى سنة وفاته ، وفيه يذكر الحوادث ثم الوفيات فى كل سنة ، وكان فى أربعين مجلدا ، ونُشر منه فى حيدر آباد قسمان من الجزء الثامن على نحو ماأوضحنا ذلك فى حديثنا عن المؤرخين بالعراق فى الجزء السالف . ولموسى[٤] بن محمد اليونينى البعلبكى المتوفى سنة ٧٢٦ مختصر للمرآة فى نحو النصف مع ذيل فى أربعة مجلدات يتناول أولها مصر وسوريا من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٤ . ويلقانا مؤرخ كبير هو أبو الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ وقد ذكرناه بين الجغرافيين وله كتاب المختصر فى أخبار البشر ، وزعه على قسمين : قسم عن الجاهلية والديانات والأنبياء وقسم عن الإسلام حتى سنة ٧٢٩ وهو تاريخ نفيس ترجمه المستشرقون قديما إلى اللاتينية . وصنف عمر بن المظفر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ تكملة له حتى أيامه سماها «تتمة المختصر» طبعت مثل أصلها مرارا .

ونلتقى بالذهبى[٥] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٤٨ وله تاريخ الإسلام وطبقات مشاهير الأعلام فى ١٢ مجلدا رتبه على السنين جامعا فيه بين الأحداث والوفيات . ونقد السبكى تلميذه فى

---

(١) راجع فى ابن القلانسى تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣٩/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٣٢/٥ والشذرات ١٧٤/٤

(٢) انظر فى العظيمى بروكلمان (الترجمة العربية) ١٣١/٦

(٣) راجع فى ابن أبى الدم : السبكى ١١٥/٨ وتاريخ ابن الوردى ١٧٥/٢ والشذرات ٢١٣/٥ والمختصر لأبى الفدا ١٨٢/٣

(٤) راجع موسى فى الدرر ١٥٣/٥ والشذرات ٧٣/٦ والبداية والنهاية ١٢٦/١٤

(٥) انظر فى الذهبى الدرر ٤٢٦/٣ ونكت الهميان ٢٤١ وفوات الوفيات ٣٧٠/٢ والبداية والنهاية ٢٢٥/١٤ وتاريخ ابن الوردى ٣٤٩/٢ وطبقات القرّاء ٧١/٢ ومرآة الجنان ٢٣١/٤ والسبكى ١٠٠/٩ والوافى بالوفيات ١٦٣/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٢/١٠ والشذرات ١٥٣/٦ والبدر الطالع ١١٠/٢

طبقاته موقفه من الأشعرية ، وأنه لم يقف على الحياد فى عرضه لهم وللصوفية أيضا . وكان الحنابلة يخاصمون الطائفتين ولذلك يصبّ عليهم جميعا جامَ غضبه ، إذ كان حنبليا متعصبا لأصحاب مذهبه ، حتى ليقول السبكى أنه كان إذا ترجم واحدا من الحنابلة يطنب فى وصفه بجميع ماقيل فيه من المحاسن ، ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ماأمكن ، وإذا ترجم أحدا من الأشعرية كإمام الحرمين الجوينى والغزالى وأمثالهما لايبالغ فى وصفه ويكثر من قول مَنْ طعنَ فيه ، ويعيد ذلك ويبديه[1] . وكان ينبغى أن يكون منصفا فى تاريخه وتراجمه فيه بريئا من العصبية فى المذهب ، ويقول السبكى : « هذا وهو الحافظ المِدْره والإمام المبجّل فما بالك بعوامّ المؤرخين » . وللذهبى تاريخ عام فى مجلدين ، وهو مختصر لتاريخه الكبير ، رتبه على السنوات وذكر فيه الأحداث والوفيات ، سماه « العبر فى خبر من غبر » وذكره يتردد فى الهوامش .

وكان يعاصر الذهبى أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادار صاحب صَرْخَد ، وله كنز الدرر وجامع الغُرر ، ألفه للناصر بن قلاوون وهو فى تسعة أجزاء أولها فى بدء الخلق وثانيها فى الأمم القديمة وثالثها فى السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، والرابع فى الدولة الأموية ، والخامس فى الدولة العباسية ، والسادس فى الدولة الفاطمية ، والسابع فى الدولة الأيوبية ، والثامن فى دولة المماليك البحرية ، والتاسع فى دولة الناصر بن قلاوون ، منه نسخة بدار الكتب المصرية وهو كتاب نفيس جدير بالنشر. ونلتقى بابن كثير الذى مر ذكره بين المفسرين المتوفى سنة ٧٧٤ وله البداية والنهاية ، وهو فى التاريخ العام ، عُنى فيه بالسيرة النبوية مميزا بين الوثيق والمتهم فى الأخبار ، ومضى فيه يجمع بين الأحداث والوفيات على مر السنين حتى سنة ٧٦٧ للهجرة . وجاء بعده زين الدين بن الشحنة[2] الحلبى المتوفى سنة ٨١٥ وله فى التاريخ العام « روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر » انتهى فيه إلى سنة ٨٠٧ وهو مجلد واحد طُبع قديما على هامش الكامل لابن الأثير . ونلتقى بعده ببدر الدين العينى الذى مر ذكره بين المحدثين المتوفى سنة ٨٥٥ نشأ بحلب وتفقه على أبيه وكان قاضيا حنفيا وعلى غيره من فقهاء حلب الأحناف ، واختلف إلى شيوخ دمشق وبيت المقدس والقاهرة ، وتقلد مناصب مختلفة فى القاهرة ودمشق منها الحسبة وقضاء الحنفية ، وله عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، وهو تاريخ عام من بدء الخليقة حتى سنة ٨٥٠ .

---

(١) انظر السبكى ١٣/٢ ومابعدها والشذرات ١١٣/٧ والبدر الطالع ٢٦٩/١

(٢) راجع فى ابن الشحنة الضوء اللامع ٣/١٠

وممن نلتقى بهم فى أيام العثمانيين الجنابى مصطفى [١] بن حسن المتوفى سنة ٩٩٩ وله فى أحوال الأوائل والأواخر تاريخ حافل يعرف بتاريخ الجنابى يؤرخ فيه لثلاث وعشرين دولة إسلامية فى مجلدين حتى سنة ٩٩٧ قال صاحب كشف الظنون لم أر كتابا جامعا لدول العالم مثله . وكان يعاصره القرمانى [٢] أحمد بن سنان الدمشقى المتوفى سنة ١٠١٩ وله أيضا تاريخ عام للدول الإسلامية سماه : « أخبار الدول وآثار الأول » طبع قديما ببغداد فى ٥٠٠ صفحة .

وبجانب هذه الكتب التاريخية الكثيرة فى التاريخ العام صنف مؤرخو الشام كتبًا فرعية خاصة ببعض الدول ، من ذلك : « نُصْرة الفِطْرة وعُصْرة القَطْرة » للعماد الأصبهانى ، وهو تاريخ للسلاجقة وأتابكتهم ووزرائهم ، اختصره الفتح البندارى سنة ٦٢٣ بكتابه « زبدة النصرة ونخبة العصرة » طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . ونلتقى بأبى شامة [٣] الحافظ المقرئ المؤرخ المقدسى الشافعى عبد الرحمن بن إسماعيل المتوفى سنة ٦٦٥ وله كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : دولة نور الدين ودولة صلاح الدين فى وصف معاركهما وانتصاراتهما الكثيرة على حَملة الصليب ، وعادة يسرد المعركة ، ثم يعرض لوحاتها الشعرية البديعة التى تصور مجد العرب الحربى تصويرا رائعا ، وكيف كان هذا البطلان : نور الدين وصلاح الدين يسحقان الصليبيين سحقا ذريعا لا يكاد يبقى منهم ولا يذر . وكتب للروضتين ذيلا من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٦٥ . وكتب البرزالى [٤] القاسم بن محمد المتوفى سنة ٧٣٩ صلة لتاريخ أبى شامة باسم « المقتفى لتاريخ أبى شامة انتهى به إلى سنة ٧٣٨ وذيّله تلميذه الحافظ مدرس النورية تقى الدين محمد [٥] بن رافع المتوفى سنة ٧٧٤ فى كتاب سماه الوفيات حتى سنة ٧٧٤ ومنه مخطوطه بدار الكتب المصرية . ونلتقى بابن [٦] واصل محمد بن سالم المتوفى سنة ٦٩٧ وله « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » نشره

---

(١) انظر فى الجنابى دائرة المعارف الإسلامية . وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مصورتان من كتابه

(٢) راجع فى القرمانى خلاصة الأثر ٢٠٩/١

(٣) انظر فى أبى شامة ترجمة شخصية بقلمه فى ذيل الروضتين ص ٣٧ والسبكى ١٦٥/٨ وتذكرة الحفاظ ١٤٦٠/٤ وفوات الوفيات ٥٢٧/١ والبداية والنهاية ٢٥٠/١٣ وذيل مرآة الزمان ٣٦٧/٢ وطبقات القراء ٣٦٦/١ والشذرات ٣١٨/٥

(٤) راجع فى البرزالى السبكى ٣٨١/١٠ وتذكرة الحفاظ ١٥٠١/٤ والدرر ٣٢١/٣ وفوات الوفيات ٢٦٢/٢ والشذرات ١٢٢/٦ والنجوم الزاهرة ٣١٩/٩ والبدر الطالع ٥١/٢

(٥) انظر فى ابن رافع الدرر ٥٩/٤ والشذرات ٢٣٤/٦

(٦) راجع فى ابن واصل نكت الهميان للصفدى ص ٢٥٠ والشذرات ٤٣٨/٥ ومقدمة كتابه مفرج الكروب وخطط الشام لكرد على ٤٤/٤ وله تجريد الأغانى لأبى الفرج جرده من أسانيده ، ونُشر فى القاهرة

الدكتور جمال الدين الشيال فى ثلاثة أجزاء . وصنف ابن حبيب الحلبى بدر الدين الحسن بن عمر المتوفى سنة ٧٧٩ فى تاريخ المماليك حتى أيامه كتابه «درة الأسلاك فى دولة الأتراك» ابتدأ به من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٧ وأتمه ابنه طاهر إلى سنة ٨٠٢ . ولابن حبيب كتاب فى تاريخ أسرة قلاوون وأبنائه سلاطين مصر . ولمرعى الكرمى السابق ذكره أيام العثمانيين نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

ونلتقى بكثيرين من كُتّاب التراجم والطبقات ، ومنهم كتاب عامُّون لم يخصوا قطرا عربيا بعينه ولا طائفة من الطوائف بعينها ، نذكر منهم الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء ويقع فى نحو خمسة عشر مجلدا ، نشر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض أجزائه . ومنهم ابن[1] شاكر الكتبى الحلبى المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب فوات الوفيات يقصد كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وكأنه تكملة لما فاته ، وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة لعلماء من كل صنف ولكُتّاب وشعراء وصوفية وحُكّام . وكان يعاصره الصفدى خليل بن أيبك المتوفى أيضا سنة ٧٦٤ وسنلم به فى حديثنا عن النثر ، وهو أهم من أنجبتهم الشام فى كتابة التراجم ، وله فيها كتابه الضخم الوافى بالوفيات ويدخل فى نحو ثلاثين مجلدا نُشرت منها طائفة. وله بجانبه «نكت الهميان فى نكت العميان» فى تراجم من فقدوا بصرهم من مشاهير الأكفّاء فى العالم العربى على توالى الحقب ، وأيضا «أعيان العصر وأعوان النصر» فى مشاهير معاصريه فى نحو ستة مجلدات ، وهو حرى بالنشر . ويعنى نجم[2] الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ بتراجم القرن العاشر ويؤلف فيها كتابه الكواكب السائرة ، وعُنيت جامعة بيروت الأمريكية بنشره ، ويصنف المحبى[3] محمد أمين المتوفى سنة ١١١١ للهجرة كتابه : «خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر» كما يصنف المرادى[4] محمد خليل المتوفى سنة ١٢٠٦ كتابه : «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» .

ويؤلف العماد الاصبهانى كتابه «خريدة القصر وجريدة العصر» وهو كتاب تراجم لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ وهم موزعون على أقطارهم من إيران إلى الأندلس ، نشرت منه أقسام مصر والشام والأندلس والمغرب ونشرت أجزاء العراق . وصُنّفت بعد العماد فى الشام كتب عن الشعراء مثل طبقات الشعراء لمحمد[5] بن عمر بن شاهنشاه

(١) انظر فى ابن شاكر البداية والنهاية ٣٠٣/١٤ والدرر ٧١/٤ والشذرات ٢٠٣/٦

(٢) راجع فى الغزى خلاصة الأثر ١٣٥/١ ومقدمة الجزء الأول من الكواكب السائرة

(٣) انظر فى المحبى سلك الدرر ٨٦/٤

(٤) راجع فى المرادى تاريخ الجبرتى ٢٣٣/٢

(٥) انظر مختصر المرآة لسبط ابن الجوزى : ٤٠١

صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ وكان فى عشر مجلدات ، سقط هو وغيره مما يماثله من أيدى الزمن .
ومما وصلنا نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبى المذكور فى بيان محاسن الشعراء بدمشق وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم ، طُبع فى مجلدين كبيرين .

واهتم الأطباء بصنع كتب تحمل تراجمهم ، وشاركت الشام فى هذا العمل عن طريق ابن أبى أصيبعة الذى مر ذكره بين الأطباء فألف كتابه « طبقات الأطباء » استقصاهم حتى زمن وفاته ، وهو أوسع كتب الأطباء تفصيلا لحياتهم وأعمالهم . وتُعْنَى الشام بكتب الرجال من رواة الحديث ، ويصنف عبد الغنى الجمّاعيلى - كما مر بنا - كتاب « الكمال فى معرفة أسماء الرجال » عن رواة الحديث النبوى فى كتب الصحاح الستة . وأضاف إليه المزى المار ذكره بين المحدثين تكملات وتصحيحات بعنوان تهذيب الكمال فى اثنى عشر مجلدا ، وللنووى كتاب فى رجال صحيحى البخارى ومسلم باسم رياض الصالحين فى ذكر رجال الصحيحين . وعُنى الذهبى باختصار هذا التهذيب وإحسان ترتيبه وإضافة زيادات إليه ، وسمى كتابه « تذهيب تهذيب الكمال » فى خمسة مجلدات . وللذهبى كتاب المشتبه فى الأسماء والأنساب خصه بتراجم الأسماء المتشابهة فى رواة الحديث وغيره . وللذهبى أيضا ميزان الاعتدال فى نقد الرجال أى رواة الحديث النبوى رتبه على حروف المعجم وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات ، .

وللذهبى كتابان فى حفاظ الحديث النبوى وعلمائه : كبير هو تذكرة الحفاظ فى أربعة مجلدات ومختصر منها هو طبقات الحفاظ . واختصر السيوطى الأخير مع تكملات وأبقى لصنيعه الاسم ، والكتب الثلاثة مطبوعة . وللذهبى كتاب فى طبقات القراء لم يكتب له الذيوع إنما كتب لغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى المذكور بين القراء المتوفى سنة ٨٣٣ ، وكتابه يتردد فى الهوامش باسم طبقات القراء . ووضعت للقضاة كتب مختلفة من أهمها قضاة دمشق لابن طولون المذكور بين الجغرافيين المتوفى سنة ٩٥٣ وهو مطبوع . وللفقهاء كتب كثيرة فى رجالهم وطبقاتهم ، وقد صُنِّف كثير من الكتب عنهم على اختلاف مذاهبهم ، فللأحناف كتبهم وكذلك للشافعية والحنابلة ، أما المالكية فلم يصادفنى كتاب شامى عن فقهائهم ، ولعل فى هذا مايدل على أنهم ظلوا فى الشام قليلين . وكثر التأليف فى الحنفية بأخرة من العصر ، فلابن طولون السابق ذكره كتاب الغرف العلية فى متأخرى الحنفية » .

وللحنفية كتب فى طبقاتهم كانت متداولة ومشهورة مثل الجواهر المضيَّة فى طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبى الوفا وتاج التراجم لابن قطلوبغا . وكان التأليف كثيرا فى طبقات الشافعية ،

ولابن الصلاح المار ذكره بين المحدثين كتاب كبير فيها اختصره النووى ورتبه على حروف المعجم وممن اشتهر كتابه فى تلك الطبقات السبكى وكتابه مذكور مرارا وتكرارا فى الهوامش. وكتاب ابن [1] قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ ترجم فيه لأعلام الشافعية حتى سنة ٨٤٠ وهو مطبوع . ونشط الحنابلة فى كتابة تراجم فقهائهم ولابن رجب [2] الدمشقى الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ وهو مطبوع فى مجلدين . ولمحمد [3] بن عبد القادر النابلسى المتوفى سنة ٧٩٧ مختصر للطبقات مطبوع ، ونختم كلامنا فى هذا الفصل بالاشارة إلى كتاب الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى [4] المتوفى سنة ٩٢٧ وهو يصور الحركة بل النهضة العلمية التى ظلت أضواؤها تشع فى الشام ، حتى مع ماغشيها من سحب العثمانيين .

---

(١) راجع فى ابن قاضى شهبة الضوء اللامع جـ١١ رقم ٦١ والشذرات ٢٦٩/٧ والبدر الطالع ١٦٤/١

(٢) انظر فى ابن رجب ذيل طبقات الحفاظ ص ٣٦٧ والدرر لابن حجر ٤٢٨/٢ وشذرات الذهب ٣٣٩/٦ ومقدمة الدكتور سامى الدهان لطبعة الذيل بدمشق

(٣) راجع محمد بن عبدالقادر فى الدرر لابن حجر ١٣٨/٤ وبروكلمان (الترجمة العربية) ٣٩/٦

(٤) انظر النعيمى عبدالقادر بن محمد فى الكواكب السائرة ٢٥٠/١ والشذرات ١٥٣/٨

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

عرب الشام

كان بالشام قبل الفتح الإسلامي العربي لغات متعددة وعناصر جنسية مختلفة ، فقد كان بها ساميون هم سلالة الشعوب التي نزلتها قديما من أموريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين وآراميين ، وكان بها عناصر من شعوب البحر المتوسط في مقدمتهم الإغريق نزلاؤها منذ فتحها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد وخلفته بها الدولة السلوقية الإغريقية لنحو قرنين ونصف . وكان بها سلالات رومية منذ احتلّ الرومان الشرط الأكبر منها في أواسط القرن الأول قبل الميلاد ، وظلت اليونانية لعهدهم لغة الثقافة ، ودعم ذلك انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما وشرقية عاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتبعتها الشام ، وتألق فيها كما مر بنا غير شاعر ومتفلسف اتخذوا الإغريقية لسانهم وأداتهم في التعبير الوجداني والفكري .

وهيأ كل ذلك لأن تتعدد اللغات في الشام قبل الفتح العربي الإسلامي ، وكان من أكثرها شيوعا اللغتان اليونانية والآرامية ، ولم نذكر حتى الآن اللغة العربية . مع أن عوامل كثيرة جعلتها تتغلغل في الشام من قديم ، لا لجواره للجزيرة العربية وموقعه شمالي الحجاز وغربي بادية السماوة فحسب ، بل لقيام ثلاث دول عربية على حدوده وحفافه الشرقية والجنوبية طوال ثمانية قرون أو تزيد قبل الإسلام ، وهي دول الأنباط وتدمر والغساسنة . وسبق أن ألممنا بها في فاتحة الفصل الأول ، ونبسط الحديث عنها الآن بعض البسط[1] . أما دولة الأنباط فقد ظهرت على صفحات

---

(١) انظر في هذه الدول تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي في مواضع مختلفة من أجزائه وتاريخ العرب مطول لفيليب حتى (الترجمة العربية) وكذلك كتابه « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ١/١١٦ وما بعدها ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الترجمة العربية) ص ١٣ وما بعدها وتاريخ العرب لصالح أحمد العلي الجزء الأول وكتابنا العصر الجاهلي ص ٣٣ وما بعدها .

التاريخ منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، متخذة بطرا عاصمة لها جنوبية . واستطاعت فى مطالع القرن الأول قبل الميلاد أن توسع حدودها شمالا حتى منطقة حوران وجبل الدروز ، متخذة بُصْرَى بالقرب من دمشق عاصمة لها شمالية . ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٨٥ قبل الميلاد احتل الملك الحارث الثانى النبطى دمشق وغوطتها الخصبة ، وبذلك بلغت هذه الدولة ذروة مجدها السياسى ، إذ كانت تضم شمالى الجزيرة العربية وشرق الأردن وجنوبى فلسطين وسوريا الجنوبية ، ولم يلبث الرومان أن قضوا عليها فى مطالع القرن الثانى للميلاد . والأنباط عرب كانوا يتكلمون العربية فى حياتهم اليومية ، فهم عرب أصلاء ، ولاريب فى أن أنحاء من الشام وخاصة تلك التى سيطروا عليها أخذت تتعرب وتنطق بالعربية لعهدهم . وقد أخذوا عن الآراميين أبجديتهم وكتبوا بها نقوشهم وكلماتها العربية ، ومضى خطهم يتطور فى بيئتهم وشمالى الحجاز حتى بعد زوال دولتهم ، إلى أن نشأ عنه الخط العربى الذى كُتب به القرآن الكريم والذى يتداوله العرب إلى اليوم .

والدولة العربية الثانية تَدْمُر أقامتها القبائل العربية الشمالية بعد سقوط دولة الأنباط داخل بادية السماوة شمالى الجزيرة العربية بين الشام والعراق ، متخذين منها مركزًا كبيرا للتجارة مع بلدان البحر المتوسط وبلدان فارس والهند والصين . وبلغت هذه الإمارة أوج مجدها فى منتصف القرن الثالث الميلادى لعهد أذينة الذى بسط سلطانه على الشام ، مما أتاح للقبائل العربية فى دولته التغلغل فى ديارها ، وكان عاملا فى تعرب بعض سكانها حينئذ ، غير أن الرومان لم يلبثوا أن قضوا على تلك الدولة فى عهد الزباء زوجة أذينة . وبذلك انكمش ثانية التأثير اللغوى العربى فى ديار الشام .

على أنه سرعان ما استعاد هذا التأثير فاعليته فى عهد الدولة العربية الثالثة : دولة الغَساسنة ، وقد أخذت فى الظهور مع سقوط تدمر ، ويرجع النسابون بالغساسنة إلى اليمن وأن قبيلتهم فارقته بعد خراب سَدِّ مأْرب ، واستقرت فى شرق الأردن . وشقت - فيما بعد - طريقها شمالا إلى حوران ، واصطدمت فى تلك الأنحاء بقبيلة عربية تسمى الضجاعم تمت لها الغلبة عليها ، وكانت تتجول فى هذه المنطقة الواسعة مع إعلان ولائها للدولة البيزنطية . ويقول النسابون إن جدها الأعلى كان يسمى جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ولذلك يسمى النسابون الغساسنة أحيانًا باسم آل جفنة . وقد اعتنقوا المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد ، مما يدل على عمق صلتهم وامتزاجهم بأهل الشام المسيحيين . وتاريخ ملوكهم غامض ، وأهمهم الحارث بن جبلة (٥٢٨ - ٥٦٩ م .) وقد منحته الدولة البيزنطية لقب فيلارك أى شيخ القبائل وأميرها ، كما منحته لقب البطريق وهو أعظم

الألقاب فى الدولة البيزنطية بعد لقب الإمبراطور . وأهم من ذلك أنه زار بيزنطة واستطاع أن يقنع إمبراطورها وحواشيه بتعيين يعقوب البرادعى أسقفا على الكنيسة المونوفيستية السورية ، وكانت تخالف العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية . ويقال إن يعقوب رسم مائة ألف كاهن ونَصَّب تسعة وثمانين أسقفا فى البلاد . ومعنى ذلك أن الحارث بن جبلة كان يعد أقوى سيد فى سوريا والشام ، ولذلك دلالته البعيدة فى نفوذ القبيلة بالشام وفى مدى ماحدث حينئذ من تعرب بعض الشاميين وخاصة من رجال الكنيسة اليعقوبية . وكان الغساسنة كثيرى الحركة والتنقل من بقعة إلى أخرى ، وتتردد على ألسنة مادحى ملوكهم من الشعراء ذكر جِلِّق وكانت منازل بالقرب من دمشق على نهر بَرَدى المشتهر ببساتينه ، وأشهر من جِلِّق الجابية وكانت على مسافة يوم من دمشق إلى الجنوب الشرقى .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك كله لندل على أن الشام كانت قد أخذت تستعرب منذ قرون عدة قبل الإسلام ، ولاريب فى أن الفتح الإسلامى العربى زاد هذا الاستعراب حدة وقوة ، وخاصة أن قبائل الغساسنة وقضاعة وغيرهما ممن كانوا اعتنقوا النصرانية نبذوا سريعا الدين المسيحى ودخلوا فى الدين الحنيف ، ودخله معهم كثيرون من أهل الشام لما رأوا فى شريعته السمحة من الإنصاف وللمساواة بين الناس ومن العدل الذى لاتصلح حياة أمة بدونه . وكان حكامهم البيزنطيون قد أساءوا معاملتهم إلى أبعد حد وساموهم ضروبا من العذاب والخسف وأرهقوهم بالضرائب الفادحة إرهاقا لايطاق ، بينما رأوا حكامهم المسلمين الجدد يرفعون عنهم كل ظلم وكل ثقل فى الضرائب مسوِّين بين كل من يسلم منهم وبين الجند الفاتح فى جميع الحقوق ، غير مستأثرين لأنفسهم بشىء ، مهما يكن قليلا أو تافها . فلاعجب أن يدخلوا فى الدين الحنيف أفواجا .

وقد استوطن الشام كثيرٌ من الجند الفاتحين له ، وكانوا من قبائل مختلفة شمالية وجنوبية ، وظلت الجزيرة العربية ترفدهم بسيول طوال الحقب الأولى للحكم الأموى ، واستقرت منها عشائر وبطون فى بلدان الشام حتى بلدانه الداخلية مثل حمص وطرابلس وبيروت وقيسارية وغيرها من مدن سوريا ولبنان وفلسطين . وبذلك حدث مزج قوى بين العرب المهاجرين وبين أهل الشام لاعن طريق الإقامة والاستيطان فحسب بل أيضا عن طريق المصاهرة والاختلاط اليومى بين الأسر والناس ، مما دفع بقوة إلى استعراب الشام سريعا . وظل من أهم دوافعه دخول الأسر الشامية أو بعض أفرادها فى الإسلام ، إذ جزء لايتجزأ منه تلاوة القرآن ، ولن يستطيع أحد أن يتلوه تلاوة سديدة دون تعلم لغته ، أو بعبارة أخرى دون استعرابه . وربما كان مما يؤكد كثرة من

اعتنقوا الإسلام بعد الفتح مباشرة الخبر الذى مربنا فى الفصل الماضى عن أبى الدرداء قاضى دمشق المتوفى سنة ٣٢ للهجرة أن عدد من كان يشرف عليهم يوميا فى تلاوة القرآن بمسجد دمشق ألف وستمائة ونيف ، وكان وراءهم آلاف مستعربون لايحتاجون إلى من يعلمهم تلاوة القرآن الكريم .

ونظن ظنا أن الاستعراب فى الشام أصبح أمنية أهلها جميعا : من أسلم منهم ومن ظل على دينه المسيحى لسببين مهمين : أولا لتفوق العربية على الآرامية التى كانت شائعة على الألسنة ، إذ لم يكن لها تراث أدبى كالعربية ، ولاكان لها جمالها فى الجرس وحسن الإيقاع ، وثانيا لأن الدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة لها واستعانت بكثير من أهلها المسيحيين فى الإدارة وشئون الخراج والمال ، فأكبَّ كثير من المسيحيين على العربية يحاولون أن يتعلموها وأن يتقنوا الأداء بها حديثا وكتابة . وينبغى أن لاننسى ماكان قد حدث من استعراب هذه العناصر المسيحية قبل الإسلام وخاصة بين التجار ورجال الكنيسة اليعقوبية .

وربما كان من أكبر الأدلة على ماكان قد حدث من استعراب كثيرين من أهل الشام الأصليين قبل الإسلام أننا نجد أسرة مسيحية مستعربة تعمل مع معاوية وخلفائه الأمويين فى إدارة الشئون المالية ، ونقصد أسرة سرجيوس (وفى بعض المصادر سرجون) ويُظن أنه كان حاكما لدمشق قبل الفتح العربى الإسلامى واتخذه معاوية مستشارا له فى الشئون المالية مع بقائه معتنقا لدينه المسيحى ، وكان حفيده يوحنا الدمشقى يشرف على الشئون المالية بدوره لعهد عبد الملك بن مروان ، ومازالت هذه الأسرة المسيحية تعاون الخلفاء فى شئون المال والخراج حتى أمر الوليد بن عبد الملك بتعريب الدواوين كما هو معروف .

ومن أكبر الأدلة أيضا على استعراب العناصر المسيحية أننا نجد نفرا منهم يعنى بترجمته ترجمة مبكرة لبعض العلوم اليونانية ، على نحو ماذكر صاحب الفهرست عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه تُرجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء [1] . ولاشك فى أن هؤلاء المترجمين كانوا مستعربين ، بل كانوا يحذقون العربية حتى استطاعوا أن ينقلوا منها لخالد بن يزيد مانقلوه من المعارف المتصلة بتلك العلوم . ويسمى ابن خلكان فى ترجمته لخالد أحد أولئك المترجمين وهو مريانوس الراهب الرومى الذى أخذ عنه خالد علم الكيمياء أوكما كانوا يسمونه علم الصنعة . ويقول ابن خلكان إن لخالد فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانوس الراهب المذكور وصورة تعلمه منه والرموز التى أشار إليها [2] .

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة القاهرة) ص ٣٣٨ (٢) انظر ترجمة خالد فى ابن خلكان ٢/٢٢٤

ولم تتحدث عن اليونانية التى كانت معروفة فى الشام قبل الإسلام ، وأكبر الظن أنها انحازت إلى الأديرة ، وقد رأينا آنفا أن خالد بن يزيد بن معاوية استعان فى علم الصنعة وماترجم إليه منه براهب رومى ، وأكبر الظن أن الرهبان فى دمشق ومدن الشام من أنطاكية إلى غزة كانوا قد أخذوا فى التعرب ليستطيعوا الحديث إلى مسيحيى الشام المستعربين ، ولعل فى كل ما تقدم ما يوضح العوامل الكثيرة التى دفعت إلى تعرب الكتلة الكبرى من أهل الشام مسلمين ومسيحيين .

٢

كثرة الشعراء

يلاحظ أن عرب الشام قبل الإسلام لم يكن لهم نشاط يذكر فى تاريخ الشعر العربى لاعند الغساسنة ولاعند غيرهم من القبائل الشامية ، حتى إذا كانت الفتوح وهاجر كثيرون من القبائل القيسية مثل عامر وسليم إلى فلسطين وسوريا أخذ الشعر ينشط فى الشام وأخذ الشعراء يتكاثرون وخاصة مع الأحداث الكبرى على نحو مايلقانا فى المعارك التى نشبت بعد وفاة يزيد بن معاوية وتولّى مروان بن الحكم للخلافة بين القبائل اليمنية وفى مقدمتها قبيلة كلب والقبائل القيسية منذ موقعة مرج راهط وغيرها من المواقع . ونلتقى عقب هذه المواقع بشاعرين كبيرين للشام هما عدى بن الرِّقاع العاملى اليمنى والطرماح الطائى اليمنى ، أما عدى بن الرقاع فشاعر عبد الملك بن مروان والخلفاء من بعده ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى بين شعراء بنى أمية ، وأما الطرماح فنشأ فى الشام ونزل الكوفة مع بعض جيوشها واستقر بها ، واعتنق فيها مذهب الصفرية من الخوارج ، وله ترجمة فى كتابنا المذكور بين شعراء الخوارج .

وكانت الشام طوال عصر بنى أمية تَغَصّ بشعراء الحجاز ونجد والعراق الوافدين على الخلفاء لمديحهم وأخذ نوالهم وعطائهم . ومانبغ شاعر واشتهر فى هذه البيئات إلا رحل إلى دمشق يمدح هذا الخليفة أوذاك ، والخلفاء يُغْدقون على الشعراء جوائزهم وصلاتهم على نحو ماهو معروف عن شعراء العراق : الفرزدق والأخطل وجرير وعبدالله بن الزّبير وذى الرُّمّة والعَجّاج وابنه رُؤْبة . ومثلهم من شعراء الحجاز كثيِّر والأحوص وابن قيس الرقيات . ومداحهم من شعراء نجد كثيرون فى مقدمتهم الراعى النُّمَيْرى . وكان الأمويون يعدُّونهم ألسنتهم ودعاتهم فى بيئاتهم ، فأجزلوا لهم فى العطاء ، وكانوا مايزالون غادين عليهم رائحين بقصائد طنانة يرويها الرواة فى كل مكان بالشام وغير الشام .

وليس ماقدمناه كل ماكان بالشام من نشاط الشعر والشعراء لعهد بنى أمية ، فقد شارك غير خليفة فى هذا النشاط ، إذ كان بينهم شعراء بارعون هم يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، واشتهر الوليد بأنه يعيش للهو والقصف وجلب المغنين والمغنيات من الحجاز وإقامة الحفلات لهم فى قصره ، وشعره يستغرقه الغزل والتغنى بالخمر حتى بعد خلافته ، مما أعدَّ بسرعة لسقوط الدولة الأموية ، وله ترجمة فى كتابنا العصر الإسلامى .

وتنتقل الخلافة فى العصر العباسى إلى بغداد ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر ، وهو نشاط لايقف عند مجرد نظمه على طريقة الإسلاميين والجاهليين ، إذ نرى شعراءها يصدرون فى شعرهم عن النزعات التجديدية التى نُظم الشعر العربى على أضوائها فى صدر الدولة العباسية . ومن كبار شعرائها الذين لمعت أسماؤهم فى القرن الثانى الهجرى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى معاصر الرشيد ، وكان من الفَلّجة « من أرض دمشق » ، وترجم له ابن المعتز فى كتابه « طبقات الشعراء » وأشاد بشعره إشادة رائعة . وممن كان يعاصره من الشعراء الشاميين العتّابى وكان يحتذى – كما يقول الجاحظ – حَذْوَبشار بن برد فى البديع وله ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وعلى غراره تلميذه منصور النمرى الشامى ، وله أيضا ترجمة فى كتابنا العصر العباسى الأول . وبالمثل فى هذا الكتاب ترجمة لشاعر شامى مهم عاش فى القرنين الثانى والثالث هو ديك الجن. فالشام لم تنشط فى الشعر طوال العصر العباسى الأول فحسب ، بل قدمت إليه أعلام من الشعراء النابهين شاركوا فى نهضته وازدهاره ـ بل أكثر من ذلك لقد تطورت بصور البديع الحسية التجديدية وأضافت إليها صورا جديدة من بديع وزخرف معنويين رائعين ، وبذلك استحدثت للشعر العربى مذهبا جديدا هو مذهب التصنيع أو التنميق الحسى والفكرى ، على نحو ماهو معروف عن أبى تمام أستاذ هذا المذهب الذى أعطاه صيغته النهائية ، وقد أوضحنا ذلك إيضاحا تاما فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » . وتلاه تلميذه البحترى ، ولم يكن له ثقافته وتعمقه فى النفوذ إلى دقائق الأفكار ، ومع ذلك تمسك بالمذهب وبخاصة جوانب البديع الحسى مع تمسك شديد بمقومات الشعر العربى وتقاليده فى الصياغة ، وكان لايبارَى فى الضرب على قيثارة الشعر العربى واستخراج أروع النغم منها وأحلاه . وأكبَّت الأجيال التالية فى العالم العربى على دراسته ودراسة أستاذه متخذة منه نموذجا للتمسك بعمود الشعر العربى وصياغته ، كما اتخذت من أستاذه نموذجا للبديع الحسى والمعنوى الذى يرضى المتفلسفة والمتعمقين فى المعانى . وانقسم النقاد مع الشاعرين وفنهما إلى صفين متقابلين ، وكل ذلك حاولنا تصويره فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ولأبى تمام ترجمة

فى كتابنا « العصر العباسى الأول » وللبحترى ترجمة فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ونشرف بعد البحترى على نهاية القرن الثالث ، ولاتزال للعصر العباسى الثانى بقية زمنية ، وفيها يسطع نجم شاعر الطبيعة الحلبى الصَّنَوْبرى وله ترجمة فى كتاب هذا العصر .

ونمضى فى عصر الدول والإمارات ، وقد عُنِى بالحديث عن شعراء القرن الرابع الهجرى ومطالع القرن الخامس الثعالبى فى يتيمته ، متحدثا عن الشعراء النابهين فى أقاليمه من أواسط آسيا إلى الأندلس . ويلاحظ فى فواتح كتابه أن كِفَّة الشعر العراقى التى كانت تجعله يرجح على جميع الأقاليم العربية شاما وغير شام قد خفَّت وخلفتها كفة الشام ، إذ يستهل يتيمته بقوله : « الباب الأول من القسم الأول فى فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان وذكر السبب فى ذلك ثم يقول : « لم يزل شعراء عرب الشام ومايقاربها أشعر من شعراء عرب العراق ومايجاورها فى الجاهلية والإسلام .. والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس ونبط (فلاحى) العراق ومداخلتهم إياهم .. ورُزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان . . وهم بقية العرب ، والمشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين أدوات السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ، ويثيب على الجيد منه فيُجزل ويفضل » . ولسنا نريد أن نناقش الثعالبى فى هذا الحكم ، فإنه — على مافيه من مبالغة — يدل على ماحدث بالشام مع مطالع عصر الدول والإمارات من نهضة شعرية حقيقية تنبىء عنها الأبواب التالية فى اليتيمة ، فقد جعل الثعالبى الباب الثانى لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب وشمالىّ الشام وملح شعره وغزواته الحربية المظفرة على لسان شعرائه . وقصر الباب الثالث على أبى فراس الحمدانى الشاعر والفارس المشهور . وخص الباب الرابع بملح أشعار آل حمدان أمراء الشام وقضاتهم وكتابهم . وأفرد الباب الخامس للمتنبى شاعر سيف الدولة المبدع . وجعل الأبواب : السادس والسابع والثامن لبعض المادحين لسيف الدولة من شعراء الشام والعراق .

ومرَّ بنا كيف أن حلب فى زمن سيف الدولة (٣٣٣ — ٣٥٦ هـ) استحالت أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى ، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين من أمثال الفارابى وأبى على الفارسى وابن جنى غير من كان بها من الأطباء وعلماء الفلك . ولايهمنا الآن بيان ذلك إنما يهمنا أنها أصبحت مركز الشعر والشعراء فى تلك الحقب ، إذ لم يبق شاعر كبير فى الشام أو فى العراق أو فى إيران إلا أمَّها وأسبغ عليه سيف الدولة من نواله ، حتى ليقول الثعالبى إنه لم يجتمع قط بباب أحد

من الملوك – بعد الخلفاء – ماالجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، منهم كُشاجم – ويقال إنه كان طبّاخة – والخالديان – وكانا خازنى مكتبه – والسّلامى والسّرى الرفّاء والوأواء الدمشق والنامى المصيصى وابن نباتة السعدى والببّغاء ، وكل هؤلاء كانو شعراء ، وترجم لهم الثعالبى ، ووراءهم كثيرون كانوا يفدون على سيف الدولة مادحين ثم يعودون بالعطاء إلى أوطانهم شاكرين مثنين .

ومضت الشام فى نهضتها الشعرية وظهر فيها أمثال عبد المحسن الصورى وأبى الرقعمق والواسانى وجميعهم ترجم لهم الثعالبى ، ويعنى الباخرزى فى دمية القصر بذكر طائفة من شعراء الشام خاصة من مدح منهم الوزير السلجوقى نظام الملك ، وترجم لأبى العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى تلميذه ترجمة قصيرة . وبعض من ترجم له ألم به العماد الأصبهانى فى الخريدة . ولمْ يُعن أحد من أصحاب التراجم الشعرية بشعراء النصف الثانى من القرن الخامس ومطالع القرن السادس ، ومن أعلام الشعراء الشاميين فى تلك الحقبة ابن حَيّوس وله ديوان ضخم فى مجلدين .

ويعرض العماد الأصبهانى فى خريدة القصر تراجم مستفيضة لنحو مائة وثلاثين شاعرا جمهورهم من شعراء القرن السادس حتى زمن كتابته أو تأليفه للخريدة فى أوائل العقد الثامن من القرن ، وهم يشغلون ثلاثة أجزاء ، أولها خاص بشعراء دمشق والشعراء الأمراء من بنى أيوب ، ونراه فى مطلع هذا الجزء يشيد بشعر الشاميين ويرفعه درجات على شعر أهل العراق ، بالضبط كما صنع الثعالبى ، يقول : « شعر الشاميين أصح وزنًا ، وأسحُّ مُزنًا ، وأمتن صيغة ، وأحسن صبغة ، وأحكم صنعة ، وأسلم رقعة ، وأرفع نسجا ، وأنفع مزجا ، وأقوم معنى ، وأحكم مبنى » ويُشيد بطائفة من قدمائهم مثل البحترى وأبى تمام وطائفة من محدثيهم بعدهما مثل عبد المحسن الصورى وابن سنان الخفاجى وابن حيوس ، وكأنى به نسى أبا العلاء عامدا لشهرته الواسعة . ويترجم فى هذا الجزء لابن الخياط الدمشقى تلميذ ابن حيوس وديوانه مطبوع . وتلا العماد ذلك بجزء اشتمل على خمسة وأربعين شاعرا بينهم أهم من أنجبتهم الشام فى القرن السادس الهجرى من الشعراء أمثال الغزى وابن منير الطرابلسى والقيسرانى وعرقلة وديوانه مطبوع وفتيان الشاغورى وديوانه مثله مطبوع وابن قُسيم الحموى وأسامة بن منقذ وديوانه مطبوع . ويتبع ذلك جزء به نحو ثمانين شاعرا عرض فيه العماد بيوتا وشعراءها كبيت آل المعرى وبيت بنى الدويدة وبيت بنى الحُصَين ، ويذكر طائفة من شعراء حلب ربما كان أهمها حماد الخرّاط . وكأن العماد لم يترك فى الشام لزمنه شاعرا كبيرا ولاصغيرا إلا ترجم له .

واهتمت كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام بعد زمن العماد فى أيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، وفى مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى ومطالع البدور للغزولى والدرر الكامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وريحانة الألبا للخفاجى ونفحة الريحانة للمحبى وسلك الدرر للمرادى . فكل هذه الكتب تحمل عشرات من شعراء الشام فى حقب وأزمنة مختلفة ، وكثير من نابهيهم فى تلك الأزمنة والحقب أيام الأيوبيين ومن بعدهم لهم دواوين مطبوعة مثل ديوان ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأبى المحيوى والشاب الظريف وأبيه عفيف الدين التلمسانى وابن الوردى وابن النقيب الدمشقى ، وتموج رفوف المكتبات فى العالمين العربى والغربى بدواوين كثيرة لشاميين لاتزال مخطوطة .

٣

شعر دورى – رباعيات – موشحات – بديعيات – تطريزات

(١) الشعر الدورى

منذ ابتدع الشعراء فى العصر العباسى الأول الشعر المزدوج الذى يتكون من شطرين متقابلين ، وتتوالى فيه الشطور المتقابلة ، والشعراء يكثرون منه فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وهيأ ذلك لظهور أنماط مختلفة من الشعر الدورى الذى تتكون فيه القصيدة من أدوار متعاقبة ، ويغلب أن يكون كل دور بيتين ، وتقل الأدوار وتكثر حسب رغبة الشاعر . وتفرّع عن هذا النمط من قديم عند أبى نواس وأضرابه نمط المسمطات وعادة يتكون الدور فيه من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته فى كل الأدوار ، بينما تتنوع القوافى فى الشطور الأربعة السابقة له من دور إلى دور ، وكأن الشطر الخامس بقافيته المكررة ياقوتة فى عقد تلتقى عندها أسلاكه المختلفة ، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة . وكلما تقدمنا فى العصر كثرت هذه المسمطات ، وهى قد تكون رباعية بمعنى أن قافية الشطر الرابع هى المكررة ، وقد تكون خماسية كما ذكرنا ، وقد تكون سباعية أو تساعية ، وممن عنى بالنظم فيها أسامة بن منقذ ففى ديوانه منها أربعة مسمطات خماسية ، ومن قوله فى أحدها [1] :

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ (طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة) تحقيق الدكتور أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ص ٤٠ .

كم رُضْتُ نفسيَ بالسلوان فامتنعتْ وكم أضاعوا مواثيقَ الهَوَى ورَعَتْ
ومانقمتُ عليهم غدرةً فصغتْ(١) ولا أضعتُ لهم عهدا ولا اطَّلعتْ
على ودائعهم فى صدرىَ التُّهَمُ

وقافية الشطر الأخير مكررة فى الشطر الخامس من كل دور ، وواضح أن للمسمط خماسى الشطور ، وتلقانا أمثلة للمسمطات فى دواوين ابن الساعاتى والصاحب شرف الدين الأنصارى وأيدمر المحيوى زمن الأيوبيين ، ومضى الشعراء فى الحقب التالية يكثرون منها وخاصة صلاح الدين الصفدى ، ونظل نلتقى بها فى الحقب المتأخرة.

(ب) الرباعيات

معروف أن الرباعية أربعة شطور تؤلف بيتين ، وتتحد الشطور : الأول والثانى والرابع فى القافية وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث فى القافية وقد يختلف . وللرباعية وزنان هما : « فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن » و « فعلن متفاعلن فعولن فعلن » وقد أخذت تشيع على ألسنة الشعراء فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السادس ، نجدها عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ للهجرة وعند عرقلة المتوفى سنة ٥٦٧ وفى خاتمة ديوانه منها اثنتا عشرة رباعية ، منها قوله :

ويلاه على المهفهف الميَّاسِ ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ
يهتزُّ كأنه قضيبُ الآسِ سكرانَ ولم يَذُقْ حميَّا الكاسِ

وذكر ابن خلكان أنه كان للعماد الأصبهانى ديوان صغير جميعه دُوبيْتات أو رباعيات ، وطائفة فيها كانت بلسان نور الدين فى الحث على جهاد حملة الصليب وتمزيق جموعهم ، من مثل قوله(٢) :

لا راحةَ لى فى العيش إلا أغزو سيفى طربًا إلى الطُّلَى يهتزُّ(٣)
فى ذلِّ ذوى الكفر يكون العزُّ والقدرةُ فى غير جهادٍ عَجْزُ

---

(١) صغت : مالت

(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل) ٢٠٧/١ .

(٣) الطلى : جمع طلاة أو طلية : العنق أو صفحته .

وكان لفتيان الشاغورى المتوفى سنة ٦١٥ ديوان جميع مافيه دوبيتات ، رآه ابن خلكان وأنشد منه فى ترجمته قوله :

الوردُ بِوَجْنَتيك زاهٍ زاهرْ والسِّحْرُ بمقلتيك وافٍ وافرْ
والعاشقُ فى هواك ساهٍ ساهرْ يرجو ويخاف فَهْوَ شاكٍ شاكرْ

ونظل نلتقى بالرباعيات فى دواوين الشعراء أيام المماليك بل أيضا أيام العثمانيين عند حسن البوريني وبهاء الدين العاملى وعبد الغنى النابلسى وغيرهم من الشعراء[1] وحين شاعت التورية بثها الشعراء فى رباعياتهم كقول على بن المظفر الوداعى الحلبى المتوفى سنة ٧١٦ متغزلا[2] :

لمّا حُجِب الكَرَى عن الآماقِ وانقاد مع الهوى على العُشّاقِ
ناديتُ وقد ترايدتْ أشواقى ياغُصْنُ رضيتُ منك بالأوراقِ

والتورية واضحة فى كلمة الأوراق ، إذْ لها معنيان قريب وهو أوراق الغصن وبعيد وهو أوراق الرسائل المتبادلة بينه وبين صاحبته ، وهو المراد.

(جـ) الموشحات

الشائع المعروف أن الموشحات من اختراع الأندلسيين وأنهم سبقوا إليها المشارقة ، ومعروف أنها تتألف من شطور تسمى قفلا وشطور تليها تسمى أدوارا أو أغصانا ، ومن خَرْجة يسمَّى بها القفل الأخير فى الموشحة . ومن ينعم النظر فيها يؤمن بأنها تطورت من أشكال المسمطات ، واستقلت بهذه الصورة ، ويبالغ المستشرقون الإسبان – خاصة – قائلين إنها فن أندلسى خالص تطور عن أغان رومانسية كانت معروفة فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، ولم يقدموا أغنية واحدة تشهد لذلك ، بينما يوجد لدينا شكل من أشكال المسمط نظمه ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة نظن ظنا أنه الأب الحقيقى للموشحات الأندلسية إذ يجرى على هذا النمط[3] :

قـولى لـطَيْفك يَنْثنى عـن مضجعى عند المنامْ

---

(١) انظر مثلا ريحانة الألبا للخفاجى ١/٢١ ، ١/١٠٤

(٢) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص ٣٤٤

(٣) خزانة الأدب للحموى ص ٩٧

عند الرُّقَادْ عند الهجوعْ عند الهُجودْ عند الوَسَنْ
فمتى أنامُ فتنطفى نارٌ تأجَّجُ فى العظامْ
فى الفؤادْ فى الضلوعْ فى الكبودْ فى البَدَنْ

ويستمر المسمط الموشح على هذه الصورة، وواضح أنه نشأ من فكرة بسيطة هى تكرار قافية البيت بروىٍّ جديد . وكأنما وقع هذا المسمط الغريب أو قل هذا الموشح الفريد لمقدم بن معافى شاعر الأمير الأندلسى عبد الله بن محمد المروانى (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فنظم على صورته بعض منظوماته وكُتب لهذه الصورة عنده أن تشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات على نحو ما أوضحنا ذلك مرارا فى كتاباتنا . وحملها إلى المشرق الأندلسيون المهاجرون إلى مصر والشام ووضع لها ابن سناء الملك قوانينها الموسيقية فى كتابه « دار الطراز » وبذلك فتح أبواب تلك الموشحات على مصاريعها للمشارقة كى ينظموا على غرارها منذ زمنه فى أواخر القرن السادس . وأيضا فإنه كان قد نزل الشام بعض الأندلسيين من ناظميها ، فكانوا من أسباب إشاعتها مثل عبد المنعم الجليانى الأندلسى الطبيب نزيل دمشق فى زمن صلاح الدين وظل بها إلى وفاته ، وله فيه مدحة سميت التحفة الجوهرية ، ويقول ابن أبى أصيبعة : له « ديوان غزل وتشبيب وموشحات ودُوبَيْتات » أو رباعيات . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نلتق بوشاحين مختلفين . وللصلاح الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ كتاب فى الموشحات سماه : توشيع (١) التوشيح ذكر فيه إحدى وستين موشحة من عيون الموشحات الأندلسية والمصرية والعراقية والشامية ، وذكر موشحا طريفا لشمس الدين محمد بن على الدهان المتوفى سنة ٧٢١، ويقول ابن شاكر إنه كان يحترف صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق وكان على علم بالموسيقى والألحان، فكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنى فيه المغنون(٢). ويسوق نفس الموشح الذى ذكره الصفدى، ويستهله بقوله:

بأبى غُصْنُ بانةٍ حملا بَدْرَ دُجًى بالكمال قد كملا أهْيَفْ
فريد حُسْنٍ ما ماس أو سفرا
إلا أغار القضيبَ والقمرا
يُبْدى لنا بابتسامه دررا

(١) حقق هذا الكتاب ألبير مطلق ونشره بدار الثقافة ببيروت.

(٢) راجع ترجمته فى فوات الوفيات ٤٩٢/٢ والوافى ٢٠٩/٤ وانظر عقود اللآل للنواجى ص ٧٧.

والموشح وافر الموسيقى واللحن والنغم. وذكر الصفدى بجانب هذا الموشح موشحا لجمال الدين يوسف الصوفى المتوفى سنة ٧٥٠، وهو يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصور كقوله:

ساحرٌ بالدلالْ ساخرٌ بالصَّبْ فائقٌ فى الكمالْ لائقٌ بالحبْ

بِشَــذًا المسك فــاحْ ثغرُ هـذا الغزالْ
بــاسمٌ عن أقاحْ كــفــريــدِ اللآلْ
ردَّ نورَ الصباحْ كـظلام الليــالْ

وأنشد الصفدى لنفسه فى كتابه سبعًا وثلاثين موشحة، وكثير منها معارضات لموشحات مشهورة لأندلسيين وغير أندلسيين، وقلما يحلِّق إلى أفق الموشحات التى يعارضها، ويغلب التكلف على موشحاته، وفى أحيان قليلة يَسْلَس فى بعض الموشحات وبعض المقاطع كقوله فى معارضة موشحة لابن اللبّانة الأندلسى:

بات بَدْرى وهْو معتنق أحتسى فاهُ وأرتشفُ
وبـــه أمســيت مُسْعِـــدا
بعــد مــاقــد كنت منفـردا
وغــدا بــدر الســما كَمِــدًا

وقد أنشد النواجى فى كتابه عقود اللآل تسع موشحات لابن حبيب الحلبى وموشحتين لابن حجة الحموى[(١)].

ويلقانا وشاحون مختلفون فى زمن العثمانيين على نحو مايذكر المحبى عن أبى بكر العمرى وأبى بكر العصفورى [(٢)]. ولابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١ موشح استلهم فيه موشحا مشهورًا للسان الدين ابن الخطيب استهله بقوله[(٣)]:

ياليالى السَّفْح من عهد الصِّبا ياسقَى مغناكِ صوبُ الدِّيَمِ
كم تسرَّقتُ بها بين الرُّبى خُلَسًا مرَّتْ كطيفِ الحلُمِ

---

(١) انظر فهرس عقود اللآل للنواجى

(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٢٢/١ ، ٢٥٤

(٣) ديوان ابن النقيب نشر المجمع العلمى العربى بدمشق ص ٢٦٣

وتكثر الموشحات الصوفية عند عبد الغنى النابلسى كثرة مفرطة . ونقف قليلا عند وشاحين مهمين هما أيدمر المحيوى والمختار الحلبى .

أيدمر المحيوى (١)

لانعرف شيئاً عن نشأة هذا الشاعر ومرباه ، وكل مابأيدينا عنه أنه عتيق محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى وزير الجزيرة لسلاطينها من الأيوبيين ، وقد طبعت له دار الكتب المصرية مختارات من ديوانه ، وهو فيها يمدح الملك الكامل سلطان مصر مشيداً بانتصاره على حملة الصليب فى موقعة دمياط سنة ٦١٨ . وكان يسكن دمشق ويزور مصر كثيرا وله مدائح فى الصالح نجم الدين أيوب حين كان يلى شئونها منذ سنة ٦٣٦ إلى سنة ٦٤٧ ويبدو أنه لم يعش بعد هذا التاريخ طويلا ، وله غزليات وأشعار طريفة فى الطبيعة ، وله - بجانب ذلك - موشحان فى المديح يستهلها بغزل بديع ، وقد عارض فى موشحه الأول ابن زهر فى موشح له مشهور ، ومن قوله فيه على نسقه .

هزَّ عِطْفَ الغصن من قامته
مُطْلِعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدرَ فى ليلته

أيها البدرُ تغيَّبْ وَيْحَكا ما احتياجُ الناس للبدر معى

وعذوبة موسيقاه واضحة فى هذا الموشح ، وكان يضيف إليه فى أحيان كثيرة محسنات البديع من طباق وجناس وتورية ، ولاتفارقه هذه العذوبة حتى حين يجنح إلى التكلف على نحو ما نلقاه فى موشحه الثانى وفيه يقول :

بات وسُمَّاره النجوم ساهرْ فمن تُرى علَّمكِ السُّهْدَ ياجفون
صبا إلى مذهب التصابى صابى لايعدل
فجَنْبه خافق الجنابِ نابى مُبَلْبَل
والطَّرْف من دائم انسكاب كابى مخبَّل

(١) انظر فى أيدمر فوات الوفيات ١٤٠/١ والانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق (طبع مطبعة بولاق) ١٠٩/٤ وخطط المقريزى (طبعة دار التحرير) ٧/٢ وديوانه طبعته دار الكتب المصرية .

وواضح أنه بدأ موشحه بالدور أو الغصن لا بالقفل ، وتلا القفل بالدور فى ثلاثة أبيات ، وكل بيت مكوّن من ثلاثة أجزاء ، الجزء الثانى مستخرج من آخر الجزء الأول ، فصابى مستخرج من التصابى وبالمثل نابى مستخرج من الجناب ، وكابى مستخرج من انسكاب . وهو تكلف واضح ولكنهم كانوا يعدونه فى الموشحات والأشعار آية براعة فائقة .

المحار (١) الحلبى

هو سراج الدين عمر بن مسعود الحلبى الملقب بالمحار لأنه نشأ يَمْحر الكتان أى يغسله ويبيضه ثم اشتغل بالأدب والشعر ومهر فيهما ، ففارق موطنه حلب إلى حماة ورعاه صاحبها الملك المنصور (٥٨٧ - ٦١٧ هـ) إلى أن توفى بدمشق سنة ٧١١ . وربما كان أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة والحقب ، ومن موشحاته المشهورة موشحة عارض بها أيدمر المحيوى فى موشحته المذكورة آنفا ويستهلها على هذا النمط :

ماناحت الوُرْقُ فى الغصونِ إلاَّ هاجتْ على تَغْريدها لوعةُ الحزين

هل مامضى لى مع الحبايبْ آيبْ بعد الصدودْ
أوهل لأيامنا الذواهب واهبْ بأنْ تعودْ
بكل مصقولة الترائبْ كاعبْ هيْفاء رُودْ

والموشح يموج على هذه الشاكلة بعذوبة الجرس وجمال الإيقاع والنغم رغم محاولة المحار فيه أن يستخرج الجزء الثانى فى الدور من آخر كلمة فى جزئه الأول ، فقد كان من القدرة على حسن التلحين لكلماته بحيث لا يقف دونه أى عائق ، بل إن العائق نفسه يصبح إكمالا بديعا للتلحين والتنغيم على نحو مايتضح فى كلمات « آيب - واهب - كاعب » . . ولا يقل عن هذه الموشحة عذوبة ورشاقة وحلاوة فى النغم موشحته التى عارض بها موشحة أحمد بن الحسن الموصلى المار ذكره فى العراق ، افتتحها بقوله :

مذشِمْتُ سَنا البروق من نعمانِ باتت حَدَقى

---

(١) انظر فى المحار فوات الوفيات ٢/٢١٩ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢٢١ والوافى ٤/٢٨٠ وانظر توشيع التوشيح للصفدى إذ توارد مع صاحب الفوات على أربعة من الموشحات وانظر عقود اللآل رقم ٥٢ ، ٧٦

تُذْكى بسيل دمعها المثّانِ نارَ الحُرَق[١]
ما أومض بارقُ الحِمَى أو خَفَقَا
إلا وأجَدَّ لى الأسى والحُرَقا
هذا سببٌ لحتفى قد خُلقا

وتصويره لسيل الدموع المتدفق بأنه يضرم نار الحرق تصوير بديع . وموشحات المحّار على هذا النمط تمتع الأذن والقلب والخيال بصفاء موسيقاها ورقتها ومايُطوَى فيها من جمال التصاوير .

(د) البديعيات

مرَّ بنا أن الشام – منذ أواخر القرن الثانى الهجرى – تطورت بصور البديع الحسية التجديدية من جناس وطباق وتصاوير إلى إشراك صور جديدة معها من زخرف الفكر ووشيه على نحو ماهو معروف عن أبى تمام ، نافذة بذلك إلى إرساء مذهب جديد فى فن الشعر سميته فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » باسم مذهب التصنيع أى التنميق الناشئْ عن استخدام محسنات البديع المعروفة وأيضا عن استخدام طرائف فكرية لاتكاد تُحصَى . وتبع البحترى – كما ذكرنا – أستاذه أبا تمام فى المذهب ولم تكن له ثقافته الفلسفية ولا بعد غوره فى الأفكار . وكان أبو تمام يكثر من الجناس فلم يتابعه البحترى فى هذا الإكثار وإن ظل يستخدمه كما يستخدم الطباق والتصاوير من تشبيهات واستعارات . ونجد الجناس بعده على كل لسان فكل شاعر شامى يحاول أن ينفذ فيه إلى أبيات بديعة كقول أبى فراس الحمدانى[٢] :

وما السلافُ دهتْنى بل سوَالفُهُ ولا الشَّمول دهتْنى بل شمائلُهُ

ولعل شاعرًا شاميًّا لم يكثر من استخدام الجناس كما أكثر أبو العلاء ، وسنراه يدخل عليه ألوانًا من التعقيد سنعرض لها عما قليل ، وكان يعاصره ابن حَيُّوس المتوفى سنة ٤٧٣ وكان يتابع أبا تمام فى الإكثار من المحسنات البديعية جناسا وغير جناس . ونرى العماد الأصبهانى فى الخريدة يتوقف مرارًا ليثبت على هذا الشاعر أو ذاك كثرة استخدامه للجناس ، وسجّل ذلك مرارًا على الشعراء

---

(١) تذكى : تضرم .
(٢) الديوان تحقيق . د . سامى الدهان (طبع المعهد الفرنسى بدمشق) ٢/٣٠٢

الثلاثة اللذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام وهم الغزى وابن منير والقيسرانى وفيه يقول : « صاحب التطبيق والتجنيس ، وناظم الدر النفيس »[1] . وعلى شاكلتهم شعراء الخريدة لا فى استخدام الجناس وحده بل فى استخدام المحسنات البديعية جميعا ، وكذلك من تلاهم من الشعراء الشاميين .

وكانت قد تكونت بمصر منذ أواخر أيام الفاطميين مدرسة حملت لواء المحسنات البديعية وأشاعتها فى شعرها ونثرها مضيفة إليها لونا جديدا هو لون التورية الذى يصور مزاج المصريين وميلهم من قديم إلى النكتة ، وكان من السابقين إلى حمل هذا اللواء بأخرة من الدولة الفاطمية ابن قادوس وابن قلاقس ، وحمله بعدهما القاضى الفاضل وابن سناء الملك وغيرهما . وكانت ديار الشام جميعها توحدت مع مصر لعهد صلاح الدين ، وسرعان ماوجدنا ذوق هذه المدرسة المصرية يعم بلدان الشام ، كما لاحظ ذلك الصفدى ونقله عنه ابن حِجَّة الحموى فى خزانته إذ ذكر السابقين فى المدرسة من شعراء مصر ثم قال : « وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم وتآزرَ نصرهم » وعدَّ منهم سيف الدين المشد المتوفى سنة ٦٥٦ والشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة المتوفى سنة ٦٦٢ وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ ومجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ والشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف المتوفى سنة ٦٨٨ ومحيى الدين بن قُرْناص الحموى المتوفى سنة ٧١٢ وتمثل ابن حجة فى خزانته بأشعارهم فى محسنات البديع المختلفة وفتح لكل منهم فصلا طريفا فى باب التورية ، واستطاعوا فى أحوال كثيرة أن يجعلوا لتورياتهم نفس خفة الروح التى تلقانا فى توريات المصريين مثل قول ابن لؤلؤ[2] :

يمرُّ بى كلَّ حينٍ وكلما مرَّ يحلو

وهو لايريد « مر » من المرور وهو المعنى المتبادر لكلمة يمر فى أول البيت ، وإنما يريد مُرّ من المرارة عكس الحلاوة ، وهو المعنى البعيد ، ومثل قول مجير الدين بن تميم[3] :

أيا حُسْنَها من روضةٍ ضاعَ نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرياضِ طيورُ

ولضاع معنيان : أولها من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته ، وثانيهما من ضاع الشىء

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٩٦

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٨

(٣) فوات الوفيات ٢/٥٤٢

يضيع إذا فُقد والأول المراد . ومثل قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه [١] :

ولقد أتيتُ إلى جَنابك قاضيا   باللَّثم للعتَبات بعضَ الواجبِ
وأتيت أقصد زورةً أحْظَى بها   فُرِدِدْتُ - ياعيني - هناك بحاجبِ

وواضح أنه ليس المراد حاجب العين ، وإنما البوّاب المشرف على الزيارة . وتظل التورية شائعة على ألسنة الشاميين ، ويشيد الحموى فى خزانته باستخدام الوداعى على بن المظفر المتوفى سنة ٧١٦ لها وإكثاره منها كقوله [٢] :

قال لى العاذلُ المفنِّدُ فيها   يومَ وافتْ فسلَّمتْ مُخْتالَهْ
قم بنا ندَّعى النبوَّةَ فى العشـ   ـق فقد سلَّمتْ علينا الغزاله

وللغزالة معنيان : معنى قريب وهو الشمس ومعنى بعيد وهو صاحبته الجميلة التى تشبه الغزالة وهو المراد .

ويتتبع ابن حجة ماأخذه ابن نباتة من موائد التورية عند الوداعى ، وبالمثل يتتبع ماأخذه الصفدى من ابن نباتة من تورياته البديعة ، وكان الصفدى يعنى عناية شديدة باصطناع المحسنات البديعية وخاصة التورية والجناس ، وله فيهما كتابان .

ومضى شعراء الشام - بعد الصفدى - كشعراء مصر يعنون بتلك المحسنات بقية زمن المماليك ، يشترك فى ذلك فتح الدين بن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ وعلى بن أيبك الدمشقى المتوفى سنة ٨٠١ وابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ وابن حِجَّة الحموى صاحب الخزانة المتوفى سنة ٨٣٧ . ويطرد اصطناع المحسنات البديعية فى أيام العثمانيين ، ومن أهم ألوانها الاقتباس من القرآن الكريم وتضمين شطور أو أبيات فى قصيدة الشاعر لشعراء سابقين ، وقد اقتبس الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى فواصل «سورة الشمس» فى قطعة غزلية له مستهلا لها بقوله [٣] :

قسمًا بِشَمْس جَبينهِ وضُحاها   ونهارِ مَبْسِمِهِ (إذا جَلَّاها)

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٣٤
(٢) الخزانة ص ٣٤٣
(٣) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى (نشر مجمع اللغة العربية بدمشق - تحقيق د. عمر موسى) ص ٥١٥

وتوالت قوافيه : (يَغْشَاها – زَكّاها – تَقْوَاها – أَشْقاها). ومن طريف الاقتباس فى الغزل قول فتح الدين بن الشهيد [1] :

فى صدرها رُمَّانُ نَهْدٍ زانَهُ حَلْىٌ (يُوَسْوِسُ فى صدور الناسِ)

ويريد بوسوسة الحلى صوته الخفى ، واقتبس – كما هو واضح – آية سورة الناس ومافيها من الاستعاذة من الشيطان الوسواس بما لانفع فيه الذى (يوسوس فى صدور الناس) . وأكثر الشعراء من التضمين لأبيات المتنبى وغير المتنبى من كبار الشعراء ، كقول مجير الدين بن تميم مضمنا لبيت من أبيات المتنبى فى وصفه لزهر اللَّوز إذ يقول [2] :

أزهر اللَّوْزِ أنت لكلِّ زهرٍ من الأزهار يأتينا إمامُ
« لقد حسنتْ بك الأيام حتى كأنك فى فَمِ الدهرِ ابتسامُ »

وعُنِى كثيرون باقتباس الشطور الثوانى من معلقة امرئ القيس وتضمينها فى قصائدهم . وسنلتقى بأمثلة كثيرة من ألوان هذه البديعيات فى ترجماتنا للشعراء .

(هـ) التعقيدات

إذا كانت الشام نفذت – على لسان أبى تمام – إلى ابتكار مذهب التصنيع والتنميق فى الشعر العربى ، فإنها هى أيضا التى نفذت إلى ابتكار مذهب التصنع والتعقيد فى الشعر أو قل هى التى أعطته صيغته النهائية ، فقد أخذ الشعراء – منذ أوائل هذا العصر – يتكلفون فى صورهم البيانية ومحسناتهم البديعية ألوانا شتى من التكلف عرضناها فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » ومانصل إلى أبى العلاء المعرى حتى يبلغ هذا التصنع أقصاه فى ديوانه : « لزوم مالا يلزم » وهو فى مجلدين ضخمين . والقصائد فيه تنتظم حروف المعجم حرفًا حرفا ، وفى كل حرف يأتى بالروى ساكنا ومتحركا بالحركات الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ، والتزم مع كل روى حرفا معينا يسبقه كالباء والتاء وغيرهما . وبذلك أصبح لقصائد هذا الديوان الضخم رويَّان يلزمانها فى حتمية شديدة . وليس هذا كل مافى الديوان من تعقيد ، فقد يكون ذلك أخف مافيه من ألوانه ، إذ نراه يعنى فيه بعرض كلمات غريبة لاتكاد تحصى ، وشغف بالجناس وعقّده بدوره إذ طلبه بين القافية

---

(١) الخزانة ص ٤٠٤
(٢) الخزانة ص ٤٧٣

وما يسبقها من كلمات البيت ، بل لعله ظن ذلك لايزال شيئا سهلا فطلب أن يكون بين أول كلمة فى البيت وبين القافية كقوله (١) :

أَشْراكَ ذَنْبُكَ والمهيمنُ غافِرٌ ما كان من خطإٍ سوى الإشراكِ

ومعنى أشراك : أغراك وأوقعك فى الإثم . ويكثر هذا الجناس المعقد فى لزوم مالايلزم أو فى اللزوميات ، ولايكتفى أبو العلاء بِعُقَد الجناس واللفظ الغريب والروى المتعدد بل يطلب عُقَدًا أخرى من ألفاظ الثقافات ومايتصل بها من اصطلاحات الفلسفة والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل من فلك وغير ذلك وعلوم العربية من عروض وغير عروض مثل (٢) :

بقانى الطويلُ وغَيِّىَ البسيطُ وأصبحتُ مضطربا كالرَّجَزْ

والطويل والبسيط والرجز من بحور الشعر وأوزانه كما هو معروف ، والرجز أكثرها اضطرابا لكثرة مايجرى فيه من زحافات وعلل .

ولعل فى ذلك مايوضح كيف أرسى أبو العلاء فى الشام مذهب التصنع والتعقيد الشديد وكيف رفعه على دعائم متينة لافى قصيدة واحدة أو فى قصيدتين ، بل فى ديوان كبير . وتبعه شعراء الشام لاينظمون دواوين مثله يلتزمون فيها مالا يلزم من اللوازم التى التزمها جميعا ، ولكنهم يستخدمونها فى الحين بعد الحين كقول ابن حَيُّوس متغزلا (٣) :

أوصابُ جسمى من جِنايةِ بُعْدكم والصبرُ صَبْرٌ بعدكم أو صابُ

فقد جانس بين أول كلمة فى البيت وبين القافية المكونة من حرف العطف « أو » وكلمة صاب مثل كلمة صبر أى مُرّ. وعلى هذه الشاكلة قول ابن عُنَيْن (٤) :

خبَّروها بأنه ماتَصَدَّى لسلوٍّ عنها ولو ماتَ صَدَّا

والجناس واضح بين آخر الشطر الأول والقافية ، وهو فيها مكون من كلمتين . ويكثر ذلك عند شعراء العصر حتى نهايته زمن العثمانيين . ويقول الحموى فى خزانته : « وكان الشيخ صلاح

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف الطبعة العاشرة) ص ٤٠١

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٣

(٣) الديوان ٥٨/١

(٤) الديوان (تحقيق خليل مردم طبع دار صادر) ص ٤٩

اللبن الصفدى يستسمن ورمه ويظنه شحما فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره (شعرا ونثرا) ويأتى فيه بتراكيب تخفّ عندها جلاميد الصخور » . ويسوق من هذه الجلاميد أمثلة لعل أخفها قول الصفدى[١] .

وكم شِمْتُ لما قِسْتُ مقدار وُدِّكم بوارقَ يأسٍ فى بَوارِ قياسِ

والجناس فى الشطر الثانى ، وهو مركب من كلمتين يختلفان معنى وبناء كما هو واضح ، وفيه غير قليل من الثقل فما بالنا بما وراءه من أمثلة ساقها الحموى للصفدى . ولانعدم أن نجد بين الشعراء مَنْ يزرى على هذا التصنع الشديد لجناسات كأنها قطع الصخر كما يقول الحموى مما يجعلها تصك الآذان صكا عنيفا ، ولعله لذلك حمل زين الدين بن الوردى معاصر الصفدى المتوفى سنة ٧٤٩ على من يجعل الجناس له مذهبا فى نظمه ، يقول ناصحا شعراء عصره[٢] :

إذا أحْببتَ نظمَ الشعرِ فاخترْ لنظمك كلَّ سهلٍ ذى امتناعِ
ولاتَقْصِدْ مجانسةً ومكِّنْ قوافيَه وكِلْهُ إلى الطِّباعِ

وقليلون هم الذين استمعوا إلى نصحه إذ أصبح التصنع منذ زمن أبى العلاء فى القرنين الرابع والخامس ظاهرة عامة تشمل جمهور الشعراء إلا من ندر ، ولهم فى ذلك كثير من الأفانين . وينشد العماد الأصبهانى فى خريدته صورا كثيرة من هذه الأفانين ، وخاصة عند ابن قُسَيم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وهو شاعر نور الدين وأبيه عماد الدين ، وبدأ العماد بصورة معقدة من تصنعه فى القوافى إذ نظم أبياتا على خمس قواف ، يقول فيها مادحا[٣] :

قل للأمير أخى النّدى والنائلِ المِفْضالِ للشعراء والقُصَّادِ
لازلتَ تنتهكُ العِدا بالذابلِ الصَّالِ فى الاحشاء والأكبادِ
ووُقِيت من صَرْف الرَّدَى والنازلِ المغتالِ للأعداء والحسَّادِ

وواضح أنه يمكن أن تُفْصَل الشطور الأولى من كل بيت وحدها وأن يضاف لكل منها الكلمة التالية أو الكلمتان أو الأربعة ، ومع كل صورة يتكون بيت مستقل ، وهى مهارة تصور قدرة على

---

(١) الخزانة ص ٢٦
(٢) الخزانة ص ٢٧
(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢/٤٤٤

التصنع والتعقيد . وينشد العماد لا بن قُسَيِّم مقطوعة طويلة تتوالى الكلمات فيها بحيث لا تخلو أولاها من صاد وثانيتها من سين أو العكس[١] . ومما أنشده العماد فى خريدته من هذه الصور المتكلفة قصيدة لشاعر من شعراء المعرة التزم فى كل كلمة من كلماتها أن لاتخلو من حرف النون[٢] ، وأنشد لشاعر آخر من شعراء المعرة قطعة تُقرأ على سبعة أوزان[٣] . ولابن عنين حين ألم فى رحلته الكبيرة إلى المشرق بالفخر الرازى فى « هراة » قصيدتان[٤] فى مديحه تشتمل كل كلمة فى أولاهما على حرف السين كقوله فيها .

حَسُنَتْ سريرتُه وقُدِّس سِنْخُهُ ... وسما بأسلافٍ سراةٍ شُوسِ[٥]

بينما تشتمل كل كلمة فى ثانيتهما على حرف الحاء . وتعلق كثير من الشعراء فى العصر بصنع الألغاز والإجابة عنها ، وأفرد كثيرون لها أبوابا فى دواوينهم على نحو مايلقانا فى ديوان ابن عنين وأيضا فى ديوان مامية الرومى الدمشقى فى زمن العثمانيين . وظل غير شاعر يصنع لمالايلزم فى بعض مقطوعاته وقصائده وكان للصاحب عبد العزيز الأنصارى مجلد كبير فيه[٦] .

٤

شعراء المديح

يكثر شعراء المديح فى الشام منذ القرن الثانى الهجرى ، وذكرنا أسماء نفر منهم فى غير هذا الموضع ، وقد قدمت الشام فى القرن الثالث إلى الشعر العربى أكبر شاعرين مدّاحين فيه ، وهما أبو تمام والبحترى . ويتكاثر شعراء المديح كثرة مفرطة فى أول هذا العصر : عصر الدول والإمارات بحلب زمن بطلها سيف الدولة الحمدانى الذى تحول بها إلى أكبر مركز علمى وفلسفى وأدبى ، على نحو مامرّ بنا ، وغدت مقصد الأدباء وحلبة الشعراء ، وجاءوها من كل بلد فى العراق وإيران فضلا عن الشام ، وفى مقدمتهم المتنبى . وظل سيف الدولة نحو عشرين عاما يمزق جموع البيزنطيين ويستولى على كثير من الحصون والبلدان ، والشعراء من حوله ينثرون عليه قصائدهم

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٤٤٧
(٢) الخريدة ٢/٤٥
(٣) الخريدة ٢/١٠٨
(٤) الديوان ص ٩٦ ، ٩٨
(٥) السنخ : الأصل ، شوس جمع أشوس : الشجاع المقدام
(٦) فوات الوفيات ١/٥٩٨

ومدائحهم بالعشرات – إن لم يكن بالمئات – مسجلين للبطل العربى مجده الحربى العظيم ، وقد صورنا فى قسم العراق من هذا التاريخ للأدب العربى مدائح المتنبى فيه ، ولن نستطيع أن نعرض هنا مدائح غيره من شعراء العراق مثل ابن نباتة وأبى الفرج الببغاء ، فكتاب اليتيمة للثعالبى يحمل من مدائحهما ومدائح غيرهما لسيف الدولة روائع بديعة . ويكفى أن نشير إلى من حفُّوا به من شعراء الشام أمثال كشاجم والوأواء الدمشقى وأبى العباس أحمد بن محمد المِصِّيصىّ المشهور باسم النامى ، وكان عند سيف الدولة يتلو أبا الطيب فى المنزلة والرتبة ، وكان شاعرا بارعا ، ومن قوله فيه بإحدى مدائحه [1] :

أميرَ العُلا إن العَوالى كواسبٌ علاءك فى الدُّنيا وفى جنَّة الخُلْدِ
يمرّ عليك الحَوْلُ ، سيفُك فى الطُّلاَ وطَرْفُك مابين الشَّكيمة واللِّبْد [2]
ويمضى عليك الدَّهْر، فِعلُك للعلا وقولك للتَّقْوَى وكفُّك للرِّفْدِ

فسيف الدولة دائما محارب يطيق أعناق البيزنطيين بسيفه المسلول ، ودائما ساهر شاكى السلاح وبصره مصوَّب إلى فرسه الذى يطلك باستمرار شكيمته استعدادًا للنزال . وما الإنسان إلا فعل وقول وفعل سيف الدولة دائما للعلا ومنازله الرفيعة وقوله للتقوى ومخافة الله ، أما كفه فللعطاء والنوال السابغ .

وكان سيف الدولة – ومثله الحمدانيون عامة – من الشيعة الإمامية ، مما جعل كثيرين من أهل حلب يعتنقون هذه النحلة ، ومر بنا أن تفرعت عنها فرقة [illegible] – كما مرّ بنا – من ألوهية على بن أبى طالب . ومكّن لانتشار التشيع فى الشام استيلاء الدولة الفاطمية على فلسطين ودمشق وكثير من بلدان سوريا منذ سنة ٣٥٩ ونرى نفرا من شعراء الشام ينزلون القاهرة معتنقين – على مايبدو – لتلك النحلة ويعنون بمديح الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) ووزيره يعقوب بن كلّس وفى مقدمتهم أبو الرَّقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى ، وله فى الخليفة ووزيره غير قصيدة ، ومن قوله فى ابن كلّس بإحدى قصائده [3] :

لم يَدَعْ للعزيز فى سائر الأر ض عدوًّا إلا وأخمَدَ نارَهْ

---

(١) اليتيمة ٢٢٥/١

(٢) الطلا : جمع طلية أو طُلاة كما مر. وهى العنق أو صفحته. الشكيمة : الحديدة المعترضة فى فم الفرس من اللجام

(٣) اليتيمة ٣١٠/١

كلَّ يومٍ له على نُوَبِ الدهـ ـرِ وكَرِّ الخطوب بالبَذْلِ غارَهْ

ولأبي العلاء المعرى ديوان معروف يسمى « سقْط الزَّنْد » أكثره مدائح نظمها على سبيل التمرين لا قصدًا لمديح شخص بعينه إلا نادرا ، فهو لم ينظم كثرتها طلبا للكسب ونيل العطاء ، وإنما على سبيل التدريب اتباعا لشعراء المديح المنتشرين بزمنه فى كل مكان . ومن قوله على طريقتهم فى المديح بأولى قصائد سقط الزند :

مُكلِّفُ خيْلِهِ قَنَصَ الأعادى وجاعلُ غابِهِ الأَسَلَ الطِّوالا
تكاد قِسِيُّه من غير رامٍ تُمكِّن من قلوبهم النِّبالا

فالخيل لكثرة ما جعلها الممدوح تمارس القتال تقتنص بنفسها الرجال . وإنه لأسد حقا غير أن عرينه ليس غابًا بل رماحًا طوالا تخطف الأرواح خطفا ، وإن قِسِيَّه لتصيب أعداءه فى الصميم دون رام ينزع عنها النبل والسهام ، وهى مبالغة مألوفة عند أصحاب المديح لأيامه .

ومرَّ بنا أن بنى مرداس خلفوا الحمدانيين فى حلب ، وعُنى منهم خاصة محمود بن نصر بجمع الشعراء حوله فاجتمع فى حاشيته كثيرون منهم عبد الواحد الحلبى الرببى وابن حَيّوس الدمشقى وابن النحاس الحلبى وابن سنان الخفاجى . وحدث أن قطبان أنطاكية أو بطريقها استولى فى شعبان سنة ٤٦١ على حصن « أسفونا » ونكّل تنكيلا شديدا بأهله ، فحاصره محمود بن نصر وفتك بجميع رجاله ، وكانوا نحو ألفين ، وردَّ محمود الحصن على أهله ، وهنّأه ابن سنان الخفاجى بهذا النصر المبين قائلا فى إحدى قصائده[(١)] .

إنْ أظهرتْ لعُلاك أنطاكيَّةٌ حُزْنًا فقد ضحكتْ على قُطْبانها
لما أطلَّ له لواؤك خافقًا عُرِفتْ وجوهُ الذُّلِّ فى صُلْبانها

وحين زار حلب نظام الملك وزير ألْب أرْسلان السلجوقى قدَّم له كثيرون من شعرائها مدائحهم ، وكان وافر العقل بصيرا بتدبير الملك سَئُوسًا بعيد النظر ، فساس الدولة السلجوقية خير سياسة ، وهو مؤسس المدارس أو الجامعات النظامية فى العراق وإيران ، وله يقول محمد بن أحمد الشطرنجى الحلبى من مدحة طويلة على أبواب حلب[(٢)]

---

(١) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ٢/١٤ وما بعدها والديوان طبعة بيروت ص ١١٣ .

(٢) خريدة القصر ١/١٩٩

بأعمِّ من خفقتْ عليهِ رايةٌ وأجلُّ معقودٍ عليه لواءُ
لك كلَّ يوم مِنَّةٌ سيَّارةٌ فى الخافقين وغارةٌ شعواءُ

وذكرنا – فيما أسلفنا – أن بنى عمار استطاعوا أن يكوِّنوا لهم فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى إمارة بطرابلس ، وكانوا يُقرِّبون منهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، وذكر العماد الأصبهانى فى الخريدة نفرا من شعرائهم فى مقدمتهم ابن العَلاَّنى المعرى ، وله من مدحة فى عمار بن محمد بن عمار : آخر أمرائهم[1] :

يحتاطك التوفيقُ لايألوك فى تسهيلِهِ لك كلَّ صعبٍ أوْعَرِ
دامتْ لك النعماء موصولٌ بها توفيقُ منصورِ اللواء مظفَّرِ

وسقطت من يده طرابلس فى حجر الصليبيين ، وكانت لذلك مناحة كبيرة بين المسلمين . وكان ابن العلانى – فيما يبدو – شيعيا ، ولعله لذلك رحل إلى القاهرة وقدَّم مدائحه إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وله يقول فى إحدى مدائحه[2] :

ليَزْدَدْ عُلُوّا ملكُ مصرَ فإنها بهِ حرمُ اللهِ العزيزِ المحرَّمُ
لمكةُ مصرُ ، والحجيجُ وفودُه ويمناه ركنُ البيت ، والنِّيل زمزمُ

ومن كبار الشعراء الذين نشأوا فى حجر بنى عمار واستظلوا بما أحدثوا فى طرابلس من حركة أدبية الشاعر الدمشقى ابن الخياط وسنخصه بترجمة مستقلة .

وأمراء حصن شيزر : بنو مقلَّد بن مُنْقذ على شاكلة بنى عمار فى طرابلس يتردد مديحهم على ألسنة الشعراء منذ استخلص على بن مقلد بن منقذ « شَيْزَر » من أيدى الروم سنة ٤٧٤ وظلت أسرته تحكمها حتى أتى عليها زلزال شديد سنة ٥٥٢ هدمها من قواعدها وأهلك سكانها . وتغنى الشعراء طويلا باسم محررها فى القرن الخامس على بن منقذ وبخلفائه فى حكمها ، كما نجد عند ابن منير والقيسرانى .

ويلقانا فى أواخر القرن الخامس والربع الأول من القرن السادس شاعر فلسطينى هو الغَزِّى إبراهيم بن يحيى المتوفى سنة ٥٢٤ وقد ترك غزة مسقط رأسه مبكرا إلى دمشق يختلف الى شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وظل بالمدرسة النظامية فترة طويلة مدح فيها ورثى كثيرين من علمائها ، ثم تركها

(١) الخريدة (قسم الشام) ٧٨/٢ (٢) الخريدة ٨٢/٢

إلى كَرْمان وشيراز فى فارس وهراة فى أفغانستان وكلما ألم ببلد مدح أمراءها ووزراءها حتى وفاته فهو شاعر جوّال ، وله أشعار كثيرة رائعة فى المديح وغير المديح ، وله فى ابن مكرم وزير كَرْمان مدائح بديعة من مثل قوله[١] :

مادعوناه من بنى الدّهر إلا أمّلَ الدّهرُ نفسه للتّهانى
جُمِع الأسْدُ والكواكب والأبـ ـحُرُ والناسُ منه فى إنسانِ
واستجابتْ له مناقبُ شتّى لم تَجُلْ فى خواطر الإمكانِ

ويتنبه البطل المغوار أتابك الموصل عماد الدين زنكى منذ أوائل العقد الثالث من القرن السادس الهجرى إلى أن تخاذل المسلمين أمام حَملة الصليب مرجعه إلى تفرق البلدان الإسلامية المجاورة لهم وأنه لابد من جمع كلمتها تحت لواء واحد . ويستولى على حلب وبعض بلدان سوريا الشمالية ، وماتوافى سنة ٥٣٤ للهجرة حتى يسوق إلى الصليبيين جيشا جرارا بقيادته ، وينازلهم بالقرب من حماة ويعصف بجموعهم ، ويستولى على حِصْن بارين بين حماة وحلب . وكأنما استيقظ الشعر حينئذ من سُباته الطويل . ويتبارى الشعراء فى مديحه والإشادة بانتصاره ، وفى مقدمتهم ابن منير والقيسرانى . ولم يلبث فى سنة ٥٣٩ أن فتح مدينة الرُّها مزيلا منها جوسلين ودولته الصليبية إلى غير رجعة ، وهلل الشعراء فى كل مكان لهذا الفتح المبين ، وفيه يقول ابن منير[٢] :

فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجَتَهُ فافترَّ مَبْسِمُه واهتزَّ عِطْفاهُ
أين الخلائفُ عن فتحٍ أُتيح له مظلّلٌ أُفُقَ الدنيا جَناحاه

ومضى ابن منير فى القصيدة يُعلى - بحق - هذا الفتح على فتح المعتصم لعمّورية أكبر مدن آسيا الصغرى فى زمنه ، فقد قضى زنكى على المملكة الرابعة لحملة الصليب ، وكانوا قد أسسوها شمالى العراق . وبدا حينئذ - فى الأفق - أمل كبير فى أن ممالكهم التى أسسوها فى أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس لابد أن تسقط فى أيدى المسلمين مهما طال الزمن .

وامتدت إلى عماد الدين سنة ٥٤١ يَدٌ آثمة فى الظلام فتكت بالبطل الباسل ، وحمل الراية بعده ابنه نور الدين ومضى يجاهد الصليبيين ، وغرّت الأمانى جوسلين فعاد إلى الرُّها ، واستردها

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٥١

(٢) الروضتين لأبى شامة ١/٣٩ وانظر مفرج الكروب لابن واصل تحقيق الدكتور الشيال ١/٩٣

صريعا نور الدين وفرّ جوسلين ، وهنّأه الشعراء بهذا الفتح المبين ، وفي مقدمتهم ابن قُسيم الحموى بمثل قوله[1] :

تبدو الشجاعةُ من طلاقةِ وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لِينُهُ
والدينُ يشهد إنه لعزُّهُ والشِّركُ يعلم إنه لمهينُهُ
فتح الرُّها بالأمس فانفتحتْ له أبوابُ ملكٍ لايَهَالُ مَصُونُهُ[2]

وولّى نور الدين وجهه نحو سوريا فاستولى من حملة الصليب على حصن أرتاح سنة ٥٤٤ . ونازل صاحب أنطاكية وجموعَه ، وخرَّ صريعا بيد أسد الدين شيركوه وفرَّتْ جموع الصليبيين مهزومة مدحورة . وعاد نور الدين إلى حلب ، والشعراء يهللون بمثل قول ابن منير في مطلع قصيدة له[3] .

أقْوَى الضلالُ وأقفرتْ عَرَصاتُه وعلا الهُدَى وتبلَّجتْ قَسَماتُهُ

وظلت أيام نور الدين محمود أعيادَ نصر على حَملة الصليب ، وظل الشعراء يديجون فيه مدائح رائعة ، وقد استولى من الصليبيين على أفامية سنة ٥٤٥ واستولى من بيت طغتِكين على مدينة دمشق سنة ٥٤٩ وبهنئه عالمها وحافظها ابن عساكر قائلا[4] .

لقد بلغتَ بحمد الله منزلةً عليّةً فاقصُدِ العالى من القُرَبِ
وطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحَوْزَتَهُ من النّجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

وفى نفس السنة يهزم الصليبيين بدُلوك من ثغور حلب ، ويتنازل له حملة الصليب فى أنطاكية عن نصف أعمال حارم . واستولى على شَيْزر وبَعْلبك وصَرْخد ، وشُغل بإرسال نور الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٥٨ وتطورت الظروف وتملك صلاح الدين مصر . ونور الدين محمود يُعَدُّ بحق منشئَ الدولة الأيوبية . ولم يلبث فى سنة ٥٥٩ أن استولى على مدينة حارم ، وأخذت حصون كثيرة تتساقط فى يده ، ويتغنى بانتصاراته الرائعة العماد الأصبهانى قائلا فى مطالع إحدى قصائده[5]

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/١٧٤ وما بعدها
(٢) يهال : يهان .
(٣) الروضتين ١/٥٨ ومفرج الكروب ١/١٢٢ أقوى : أقفر . عرصاته : ساحاته . تبلجت : أضاءت .
(٤) الخريدة (قسم الشام) ١/٢٧٧
(٥) الخريدة (بداية قسم الشام) ص ٥٤

ياواحدا فى النَّصْرِ غيرَ مشارَكٍ أقسمتُ مالك فى البسيطة ثانِ
كم وقعةٍ لك فى الفرَنْج حديثُها قد سار فى الآفاق والبُلدانِ
وجعلتَ فى أعناقهم أغلالهم وسَحَبْتهم هُونًا على الأذقانِ

ويحمل الراية بعد نور الدين فى منازلة حملة الصليب البطل المظفر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية، وفتوحه العظيمة مصوَّرة فى الجزء الخاص بمصر. وما وافت سنة ٥٨٣ حتى تمت له هذه الفتوح بعد وقعة حطين المباركة التى استولى بعدها على بيت المقدس أهم مملكة كانت لحملة الصليب كما استولى على كثير من الحصون على الساحل الشامى، ولم يبق فى الشام ولا فى الموصل والعراق شاعر إلا وتغنى بفتوح هذا البطل الباسل، تغنى بها سبط بن التعاويذى البغدادى وموفق الدين الإربلىّ والشاتانى الموصلى وابن الساعاتى الدمشقى وله مدائح كثيرة متناثرة فى كتاب الخريدة. وللعماد فى هذه الفتوح قصيدة رائعة أنشدنا منها قطعة فى الجزء الخاص بمصر. ولابن الشحنة الموصلى فيه مدحة طارت شهرتها لقوله فيها هذين البيتين السائرين(١):

وإنى امرؤٌ أحببتُكم لمكارمٍ سمعتُ بها والأُذْنُ كالعين تَعْشَقُ
وقالتْ لِىَ الآمالُ إن كنت لاحقًا بأبناء أيوبٍ فأنت الموفَّقُ

ودار الزمن ودانت مصر والشام – بعد صلاح الدين – لأخيه العادل ، ولابن عُنَين الدمشقى فيه وفى ولديه المعظم عيسى والأشرف موسى مدائح مختلفة . وبينها رائية بديعة فى العادل يستعطفه بها فى العودة إلى دمشق وكان صلاح الدين نفاه منها لكثرة أهاجيه فى أهلها ، وأذن له العادل فى العودة ، وفيها يقول (٢) :

العادلُ الملِكُ الذى أسماؤه فى كل ناحيةٍ تشرِّف مِنْبرا
نسختْ خلائقه الكريمةُ ماأتى فى الكُتْب عن كسرى الملوك وقيْصرا
مَلِكٌ إذا خفَّتْ حلومُ ذوى النُّهَى فى الرَّوع زاد رزانةً وتوقُّرا

ومعروف أن آل أيوب توزعوا فيما بينهم بلدان الشام ، وكان لكل منهم شاعره الذى يغنى بمناقبه وأعماله ، ونذكر من بينهم نور الدين مودود شِحْنة دمشق ابن أخى صلاح الدين لأمه ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦
(٢) ديوان ابن عنين (تحقيق خليل مردم – طبع دار صادر) ص ٦

وهو ممدوح فتيان الشاغورى دبّج فيه مدائح كثيرة . وحرى بنا أن نذكر ملوك حماة الأيوبيين ، وكانوا ممدَّحين . وممن أسبغ عليهم مدائحه الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وله فى صاحبيا المظفر محمود (٦٢٦ - ٦٤٢ هـ) وابنه المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ) مدائح كثيرة ، وكان للثانى موقف محمود حين أحس بأن التتار سيغزون الشام إذ التجأ بأسرته إلى مصر حتى إذا التحم القتال بين المصريين والتتار فى عين جالوت كان فى مقدمة المحاربين البسلاء ، ونوّه الصاحب الأنصارى بهذا الموقف الشجاع طويلا بمثل قوله[1] :

بَعْين جالوتَ خُضْتَ بَحْر وَغىً　　يُخال فُلْكا بالأُسْد مَشْحونا
وكنت للجيش غُرَّةً شَدَخَتْ　　أنوفَهم فانثنوا مُوَلِّينا

وطوال أيام المماليك كان يرتفع صوت الشعر للتنويه بأعمالهم . وكان لانتصاراتهم على التتار أو المغول بعد موقعة عين جالوت حظ كبير من الشعر ، ومرَّ بنا فى قسم مصر أن الظاهر بيبرس كان دائما يتعقبهم فى الموصل وعلى شواطئ الفرات وسمع بحشود لهم على شاطئه الشرقى فخاض إليها لُجَجَهَ وخاضها جيشه معه ومزقهم شر مُمَزَّق ، وفى هذه الغزوة يقول الموفق عبد الله الأنصارى الدمشقى[2] .

الملكُ الظاهر سلطانُنا　　نَفْديه بالأموال والأهلِ
اقتحمَ الماء لِيُطفى به　　حرارةَ القلب من المُغْلِ

ولم يستول الظاهر بيبرس ولا قلاوون ولا الأشرف خليل على حصن أو بلد من حملة الصليب إلا وجلجل الشعر ، حتى إذا أنهى الأشرف خليل الحروب الصليبية باستيلائه على عكا آخرِ حصونهم أخذ شعر المديح فى الشام يتحوَّل إلى شعر مناسبات لمديح الحكام حين يستولون على أزمة الأمور أو حين تمر بهم بعض الأعياد أو بعض الأحداث .

ويظل الشعراء أيام العثمانيين يقدمون مدائحهم للحكام ، وكان شعراء الشام حينئذ قريبين من إستامبول وكانوا لايزالون غادين عليها رائحين ، مما جعلهم يكثرون من مديح سلاطينهم ، على نحو

---

(١) الديوان (بتحقيق عمر موسى - نشر مجمع اللغة العربية بدمشق) ص ٤٧٥

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧

مايلقانا فى ديوان مامية الرومى المتوفى سنة ٩٨٧ ومدائحه فيه للسلاطين سليمان وسليم الثانى ومراد الثانى . ويكثر حينئذ مدح العلماء وأعيان البلدان فضلا عن حكامها ، وأخذ الشعراء يكثرون مثل المصريين من التاريخ بالشعر يؤرخون قدوم حاكم أو مناسبة من المناسبات يجعلون ذلك فى آخر شطر بالمدحة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحساب الجُمَّل ، فيكون المجموع سنة الولاية للحاكم أو سنة المناسبة . وجدير بنا أن نعرض نفرًا من شعراء المديح النابهين .

ابن الخياط [(١)]

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبى نسبة إلى قبيلة تغلب المولود بدمشق سنة ٤٥٠ لخياط اشتهر بنسبته إليه ، فهو من أبناء عامة الشعب الدمشقى . ودائما يلقانا فى كل البلدان العربية شعراء من أولاد العامة ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت مناهلها مفتوحة الأبواب دائما ، إذ كان الشيوخ فى المساجد يعرضونها على الناس جميعا شبانا وشيبا ، وكانت للمساجد أو الجوامع الكبرى تشتمل على مكتبات خاصة بالكتب فى كل علم وكل فن وكذلك بدواوين الشعراء ، مما أتاح للشباب فى كل بلد عربى أن يتزود بماشاء من الثقافة علمية وأدبية وأن ينبغ بينهم علماء وأدباء وشعراء لاحصر لهم .

وشهد ابن الخياط فى صباه دمشق ثائرة على حكم بدر الجمالى ، حتى لقد أشعل أهلها النار فى قصره سنة ٤٦٠ وسرت النار إلى الجامع فسقطت سقوفه وتناثرت فصوصه الملحبة ، ونُهبت الدور والدكاكين ، وظل هذا الاضطراب سائدا فى دمشق وأخذ السلاجقة يحاصرونها ابتغاء الاستيلاء عليها حتى تم لهم ذلك سنة ٤٦٨ وتملكها تُتُش أخو السلطان آلْب أرْسلان .

ومعنى ذلك أن الحياة كانت سيئة سوءًا شديدًا بدمشق منذ سنة ٤٦٠ حتى نزلها تتش مما جعل كثيرًا من أهلها يهاجرون منها إلى بلدان الشام الأخرى . وكان ممن هاجر منها فى هذه الأثناء ابن الخياط وكان لايزال فى بواكير شبابه ، وولّى وجهه نحو حَمَاة ، ووفد على أمير بها يسمى محمد بن مالك فقربه منه واتخذه كاتبا له ، فعُرف باسم ابن الخياط الكاتب ، وفيه يقول :

حَبانى جودُهُ عَيْشًا كأنِّى ظفرتُ به من الدَّهْرِ استراقا

(١) انظر فى ترجمة ابن الخياط وشعره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ٢٣٤ والخريدة (بداية قسم الشام) ص ١٤٢ والعبر ٣٩/٤ وابن خلكان ١٤٥/١ والشذرات ٥٤/٤ ومقدمة ديوانه بتحقيق خليل مردم (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

وكان شاعرُ بلدته ابنُ حَيُّوس حين اضطربت الأحوال فى دمشق سنة ٤٦٤ تركها إلى حلب وعاش بها فى كنف بنى مرداس ، فرأى أن يتبعه هناك ، ولقيه ابن حيوس لقاء حسنا ومنحه ثيابا ودنانير مع تنويه بشعره . وأوصاه أن يفد على بنى عمار أصحاب طرابلس لرعايتهم الشعر والشعراء ، إذ سيجد عندهم مبتغاه . غير أنه عاد إلى حماة ، وكان كلما ألم بها أمير من أمراء بلدان الشام مدحه على نحو مايلاحظ من مدحه للأمير الحلبى وثاب بن محمود بن صالح وله يقول :

لقد لبستْ بك الدُّنيا جمالاً فلو كانت يَداً كنت السُّوارا

ويبدو أنه مرَّ بحماة على بن مقلَّد بن منقذ بعد استيلائه على حصن شَيْزر ، فاتصل به الشاعر ومدحه ومدح معه أسرته وما اشتهروا به من بسالة وما أتاحوا لحصنهم الأشم من مناعة ، وفى ذلك يقول :

هُمُ غادروا بالعزِّ حَصْباءَ أرضهم أعزَّ منالا من نجومِ الغَياهبِ

ونرى ابن الخياط فى سنة ٤٧٦ يأخذ بنصيحة مواطنه الشاعر الكبير ابن حَيُّوس ، فينزل طرابلس قاصدا بنى عمار ويستقبلونه استقبالا حافلا ، وكان يحكمها حينئذ منهم جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن عمار (٤٦٤ – ٤٩٤ هـ) وله فيه مدائح رائعة ، وربما كانت أولاها داليته ، وفيها يحسّ فرحته بلقائه من مثل قوله :

كفى بِنَدَى جلال المُلْك غَيْثا إذا نزحتْ قَرارةُ كلِّ وادِ
فمن ذا مُبلغ الأملاكِ عنا وسُوَّاسِ الحواضر والبوادى
بأنَّا قد سكنَّا ظلَّ مَلْكٍ مَخُوفِ البأسِ مرجوِّ الأيادى
فما نخشى محاربة الليالى ولا نرجو مسالمةَ الأعادى .

وهنئ بمقامه فى ظل بنى عمار بطرابلس ، وصحب فيها طائفة من الأدباء كانوا يخرجون للمتنزهات وينعمون بمشاهدها الطبيعية البديعة . ومن حين إلى آخر كان يمدح جلال الملك فى المناسبات كمرور الأعياد . وله فى أخيه فخر الملك قصائد لاتقل روعة عن قصائده فيه ، ومن قوله فى إحداها :

أأرجو غيرَ عمَّارٍ لنائبةٍ إذنْ فلا آمَنَتْني كفُّهُ النُّوبا

المانعُ الجارَ لو شاء الزمانُ له ... مَنْعا لضاق به ذَرْعًا وإنْ رَحُبا
الباذلُ المالَ مسئولاً ومبتدئًا ... والصَّائنُ الجدَ موروثًا ومكتسبا

وظل فى طرابلس حتى سنة ٤٨٦ وفيها احترقت داره واحترق كل ما كان بها من أثاث ، فحزن حزنًا شديدًا.

وعَبث بابن الخياط الحنينُ إلى دمشق مسقط رأسه وموطن خلاَّنه بها أيام الشباب ، فعاد إليها وكان ملكها حينئذ تتش السلجوقى وقربه منه وزيره هبة الله بن بديع الأصبهانى ، واصطحبه معه إلى « الرىّ » بفارس وهناك أنشده مدحة فيه ، ورحل إلى خراسان ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ وامتدح أمير قبيلة بنى كلب حسان بن مسمار بقصيدتين ، وفتح له أمير الجيش عضب الدولة آبق أبوابه فمدحه بقصيدة بائية ربما كانت أروع قصائده ، وتوالت مدائحه فيه حتى توفى سنة ٥٠٢ ومن قوله فى البائية :

وما آبقٌ إلا حَبًا مُتَهلِّلٌ ... إذا جادَ لم تُقْلِع مواطرُ سُحْبِهِ
أغرُّ غياثٌ للأنام وعصمةٌ ... يُعاش بنُعْماه ويُحمَى بِذَبِّهِ
ولم يُرَ يوما راجيًا غيرَ سَيْفِهِ ... ولم يُرَ يوما خائفًا غيرَ رَبِّه
حُيِيتَ حياةً فى سماحٍ كأنه ... ربيعٌ يَزِين النَّوْرُ ناضرَ عُشْبِه

والقصيدة رائعة حقا ، نوه بها القدماء طويلا كما نوهوا بغزلها وسننشد منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٢ وأخذوا بعد ذلك عدة بلدان على الساحل الشامى فى السنوات التالية وكثرت الشكايات منهم ، وواقعهم طُغْتِكين صاحب دمشق على سواد طبريَّة سنة ٤٩٩ وفى السنة التالية حاصر بلدوين صاحب القدس صَيْداء ، وفى ديوان ابن الخياط قصيدة يحض فيها عضب الدولة أمير الجيش فى دمشق على منازلة الصليبيين ، وفيها يقول مستنفرًا الدمشقيين للجهاد :

لقد جاشَ من أرض إفرنجةٍ ... جيوشٌ كمثل جبالٍ تَرَدَّى
أتوهمًا على مثل هَدِّ الصَّفَاةِ ... وهزلا وقد أصبح الأمر جِدًّا
وكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ ... تَدُقُّ من الخوف نَحْرًا وخَدًّا

فحاموا على دِينكم والحَريمِ محاماةَ مَنْ لايرى الموتَ فقدا
فقد أينعَتْ أرؤسُ المشركين فلا تُغفلوها قِطافًا وحَصْدا

وله وراء هذه القصيدة مرثية لبطل استشهد فى حرب حملة الصليب سننشد منها قطعة فى الحديث عن شعراء الرثاء والشكوى أنشدها كالقصيدة السالفة عضب الدولة المتوفى – كما مرَّ بنا – سنة ٥٠٢ . ولانجد له وراء هاتين القصيدتين شعرا حماسيًّا ضد حملة الصليب مع أنه عاش حتى سنة ٥١٧ مما يجعلنا نظن ظنا أن شعراء الشام فى الربع الأول من القرن السادس على الأقل قصَّرُوا فى استثارة الأمة ضد حملة الصليب حينئذ . وله فى هذه الفترة التى عاشها بعد عضب الدولة مدائح فى بعض الرؤساء والوزراء ورِجال الشرطة الدمشقيين وغيرهم من الأعيان والقواد ، وآخر قصيدة له نظمها فى مرضه الأخير يسترفد ابن القلانسى المؤرخ ، وفيها يثنى على أدبه وكتابته بمثل قوله .

له فِقَرٌ لو تجسَّدْنَ لم يُفَضَّلْن إلا بهنَّ العُقودُ
فَيَظْلِمْنَ إن قيل نَوْرٌ نَضِيرٌ ويُبْخَسْنَ إن قيل دُرٌّ نَضِيدُ

ويبدو من شعره أنه كانت له مجالس مع بعض الأدباء يتنادمون فيها على الشراب ويسترسلون فى اللهو والطرب بسماع بعض المغنين ، كما كانت له نُزَهٌ كثيرة فى الغوطة وبساتينها ، ويبدو أنه كان يولع بلعب النَّرد مع بعض رفاقه ، وله فيه قصيدة بديعة بديوانه ، رواها العماد الأصبهانى فى خريدته . وواضح أن شاعرية ابن الخياط كانت شاعرية خصبة كما يتضح من طول قصائده ومن لغتها الجزلة الناصعة دون تكلف للغرابة أو مايشبه الغرابة ، ومع جمال الموسيقى والجرس الصوتى وأنغامه ، ومع تصاويره المبتكرة الفذة .

ابن[1] القَيْسَرانى

هو أبو عبد الله محمد بن نصر ، من سلالة خالد بن الوليد البطل العظيم ، ولد بعكا سنة ٤٧٨

(١) انظر فى ترجمة ابن القيسرانى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٩٦/١ وابن القلانسى : ٣٢٢ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (طبع حيدر آباد) ٢١٣/٨ ومعجم الأدباء ٦٤/١٩ وعبر الذهبى ١٣٣/٥ وابن خلكان ٤٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٥ والروضتين ٥١/١ فى حروب عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والشذرات ١٥٠/٤ وصدى الغزو الصليبى فى شعر ابن القيسرانى للدكتور محمود إبراهيم وتوجد مخطوطة من ديوانه – وهى مختارات منه – بدار الكتب المصرية .

وانتقل به أبوه وهو فى صباه إلى قَيْسارِيَة[1] ، فنسب إليها وقيل ابن القيسرانى إذ نشأ بها ، ويبدو أنه هاجر منها مبكرا بعد استيلاء حَملة الصليب عليها سنة ٤٩٤ وأبعد فى هجرته إلى الشمال إذ نزل حلب ، وأقام فيها طويلا ربما نحو عقدين من السنين ، ثم نزل دمشق . والقدماء مختلفون منهم من يقول إنه نزل حلب أولا ثم نزل دمشق ، ومنهم من يقول بل نزل دمشق ثم نزل حلب ، ودفعنا إلى ترجيح الرأى الأول أننا سنجده عما قليل أهم شاعر شامى عُنى بتصوير البطولة العربية فى الفتك بحملة الصليب منذ سنة ٥٢٣ للهجرة وقد تجاوز الأربعين من عمره . وكانت دمشق كثيرا ماتشتبك مع الصليبيين فى حروب وتردهم على أعقابهم خاسرين كما حدث فى عهد حاكمها طغتكين سنة ٥٠٢ ويعود طُغْتِكين مع مودود صاحب الموصل إلى كسرهم على طبريَّة سنة ٥٠٧ واستطاع أن يهزمهم فى البقاع سنة ٥١٠ وهزم صاحب أنطاكية سنة ٥١٣ .

وكل هذه الأحداث والانتصارات العظيمة لطغتكين لانجد لها أى ذكر أو صدى فى شعر ابن القيسرانى مما يدل على أنه كان غائبا عن دمشق طوال هذه المدة . على كل حال يدل غياب هذه الأحداث السالفة على أنه لم يكن بدمشق فى أثنائها وأنه نزل حلب أولا وأقام بها حتى نهاية العقد الثانى من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك . ويدل دلالة قاطعة على أنه كان بها فى عهد بورى بن طغتكين (٥٢٢ – ٥٢٦ هـ) أننا نجده ينشده أولى قصائده فى الحروب الصليبية حين هزم حَملة الصليب على أبواب مدينته فى أواخر سنة ٥٢٣ وفيها يقول :

وافوا دمشقَ فظنوا أنها جلَدَةٌ ... ففارقوها وفى أيديهم العدمُ
وغادروا أكثر القُربان وانجفلوا ... وخلَّفوا أكبر الصُّلْبان وانهزموا[2]

وكان – كما قال مترجموه – يتولى فى أثناء مقامه بدمشق إدارة الساعات بها إلى أن تولى شمس الملوك بن بورى (٥٢٦ – ٥٢٩ هـ) حُكْمها ، فاصطدم به ابن القيسرانى ، مما جعله يهجوه ، وعلم بهجائه فضاقتْ عليه الأرض بما رحُبت ، وفر منه بعيدًا إلى العراق . وترك العراق سريعا إلى حلب حين سمع بانتصارات عماد الدين زنكى على حملة الصليب واستيلائه منهم على المعرة وبعَرِّين ، وتتأكد صلته به منذ سنة ٥٣٤ إذ نجده يشيد بانتصاره على جموع الصليبيين واستيلائه منهم على حصن بارين غربى حلب فى الطريق إلى حماة ، ويشعر فى عمق ببطولة العرب وعماد الدين قائلا :

---

(١) كانت ثغرا كبيرا من ثغور فلسطين.

(٢) انجفلوا : تشردوا

حَذَارِ منا وأنَّى ينفع الحذَرُ ... وَهْيَ الصوارم لاتُبْقِى ولاتَذَرُ
وأين ينجو ملوكُ الشِّركِ من ملكٍ ... مِنْ خَيْلِه النصرُ بل من جُنْدِه القدَرُ

ثم يكون نصر عماد الدين العظيم باستيلائه على الرُّها من يد جوسلين وهو عار هذه المملكة أو الدولة التى أقامها الصليبيون شمالى العراق آملين فى الانحدار منها إلى الجنوب ، وإذا عماد الدين يستولى عليها بجيوشه وبطولته الخارقة سنة ٥٣٩ وتكون لذلك رنة فرح عظيم فى نفس ابن القيسرانى ونفوس المسلمين وينشد :

سمتْ قِبْلَة الإسلام فخرا بِطَوْلِهِ ... ولم يَكُ يسمو الدين لولا عِمَادُهُ(١)
مصيبُ سهامِ الرأى لو أن عَزْمه ... رمى سدَّ ذى القَرْنين أصْمَى سِدَادَهُ(٢)
فَقُلْ للملوك الكفر تُسلِمْ بعدها ... ممالــكَــهــا إن الــبلادَ بلادُهُ

ونرى ابن القيسرانى – بعد هذا الفتح المبين – بنحو عام يزور أنطاكية ، ويقول العماد إنه زارها لحاجة عرضت له ، ولاندرى هل كانت حاجة سياسية لأمير أوكانت حاجة شخصية ، ويغلب على ظننا أنها كانت حاجة سياسية ، والمهم أنه شبَّب بإفرنجيات وبراهبات وتمادى فى هذا التشبيب ، وسنذكر طرفا منه فى حديثنا عن شعراء الغزل . وعاد من رحلته إلى عماد الدين ووزيره جمال الدين بن أبى منصور ، وله فيه مدائح بديعة .

وتطورت الأمور سريعا فقُتل عماد الدين بيد آثمة ، كما أسلفنا وحمل لواء الجهاد بعده الملك العادل نور الدين ، وتغُرّجوسلين الأمانى ووقوف الأرمن معه ، فيعود إلى الرها ، ويخرجها منه نور الدين منكِّلا بالأرمن ، ويهنئْ ابن القيسرانى الوزير ابن أبى منصور بهذا الانتصار قائلا :

لِيَهْنِك ماأفرجَ النصرُ عنه ... ومــانــالــه الملكُ الــعــادلُ
وإنْ يك فَتْحُ الرُّهَا لُجَّةً ... فــاحلُها القُدْسُ والــساحل

وحقا عظم الأمل فى نور الدين أن يسترد للمسلمين القدس والمسجد الأقصى بل الساحل الشامى جميعه . ويحشد حملة الصليب فى سنة ٥٤٣ جيشا كثيفا لهم فى بقعة تسمى « يَغْرَى » ويسحق نور الدين محمود الجيش سحقا ذريعا ، وينشد ابن القيسرانى :

---

(١) بطوله : بفضله (٢) أصمى : أصاب

مظفرٌ فى بِزّعه ضَيْغَمٌ عليه تاج الملك معقودُ
وصارمُ الإسلام لأيَنْثَنِى إلا وشِلْوُ الكفرِ مقْدودُ[1]

ويدور العام ويحشد صاحب أنطاكية وحملة الصليب حشودهم عند حصن « إنّب » ولقيهم نور الدين فحقهم محقا . وقُتل فى المعركة صاحب أنطاكية البرنس العاتى ، ولم يفلت من القتل إلا من خبّر أهل أنطاكية من قومه بالاندحار والدمار . وجلجل ابن القيسرانى بصوته منشدا نور الدين على جسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية قصيدة رائعة استهلها بقوله :

هذى العزائم لا ما تدّعى القضُبُ وذى المكارمُ لاماقالت الكتبُ[2]
أغرتْ سيوفك بالإفرنج راجفةٌ فؤادُ روميّة الكبرى لها يَجِبُ[3]
غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضًا وكان دين الهدى مرضاتهُ الغَضَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْك مكتسبا من الملوك فنورُ الدين مُحتَسِبُ[4]
فانْهَضْ إلى المسجد الأقصى بذى لَجَبٍ يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقَبُ[5]

ولابن القيسرانى مدائح أخرى لنور الدين يردد فيها جهده وانتصاره الحربيين ضد حملة الصليب ومايأمله على يديه من رد بيت المقدس والساحل الشامى على أصحابها المسلمين . ودائما يحوطه بهالة إسلامية هو جدير بها ، فقد كان يحارب فى سبيل الله لايبتغى مغنما ، إنما يبتغى ماعند الله من الأجر والثواب ، حتى ليقول له ابن القيسرانى فى نفس هذه القصيدة السالفة .

إلا تكنْ أحدَ الأبدال فى فَلَكِ الـ ـمحوى فلا تَمارى أنك القُطُبُ

وكأنه يعده قطب تقوى وإنقاذ للشام وأهل الشام . ولم يعش ابن القيسرانى حتى يمجد بقية انتصاراته المجيدة على الصليبيين ، إذ توفى قبله بنحو عشرين عاما سنة ٥٤٨ . وله مدائح فى بنى منقذ وفى مجير الدين آبق صاحب دمشق . ويقول العماد إنه كان له معرفة بالمنطق وعلوم الأوائل وإنه كان يتصنع للجناس أحيانا غير أن ذلك قليل فى شعره ، فقد كان يطلب فيه النصاعة والسلاسة على غرار أستاذه ابن الخياط فهو تلميذه وخريجه وراوى ديوانه .

---

(١) الشلو : العضو وبقية الشىء . مقدود : مشقوق
(٢) القضب جمع قضيب : السيف القاطع
(٣) راجفة : نفختة مخيفة : يجب : يخفق
(٤) محتسب : يحتسب أجره على الله
(٥) ذولجب : الجيش . اللجب : الصياح والجلبة .

ابن[1] الساعاتى

هو بهاء الدين على بن محمد بن رستم الدمشقى خراسانى الأصل ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٥٥٣ وكان ماهرا فى صنع الساعات الفلكية ، وأنعم عليه نور الدين محمود إنعاما وافرا حين صنع الساعات التى وُضعت على باب الجامع الأموى ، وأتاح له ذلك ثراء ، نعم به ابنه على إذ شُغف بالفروسية وببعض ضروب اللهو مثل النرد والشطرنج . ومثل لداته حفظ القرآن صبيًّا واختلف إلى دروس العلماء والمؤدبين فى الجامع الأموى ، ويبدو أن ابن سعيد خلط بينه وبين أخيه فخر الدين إذ قال إنه حين شبَّ أرسل به أبوه إلى البديع الأسْطُرْلابى بآمد ليتقن صناعة الآلات الفلكية ، وكأنه لم يلاحظ أن البديع توفى قبل ميلاده بنحو عشرين عاما . وربما أرسله إلى أحد أولاده . ونراه بعد فتح صلاح الدين لآمد يمثل بين يديه مادحا له بقصيدة لامية سنة ٥٧٩ يقول له فيها :

لولا مساعى صلاح الدين ماصلحتْ شمُّ الممالك بعد الزَّيْغ والميَلِ
فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلولَه وعلى الآفاق فَلْيَطُل [2]

وتحققت سريعًا نبوته بفتح القدس ، ونراه بين من حفُّوا بصلاح الدين فى موقعته الماحقة : موقعة حِطِّين على حافة طبريَّة ، وله يهنئه بهذا النصر العظيم وماأنزل بحملة الصليب من ضربة قاصمة لم يفيقوا بعدها أبدًا ، إذ كُبَّت الكثرة منهم على وجوهها ، ووقع ملوكهم وصناديدهم فى أسر البطل العربى ، وله يقول :

جلَتْ عزماتُك الفتحَ المبينا وقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلام منه وصدَّقْتَ الأمانى والظنونا
فألمْ بالسواحل فهْى صورٌ إليك وألحِق الهامَ المتُونا [3]
وقلبُ القُدْس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مكتئبًا حزينا
أدرتَ على الفِرِنْج وقد تلاقتْ جموعهمُ عليك رَحَى طَحُونا

---

(١) انظر فى ابن الساعاتى وشعره وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٩٥ وعبر الذهبى ٥/١١ ومرآة الزمان : ٣٧٥ والغصون اليانعة لابن سعيد ص ١١٨ وشذرات الذهب ٥/١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٦٦١ ومقدمة ديوانه بتحقيق أنيس المقدسى (طبع المطبعة الأمريكانية - بيروت)

(٢) يطول : يفخر تيها

(٣) صور : مائلة وناظرة . الهام : الرءوس

ويذكر انتصارات صلاح الدين المتلاحقة على حملة الصليب فى بيسان وغير بيسان ، وتتراءى له مدن الساحل الشامى ، وهى تنتظر مخلصها ومنقذها من الظلمة الأشرار ، وإن القدس ليكاد يطير فرحا فقد أصبح وشيك الخلاص ، وفعلا لم تمض شهور حتى فُتحت أبوابه لصلاح الدين وعاد ، وعاد معه المسجد الأقصى إلى الإسلام والمسلمين ، وإنه ليصبح مبتهجا فرحا :

لقد ساغ فَتْحُ القدسِ فى كلِّ منطقٍ ... وشاع إلى أن أسمع الأسَلُ الصُّمَّا[1]
فليت فتى الخطَّاب شاهدَ فَتْحَها ... فيشهد أن السهمَ من يوسفٍ أصْمَى
حبَا مكةَ الحُسْنَى وثَنَّى بيثربٍ ... وأطرب ثَبْاك الضريحَ وماضَمَّا
وأصبح ثَغْرُ الدينِ جذلانَ باسمًا ... وألسنةُ الأغماد تُوسِعه لَثْمَا

لقد فُتح القدس عنوة ، وإن قعقعة السلاح لتكاد تسمع الصُّمَّ ، وقد عاد المسجد وعادت فيه الصلاة وتكبيرات المصلين وأذان المؤذنين . ويقرن فتح صلاح الدين للقدس فتحًا حربيًّا بفتح عمر بن الخطاب لها من قبل سلما . ويصور ابتهاج مواطن الوحى فى مكة ويثرب وابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح المبين ، وكيف عمت البهجة والفرحة القدس ثغر الدين ، وكأنما ألسنة الأغماد تعانقه وتقبله : تقبل كل ركن فيه . وله وراء هذه القصائد فى صلاح الدين ست عشرة قصيدة . ونراه بعد وفاته يلزم ابنه نور الدين صاحب دمشق فيمدحه بقصائد مختلفة ، غير أنه أخذ يتبرم بالشام وبمن حول نور الدين كما يتضح من قوله فى مدحة له :

أبكتْنىَ الأيامُ مذ ضحكتْ ... لى عن نيوب نوائبٍ عُصْلِ[2]
أفسدن خِلانى فمالىَ فى الـ ... سَرَّاء والضَّراء من خِلِّ

وكان هذا الشعور بأنه لم يعدله صديق وفىّ فى موطنه سببا فى أن يشدَّ رحاله إلى القاهرة فينزل بها ويتخذها دار مقام له حتى وفاته سنة ٦٠٤ وشعر فيها بأنه حياته أصبحت رغدة ناعمة وذكر ذلك مرارا فى شعره ، وكان قد وطد علاقاته بكثيرين من كبار رجال الدولة ، وفى مقدمتهم القاضى الفاضل وله فيه اثنتا عشرة قصيدة . وبمجرد أن وضع قدمه فى القاهرة أصبح من ندماء العزيز عثمان بن صلاح الدين حتى وفاته سنة ٥٩٥ وله فيه أكثر من ثلاثين مدحة . وربما كانت أيام العزيز أسعد أيامه بمصر . وهو يصور فى مديحه منادمته له ومجالس أنسه . وله مدائح فى السلطان

---

(١) الأسل : الرماح والسيوف .

(٢) عصل : معوجة كأنياب الأسد

العادل أخى صلاح الدين ، ولكن تنقصها الحرارة . وقد عاش بمصر يتملى بمشاهد الطبيعة وصوّر ذلك فى كثير من شعره ، وفى دار الكتب المصرية ديوان له خاص بمقطعات النيل يبدو أنه اختيارات من ديوانه ، وسنذكر بعضا من قصائده فى طبيعة دمشق وطبيعة مصر وأيضا بعضا من خمرياته .

الشهاب[1] محمود

هو محمود بن سليمان بن فهد الدمشقى الحنبلى ، ولد بدمشق سنة ٦٤٤ وعنى بتربيته أبوه وكان فقيها حنبليا ، فحفظ القرآن صبيا . وأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء الحنابلة والعلماء المختلفين مثل ابن مالك فى النحو وابن الظهير الإربلى فى الأدب وعليه تدرب فيه ، وكان يجلّه ويوده مودة مخلصة ، حتى إذا توفى سنة ٦٧٧ بكاه بقصيدة يقول فيها :

بكتْه معاليهِ ولم يُرَ قبلهُ كريمٌ مضى والمكْرماتُ نَوادبُهْ

وبرع محمود فى الأدب حتى فاق أقرانه مما جعل القائمين على ديوان الإنشاء فى دمشق يعيّنونه فيه وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وظل فيه حتى سنة ٦٩٢ إذ نقل إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة بعد وفاة محيى الدين بن عبد الظاهر ، ورأس هذا الديوان فى عهد السلطان بيبرس البندقدارى سنة ٧٠٨ حتى إذا توفى عبد الوهاب بن فضل الله العمرى صاحب ديوان الإنشاء بدمشق نُقل إلى وظيفته هناك وظل قائما عليها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ومعنى ذلك أنه كان أديبا كاتبا محسنا وظل يعمل بديوان الإنشاء فى دمشق والقاهرة نحو خمسين عاما . وله فى الكتابة الديوانية كتاب جيد يسمى « حسن التوسل » غير أننا رأينا أن نسلكه بين الشعراء لأنه كان شاعرا مفوقا كما كان كاتبا بارعا ، بل أهم من ذلك أنه الشاعر الشامى الوحيد الذى صور حروب الظاهر مع التتار وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع حملة الصليب تصويرا بديعا مما جعل ابن تغرى بردى يقتصر فى أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين .

وأول سلطان أشاد الشهاب محمود بانتصاراته الظاهر بيبرس وكان قد علم بحشود للتتار شرقى

---

(١) انظر فى الشهاب محمود وشعره فوات الوفيات لابن شاكر فى ترجمته ٢/٥٦٤ وترجمة الظاهر بيبرس ١/١٦٤ وترجمة الأشرف خليل ١/٣٠٥ والجزء السابع والثامن والتاسع من النجوم الزاهرة . انظر فهرس تلك الأجزاء والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٢٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٥/٩٢ والدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢/٢٣٦

الفرات فزحف إليهم من الشام بجيش جرار وخاض إليهم الفرات وفتك بجموعهم وكاد أن لا يبقى باقية منهم . وعاد الملك الظاهر إلى دمشق مؤزرا منصورا ، وأنشده الشهاب قصيدة طنانة يقول فيها :

سِرْ حيث شئتَ لك المهيمنُ جارُ ... واحكُمْ فطَوْعُ مرادِك الأقدارُ
خُضْتَ الفُراتَ بسابحٍ أقصى مُنَى ... هوجُ الصَّبا من نَعْله آثارُ
حملتْك أمواج الفُرات ومن رأى ... بحرًا سواك تُقِلُّه الأنهارُ (١)
رَشَّتْ دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطِرْ ... منهم على الجيش السعيد غبارُ

ولم يلبث التتار أن حشدوا جموعا لهم سنة ٦٧٥ وأيدتهم جموع من عسكر الروم ، وتعاقدوا على منازلة بيبرس ، وعلم بتلك الجموع فباغتها محيطا بها من كل جانب ، وقاتلت قتال الموت ولم يغن ذلك عنها شيئا ، إذ كان يقتحم مع جنوده البواسل الأهوال كالأسد الضارية إلى أن انكسر التتار والروم وفروا معتصمين بجبال وراءهم ، وأحاطت بهم العساكر المصرية وقتلت منهم مقتلة عظيمة وفى ذلك يقول الشهاب محمود :

كذا فلتكنْ فى الله تمضى العزائمُ ... وإلا فلا تجفو الجفونَ الصوارمُ (٢)
بجيشٍ تظل الأرضُ منه كأنها ... على سعة الأرجاء فى الضيق خاتمُ
يحيط بمنصورِ اللواء مظفَّرٍ ... له النصر والتأييد عبدٌ وخادم
مليكٌ به للدين فى كل ساعةٍ ... بشائر للكفار منها مآتمُ
مليكٌ لأبكار الأقاليم نحوه ... حنينٌ كذا تهوَى الكرامَ المكارمُ

وسنذكر فى جزء مصر أن الظاهر بيبرس استولى على كثير من بلدان حملة الصليب وحصونهم مثل قيسارية وصَفد والرملة ويافا وأنطاكية مزيلا منها مملكتهم ، ولم يلوّن ابن تغرى بردى شيئا من شعر الشهاب محمود فى هذه الفتوح الضخمة . ويسير السلطان قلاوون سيرة الظاهر فى منازلة الصليبيين ، ويستولى على طرابلس مملكتهم الثالثة التى أسسوها بعد مملكة بيت المقدس ، وبذلك تكون جميع ممالكهم التى شادوها سقطت من قواعدها ولم يبق فى أيديهم إلا عكا وصور وصيداء

---

(١) تقله : تحمله

(٢) جفن السيف : غمده . الصوارم جمع صارم : السيف القاطع

وبيروت وبعض حصون قليلة ، ولم يلبث قلاوون أن استولى منهم على حصن المرقب ، ومجّد فتوحه الشهاب محمود قائلا .

اللهُ أكبرُ هذا النّصرُ والظّفَرُ هذا هو الفتح لاماتزعم السِّيَرُ
هذا الذى كانت الآمال إن طمحتْ إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانْهَضْ وسِرْ واملك الدنيا فقد نَحلَتْ شوقا منابرُها وارتاحتِ السُّرر[١]
إن لم يُوفِّ الوَرى بالشكر مافتحتْ يداك فاللهُ والأملاك قد شكروا

وخلف قلاوون ابنه « السلطان الأشرف خليل » ، وكان بطلا شجاعا مقداما وكان مخوف السطوة قوى البطش ، وبمجرد أن استهلت سنة ٦٩٠ بعد جلوسه على عرش السلطنة بقليل تأهب لحصار عكا ، فجمع الصناع لعمل آلات الحصار وخرج بعساكره من الديار المصرية حتى أحاط بعكا فى شهر ربيع الآخر ، وكان المتطوعون أكثر من الجند ونصب عليها المجانيق ، ولم يلبث أن زحف عليها بجيشه الجرار ودخلها بعد قتال عنيف . وطلب حملة الصليب البحر المتوسط فتبعتهم الجنود الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل . وعَصَى الداويّة والإسْبتاريّة فى أول الأمر معتصمين بأبراج عالية ، غير أنهم اضطروا إلى التسليم ، ومن غريب الصدف أنّ فتحها تم فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ بالساعة الثالثة من النهار فى نفس الموعد الذى كانت قد سقطت فيه بيد حملة الصليب سنة ٥٨٩ . وفى هذا الفتح المبين ينشد الشهاب محمود قصيدة بديعة مهنئا « الأشرف خليل » مفتتحها لها بقوله :

الحمد لله ذَلّتْ دولةُ الصُّلُبِ وعزَّ بالترك دينُ المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمالُ لو طلبتْ رُؤياه فى النوم لاستحيتْ من الطلب
مابعد عكّا وقد هُدَّت قواعدُها فى البحر للشرك عند البرِّ من أربِ[٢]
لم يَبْقَ من بعدها للكفر مذ خَرِبَتْ فى البحر والبر مايُنْجِى سوى الهرب
ياْيومَ عكا لقد أنسيتَ ماسبقتْ به الفتوحُ وما قد خُطَّ فى الكتب
بُشْرَاك يا ملكَ الدنيا لقد شرفتْ بك الممالكُ واستعلتْ على الرُّتب

وتفتح أبوابها مدينة صور لجند السلطان ويسلمها إليهم حملة الصليب وتليها مدينة صيداء

---

(١) السرر : جمع سرير : العرش (٢) أرب : مطلب وأمنية

وقلعة جُبَيْل وعثليث وأنطرطوس وبيروت . ويدور العام ويستولى الأشرف على بقية حصونهم ويعد فتوحه إلى الشرق ويستولى على قلعة الروم غربى الفرات ، ويهنئه الشهاب محمود بهذا النصر المتوالى قائلا من مدحة طويلة .

وفتحٌ بَدَا فى إثر فتحٍ كأنما سماءٌ بدتْ تَتْرَى كواكبُها الزُّهْرُ

وعلى هذا النحو سجَّل الشهاب محمود فتوحات السلاطين الثلاثة : الظاهر بيبرس وقلاوون وخليل تسجيلا رائعا . وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها فى ديوان سماه : « أهنا المنائح فى أسنى المدائح » وهو مفقود ، وستنشد له قطعا فى حديثنا عن شعراء التصوف والمديح النبوى .

منجك[1] بن محمد بن منجك

شركسى دمشقى نشأ فى بيت نعمة ، فكان أميرا ابن أمير . ولد سنة سبع بعد الألف للهجرة وتوفى سنة ١٠٨٠ ونشأ مثل لداته الدمشقيين يعنى بالعلم والتعليم ، فحفظ صغيرا القرآن الكريم ، حتى إذا شبَّ عن الطوق أخذ يختلف إلى علماء دمشق ، آخذا القراءات على الشيخ عبد الرحمن العمادى والحديث النبوى عن الشيخ الشهاب أحمد الوفائى ، وأبى العباس المقرى . أما الأدب الذى شُغف به منذ نشأته فقد أخذه عن أحمد بن شاهين . وكان كريما مسرفا مبالغا فى إسرافه ، فأنفق ماخلَّفه له أبوه ، حتى إذا تَرِبَتْ يداه وضاقت به دنياه ولَّى وجهه نحو إستانبول ، ولكنه لم يحقق فيها ماكان يأمله فعاد إلى دمشق ، ولم يلبث أن خالط أصدقاءه القدماء . وله ديوان شعر جمعه فضل الله المحبى والد صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأمر من مفتى الدولة العثمانية : حسام زاده ، وله فيه مدائح كثيرة . وديوانه يحمل كثيرا من المدائح والغزليات والخمريات ، وأكثر مدائحه فى الفقها والعلماء من شيوخه وغير شيوخه ، وفى مقدمة من مدحهم شيخه فى القراءات عبد الرحمن مفتى دمشق وفيه يقول :

تَنْدَى أناملُه ويُشرِقُ وَجهُهُ فيجودُ بالآلاء والْلأْلاءِ
يقظٌ لأعقاب الأمور كأنما جُلِيَتْ عليه حقائقُ الأشياءِ

(١) انظر فى منجك ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبى ٣٣٢/١ وخلاصة الأثر ٤٠٩/٤ ونفحة الريحانة ، وقد طبعت المطبعة الحنفية بدمشق مختارات من ديوانه باسم ديوان منجك .

ومهابةٌ سادَ الولاةَ ولاؤها محفوفـــةٌ بجلالــــةٍ وبهاء
وشمائلٌ رقَّتْ كما خطرتْ على زَهْرِ الربيع بواكرُ الأنداء

والصياغة رصينة جزلة ، والألفاظ مختارة منتخبة . والمعانى مكررة فى المديح التقليدى ، غير أن الشاعر يحاول أن يخرجها إخراجا طريفًا على نحو مايتضح فى البيت الأول الذى جمع فيه بين الكرم والبشر المترقرق فى وجه الممدوح ، وبذلك جعله يجود بالآلاء والنعم كما يجود بلألاء الوجه وإشراقه ومايجرى فيه من بشر بهيج . والجناس بين الآلاء واللألاء جناس بديع . وواضح كيف لاءم فى البيت الثانى بين معناه وبين الممدوح وكان مفتيا لدمشق ، فوصفه بالفطنة ودقة الحدس ، وبالمثل البيت الثالث وماجمع فيه بين المهابة والجلالة والبهاء مع حسن الصياغة . وقل ذلك نفسه فى البيت الرابع فشمائل المفتى رقيقة عطرة كزهر الربيع باكرته النسائم والأنداء .

وولىَ القضاء فى دمشق والشام حسام زاده قبل توليه منصب الإفتاء فى الدولة العثمانية وعم فضله وبرُّه أدباءها ، وله ألف البديعى كتابيه : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » و « الصبح المنبى فى الكشف عن حيثية المتنبى » ويقول منجك فى تهنئة له بالعيد :

آلى الزمانُ عليه أن يُواليكا يُثْنِى عليك ولا يأتى بثانيكا
إذا سَطا فبأحكامٍ تنفِّذها وإن سَخَا فبِفَضْلٍ من مساعيكا
من ذا يُضاهيك فيما حُزْتَ من شرفٍ ومَنْ يُدانيك فى حِلْمٍ ويَحكيكا
أعيادُنا كلُّها يومٌ نراك بهِ وليلةُ القَدْرِ وَقْتٌ من لياليكا

والملاءمة بين معانى الأبيات ومنصب المفتى — وكان حينئذ قاضيا بدمشق — واضحة ، والمبالغة واضحة فى البيت الأول ، ولكن الشاعر خففها بالجناس بين « يثنى وثانيكا » وعاد إليها بقوة فى البيت الأخير ، وكان يكفيه أن تكون أيام لقائه للقاضى أعيادا ، ولكنه أبى إلا المبالغة المسرفة إذ جعل ليلة القدر وقبول الدعاء بها ممن يحظون برؤيتها وقتٌ من ليالى الشيخ . ولاريب فى أن صياغته ناصعة ، وأنه يغلب على شعره السلاسة ، مع مايوشيه به من جناس وطباق كما فى البيت الثانى . ودائما محسنات البديع عنده مقبولة ، وقلما يمازجها الثقل والتكلف . وله مدحة فى أستاذه المقرى — وهو صاحب نفح الطيب — ويذكر أنه قرأ عليه كتاب « الشفا » وهو فى مدح المصطفى سيد المرسلين ، وتموج المدحة بإجلاله لعلمه وتقواه ، يقول :

يقضى النهارَ بآراءٍ مسدَّدةٍ ويَقْطع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

وتلقانا وراء مدائحه فى الديوان وعند من ترجموا له ألغاز ، ومعروف أن الشعراء كانوا قد أخذوا يتلاعبون بها منذ القرن الخامس الهجرى ، وكثرت زمن المماليك والعثمانيين . وله غزليات وخمريات بديعة ، سنذكر منها بعض أبيات فى غير هذا الموضع .

٥

شعراء الفلسفة والحكمة

تشيع الحكمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى على نحو ماتجد عند زهير ، فقد ضمن معلقته طائفة كبيرة من الحكم ، وكأنهم أرادوا أن يصوروا لمعاصريهم خبرتهم بالحياة وإدراكهم لتجاربها حتى ينتفعوا بذلك أكبر نفع فى فهم شئون الدنيا وشئون الناس وأحوالهم فى سلوكهم . ومضى الشعراء بعد العصر الجاهلى يحاكون الجاهليين فى تغذية أشعارهم بتلك الحكم ، حتى إذا كان العصر العباسى أخذ الشعراء يضيفون إلى تراثهم من الحكم عتادا جديدا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، وأخذ النابهون منهم يعتمدون على عقولهم الخصبة فى استخلاص الحكم من خبراتهم بأحوال الدنيا والناس ، حتى ليبلغ بعضهم من ذلك أن تُحْصَى حكمه بالعشرات ، بل أحيانا بالمئات على نحو ماعرف عن أبى تمام الشاعر الدمشقى ، فقد أحصى بعض البلاغيين حكمه فوجدها ثلاثمائة وأربعة وخمسين بيتا سوى تسعين شطرا . وعاش المتنبى أكثر سنوات عمره فى الشام وبواديها وقد بلغ الذروة فى تضمين مدائحه حكما رائعة ، وأحصاها البلاغيون ، فوجدوها أربعمائة ، سوى مائة وثلاثة وسبعين شطرا . ولكثرة مايتناثر فى شعره من حكم أفردها بعض الأسلاف بالتأليف ، وحاول بعض النقاد الوصل بينها وبين حكم أرسطو ، وهى مبالغة مفرطة فى التصور إذ أكثر حكمه من ثمار خبراته بالحياة خبرة فذة . وظل شعراء الشام يستظهرون – بعد المتنبى وأبى تمام – الحكم فى جوانب من أشعارهم ، ولم تلبث الشام أن أهدت إلى الشعر العربى حكيما وفيلسوفا كبيرا ، هو أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩ وسنترجم له عما قليل .

وكان الطُّغْرائى قد لمع اسمه بنظمه لامية العجم ، وقد صاغها جميعا حكما وأمثالا، على طريقة مزدوجة أبى العتاهية التى سماها ذات الأمثال ، والتى ضمنها أربعة آلاف مَثل . ولامية الطغرائى لاتبلغ مبلغها فى حشد آلاف من الأمثال ، وليست من بحر الرجز وإنما هى من البسيط على شاكلة نونية البُسْتى المشهورة . وقد أصبح تقليدا عند كثير من شعراء الشام وغيرهم أن يخصوا بعض

قصائدهم برصفْ طائفة من الأمثال والحكم ، ولابن منير الطرابلسي قصيدة من هذا الطراز يقول فيها[١] :

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَهُ ... في منزلٍ فالحزمُ أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءلَ جَدَّ في ... طلب الكمال فحازه متنقِّلا
سَفَهًا لحلمك أنْ رضيتَ بمَشْرَبٍ ... رَنْقٍ ورزقُ الله قد ملأَ الملا
فارقْ تُرقْ كالسيف سُلَّ فبان في ... مَتْنَيْه ماأخفى القِرابُ وأخملا
للقَفْر لا للفقر هَبْها إنما ... مَغْناك ماأغناك أن تتوسَّلا

وهي أمثال وحكم يراد بها النصح لسلوك الشخص الكريم على نفسه في الحياة . فلا يرضى بمنزل هون ، بل يرحل ويتنقل ، فكمال البدر وعز الشخص في تنقله . ويزجر من يرضى المشرب الكدر ورزق الله قد طبق الملأ والأرض وملأها بالطيبات ، وهل يقطع السيف إلا بعد أن يُسَلَّ من قرابه أو غمده ، وعار مابعده عار لمن يتضرع الشخص ويتذلل لإنسان مثله ، ولأن يركب القفرَ المجدب الخراب خيرٌ من أن يقف بباب .

ودائما تلقانا هذه الحكم في تضاعيف قصائد الشعراء ومقطوعاتهم ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة منها طائفة جرت على ألسنة أطباء الشام ، ويلقانا منها أيضا منثورات في كتب التاريخ كقول الشيخ شمس الدين الحمصي[٢] :

الدهرُ كالطيف بُؤْساه وأنعمُهُ ... عن غير قَصْدٍ فلا تَحْمد ولاتَلُمِ
لاتسألِ الدهرَ في البأساء يَكْشفها ... فلو سألتَ دوامَ البؤس لم يدم

فكل شيء حائل وزائل ولادوام لضر أو نفع ولالبؤس أونعيم ، ولادخل للدهر في شيء من ذلك ، ولابأس مع رحمة الله فلا بؤس يدوم ولاضر يدوم . وربما كانت أروع قصيدة من قصائد هذه الأمثال والحكم في العصر المملوكي قصيدة عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة وهي في أكثر من سبعين بيتا . وفيها يقول[٣] :

---

(١) ابن خلكان ١٥٦/١

(٢) النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧

(٣) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة عيسى البابي الحلبي) ٣٠٦/١

اعتزلْ ذكرَ الأغانى والغزلْ وقُلِ الفَصْلَ وجانبْ مَنْ هزَلْ
واتقِ اللهَ فتقوى الله ما مازجتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَلْ
قاطعِ الدنيا فمن عاداتها تخفض العالى وتُعلى مَنْ سَفَلْ
لاتقُلْ أصلى وفصْلى أبدا إنما أصلُ الفتى ماقد حَصَلْ
مِلْ عن النمَّام واهجُرْهُ فما بلَّغ المكروه إلا مَن نَقَلْ

والقصيدة جميعها على هذه الشاكلة حكم وأمثال ونصائح غالية وكأنها أعلام تهدى الإنسان فى سلوكه الطريق القويم . ويظل الشعراء بعد ابن الوردى ينظمون مثل هذه الحكم أيام المماليك وأيضا أيام العثمانيين ، إذ نقرأ لبعض الشعراء حكما وأمثالا منثورة فى أشعارهم وتراجمهم ، كقول حسين بن أحمد الجزرى الحلبى المتوفى سنة ١٠٣٤ للهجرة[1] :

حاذِرْ عِداك الأقربين من الوَرَى فأضرُّها القُرَباءُ والقُرَناءُ
وتوقَّ من كيْد الحقود ولينِ ما يُبْدى فقد يُصدى الحسامَ الماءُ

ويذكر ابن معصوم لشاعر يسمى نجيب الدين على بن محمد العاملى رحلة أودعها أشعارا على طريقة ديوان الصادح والباغم لابن الهَبَّارية ومافيه من حكم ومعان خلقية تهذيبية ، ويسوق ابن معصوم طائفة من حكمه كقوله[2] :

المرء لايسلم من حاسدٍ أوشامتٍ فى اليُسْر والعُسْرِ

وتكثر الحكم أيضا فى كتاب نفحة الريحانة للمحبى ، وهى من قديم كثيرة فى الشعر العربى كما أسلفنا . وحرى بنا أن نقف قليلا عند أبى العلاء أكبر شعراء الحكمة والفلسفة لافى الشام وحدها بل فى العالم العربى جميعه . ونتلوه بكلمة عن منصور بن مسلم .

---

(١) ريحانة الألبا ١/١٢٢ (٢) سلافة العصر لابن معصوم ص ٣١٠

أبو العلاء[1] المعرِّى

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، ولد فى ربيع الأول سنة ٣٦٣ للهجرة فى بلدة تسمى «مَعرَّة النعمان» من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وإليها ينسب ، واشتهر بكنيته «أبى العلاء» وفى ذلك يقول :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَيْنٌ ... ولكنْ الصحيحَ أبو النُّزولِ

وأسرته تنحدر من قبيلة تَنوخ إحدى القبائل العربية الجنوبية ، وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى اعتلَّ علة الجدرى وذهب فيها بصره ، وكان يقول : «لاأعرف من الألوان إلا اللون الأحمر لأنى أُلبستُ فى الجُدرىّ ثوبا مصبوغا بالعُصْفُر ، لاأعقل غير ذلك» . وكان بيته بيت قضاء وعلم وشعر ، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم ، وألم بهم ياقوت فى ترجمته له بمعجم الأدباء وذكر لهم طرائف من أشعارهم . وطبيعى أن يقتدى بهم فيُكِبُّ بعد حفظه القرآن على كتب الدين الحنيف واللغة . وأيضا فإن فقده لبصره مبكرا جعله يُعنَى بطلب العلم . وتتلمذ على أبيه أولا ومَنْ فى بلدته من تلامذة ابن خالويه ، ولم يلبث حين أخذ ماعندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو فى نحو العشرين من عمره سنة ٣٨٤ . وحين بلغ الثلاثين من عمره سأل ربه إنعاما ، ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة والشهر إلا فى العيدين .

ورحل إلى بغداد فى أواخر سنة ٣٩٨ وبقى بها نحو سنة وسبعة أشهر ، وكان من أسباب عودته منها سريعا نشوب خصومة بينه وبين المرتضى العلوى أخى الشريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبى ، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه ، فعاد عجلا ، ووجدها قد لبَّت نداء ربها . وأخذ نفسه منذ

---

(١) انظر فى ترجمة أبى العلاء وشعره معجم الأدباء ١٠٨/٣ وتعريف القدماء بأبى العلاء (طبع دار الكتب المصرية) وفيه كل ما كتب عنه تقريبا فى المراجع القديمة ومن أهمه رسالة الإنصاف والتحرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم الحلبى وهى دفاع قوى عنه ونقى لما قيل من إلحاده . وانظر فيه كتاب تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين (طبع دار المعارف) وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف ٣٥/٥ وكتبنا : كتاب الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة) ص ٣٧٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٦٥ وفصول فى الشعر ونقده ص ١٠٧ وترجمته فى دائرة المعارف الإسلامية ومطالعات لعباس محمود العقاد ص ٧٠ وأبو العلاء المعرى للدكتورة عائشة عبد الرحمن ومقدمتها لتحقيقها لرسالة الغفران . وطبع له سقط الزند بشروح مختلفة واللزوميات ورسالة الغفران والصاهل والشاحج ورسائله بتحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة وكذلك بتحقيق الدكتور إحسان عباس . وانظر الحضارة الإسلامية لميتز ١١٠/٢ .

هذا التاريخ فى سنة ٤٠٠ بحياة زاهدة خشنة ملازما داره وبلدته لايبرحها ، وإلى ذلك يشير بقوله :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيثِ[1]
لفقدى ناظرى ولزوم بيتى وكَوْنِ النفسِ فى الجسمِ الخبيثِ

ثلاثة سجون أحاطت قضبانها به : سجن روحه فى جسده وسجن داره وسجن فقده لبصره ، وظل يفرغ نحو خمسين عاما لنظم زومياته ولتأليف كتبه الكبرى ، ومر بنا أن حلب تبعت مصر منذ سنة ٤٠٧ إلى سنة ٤١٥ وكان أول ولاتها للحاكم بأمر الله الفاطمى عزيز الدولة فاتك الوحيدى وله ألف أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج متحدثا فيه على لسان فرس وبغل ، وقد حققته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ونشرته دار المعارف ، ويقول ابن العديم إنه ألفه لفاتك بسبب حق على بعض أقربائه . وله أيضا صنع كتابه « القائف » وهو أمثال على طريقة كليلة ودمنة ، ولم يكد يتم الجزء الرابع منه حتى توفى فاتك سنة ٤١٣ فعدل عن إتمامه . وولى حلب بعد فاتك سَنَد الدولة الكُتامى سنة ٤١٤ وقدَّم له أبو العلاء الرسالة السَّنَدية فى مجلد واحد .

واعتقل صالح بن مرداس أمير حلب فى سنة ٤١٨ سبعين رجلا من المعرَّة هم مشايخها وأماثلها ، واجتاز صالح بالمعرة ، فخرج إليه أبو العلاء شافعا فيهم فقال له صالح : « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » . وعاد إلى داره وهو ينشد :

بُعثتُ شفيعا إلى صالحٍ وذاك من القوم رأىٌ فَسَدْ
فيسمع منِّىَ سَجْعَ الحمامِ وأسمع منه زئيرَ الأسَد

ومنذ حبس نفسه فى داره أصبح ملاذًا لطلاب العلم فى العالم العربى ، فهم يغدون عليه ويروحون يأخذون عنه كتبه وشروحها ، وبالمثل دواوينه وشروحها ، وكثيرا من كتب اللغة وفى مقدمتها كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام غير كتب لغوية أخرى كثيرة . ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خلق لايعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحُّر وديانات .. وكان له أربعة من الكُتّاب المجوِّدين يكتبون عنه مايكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه » . وعقد ابن العديم فى كتابه عنه المسمى « الإنصاف والتحرى » فصلا ذكر فيه مشاهير تلاميذه .

---

(١) النبيث : الخفى .

وكان أبو العلاء آية خارقة فى الذكاء وقوة الحافظة حتى قالوا إنه كان يلعب النرد والشطرنج ، وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره ، وقد تحول يعبُّ وينهل من ثقافات عصره حتى استوعبها جميعا سواء المترجم عن اليونانية من فلسفة وغير فلسفة ، أو المترجم عن الفارسية والهندية فكل ذلك مضافا إلى الثقافتين : الإسلامية والعربية تمثله أبو العلاء تمثلا حيًّا خصبا ، يرفعه إلى أعلى منزلة ، يتمثّل صاحبها التراث الإنسانى جميعه .

ومنذ سنّ الثلاثين اختار لنفسه صوم الدهر ماعدا أيام الأعياد كما أسلفنا ، واختار لنفسه معه حياة زاهدة ، وذكر ذلك فى شعره إذ قال إن طعامه العدس والتين أوكما يسميهما البلسن والبلس رافضًا ماوراءهما من طيبات الطعام ولذائذه ، إذ يقول :

يقنعنى بُلْسُنٌ يُمارَسُ لى   فإن أتتنى حلاوةٌ فَبَلَسْ

ويقول ناصر خسرو فى رحلته المسماة « سفرنامه » إنه زاره سنة ٤٣٨ فوجده فى سعة من العيش مما جعل بروكلمان يشك فى أنه عاش معيشة زاهدة . وهو قول مدفوع بإجماع من ترجموا له من القدماء : أنه كان يعيش معيشة زهد وتقشف ، حتى لنرى القفطى – وهو أحد من تحاملوا عليه ورموه بالإلحاد – يقول : لم يكن أبو العلاء من ذوى الأموال ، وإنما خُلّف له وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خشِنَ الملبوس والمآكل والزهدَ فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين دينارا قدّر منها لمن يخدمه النّصف ، وأبقى النصف الآخر لمئونته ، فكان أكله العدس – إذا أكل – مطبوخا وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) فى الشتاء وحصيرة من البَرْدِىّ فى الصيف ، وتَرَكَ ما سوى ذلك » . وربما كان هذا الدخل القليل من أسباب تركه لأكل اللحم ومستخرجاته من البيض واللبن ، لا أخذًا بمذاهب الحكماء ولا اتباعا لمذهب البراهمة الهندى ، كما قيل ، بل لضيق ذات يده وإشفاقا على الحيوان ، ولعله صنع ذلك مبالغة فى الزهد ورفض طيبات الحياة .

وكان أبو العلاء يحسّ بعمق آلام الإنسان فى دُنْياه ، ولعل ذلك ماجعله يعزف عن الزواج حتى لايرزق بولد يكابد من دنياه ما كابده وصرّح بذلك قائلا :

هذا جناهُ أبى علـــــىَّ وما جنيتُ على أحَدْ

ويقال إنه أوصى بكتابة هذا البيت على قبره حين أوشك على مفارقة الدنيا فى سنة ٤٤٩ . وله

رسائل كثيرة جمع منها أخيرا الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنى نحو أربعين رسالة ، ونشرها فى ثلاث مجموعات ، بدأها بالرسالة المنيحية التى أرسل بها إلى الوزير البغدادى أبى القاسم المغربى وتلاها بالرسالة الإغريضية المرسلة إلى الوزير نفسه . ويبدو أنه أرسل بالرسالتين إليه بعد فراره لعهد الحاكم بأمر الله من مصر ، وسنعرض لهذه الرسائل فى غير هذا الموضع . ولأبى العلاء أيضا رسالة الملائكة وهى فى مسائل التصريف ، طُبعت قديما بالقاهرة . ورسالة الغفران له مشهورة ، وسنلم بها وبكتابه الفصول والغايات فى حديثنا عن النثر . وله « ملقى السبيل » فى الوعظ والزهد ، وهو فيه يصوغ المعنى نثرا ثم يصوغه شعرا . وله ديوان صغير سماه الدّرعيات وهو أشعار فى وصف الدروع ، وقد طُبع ملحقا بديوانه الكبير سَقْط الزَّنْد .

ونقف قليلا لنتحدث عن السقط ثم عن ديوانه الكبير الثانى اللزوميات ، والسَّقط أول مايخرج من نار الزند وشَرَره ، سمى أبو العلاء ديوانه الأول بهذا الاسم إشارة إلى أنه أول مانظم وسمح به خاطره فشبهه بالسقْط . وهو يجمع شعر الصبا ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أبيه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وشعر الشباب وبعض شعر له فى الكهولة ومنه قصيدة نظمها فى رثاء أمه وأخرى أرسل بها شاكرا مثنيًا إلى خازن دار العلم ببغداد . وشرح أبو العلاء هذا الديوان وسمىّ شرحه « ضوء السقط » وقد طُبع فى مصر قديما . وطَبعتْ دار الكتب المصرية الديوان ومعه ثلاثة شروح : شرح لتلميذه التبريزى وشرح لأبى محمد البطليوسى الأندلسى وشرح لأبى الفضل قاسم الخوارزمى ، وهو فى خمس مجلدات كبيرة . والديوان يكتظ بالمديح والرثاء والفخر والنسيب والوصف وأكثره فى المديح ، وجمهوره فى مديح أشخاص خياليين ، وذكر ذلك فى مقدمته قائلا « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولامدحت طلبا للثواب وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستر بِغُفَّة (بُلْغَة) من قوام العيش » . ونفس ممدوحيه القليلين لم يوجِّه إليهم مديحه - كما قال - طلبا للثواب أو النوال وإنما هم بعض أصدقائه كتبوا إليه فرأى أن يحييهم شعرا ، وربما مدحهم شاكرا صنيعا لهم على نحو ماذكرنا من ثنائه على خازن دار العلم ببغداد واصفا عونه الحميد له فى أثناء تردده على تلك الدار ومكتبتها الكبرى المشهورة . وطبيعى أن يخلو هذا الديوان من الهجاء والخمريات ووصف الصيد . وهو فى الديوان - بعامة - يحاكى المتنبى ، وكان يرفعه فوق جميع الشعراء ، وشرَح ديوانه وسمَّاه معجز أحمد بينما سَمَّى شرحه لديوان أبى تمام : « ذكرى حبيب » وشرحه لديوان البحترى « عبث الوليد » ويفجؤنا فى الديوان فخر عنيف على نحو مانقرأ فى قصيدته :

ألا فى سبيل المجد ماأنا فاعل عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهذا الصوت القوى المفاخر المباهى بالمجد والعبقرية يكاد يختفى بعد ذلك من الديوان ، إذ يعود أبو العلاء إلى صوته الحقيقى : صوت اليأس من الناسّ والحياة والمعرفة بالدهر وتصاريف أيامه ولياليه . وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا ، ولعل ذلك بسبب فقده لبصره ، وأيضا بسبب تشاؤمه وماحمل من أثقال الدنيا دون أن يجد معينا . وقد شكا كثيرا من أنه لايجد فى الدنيا صديقا ولاأخا يُصْفيه الوداد ، مع كثرة بغضه للانفراد ، حتى ليقول :

ولو أنّى حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا لما أحببتُ بالخُلْد انفرادا
فلا هطلتْ علَىَّ ولا بأرضى سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا

ويبالغ أبو العلاء فى سوء ظنه بالناس فى نفس هذه القصيدة الدالية ، فيقول إن الجوزاء منزل عُطارد المنسوب إليه السِّلْم لو خبرت الناسَ خبرته وبلاءه وجرَّبتْ من كيدهم ماجرَّب وعرفت من خُبْث سرائرهم ما عرف لما طلعت عليهم ليلا ولاتراءت لهم مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم ، يقول :

فظُنَّ بسائرِ الإخوان شرًّا ولا تأمنْ على سِرٍّ فؤادا
فلو خبرتْهم الجَوْزَاءُ خُبْرِى لما طلعتْ مخافةَ أن تُكادا

ومضى يخفف حدة التشاؤم الأسود المعتم ببروق كثيرة من الفخر ، فكأنه فى السؤدد فوق السموات السبع رفعة وعلاء ، وإنه ليفلُّ نوائب الأيام وكوارثها وحده بقوته ومَضائه .
وفى رأينا أن أروع قصائد أبى العلاء فى سقط الزند مراثيه لأنها تنفصل من ذات نفسه ومن أهمها مرثيته لصديقه الفقيه .

غير مُجْدٍ فى مِلَّتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولاترنُّمُ شادى
وشبيهٌ صوتُ النَّعِىِّ إذا قيـ ـسَ بصوت البَشيرِ فى كل نادى

وواضح أنه يقول فى مطلعها إن البكاء الحزين كالغناء الفرح دلالتهما واحدة ، إذ سرعان ماتتحول البشارة بالمولود – مهما طالت حياته – صراخا عليه ، حتى لكأن الصوتين متشابهان أو مختلطان اختلاط شجو الحمامة فلا يدرى السامع أتبكى محزونة أم تغنى مبتهجة . ويمضى

أبو العلاء فى مثل هذه الأفكار العميقة طالبا من قارئه أن يخفف من وَطْء أقدامه على الأرض . لأن ترابها من أديم آبائه وأجداده ، وكأن الأرض مقبرة كبرى ، وكم من لحدٍ فيها يضحك من تزاحم الأضداد فيه بين صالح وطالح . ولايلبث أن يقول إن الحياة كلها تعب وعناء وشقاء لاضفاف له ، وإن الحزن على الميت والفجيعة فيه لأضعاف السرور ساعة ميلاده . ولأبى العلاء مرثية ثانية يرثى بها صديقا من أبناء عمومته ، وهى تكتظ بالحكم من مثل قوله :

لو عرفَ الإنسانُ مقدارَهُ لم يَفْخَرِ المولى على عَبْدِهِ
أضحَى الذى أُجِّلَ فى سِنِّهِ مثلَ الذى عُوجِل فى مَهْدِهِ
ولا يبالى الميّتُ فى قبرِهِ بِذَمِّه شُيِّعَ أم حَمْدِهِ
والواحدُ المُفْرَدُ فى حَتْفِهِ كالحاشد المكثِرِ فى حَشْدِهِ
ورُبَّ ظمآنَ إلى مَوْرِدٍ والموتُ لو يعلم فى وِرْدِهِ

وديوانه الثانى اللزوميات أو لزوم مالايلزم هو الأهم لأنه يحمل فلسفته أو تفكيره الفلسفى بجميع أسسه وشعبه ، وقد تكلف فيه – كما يقول فى مقدمته – ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم جميعها ، والثانية أن رويَّه يجىء بالحركات الثلاث ثم بالسكون ، والثالثة أنه التزم مع كل روى فيه شيئا لايلزم من باء أوتاء أو غير ذلك من حروف . وقد أوضحنا فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى أنه أضاف إلى هذه الكلف الثلاث كلفًا كان يشغل بها الفراغ الطويل الذى نظم فيه اللزوميات إذ امتد الى نحو خمسين عاما . ومن هذه الكلف الدائمةُ ومنها العارضةُ أما الدائمةُ فاستخدامه للفظ الغريب وللجناس وقد التمس فيه ضروبا من التعقيد ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، إذ يجانس تارة بين القافية وكلمة فى البيت وتارة ثانية بينها وبين أول كلمة فيه وقد يضيف إليها حرفا أو أكثر من الكلمة التالية ليستتم نسق الجناس . وبجانب هاتين الكلفتين الدائمتين فى اللزوميات نجد كلفا عارضة من تصنعه الواسع لألفاظ الثقافات المختلفة ، بحيث يُعَدُّ أول من وسَّع استعارة الشعراء لاصطلاحات العلوم والفنون فى أشعارهم .

ومع كل هذه الكلف والصعوبات التى ضيَّق بها المرات إلى قوافى الديوان استطاع أن ينظم مجلدين ضخمين من الشعر ، ضمنها فلسفته أو تفكيره الفلسفى المتشائم وهو تفكير شُغِل فيه بإنسان عصره والإنسان عامة وبالقضية التى طالما شغلت كبار المفكرين قضية الشر الذى يُصَب على الإنسان والحياة الإنسانية صَبًّا دون أن يعرف أسبابه ودون أن يستطيع له دفعا أو ردًّا . ويتسع به

التفكير فى شرور الحياة الإنسانية وآلامها ويستولى عليه تشاؤم لا أول له ولا آخر ، كما يستولى عليه يأس يثقل عليه ثقلا طويلا ويملأ نفسه شقاء وعناء . وإذا كانت الحياة على هذا النحو من الشر ففيم إذن تلقى الأبناء لها من آبائهم وفيم الزواج وهى شر متصل ، شر يؤذن دائما بالكوارث والخطوب وتلاحق الفواجع والنكبات ، ولا منقذ ولا مخلص :

وهل يأبقُ الإنسانُ من مُلْك ربِّهِ ويخرجُ من أرضٍ له وسماء

إنه أسير شرور الحياة وهو لا يستطيع منها فكاكا ولا خلاصا ، وحرىٌّ به أن لا يتخذ ولدا حتى لا يَرْمى به فى أتون هذه الشرور المهلكة . ولا تشغل أبا العلاء فى لزومياته الشرور الكبرى التى تقع دائما على عاتق الإنسان بل تشغله أيضا الشرور الصغرى التى تحيط بإنسان عصره ، وأى شرور ؟ شرور الحكم الفاسد لمصر والشام : حكم الفاطميين الذين أحاطهم دعاتهم بهالة قدسية ، حتى زعموا أن قدرة الله انتقلت إليهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولجوا فى نعتهم بصفات الله حتى آمنت طائفة فى زمن أبى العلاء بتجسد الألوهية فى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى .

وهذا البهتان فى العقيدة كان يروِّج له دعاتهم وخطباؤهم فى المساجد ، وفى رأينا أنهم المقصودون بحملة أبى العلاء على علماء الدين فى أيامه بمثل قوله :

نادتْ على الدين فى الآفاق طائفةٌ يا قومُ من يشترى دينًا بدينارِ
جنَّوا كبائرَ آثامٍ وقد زعموا أنَّ الصغائر تجنى الخُلْدَ فى النار

وهو يتهمهم بأنهم باعوا باتباعهم المذهب الفاطمى دينهم بثمن بخس دراهم معدودة . وكما حمل على علماء الدين المروِّجين للعقيدة الفاطمية حمل على الصوفية لقولهم بالحلول ، وسخِر كثيرا من ذكرهم وتواجدهم فيه ، وسماه رقصا ومن قوله فيهم :

تزيَّوا بالتصوف عن خداعٍ فهل رُزْتِ الرجالَ أو اعتميتِ[1]
وقاموا فى تواجدهم فداروا كأنهمُ ثمالٌ من كُمَيْتِ[2]

وهاجم الحكَّام عامة الذين يرهقون الشعب بضرائب فادحة ، دون أن يؤدوا بها أى نفع له أو أى مصلحة ، وفى ذلك يقول :

---

(١) راز : اختبر ، اعتمى : اختار (٢) الكميت : الخمر ، ثمال : سكارى .

وأرى ملوكاً لاتحوطُ رعيَّةً فعلامَ تُؤخَذُ جِزْيَةٌ ومكوسُ

ويقول فيهم :

ظلموا الرعيَّةَ واستجازوا كَيْدَها فعَدَوْا مصالحهَا وهمْ أُجَرَاؤُها

فهم أجراء عند الشعب يأخذون رواتبهم من كدّه ويعتصرونها من عرقه ، ومع ذلك يظلمونه ويبغون عليه ويكيدون له ويأتمرون به . ويتسع بحملته ، فيشمل بها الناس من حوله فلا أخ كما مر بنا ولا صديق ، وقد شاع الطمع والحقد والمكر والخديعة والخلق الزرىّ المشين . ولم ينس المرأة فى إعلان هذا السخط ، فقد وصفها بأنها لاتتصف فى الود ولاتفى للعهد ، ولم ينصح بتعلمها ، فحسبها فى رأيه – الغزل والنسيج والرَّدْن أو الحياكة :

علِّمُوهنَّ النَّسْجَ والغزل والرَّدْ نَ وخَلُّوا كتابةً وقراءه

وإنما دفعه إلى ذلك – فى رأينا – فساد المجتمع فى بعض جوانبه . وقد دفعه شعوره بالرحمة على الفقراء لزمنه والرأفة بهم أن دعا إلى المساواة بين الناس فى السرّاء والضرّاء ، يقول :

كيف لاَيُشْرِكُ المُضِيقِينَ فى النعـ ـمةِ قومٌ عليهمُ النَّعْماءُ

وكل هذه جوانب تمس إنسان عصره وما كان يريد له من حياة كريمة ، وليس هذا هو الشطر الأكبر فى اللزوميات ، فقد أودعها كما مرَّ بنا آنفاً كل ما شعر به من آلام الإنسان وأصابه وأوجاعه فى دنياه إزاء مايُصَبُّ عليه من شرورها وهمومها وأفاعيها التى تلدغه صباح مساء .

ويُشيع أبو العلاء فى أشعاره حيرة تتراءى ظلالها فى اللزوميات مما جعل بعض القدماء والمعاصرين يقولون إنه كان يشك فى كل شيء ويتخذ الشك عقيدة له – كما اتخذه السوفسطائيون – ويسلطه على ما حوله حتى على الديانات ، واستدلوا على ذلك بمثل قوله :

هفَتِ الحنيفةُ والنصارى مااهتدتْ ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضَلَّلَهْ

اثنانِ أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لاعَقْلَ لَهْ

والبيتان فى هجاء أصحاب هذه الديانات لزمنه لا الديانات نفسها ، إذ توزعوا أيامه فرقاً كثيرة ، وكل فرقة تكفِّر أختها فى داخل الدين الواحد ، وكان المذهب الإسماعيلى الفاطمى قائماً فى مصر ويدعو له الحكام وعلماء الدين فى الشام . وطبيعى أن يعجب ممن يدعو لهذا المذهب المسرف

فى الغلو غلوًّا شديدًا ، بل المسرف فى الانحراف عن الإسلام انحرافا مفرطا . وقد استعرضنا فى مقالنا عن التفكير الفلسفى فى شعر أبى العلاء بكتابنا « فصول فى الشعر ونقده » الأشعار التى قالوا إنه هاجم بها الديانات ووصموه من أجلها بالإلحاد وأثبتنا أن بينها منحولا كثيرا انتحله عليه خصومه . ويبدو أن أيادى شريرة امتدت إلى اللزوميات قديما وأدخلت عليها فسادا غير قليل ، يدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نقرأ فيها :

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا واستوتْ فى الضلالةِ الأديانُ

والبيت على هذا النحو يلصق تهمة الالحاد بأبى العلاء ، إذ ينسب الضلالة إلى جميع الأديان ، غير أننا إذا رجعنا إلى كتاب شرح المختار من لزوميات أبى العلاء لابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ بعد أبى العلاء بسبعين عاما وجدناه ينشده على هذا النمط .

قد ترامتْ إلى الفساد البَرَايا ونهتنا – لو نَنْتَهى – الأديانُ

ورواية البطليوسى للبيت أوثق من رواية اللزوميات المطبوعة لأنها أقدم من مخطوطاتها التى اعتمدت عليها وأيضا من النسخ الخطية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، مما يدل بوضوح على أن تحريفات [١] مقصودة لبعض ذوى الأهواء الملحدين أدخلت على اللزوميات من قديم . ومن المؤكد أنه أضيفت إليه بعض أشعار الزنادقة [٢] مثل ابن الراوندى.وقرأ بعض المعاصرين عنده أبياتا ظنوا منها أنه يؤمن بقدم المادة والزمان والكواكب وخلودها مخالفا بذلك رأى المتكلمين المسلمين فى حدوثها جميعا وأنها ليست قديمة فلا قديم سوى الله ، وهى فى واقع الأمر أبيات شُبِّهت عليهم من مثل قوله :

أرى زَمَنًا تقادم غَيْرَ فانٍ فسبحانَ المهيمنِ ذى الكمالِ

وقوله :

ياشُهْبُ إنك فى السماء قديمةٌ وأشرتِ للحكماء كلَّ مُشارِ

---

(١) أشار د . حامد عبد المجيد محقق شرح البطليوسى فى مقدمته إلى أن المختار فيه من اللزوميات يصحح بعض ماحرِّف من شعر أبى العلاء ووُضع عليه واستشهد على ذلك بالبيت المذكور .

(٢) انظر «أبو العلاء المعرى» للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٢٣٤ وراجع معاهد التنصيص (طبعة بولاق) ص ٧١ وقارن بإنباه الرواة للقفطى ٧٥/١ .

وهو فى البيت الأول جعل الله مسيطرا على الزمان مشيرًا بذلك إلى أنه محدث من صنعه ، وكل ماهنالك أنه قال إن الزمان تقادم أى تعمق فى القدم ، وجعل الشهب فى البيت الثانى قديمة وهو لايقصد بالقدم فى البيتين ما يناقض الحدوث إنما يقصد مايناقض الحداثة بشهادة قوله :

وليس اعتقادى خلودَ النجومِ ولا مذهبى قِدَمَ العالمِ

فهو لا يقول بخلود الأفلاك والكواكب والمادة ولابقدمها كما كان يقول فلاسفة اليونان . وإنما دخل الخطأ على بعض الباحثين من فهمهم القدم فى مثل البيتين السالفين – كما قلنا – بأنه يعنى نقيض الحدوث وهو إنما يعنى نقيض الحداثة ، وقد بسطنا ذلك فى مقالنا عن أبى العلاء بكتابنا المذكور آنفا ، وأوضحنا أنه فى أشعاره مؤمن إيمانا عميقا بالديانات السماوية والدين الحنيف ورسالته السامية ، كما أوضحنا أن هذا الايمان أصل أساسى من أصول تفكيره الفلسفى العلائى ، وأنشدنا له طائفة من الأشعار التى تصور بوضوح إيمانه بالتكاليف الشرعية وبالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكل مايتصل به من بعث ونشور من مثل قوله :

أقيم خَمْسى وصومَ الدهر آلَفُهُ وأدمن الذكرَ أبكارًا بآصالِ

فهو صائم الدهر ، فرض على نفسه الصوم حين بلغ الثلاثين من عمره كما مر بنا ، وهو دائما يتجه إلى ربه مصليا الصلوات الخمس دون أى انقطاع واصلا صلاته بالصيام والدعاء والذكر والتبتل والاستغفار . ويعترف مرارا بالبعث والحساب وأن ملكين يكتبان عن يمينه وشماله حسناته وسيئاته ، يقول :

قد راعنى للحساب ذكرٌ وغرَّنى أنه بَعيدُ
وعن يمينى وعن شمالى بصحبتى حافظٌ قَعِيدُ

وهو يستلهم فى البيتين قوله تعالى : (إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رَقيبٌ عتيد) . ويعترف بحساب القبر وسؤال الملكين منكر ونكير فيه للناس ، يقول مخاطبًا الليالى :

خَلِّصينى من ضَنْكٍ ما أنا فيهِ واطْرَحينى لمُنْكَرٍ ونَكيرِ

ويشعر فى عمق بأنه مقصِّر مها قدم لربه من عبادة ، ويأمل دائما فى عفوه ومغفرته يوم النشور ، يقول ضارعًا :

ومـغـفـرةُ اللهِ مـرجوّةٌ إذا أصبحتْ أعظمى فى الرِّمَمْ
ويـالـيـتنى هـامدٌ لا أقومُ إذا نهضوا يَنْفُضون اللِّمَمْ
ونادَى المنادى على غَفْلةٍ فلم يَبْقَ فى أُذُنٍ من صَمَمْ
وجاءتْ صحائفُ قد ضُمِّنَتْ كَبائرَ آثامِهم واللَّمَمْ (١)
وليتَ العقوبةَ تَحْرِيقةٌ فصاروا رمادا بها أو حُمَمْ (٢)

فهو آمل فى غفران الله . ومع حياته الزاهدة الناسكة يخاف لقاء ربه حتى ليتمنى أن لايبعث يوم القيامة (يوم يُنادِ المُنادِ من مكان قريب) كما جاء فى سورة قٓ ، فيهبُّ الناس من رقادهم . ويقول أبو العلاء إنهم يسمعون النداء أو الصيحة بآذانهم ، ويستلهم مثل قوله تعالى : (وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه فى عُنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) . ومايلبث أن يقول ليت العقاب يوم القيامة كان تحريقا يصبح العصاة به رمادًا أو حمما فيستريحون ، ولكنه عذاب خالد ، وقد تكرر ذلك فى القرآن كثيرا مثل : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ولعل فى ذلك مايسقط كل ما قاله عنه بروكلمان فى ترجمته له من أنه كان لايعترف برسالة الإسلام وأيضا ماقاله بعض المعاصرين عنه من أنه كان منكرا للنبوات جاحدًا بالرسالة المحمدية ، وكيف يقال عنه إنه كان يجحدها ، وله قصيدة رائعة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله بعد إشادة رائعة به وبرسالته النبوية :

فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ وما فَتَّ مسكًا ذِكْرُه فى المحافلِ

واقترن ذلك عنده – كما مر بنا – بالزهد والتقشف وهو فيهما يصدر عن الإسلام وروحه ، وحقا كان متشائما تشاؤما عميقا يملأ حنايا نفسه ، ولكن كان لايزال يومض له بريق الأمل فى رحمة ربه وعفوه ، يقول :

وما أنا يائسٌ من عَفْوِ ربِّى على ماكان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وذهب بعض المعاصرين إلى أنه اتخذ العقل إمامًا له ، لايثق ولايستسلم ولا يلقى مقاليده إلا إليه ، لمثل قوله :

كذَب الظنُّ لاإمامَ سوى العَقْـ ـلِ مشيرًا فى صُبْحِهِ والمساء

---

(١) اللمم : الذنوب الصغيرة (٢) الحمم : ما أحرق من خشب ونحوه

وظنوا أن فى ذلك مايتصل من بعض الوجوه لإنكاره – فى رأيهم للنبوات ، وفاتهم أنه متابع فى تمجيده للعقل واعتزازه به للمعتزلة وقد مرت بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أبيات بشر بن المعتمر المعتزلى الرائعة فى تمجيد العقل ، ومازال المعتزلة يشيدون به حتى نفذ الجُبَّائى وابنه أبو هاشم إلى إثبات شريعة عقلية بجانب شريعة الوحى السماوى وهى لا تخالفها بل تشهد لها وتسندها . وأبو العلاء يتابع الجبائى وابنه ، وكان يخالفهما الأشعرى ، ولذلك حمل عليه أبو العلاء فى رسالة الغفران . وكان – مثل المعتزلة – يفسح للظن ، إذ الظن أساس المعرفة وأساس مايصل إليه الإنسان من اليقين وفى ذلك يقول :

أما اليقينُ فلا يقينَ وإنما أقصى اجتهادى أن أظنَّ وأحْدِسا

فمبلغ علمه الوصول إلى الظن ، وهو بذلك يتفق مع المعتزلة القائلين بأن كثيرا من التكاليف العقلية والشرعية مرجعه فى الاجتهاد إلى الظن .

ويذهب بعض دارسى أبى العلاء إلى أنه كان يؤمن بالجبر مكرِّرا أن الإنسان يدخل الدنيا كارها ويخرج منها كارها ، يقول :

خرجتُ إلى ذى الدار كَرْهًا ورحلتى إلى غَيْرِها بالرَّغْم واللّهُ شاهدُ

وأبو العلاء إنما كان يؤمن بالجبر فى حياته وموته ووجوده فكل ذلك يحدث بإرادة الله ولادخل لإرادة الإنسان فيه ، إذ لا نخرج إلى الدنيا اختيارا ولانرحل عنها اختيارا ، وهو مالاينكره عليه أحد من القائلين بحرية الإرادة للإنسان إذ يريد بها المعتزلة – وهو معتزلى مثلهم – إرادة الأعمال والأفعال ، ويقدِّم على ذلك دليلا قاطعا حاسما قائلا :

إن كان مَنْ فعل الكبائر مُجْبَرًا فعقابُه ظلمٌ على مايفعلُ

وهو بذلك ينكر الجبر صراحة فيما يقترف الإنسان من كبائر ، ويرتب أبو العلاء عليه – عند القائلين به – نسبة الظلم إلى الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو بذلك يصدر عن فكرة المعتزلة القائلة بوجوب العدل على الله كما يصدر عن فكرتهم أن الإنسان حر تام الحرية فى أفعاله وتصرفاته أما ما وراء ذلك من الأعمال الكونية فخاص بالله وارادته العليا ولذلك يقول :

لا تَعِشْ مُجبَرًا ولاقَدَرِيًّا واجتهدْ فى توسُّطٍ بَيْنَ بَيْنا

لمذهبه فى حرية الإرادة مذهب المعتزلة ومذهبه فيما يخرج عن إرادة الإنسان من نظام الكون والوجود مذهب الجبر ولايخالفه معتزلى فى ذلك ، لأن أحدا لايستطيع أن يقول إنه يولد باختياره أو يموت باختياره ، وإنما الجدل بين الجبرية والقدرية فى إرادة الإنسان إزاء تصرفاته وهل هو حر مختار يتصرف فى أفعاله وأعماله بمشيئته أو هو كريشة فى مهب رياح القضاء والقدر تسيِّره كما تريد . واختار القدرية والمعتزلة الرأى الأول ، وهو مااختاره أبو العلاء بين ما اختاره من الأفكار الاعتزالية وقد صرَّح مرارا بما قاله المعتزلة من تنزيه الله عن التجسيد والشبه بالمخلوقات :

ولعل ماأسلفنا من الحديث يوضح فى إجمال كيف كان أبو العلاء فيلسوفا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكيف أن فلسفته كانت تقوم على تشاؤم حاد يُرَدُّ إلى فقده لبصره صبيا وإلى ما أطبق على المجتمع لزمنه من شرور ومن حكم فاسد ، كما تُردّ إلى إحساسه العميق بآلام الإنسانية التى ملأت قلبه لوعة ، مما جعله مفكرا إنسانيا عظيما . هذا جانب فى فلسفته ، وجانب ثان استمدَّه من الدين الحنيف ومافيه من دعوة إلى الزهد والتقشف والإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه وتكاليفه الشرعية واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب ، مع الاعتقاد بحدوث الكون وكلّ مافيه من مادة وزمان وأفلاك وكواكب ، فالله خالق الكون ومبدعه قال له : كن فكان . وجانب ثالث فى فلسفته استمده من الاعتزال ومافيه من تمجيد العقل وتقديسه ، ومن وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيد ، ومن الإيمان بحرية الإرادة للإنسان وأنه حر كامل الحرية فى أفعاله الشريرة الآثمة والخيِّرة الطيبة .

منصور[١] بن المسلم

هو منصور بن المسلم التيمى الحلبى المعروف بالدُّمَيك وبابن أبى الخُرْجَين ، ولد بحلب سنة ٤٥٧ وبها نشأ وحفظ القرآن كعادة لداته واختلف إلى شيوخها ، وشُغف خاصة بالعربية وأساتذتها ، فتزود منها خير زاد ، وأنس من نفسه رغبة فى تعليمها وانتقل عن حلب وسكن دمشق ، وتحول بها مؤدبا يعلم الصبيان فى مسجد الرماحين وغيره ، وظل فى هذا العمل يشغل به حياته حتى توفى سنة نيف وعشرين وخمسمائة . وكان يتقن العربية ، مما جعله يصنف كتابا فى الرد على ابن جنى فى كتابه « إعراب الحماسة » ويقول مترجموه إنه دلّ فيه على تعمق فى العربية وجودة

---

(١) انظر فى منصور بن المسلم الخريدة (قسم الشام) ١٦٩/٢ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٤/١٩ وإنباه الرواة للقفطى ٣٢٦/٣

غَوْص . ويقول ياقوت كان له ديوان شعر وقفت عليه بخطه الرائق فوجدته مشحونا بالفوائد النحوية ، وقد شرح ألفاظه اللغوية واعتنى بإعرابه فدلَّ على تبحره فى علم العربية » . وروى العماد الأصبهانى فى الخريدة طائفة من شعره ، بينها غزل كثير يدل على رهافة حسه ودقة شعوره من مثل قوله :

أأحبابنا إن خَلَّف البَيْنُ بعدكم قلوبًا ففيها للتفرُّقِ نيرانُ
رحلتم على أن القلوبَ ديارُكم وأنتمُ فيها على النَّأْيِ سُكَّانُ

ونمضى معه فى هذا الغزل الملتاع وإذا هو يذكر غربته فى دمشق ، وينتقل من الغزل إلى سرد بعض خبرات له فى الحياة ، مما تعمق نفسَه فى غربته الطويلة عن ملاعب صباه وشبابه وعن مجالس إخوانه وخلاَّنه ، يقول :

وماباختيارِ المرء تَشْعَبُ نِيَّةٌ فَتَبْرَحُ أوطارٌ وتَنْزح أوطانُ (١)
عسى موردٌ من ماء جَوْشَنَ نَاقِعٌ فإنى إلى تلك الموارد ظمآنُ
وما كلُّ إنسان ينال مُرَادَه ويُسعدُهُ فيا يحاول إمكانُ
وعيشُ الفتى طعمان حُلْوٌ وعَلْقَمٌ كما حالُه قِسْمان : رزقٌ وحِرْمانُ

وهو يألم لغربته ونزوحه عن وطنه ، ويتمنى جَرْعة من ماء الآبار فى جبل جوشن المشرف على حلب ينقع بها لهيب ظمئه إلى موطنه ودياره . ويسوق ذلك فى عبارات عامة تحيل البيتين الأول والثانى حكمتين بديعتين ، وكأنه يريد أن يعزى نفسه فينظم الحكمتين التاليتين ، فليس كل إنسان تتحقق مناه ويعيش سعيدا ، بل كان إنسان يذوق الحلو والمر فى حياته كما يذوق الرضا والحرمان .
وينتقل فى قصيدة أخرى بالغزل أيضا ومايلبث أن يفضى إلى الحكم قائلا :

رأيتُ الفتى يأتيه ما لا يناله بِسَعْيٍ ولو أَنْضَى الرَّكائب والرَّكْبا (٢)
ومَنْ رام إدراك المُنَى بفضيلةٍ فقد رام أمرًا ليس يدركه صعبا
ويذهب بالودِّ المِراءُ ويَمْتَرى حَفائظَ لاتبقى على صاحب صَحْبا (٣)
توقَّ قليلَ الشرِّ خوفَ كثيرِهِ ولاتحقرنَّ النَّزْرَ رُبَّتَما أَرْبى
فإن صغيرَ الشىء يكبرُ أمرُهُ وكم لفظةٍ جَرَّتْ إلى أهلها حَرْبا

---

(١) تشعب : تبعد

(٢) أنضى : أتعب . الركائب : الابل

(٣) يمترى : يستثير : حفائظ جمع حفيظة وهى الغضب والحمية .

وهو يتكلم فى أول الأبيات عن الحظ ومايغدقه على الإنسان ، دون سعى ، من منى لو أضنى فيها الركائب والركب مانالها أبدا ، ومها تذرع لها من فضيلة وخصال طيبة مادنت قطوفها منه بحال ، وينصح الأصدقاء أن لاينشب بينهم مراء ولاجدال مقيت لأنه يثير حفائظهم ومكامن الغيظ منهم ويقطع مابينهم من صلات . ويوصى الإنسان أن يتجنَّب قليل الشر حتى لايقع فى وهاده الكثيرة السيئة ، وأن لايظنه – مها صغر وتضاءل – شيئا لايؤبه به ، فقد ينمو كما تنمو النار من بعض الشرر ، وكم من شر قليل حقير نما واستفحل واستعصى علاجه ، وكم من لفظة حمقاء أوقدت نار حرب مستطيرة . وينثر فى قصيدة ثالثة طائفة من الحكم كقوله :

وقد يُحْبِبُ الإنسانُ مافيه نَقصُهُ ... ويُبْغض مايَنْمِى به ويزيدُ
نريد من الأيام تَصْفو من الأذى ... وتَصْفو ولايَقْضى بذاك وجودُ [1]
وكيف نروم العيش خِلْوًا من القَذى ... وللماء من بعد الصَّفاء ركود
إذا كان يُعْطَى المرءُ مايستحقُّه ... تساوى شقىٌّ فى القَضَا وسعيد
ومن جَرَّب الدنيا على سوء فِعْلها ... يعيبُ ذميمَ العيش وهْو حميد

وقد ألهمه البيت الأول قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم) ويقول إننا نريد من الأيام صفاء من الشوائب وأن تكون صافية سابغة رغدة ولاتقضى بذلك سنة الوجود ، حتى فى الطبيعة ، فالماء يركد بعد صفوه وحركة دائبة . ولو أن كل شخص نال ماتمنى لخالف ذلك سنة الحياة وأن الناس منهم شقى وسعيد ، وجدير بمن خَبر الدنيا أن يرضى بميسور عيشه وأن يصبح فى رأيه حميدا لاكريها مذموما . ومن طريف شعره .

الناسُ كالأرض ومنها هُمُ ... من خَشِنِ اللَّمْسِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ توقَّى الرِّجْلُ منه الأذى ... وإثمِدٌ يُجْعل فى العين [2]

وهو تقسيم بديع للناس فهم كأمهم الأرض معادن مختلفة ، منهم الصَّلد الذى لايأتى بخير بل قد يؤذى ، ومنهم الكحل النافع الذى يبرئ العين ويزيدها حسنا وبهاء وجمالاً . وللمنصور وراء ذلك أشعار يدعو فيها إلى الزهد فى الدنيا والتقوى والعمل الصالح .

---

(١) تصفو : تصبح رغدة هانئة

(٢) المرو : الحجر الصلد . الإثمد : الكحل

حسين[1] الجزري

هو حسين بن أحمد الجزري الحلبي ، ولد بحلب وبها نشأ لزمن العثمانيين فحفظ القرآن الكريم ثم اختلف إلى حلقات الشيوخ والأدباء وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقصد به الرؤساء والحكام في دمشق والعراق ودخل القسطنطينية واصطفاه بنو سيفا أمراء طرابلس لأنفسهم ، فنظم فيهم كثيرا من مدائحه ، وفيه يقول ابن معصوم : « أحد صاغة القريض . . العالم بثمار الأشعار والمقتنى لأبكار الأفكار . . راقت بدائع آدابه ورقت ، وملكت روائعه حرَّ الكلام واسترقت » ويقول الشهاب الخفاجي : « أديب له أوصاف حُسْنَى ، ومناقب هن الوشى بهجة وحسنا » توفي سنة ١٠٣٤ للهجرة . وله ديوان شعر نشر في بيروت أولا ثم نشره الطباخ مع ديواني مصطفى البابي والفتح بن النحاس في مجموعته : العقود الدرية . وأشعاره موزعة بين المديح والغزل والفخر والشكوى ، وكان يشغف بالحكمة ينثرها في الشعر قائلا :

الشعرُ ما شاقتك منهُ حكمةٌ لاما يشوِّقك الكثيبَ الأوْعَسا[2]

فليس الشعر في رأيه مايصور نزعة الحب الإنسانية وإنما الشعر مايفيد تجربة وخبرة وبصرًا بالحياة . وهو لذلك لايعد الشعر المشوق لديار الحبيبة ومعاهدها من كثبان وَعْساء وغير وعساء شعرا رفيع المنزلة فأرفع منه مايزيدك إدراكا بالحياة من حولك ، ويعرِّفك كنهها وحقيقتها ، يقول في تضاعيف غزل له :

إن المحبَّـةَ محنةٌ لامنحةٌ ومن الغرام يُرَى المحبُّ المغرما
وإذا مُنِعْتَ الماء أول مرَّةٍ ووردْتَهُ أخرى تذكَّرتَ الظَّما
في كل يومٍ روعةٌ أو لوعةٌ والفذُّ تُقْعده الحوادث توأما
ولقد ملئتُ تجاربا وتجاريًا لن تلقنى إلا إناءً مُفْعَمَا

وهي أفكار يعطيها صفة التعميم مما يجعلها حكما وأمثالا ، فالحب محنة لامنحة يضنى صاحبه ، ومَنْ تصدّه صاحبته أول مرة كمن يُصَدّ عن الماء وهو شديد الظمأ إذ لايزال يذكر ذلك حتى لو

---

(١) انظر في ابن الجزري وشعره سلافة العصر ص ٣٩٣ وريحانة الألبا ١١٣/١ وخلاصة الأثر ٨١/٢ وانظر ديوانه في مجموعة العقود الدرية

(٢) الكثيب : تل الرمل . الأوعس : الذى تغيب فيه الأرجل لينه

أتيح له الورود ، فظمؤه ولهفته القديمان لايبرحان ذاكرته ، وهل فى الحب إلا صَدٌّ وامتناع وعذاب ، والمحب يصلى الروعة بعد الروعة واللوعة بعد اللوعة ، ويقول إنه مُفْعَم بالتجارب كما يُفْعَمُ الإناء بالماء ، وينشد :

أرى اليأسَ عِزًّا والرَّجا ذِلَّةَ الفتى   وطولَ المنى عجزا وحبَّ الغنى فَقْرا
فلا تَضْجَرَنْ من حالةٍ مستحيلةٍ   كما نِلْتَها عُسْرًا ستتركها يُسْرا
وإن الفتى كالغُصْن مادام نابتا   فآونةً يُكْسَى وآونةً يَعْرَى

وهو يرى اليأس من الناس وتحقيق الآمال لاإحدى الراحتين فحسب ، بل عزًّا مابعده عز ، كما يرى الرجاء وخاصة فى الناس ذلا مابعده ذل ، واتساعَ الأمانى عجزا لايشبهه عجز ، والتطلعَ إلى الغنى فقرًا لا يماثله فقر . فخير للانسان أن يقنع وأن يرضى من دنياه بالكفاف . ويوصيه أن لايضجر من شدة تنزل به لانها لابد أن تستحيل وتتحول ، فكل عسر معه يسر ، وماأشبه الإنسان بغصن شجرة يَعْرَى من الأوراق ويُكسى بها كل عام . ويقول :

إن خَصَّنى بالبؤس دهرى دائما   دون الوَرَى فأنا بذلك أفضلُ
هذى عقاقيرُ العِطارةِ كلُّها   لم يحترق منهن إلا المَنْدَلُ

فهو يتقبل البؤس راضيا ويتعلل لبؤسه بأنه أشبه مايكون بالمندل أو العود الطيب الرائحة فإنه يحرق وحده دون ماعند العطار من صنوف عطارة كثيرة . ويتردد فى أشعاره ذكر الحرمان وأن الكريم لاتضره قلة المال بينما اللئيم لايُجْديه ولاينفعه الثراء ، ويحاول أن يجد له ولأمثاله من الأدباء والفضلاء تعلُّلات للتضييق على نفر منهم فى الرزق بمثل قوله :

لاتحسب الأرزاق تُقْسَمُ باطلا   كلا لقد ساوى المهيمنُ بينها
فإذا رُزِقتَ الجهلَ أدركتَ الغِنَى   وإذا حُرِمتَ الجِدَّ أُعطيتَ النُّهَى

وكأن أهل الأرض فى رأيه اثنان:جاهل ترى له كل مايأمل ويتمنى وكأن الدنيا طوع أمره ، وعاقل (أديب أو عالم) فقير حُرِم الجَدَّ أو الحظ وحرم معه إكسير الحياة من المال والثراء والنعيم . ويقول :

غَيْرُ بِدْعٍ إذا ظَلَمتَ بدهرٍ   رُزِق الغُمْرُ فيه حَظًّا عظيما
فالهواءُ الصحيح يُدْعَى عليلاً   واللَّديغُ المصَابُ يُدعَى سَليما

وهو يواسى من يحسُّون بأنهم مظلومون فى دنياهم لم ينالوا حظهم الطبيعى من الرزق والعيش الكريم ، بينما المغمورون يعيشون فى بحبوحة من الثراء والنعيم . ويقول إن النسيم المنعش الصحيح يدعى عليلا واللديغ يدعى سليما من تسمية الأضداد ، ولعل فى ذلك بعض المواساة للمظلومين المحرومين . ويقول :

رُوَيْدَكَ إن بعد الضِّيق مخرجْ وصَبْرك عنده أبهى وأبهجْ
وكم من كُرْبةٍ عَظُمت وجلَّتْ وعند حلولها الرحمنُ فرَّجْ

وهو يدعو إلى الصبر عند الشدة والضيق إذ لابد من رباطة الجأش دون أى تبرم ودون أى خور وضعف ودون أى يأس ، مع الاعتصام بالله والأمل الدائم فى رحمته ، وأنه لابد كاشف الكرب والأهوال مهما اشتدت وإن فرجه لقريب ، وإنه لدائما مع الصابرين الذين لاييأسون أبدا من عونه . ولابن الجزرى وراء هذه الحكم ومايماثلها فى أشعاره – كما قدمنا – مدائح كثيرة ، وله فيها أبيات بديعة من مثل قوله :

يُلَبِّيك من قبل السؤالِ نَوالُه ويأتيك دون الإنتظار نُضارُه

وله أبيات مختلفة فى الشكوى من الناس والأصدقاء ، وفى غزله أبيات كثيرة جيدة ، وقد كان شاعرا محسنا مجوِّدًا .

٦

شعراء التشيع

مرَّ بنا فى حديثنا عن التشيع أنه عُرف فى سَلَمْية بالشام مع حركة عبد الله بن ميمون القدَّاح حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى الداعى لمذهب الإسماعيلية المعروف ، وهذا إنما يصدق على تلك الحركة الشيعية . ويبدو أن أفرادًا من الشام كانوا يتشيعون قبل هذا التاريخ ، لا التشيع الغالى المفرط ولكن التشيع المعتدل المقتصد ، ويسلك فيهم بعض الباحثين أبا تمام لمثل قوله عن قصيدة له مخاطبا المأمون [1] :

ووسيلتى منها إليك طريفةٌ شامٍ يدين بحبِّ آلِ محمدِ

(١) الديوان (طبع دار المعارف) ٢/٥٥

وقد ذهبنا فى كتابنا العصر العباسى الأول إلى أن أبا تمام لم يكن يصدر فى مثل ذلك للمأمون عن تشيع إنما كان يريد أن يتقرب للخليفة بذكره لآل البيت . ومعروف أن المأمون كتب إلى الآفاق بتفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، مما جعل الشاعر يشيد بعلى ومواقفه فى عهد الرسالة . ويلقانا بعده ديك الجن الحمصى المتوفى سنة ٢٣٥ للهجرة وتشيعه أوضح من تشيع أبى تمام إذ نجد عنده أشعارا فى أهل البيت ومراثى تندب الحسين وتبكى مصرعه من مثل قوله فى افتتاح إحدى مراثيه (١) :

يا عَيْنُ لا للغَضَا ولا الكُثُبِ بُكا الرَّزايا سوى بُكا الطَّرَبِ (٢)
يا عَيْنُ فى كَرْبلا مقابِرُ قد تركْنَ قلبى مقابِرَ الكُرَبِ
من البَهاليلِ آلِ فاطمةٍ أهلِ المعالى والسادة النُّجُبِ
كم شَرِقَتْ منهم السيوف وكم رُوِّيتِ الأرضُ من دمٍ سَرِبِ (٣)

ويقول أبو الفرج عن هذه المرثية إنها مشهورة عند الخاص والعام وينـاح بها ، كما يقول إنه كان يتشيع تشيعا حسنا (٤) ، فتشيعه كان تشيعًا معتدلا .

ولم تعرف الشام التشيع المفرط الغالى إلا منذ القدَّاح ودعوته الإسماعيلية التى اتخذ لها سَلَمْيَة بالقرب من حمص وحماة مركزا ، وأخذ القرامطةُ يشيعون هذه الدعوة بين بدو الشام ، غير أن دمشق ظلت بعيدة عن التشيع على الأقل حتى أوائل القرن الرابع إذ نجد النسائى صاحب كتاب السنن يلم بها سنة ٣٠٣ وكان يتشيع ، فسألوه عن معاوية وما رُوى من فضائله فأبى أن يفضله ، فمازالوا يدفعونه من المسجد ، ويقال : داسوه بالأقدام . وخرج من دمشق خائفا يترقب إلى الرملة فمات بها . ويبدو أن الدعوة الشيعية — لقيت لها آذانًا صاغية بحلب منذ مطالع القرن الرابع ، ويلقانا هناك الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ وكان يتشيع — فيما يبدو — تشيعا معتدلا . ونراه يذكر — مايؤمن به الشيعة من وصية الرسول عليه السلام لعلى بالإمامة بعده ، وله مراث فى الحسين تبكيه بكاء حارا من مثل قوله (٥) :

---

(١) الديوان (فى طبعاته المختلفة) وأدب الطف أو شعراء الحسين لجواد شبر ٢٨٤/١

(٢) شجر الغضا . من أشجار البادية . يقصد بذكره وذكر الكثبان شعر النسيب

(٣) شرقت : غصت . سرب : سائل .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٥١/١٤

(٥) أعيان الشيعة ٣٥٦/٩ وانظر أدب الطف أو شعراء الحسين ١٩/٢

يومَ الحسين هَـرَقْتَ دَمْـ ـعَ الأرض بل دمعَ السماء
مَنْ ذا لمعـــفور الجوا دِ مُمالِ أعواد الخِباء
مَنْ للطريح الشِّلْو عُرْ يـانـا مُخَلًّى بالعَراء
من للمحنَّط بالثَّرَا ب وللمغسَّلِ بالدماء

ومن أهم شعراء الشيعة الإماميين بعده أبو فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ، ومعروف أن الحمدانيين كانوا شيعة إمامية ، ويشتهر أبو فراس بقصيدة ميمية تصور عقيدته الشيعية وفيها هاجم العباسيين هجوما عنيفا ودافع عن العلويين دفاعا حارا ، وتسمى الشافية افتتحها بقوله[١] :

الدينُ مُخْتَرَمٌ والحقُّ مُهْتَضَمُ وفَيْءُ آلِ رسولِ الله مُقْتَسَمُ

والفيءُ : غنيمة الحرب ، وهو يشير إلى فَدَك وكانت فيئا لرسول الله فى غزوته لخيبر والقرى حولها . وكانت السيدة فاطمة الزهراء فكرت فى إرثها عن أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكّرها أبو بكر الصديق بقوله : « نحن معاشرَ الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » فاستجابت تَوًّا الرأيه وكان ينبغى أن يستجيب له أيضا أبو فراس . والقصيدة فى واحد وستين بيتا . ويعلن فى ديوانه مرارا أنه شيعى إمامى ، ويذكر الأئمة الاثنى عشر فى مثل قوله[٢] :

شافِعِى أحمدُ النبىُّ ومولا ىَ علىٌّ والبنتُ والسِّبطانِ
وعلىٌّ وباقرُ العلم والصا دقُ ثم الأمينُ ذو التِّبيانِ
وعلىٌّ والمتقى ابنُ علىٍّ وعلىٌّ والعسكرىُّ الدانى
والإمامُ المهدىُّ فى يوم لاينْـ ـفَعُ إلا غُفْرانُ ذى الغُفْرانِ

والأئمة الاثنا عشر فى الأبيات مرتبون ، وهم على بن أبى طالب وابناه سبطا الرسول ، الحسن والحسين وعلى زين العابدين بن الحسين وابنه محمد الباقر وابن الباقر جعفر الصادق وابنه الأمين موسى الكاظم ونجل الكاظم على الرضا وابنه محمد الملقب بالمتقى والجواد ثم ابنه على الهادى ونجله حسن العسكرى ثم ابنه محمد المهدى ويسميه القائم فى مقطوعة ثانية ذكر فيها الأئمة الاثنى عشر حتى انتهى إلى العسكرى بن الهادى قائلا[٣] :

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى (نشر وتحقيق د . سامى الدهان) ٣٤٨/٣
(٢) الديوان ٣٩٧/٣
(٣) راجع ٤٢٩/٣ وما بعدها .

وابنهُ العسكرىّ والقائمُ المظـ ـهرُ حَقَّ محمدُ بن علىٌّ

ويعتقد الإمامية وخاصة الغلاة أن محمدا المهدى لم يمت وأنه غاب وسيعود ويسمونه قائم الزمان . وسنعرض هذه الفكرة عرضا أكثر تفصيلا فى حديثنا عن بهاء الدين العاملى . ويلقانا فى القرن الخامس الهجرى ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ وهو شيعى إمامى ، ومن آثار تشيعه فى شعره قوله[1] :

وقالوا قد تغيَّرتِ الليالى وضُيِّعَتِ المنازلُ والحقوقُ
وأقسمُ ما استجدَّ الدهرُ خُلْقًا ولاعـدوانُـه إلا عَـتيقُ
أليس يُرَدُّ عن فدكٍ علىٌّ ويملك أكثر الدنيا عَتيق

وهو يأسى لعلى وزوجته فاطمة الزهراء أنها رُدَّتْ عن ميراث فدك وقد كانت فكرت كما ذكرنا ذلك آنفا فى أن ترثها ، وذكَّرها أبو بكر بحديث أبيها ﷺ واستجابتْ له راضية . وكبُرت كلمةً تخرج من فم ابن سنان أن يقول عن الصدِّيق الزاهد الذ أنفق أمواله فى دعوة الإسلام : إنه ملك أكثر الدنيا ، وهو لم يملك شيئا ، إن يقول إلا بهتانا وزورا .

وكان يعاصره كشاجم وكان أصغر منه سنا ، وكان يتشيع لمذهب الإمامية ، وسنخصُّه بترجمة عما قليل . وربما كان أهم شعراء الشيعة بالشام فى القرن الخامس الهجرى ابن حيّوس الشاعر الدمشقى ، وسنفرد له الآخر ترجمة . ويلقانا بعده عند العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة شعراء شاميون شيعيون متعددون عاشوا فى القرن السادس الهجرى، غير أنه لا يُعْنَى بشعرهم الشيعى إلا بعض مقطوعات قلما توضح لهم مذهبا أو نحلة. منهم ابن قُسَيْم الحموى المتوفى سنة ٥٤١ وقد أنشد له العماد فى حب آل البيت قوله[2]:

ويَدٍ بآل محمَّدٍ عَلِقَتْ مِنِّى فلستُ بغيرهم أرْضَى
جعل الإلهُ علىَّ حبَّهمُ وعلى جميع عبادِه فَرْضا
فأثارَ ذلك من زنادقةٍ حَسَدًا فسمَّوا حبَّهم رَفْضا
وعجبتُ هل يرجو الشفاعةَ مَنْ يَنْوِى لآلِ محمدٍ بُغْضا

---

(١) ديوان ابن سنان (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ٧٨

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١/١٥٣

وهو يعلن حبه لآل البيت حبا لا يماثله حب ، وهو حب يراه فرضا مكتوبا على كل مسلم مخلص لدينه . ويبدو أنه كان يغلو فى هذا الحب غلو الرافضة ، إذ يسمى أعداءهم زنادقة ، ويعجب أن يفكر فى شفاعتهم يوم القيامة مبغض لهم تأكل نار بغضهم قلبه . وكان يعاصره ابن منير المتوفى سنة ٥٤٨ ويقول عنه العماد : كان غاليًا متشيعا[١] ولم يرو شيئًا من شعره الشيعى الغالى . وكان طلائع بن رُزِّيك وزير الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد شيعيا إماميا ، وكان من مقربيه ثقة الملك الحسن من بنى أبى جرادة الحلبيين المتوفى سنة ٥٥٥ ، وله فيه مدائح بها إشارات لبعض عقائد الشيعة[٢] ، ويبدو أن أسرته كانت تعتنق مذهب الشيعة الإمامية مثلها فى ذلك مثل أهل حلب موطنها . ومن شعراء الشام الشيعة فى الخريدة عرقلة الدمشقى حسان بن نُمَير المتوفى سنة ٥٦٧ وينشد العماد مقطوعة طويلة يذكر فيها تشيعه قائلا[٣] :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سُنَّةِ الإمام يزيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية الذى قتل الحسين أيام خلافته ، وسماه الإمام تهكما وسخرية . ونظل فى زمن الأيوبيين والمماليك نستمع إلى أشعار تبكى الحسين أو تمدح آل البيت على نحو ما نجد عند فتيان الشاغورى الدمشقى المتوفى سنة ٦١٥ للهجرة ، ويلقانا فى مطالع ديوانه باكيا الحسين ذارفًا عليه الدمع مدرارًا منشدا[٤] :

لِمَ لا أسُحُّ بيوم عاشوراء من مقلتىَّ دمًا يمازج ماء
يومًا بهِ قُتِلَ الحسينُ بكَرْبَلا قتلا حَوَى كَرْبًا به وبلاء

ويوم عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر المحرم ، وفيه استشهد الحسين على نحو ما هو معروف . ولفتيان قصيدة طويلة فى حب آل البيت يقول إنه نظمها مؤملا عفو الله ورضاه ، وفيها يشيد بالرسول ورسالته المحمدية الكبرى ، ويسترسل فى التنويه بعلى بن أبى طالب وانتصاراته المجيدة على أعداء الإسلام وبنوه بعلمه وزهده وتقشفه ، ثم يفيض فى الحديث عن مصرع الحسين المفجع بمثل قوله[٥] :

أَلْهَفِى لِلْحُسَيْنِ غداةَ أَضْحَى هناك «بِكَرْبلا» شِلْوًا قَتِيلا

---

(١) الخريدة ٧٦/١

(٢) الخريدة ١٩٩/٢

(٣) الخريدة ٢٠١/١

(٤) ديوان فتيان الشاغورى (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) ص٦

(٥) الديوان ص ٥٨٠ والشلو : العضو من الإنسان والجمع أشلاء ، كناية عن الموت

يمزّق جِسْمَهُ دَوْسُ المَذاكى ... وقد أعطتْ كَلاباهُ العَوِيلا[1]
شكَا ظَمأً لما عطفوا عليهِ ... ولا ألوَوْا ولاأرْوَوْا غَلِيلا
رسولُ اللهِ سمَّاه «حُسَيْنًا» ... وقَبَّل ثَغْرَهُ زمنًا طويلا

ويقسم فتيان مرارا وتكرارا بعلى والحسين وأصحاب العَباء أو الكساء إشارة إلى حديث ترويه الشيعة عن أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : «دخل على وفاطمة ومعها الحسن والحسين فوضعها الرسول فى حجره فقبّلها واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، وجعل عليهم جميعا كساء أسود وقال : اللهم إليك لا إلى النار» . ولم يكن فتيان غاليًا فى تشيعه بل كان معتدلا ، يشهد لذلك قوله فى على والحسين وآلها[2] :

لم أهْوَهُمْ أبدا بِبُغْضِى غيرَهم ... كلاَّ وَمنْ فَرَضَ الصلاةَ ووقَّتا

فهو يقسم بربه فارض الصلاة أنه لم يحب آل البيت مبغضا لأبى بكر وعمر مثل غلاة الشيعة ، بل هو يحب الجميع وإن كان حبه لهم أزيد وأكثر ، كما تشهد بذلك قصيدته السالفة .

ونلتقى فى زمن المماليك بالوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ويقول صاحب الفوات : كان شيعيا ، ومما يدل على ذلك قوله[3] :

سمعتُ بأن الكحلَ للعين قوةً ... فكحَّلتُ فى عاشورَ مُقْلَةَ ناظرى
لتقوى على سحِّ الدموعِ على الذى ... أذاقوه دونَ الماء حرَّ البواتِر

فهو قد تكحل فى يوم عاشوراء يوم ذكرى مصرع الحسين ليسح الدموع ويذرفها على الحسين الذى قتلوه دون جرعة ماء يحتسيها بالسيوف القواطع ، وكان بعض معاصريه يتهمه بالرفض والغلو فى التشيع فكان ينكر ذلك منحيا على من يتهمه بالسبّ واللعن ، وفى ذلك يقول[4] :

قُلْ للذى بالرفض أتْـ ... ـهمنى أضلَّ اللهُ قَصْدَهْ
أنا رافضىٌّ ألْـعَن الـ ... شَّيْخَيْن أبَّاهُ وجَدَّهْ[5]

وواضح أنه يقول إنه رافضى تهكما على خصومه . ونظل نلتقى بشعر شيعى على هذه الشاكلة

---

(١) المذاكى : الخيل ، وكلاباه : نساء أسرته .
(٢) الديوان ص ٦٨
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ١٧٦/٢
(٤) الفوات ١٧٥/٢
(٥) أبّاه مشددة الباء لصحة الوزن

لاف أيام المماليك فحسب ، بل أيضا فى أيام العثمانيين ، وممن يُظَنّ تشيعه حينئذ درويش[١] الطالوى المتوفى سنة ١٠١٤ وحسين[٢] بن عبد الصمد العاملى وهو أبو بهاء الدين العاملى أكبر شعراء الإمامية حينئذ ، وسنترجم له عما قليل .

كُشاجِم[٣]

هو أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندى بن شاهك اشتهر بلقبه كشاجم ، وضبطه صاحب القاموس بضم الكاف ، وفى تاج العروس شرح القاموس وشرح درة الغواص للشهاب الخفاجى أنه بفتحها ، وقيل إن هذا اللقب مركب من أوائل كلمات تدل على صناعاته ، فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من منجم أو من مغن ، وفى ذيل زهر الآداب : « أنه كان مغنيا وله فى الغناء كتاب مليح » .

وكان جده السِّندى من حرس الرشيد ويقول ابن خلكان فى ترجمته لموسى الكاظم الإمام عند الشيعة الإمامية : « وكان الموكَّل به فى مدة حبسه السندى بن شاهك » وربما تلقَّن عنه حينئذ عقيدة الإمامية ، وبقيت العقيدة منذ هذا التاريخ فى بيته . وأصبح السندى بعد وفاة الرشيد من كبار حاشية الأمين ، ويقال إنه ولاه الشام ، وربما توفى بها ، وبقيت أسرته بعده فيها إذ يُسْلِك حفيده كُشاجم فى شعراء الشام ، وكان يسكن فى شبيبته بلدة الرَّملة بفلسطين . ونظن ظنا أنه وُلد لأبيه حوالى سنة ٢٩٠ للهجرة . ويبارح الرملة والشام جميعا فى سن مبكرة إلى الموصل حيث التحق بخدمة أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وكان قد ولى الموصل مرارا بين عامى ٢٩٣ و ٣١٧ وبها انعقدت بين الشاعر وبين الشعراء هناك صلات مودة وخاصة بينه وبين الخالديين . وينزل عند سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، ويقال إنه كان يُشرف على إعداد طعامه أو على مكتبته . ويبدو أنه لم يمكث عنده طويلا . ونزل مصر وأقام بها فترة ، وأرسل حينئذ إلى جعفر بن على أمير الزاب قصيدة فى مديحه أثابه عليها بألف دينار كما يقول ابن شرف

(١) ريحانة الألبا ١/٦٣ وما بعدها

(٢) أعيان الشيعة ٢٦/٢٢٦ وروضات الجنات ٢/٢٥

(٣) انظر فى كشاجم وشعره شذرات الذهب لابن العماد ٣/٣٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ١/٥٦٠ والمنتحل للثعالبى ص ٣٥٢ وأعلام الكلام لابن شرف القيروانى وذيل زهر الآداب ص ١٠٧ وذكر له الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى طائفة كبيرة من شعره ، وديوانه مطبوع ببيروت ، وراجع فى السندى جده ترجمة موسى الكاظم فى ابن خلكان والحيوان للجاحظ ٥/٣٩٣ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبعة الصاوى) ص ٣٠٢ وطبعة أوربا ص ٣٤٩

القيرواني ، وترك مصر إلى الشام ثم عاد إليها وهو ينشد .

قد كان شوقي إلى مصرٍ يؤرّقني فالآن عدتُ وعادتْ مِصْرُ لي دارا

وتُرْوَى روايات مختلفة عن تاريخ وفاته ، فقيل توفي سنة ٣٥٠ وقيل بل سنة ٣٦٠ ولعل التاريخ الأخير هو الصحيح .

وهو يتناول في شعره الأغراض المختلفة المعروفة من مديح ورثاء وشكوى وهجاء وخمريات ووصف للطبيعة والأطعمة وأدوات الحضارة . وله أشعار مختلفة في الصيد والطرد وله كتاب فيهما سماه المصايد والمطارد ، وأيضا له كتاب في أدب النديم وهما منشوران . وكان شيعيا إماميا إما – كما قلنا – مثل أهل بيته وإما استقلالا منه ودراسة للنحلة دفعته إلى اعتناقها ، ويشهد لذلك مارواه ابن شهر آشوب ، إن صحّ ماروا – من قوله :

نبيّي شفيعي والبَتُولُ وحيْدرٌ وسِبْطاهُ والسجّاد والباقرُ المجدِ
بِجعْفَ بموسى بالرِّضا بمحمدٍ بنجْلِ الرِّضا والعسكريين والمهدِي

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، وحيدر : الإمام علي ، ويتوالى بعده أئمة الإمامية أو الاثنى عشرية وهم اثنا عشر إماما : علي ، والحسن والحسين ابناه سبطا رسول الله ، والسجاد : علي زين العابدين بن الحسين والباقر ابنه محمد ، ورخّم جعفر في قَسَمه ، والترخيم في غير المنادى شاذ ، وموسى هو موسى الكاظم الإمام السابع ، والرضا هو علي الرضا ابنه ، ومحمد هو محمد الجواد نجل الرضا ، ويليه علي الهادي فالحسن العسكري ، وقد سماهما العسكريين والمهدي هو محمد المهدي المنتظر الذي مات صبيا حوالي سنة ٢٦٠ للهجرة . وسماهم جميعا كشاجم – كما رأينا – في بيتيه واتخذهم شفعاء له عند ربه ، مما يقطع – إن صَحَّ أنه ناظم البيتين – بتشيعه وإماميته أو اعتناقه نحلة الإمامية .

وفي ديوان كشاجم ثلاث قصائد طويلة ، يبكي في أولاها الحسين ومن قُتلوا معه من آله في كربلاء قائلا في مطالعها :

يابُؤس للدَّهرِ حينَ آلُ رسو لِ الله تَجْتاحُهم جوَائحهُ
أظلَمَ في كربلاءَ يومُهمُ ثم تَجلّى وهم ذبائحهُ
لابَرِحَ الغيثُ كلُّ شارقةٍ تَهْمِي غواديه أو روائحهُ(١)

(١) الشارقة هنا اليوم وأصله الشمس . والغوادي والروائح : السحب الممطرة صباحا ومساء . تهمي : تصب وتسيل .

على ثَرًى حلَّه ابنُ بنت رسو لِ الله مجروحةٌ جَوارحُهُ
وسيق نِسْوانه طلائحَ أحـ ـزانٍ تهادى بهم طلائحُه

والقصيدة تفيض – على هذا النحو – أسًى ولوعة لمقتل الحسين وبعض آله معه ، ويسمىٌّ ذلك ذبحا ، فيبلغ كل مايريد من التأثر لسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له الغيث أن يظل يهمى كل شارقة أو كل يوم على الثرى الذى ضم هذا الجسد الطاهر الجريح . ويصور بشاعة العدوان الأثيم حين ساق مرتكبوه نساء آل البيت منهكات مُتْعبيات ، حتى لقد أصاب الإبل التى حملتهن ماأصابهن من الإعياء والإجهاد والكلال . ويمضى فى القصيدة فيتحدث عن على بن أبى طالب وشجاعته وبأسه وخدماته للإسلام ورسالته ، كما يتحدث عن علومه الزاخرة . ويستهل كشاجم القصيدة الثانية ، وهى همزية بإعلان حبه لأهل الكساء الخمسة الذين تحدثنا عنهم : الرسول والسيدة فاطمة وعلى بن أبى طالب وابناه : الحسن والحسين . ويذكر مايعتقده الشيعة من أن الرسول أوصى بالإمامة لعلى فى غديرخُمّ ، ويذكر أن له معجزات جمة وأنه بحر علوم سماوية ، ثم يأخذ فى بكاء الحسين وأن الأمويين ثأروا فيه لقتلاهم فى غزوة بدر يقول :

لئن وَتَر القومَ فى بَدْرهم لقد ثأرَ القومُ فى كَرْبَلاء
بها هُتِكتْ حُرَمُ المصطفى وحَلَّ بهنَّ عظيمُ البلاء
وساقوا رجالهمُ كالعبيدِ وحازوا نساءهمُ كالإماء
ولو كان جَدُّهمُ شاهدًا لشيَّع أظعانَهم بالبكاء

والأبيات بالغة التأثير فى وصفها لهول يوم كربلاء وما كان فيه من هتك لحرمة نساء آل البيت ورجالهم ، أما الرجال فساقوهم سوق العبيد ، وساقوا النساء سوق الإماء ، فيا للفظاعة ، ولو شاهد الرسول هذه المأساة ما اكتفى بالدموع كما يقول كشاجم ، بل لأعاد غزوة بدر ثانية ، دفاعا عن سبطه وآله .

ويُلِمُّ كشاجم فى القصيدة الثالثة بالحسين وآل البيت وماأصابهم فى كربلاء إلماما سريعا ، وكأنما أراد أن يفردها لعلى سيد الأوصياء كما يقول ، الجواد البطل ، ويسترسل فى فضائله قائلا :

وكم شبهةٍ بهُداهُ جَلا وكم خُطَّةٍ بحِجاهُ فَصَلْ
وكم أطفأ اللهُ نارَ الضَّلالِ به وهْىَ ترمى الهُدَى بالشُّعَلْ

وكم ردَّ خالقُنا شمْسَهُ عليه وقد جَنحتْ للطَّفَلْ
وكم ضربَ الناسَ بالمرْهفاتِ على الدِّين ضَرْبَ غِرابِ الإبلْ

وحقا كان عليٌّ ملهما فى معرفة الحكم الفاصل فى أى مشكلة تعرض له أو لغيره ، حتى قال فيه عمر : قضية ولا أبا حسن لها ، وكم أعز الله به الإسلام ، وكم ضرب بالسيوف المرهفة أعداء الإسلام ضرب العرب لغرائب الإبل . أما أن الشمس كانت تُرَدّ عليه حين تجنح للغروب فتلك مبالغةٌ ، عليٌّ فى غنى عنها ، بل هى بهتان ، ومثلها بهتانا مازعمه فى القصيدة من تفضيل عليٌّ درجات فوق أبى بكر الصديق وأنه كان أجدر بالخلافة منه لأن الرسول أوصى أن يكون خليفة بعده . وتمادى فى بهتانه على الصديق ، فقال إن الرسول نحّاه عن الصلاة بالناس حين اشتد به المرض ، وقد صلى بالناس سبع عشرة صلاة ، وصلى به الرسول مؤتما ركعة ثانية من صلاة الصبح ثم صلى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبَضْ نبىّ حتى يؤمَّه رجل من قومه » . وكلُّ ذلك متواتر معروف غير أن غلاة الشيعة ينكرونه . ولايلبث أن ينحى باللائمة ، بل أن يهجو — غير خجل ولامستح — أبا بكر وعمر ، لأنهما منعا السيدة فاطمة حقها فى ميراث الرسول ومآآل إليه فى غزوة خيبر ، وهما إنما صدعا فى ذلك عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لانورَث وماتركناه صدقه » ولعل فى ذلك كله مايدل على تشيع كشاجم وغلوه فى تشيعه .

ابن حيُّوس (١)

هو محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الدمشقى ، كان جده حيوس على شىء غير قليل من الثراء مما جعله يشيِّد بدمشق دارًا فخمة توارثها بنوه من بعده إلى زمن الشاعر . وكانت أمه بنت قاضى غوطة دمشق ، فهو قد ورث الثراء عن آبائه ، والعلم عن جده لأمه وأخواله . ولد لأبيه بدمشق سنة ٣٩٤ وحفظ مثل لداته القرآن وأخذ يختلف إلى العلماء وفى مقدمتهم خاله ابن الجندى الغسانى ، وكانت دمشق حينئذ تابعة لمصر ، ويبدو أن أباه كان موظفا فى دواوينهم هناك إذ نجد أحد قواد الحاكم بأمر الله الفاطمى المسمى أنوشتكين الدِّزبِرىّ ينزل ضيفا على أبيه لسنة ٤٠٦ . ويعود فيما بعد حاكما لدمشق سنة ٤٢٠ حتى سنة ٤٣٣ . وكانت موهبة الشاعر تفتحت ،

---

(١) انظر فى ابن حيوس وشعره ابن خلكان ٤٣٨/٤ وزبدة الحلب (نشر د. سامى الدهان) ٤٠/٢ والوافى ١١٨/٣ وعبر الذهبى ٢٧٩/٣ وشذرات الذهب ٣٤٣/٣ ومقدمة ديوانه لخليل مردم وقد حققه ونشره فى مجلدين (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق)

فانعقدت صلة وثيقة بينهما وأخذ كل منهما يهدى صاحبه هدايا عظيمة ، الشاعر يهديه روائع من مديحه بلغت أربعين قصيدة ، والدّ زيرى يهديه أموالا جزيلة . ويتولى دمشق بعده ناصر الدولة الحسن بن الحسين الحمدانى حتى سنة ٤٤٠ وله فيه عشر مدائح ويخلفه على دمشق حيدرة بن الحسين بن مفلح ، ويتولى مرارا متقطعة حتى سنة ٤٥٥ وله فيه قصيدة واحدة . ويبدو أنه اتجه فى ولايته على مدينته إلى القاهرة ، فلزم الحسن بن على اليازورى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر من سنة ٤٤٢ إلى سنة ٤٥٠ وقدم إليه إحدى عشرة قصيدة ، بعضها قدمها إليه فى القاهرة وبعضها أرسلها إليه من دمشق . وولى الوزارة بعده أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى فمدحه بقصيدتين وعُزل سريعا فمدح الوزير بعده بمدحة واحدة .

وفى هذه السنوات التى تبلغ أكثر من ستين عددا كان ابن حيوس شاعر ولاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ووزرائها وكان يصدر عن عقيدتها فى مدائحهم ، وتضطرب الأمور فى القاهرة ودمشق ، ويصمت الشاعر إزاءها حتى إذا ازداد الاضطراب فى دمشق وخشى الشاعر على نفسه من استيلاء السلاجقة السنيين أعداء الفاطميين الإسماعيليين عليها وأبنائه يهاجر منها لسنة ٤٦٤ إلى طرابلس وبنى عمار ولاتها ، ويتصادف لقاؤه فيها بعلى بن منقذ صاحب حصن شَيْزر فينصحه أن يصحبه إلى محمود بن نصر المرداسى صاحب حلب فإنه سيجد عنده الظل الظليل ، وكان يغلب على الناس هنالك مذهب الشيعة الإمامية . فلم يجد الشاعر بأسًا من تلبيته النصيحة ، وقدم على الأمير محمود بن نصر ، فمدحه بقصيدة بديعة وأعطاه ألف دينار ، ومازال الشاعر يوالى مدائحه فيه إلى وفاته لسنة ٤٦٧ حتى بلغت عشرا وهو يوالى عطاياه عليه . وخلفه ابنه نصر ، فمضى يجزل للشاعر فى العطاء حتى بلغت مدائحه فيه مدة إمارته ، وكانت عاما ، عشر قصائد ، وولى بعده أخوه سابق وظل يوالى عطاءه له حتى قضى مسلم بن قريش العقيلى لسنة ٤٧٣ على آل مرداس مستوليا منهم على حلب ، ومدحه ابن حَيّوس بقصيدة طنانة يقول له فيها :

أنت الذى نفَق الثّناءُ بِسُوقِهِ ... وجَرَى النَّدَى بعروقِهِ قبل الدَّمِ

وأجازه بألفى دينار ، وفى نفس السنة توفى ابن حيوس عن نحو ثمانين عاما . ولاريب فى أن ابن حيوس انصرف عن عقيدته الإسماعيلية حين ولّى وجهه نحو بنى مرداس ، ونراه يجاهر بذلك قائلا :

وكلُّ نَوْهٍ بمصرٍ جادَنى زمنًا ... فِداءُ نَوْهٍ سقانى الرِّىَّ فى حَلَبِ

وشاء له القدر أن يهدر مسئوليته لآل مرداس فى الأيام الأخيرة من حياته بعد أن أثروه – كما يقول ابن خلكان – وأسبغوا عليه نعما ضخمة ، مما جعله يبنى دارا فخمة له بحلب ، وكان قد كتب على بابها :

دارٌ بَنَيْناها وعِشْنا بها فى نعمةٍ من آل مِرْداسِ
قُلْ لبنى الدنيا ألا هكذا فليصنَعِ الناسُ معَ الناس

ولم ينفعهم ماصنعوه لمجرد أن أزال مسلم بن قريش العُقَيلى دولتهم استأذنه فى إنشاد مديحه . ومن المؤكد أنه ظل إلى سن الستين يستلهم العقيدة الإسماعيلية الفاطمية فى مدائحه لولاة الفاطميين بدمشق ووزرائهم بالقاهرة إما عن اقتناع بها وإما رياء لذوى السلطان وقد تحدثنا عن هذه النحلة فى كتابينا « العصر العباسى الثانى » و « عصر الدول والامارات » وأوضحنا مبادئها وكيف أن داعيّها القداح اتخذ سَلَمْية بالقرب من حَماة مركزًا لها ، وكانوا يزعمون أن تاريخ العالم ينقسم إلى حلقات وكل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة وسابعهم الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته الشرائع . وقالوا إن جسم الإمام ليس جسما ماديا ، بل هو شبح يكن فيه اللاهوت النورانى ويبالغ بعض شعرائهم فيزعم أن الإمام صفو شفاف لاتشوبه الأكدار ، فهو نورانى خالص . وأضفوا أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم على أئمتهم وجعلوهم علة الوجود ومدبِّرى الكون إلى غير ذلك من مبادئ تصور غلوهم المفرط . ومن هذه المبادئ قبس ابن حَيُّوس فى مدحه للدِّزْبرى سنة ٤٢٧ قوله فى مديح المستنصر حين ولى الخلافة بعد أبيه الظاهر لدين الله :

أمَّتْ خلافته ريحُ النَّدَى يَسَرًا وظل نَشْرُ الدُّنا من نَشْرِها عَطِرا (١)
وخُصَّ بالشَّرَفِ المحْضِ الذى ارتفعتْ له النواظرُ والنورِ الذى بَهَرا
هُمُ الأُلى أخذ اللَّهُ العهودَ لهم والناسُ ذَرٌّ على من بَرَّ أو فجرَا (٢)
لأجلهم خلقَ الدُّنْيا وأسْكَنَها وذَنْبُ آدمَ لولاهمْ لما غُفِرَا
وإن آلاءهُ مالا يحيط بها وَصْفٌ على أنها تَسْتَنطق الحجَرا
مناقبٌ عددَ الأنفاسِ ماتركتْ لفاخرٍ من جميع الناس مفتخَرا

(١) أمت : قصدت ، يسرا : سهلا ، النشر: الريح الطيبة والطيب ، الدنا : جمع دنيا .

(٢) الذر : مایرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة .

وواضح أنه فى البيت الثانى يشير إلى اللاهوت النورى المتنقل فى الأئمة – بزعم الإسماعيليين – حتى انتهى إلى المستنصر. ويزعم أن الله اتخذ على الناس عهدا بطاعتهم قبل خلق العالم وأنهم علة الوجود، ولولاهم لم يغفر ذنب أبيهم آدم. ويقول إن آلاء المستنصر ونعمه لا يحيط بها وصف وكأنها آلاء الله العىّ. ويكثر ابن حيّوس من ذكر إمام العصر وغياث المسلمين وتنقل النور فى الأئمة وأن طاعتهم فرض، يقول للدزبرى فى إحدى قصائده:

يا سَيْفَ مَنْ عِصْيانُه وولاؤهُ جَعَلا شقيًّا فى الوَرَى وسعيدا

فالسعيد من أطاع الإمام الفاطمى والشقى حطبُ النار مَنْ عصاه. ونراه فى مديح الوزير اليازورى يعرضه مرارا على العراق وقد جعل موضوعا لقصيدة دالية له تدبير اليازورى المعروف لفتنة البساسيرى فى سنتى ٤٤٧ و٤٤٨ واستيلائه على بغداد والموصل ودعوته فيهما للخليفة الفاطمى، وفيها يقول للخليفة العباسى القائم بأمر الله:

عجبتُ لمدّعى الآفاقِ مُلْكًا وغـايـتُـه بـبـغـدادَ الرُّكـودُ
ومِنْ مُسْتَحْكَمٍ بالهون راضٍ يُذادُ عن الحِياضِ ولايذود

وهو يريد أن ملكه لايتجاوز بغداد، وأنه يرضى بالخزى والذل والصغار إذ ليس فى يده من الحكم والسلطان شىء مع الملك السلجوقى طُغْرُلْبك. ومايزال يدور فى الفلك الإسماعيلى الفاطمى حتى سن الستين إذ ينزل حلب عند محمود بن نصر المرداسى وكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للقائم بأمر الله فأنشده مدحة يقول فيها:

ولك الأدلّةُ أوضحَتْ حتى رأى إثباتَ فَضْلك مَنْ رأى التعطيلا
غَرُّوا بأنْ شَرَّقتَ عنهم مذهبًا فى الرَّأى ماعرفوا له تأويلا

وهو فى البيتين يعرِّض بالفاطميين وأنهم يدعون إلى تعطيل إرادة الله وإنفاذ إرادة الأئمة، كما يدعون دعوة واسعة إلى التأويل فى القرآن الكريم حسب عقيدتهم وأهوائهم، وكأنه يريد أن يعلن تبرُّؤه منهم وأنهم ضالون مضلون. وأشعار ابن حيُّوس تمتاز بالقوة والصلابة والجزالة والنصاعة، ويستخدم فيها أحيانا المحسنات البديعية دون إسراف أو إفراط.

بهاء الدين [1] العاملي

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي ، كان أبوه من فقهاء المذهب الإمامي الشيعي يتنقل في بلدان الشام ولبنان ، ثم رحل إلى إيران فتنقل بين بلدانها وأوغل فيها حتى هراة في أفغانستان . واستقر به المقام في « البحرين » حيث توفي بها سنة ٩٨٤ وقد ولد له ابنه بهاء الدين في بعلبك سنة ٩٥٣ وصحبه معه إلى إيران ، وحُبِّبت إليه الرحلة مثل أبيه ، فجاب البلاد الإيرانية والعربية . وزار مصر وبها ألف كتابه « الكشكول » المنشور في مجلدين كبيرين ، وهو موسوعة أدبية عرض فيها بهاء الدين معارفه أو قل بعض معارفه في الحديث النبوي والدراسات الدينية واللغوية والصوفية والاعتزالية والفلسفية والهندسية والفلكية سوى مافيه من أشعار كثيرة تدل على ذوق جيد . وعلى غراره كتابه « المخلاة » . وبعد ثلاثين سنة من رحلاته في البلاد الايرانية والعربية ألقى عصا تسياره في أصفهان ، وقرّبه سلطانها شاه عباس وأكثر من إغداقه عليه ، وولاه مشيخة العلماء الإمامية في أصفهان حتى وفاته سنة ١٠٣١ للهجرة . وفي أثناء إقامته بمصر انعقدت صداقة بينه وبين محمد بن الحسن البكرى وبالمثل انعقدت صداقة بينه وبين الحسن البوريني في دمشق . وقد هيأته إمامية أبيه ونشأته في إيران مركز المذهب الإمامي إلى أن يصبح فقيها إماميا كبيرا ، وإلى أن يؤلف كتبًا في الحجاج للمذهب بالعربية والفارسية ، وله مؤلفات كثيرة في التفسير وفي الأصول وفي الفقه وفي العربية وفي الفلك ، وكان شاعرا مبدعا .

ويقول الشهاب الخفاجي : « شعره باللسانين العربي والفارسي مهذب محرر ، وبالفارسية أحسن وأكثر » وأنشد له الخفاجي في الريحانة وابن معصوم في سلافة العصر والمحبي في نفحة الريحانة وخلاصة الأثر أشعارا كثيرة تتناول أغراضا مختلفة : غزلا وخمرا ومديحا ورثاء ، وأنشد له مترجموه رباعيات متعددة . وهو في شعره ليس إماميا فحسب ، بل هو إمامي غال . وكان الامامية يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر محمدًا المهدى المنتظر لم يمت حوالي سنة ٢٦٨ وإنما اختفى وسيعود ، ويسمونه إمام [2] الوقت وقائم الزمان ، ويؤمنون أن بعض الصفوة من علمائهم على

---

(١) انظر في بهاء الدين العاملي وشعره سلافة العصر لابن معصوم ص ٢٨٩ وريحانة لألبا للخفاجي ٢٠٧/١ ونفحة الريحانة ٢٩١/٢ وكتابه الكشكول (طبعة الحلبي) ١٧٦/١ ، ١٩٢ وفي مواضع متفرقة وخلاصة الأثر ٤٤٠/٣ وروضات الجنات ٥٣٢ والذريعة ٢٩/٢، ٢٤٠/٦

(٢) راجع في إمام الوقت عند الإمامية الاثنى عشرية العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر (طبع القاهرة) ص ١٩٧ ، ٢٤٤ وما بعدها

اتصال شخصى به وأنهم يستوضحونه بعض المسائل الشرعية ، ويفصح لهم عن رغباته وأوامره ، بل إنهم يجعلونه خليفة الله المصرف لشئون الكون والعباد ، ولبهاء الدين قصيدة عن هذا الإمام صاحب الزمان أو قائمه يغلو فيها هذا الغلو المفرط أنشدها فى كتابه الكشكول وفيها يقول :

خليفةُ ربِّ العالمين وظلُّهُ على ساكن الغبراء من كل ديّارِ[1]
هو العروةُ الوُثقى الذى مَنْ بذيلهِ تمسَّك لايخشى عظائمَ أوزارِ
علومُ الوَرَى فى جَنْب أبحر علمهِ كغَرْفةِ كفٍّ أو كغمسة مِنْقار
به العالمُ السفلىّ يسمو ويعتلى على العالم العلوىِّ من غير إنكارِ
همامٌ لو السبعُ الطِّباقُ تطابقتْ على نَقْض مايَقْضيه من حُكْمه الجارى
لنُكّسَ من أبراجها كلُّ شامخٍ وسُكِّن من أفلاكها كلُّ دوّار
أياحُجَّةَ اللهِ الذى ليس جاريًا بغير الذى يرضاه سابقُ أقدارِ
ويامَنْ مقاليدُ الزمانِ بكفِّهِ وناهيك من مجدٍ به خَصَّه البارى

وبهاء الدين يجعل محمدًا للمهدى الغائب فى رأى الإمامية خليفة الله فى تنفيذ أحكامه على الناس وظله الذى يستظل به كل مظلوم ، ويجعله العروة الوثقى أخذا من الآية الكريمة : (وَمَنْ يُسْلِم وَجْهَه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى) ويجعل من يتمسك به تغفر له ذنوبه ، ويبالغ فى سعة علمه اللدنِّى بالقياس إلى علم الناس الذى لايُعَدّ شيئا مذكورا بجانب بحار علومه . ويزعم أن العالم السفلى وهو الأرض شرِّف به وفضِّل على العالم السماوى ، ويزعم أن السموات السبع لو اتفقت على نقض مايبرمه لانقلبت أبراجها وخرجت من قواعدها وسكن منها كل دائر متحرك من أبراجها . ويصفه بأنه حجة الله على الخلق وأن الأقدار الإلهية طوع أمره لا تعصاه أبداو أن مفاتيح الزمان وخزائنه بيده . والقصيدة تمتلئ بهذا الغلو المفرط الذى يجعل هذا الإمام لايزال حيا يصرِّف أمور الكون ، ويدبر شئون العباد ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، ومقاليد الدنيا بكفه ، وكل شىء يجرى فيها بإرادته ، وكأن قائم الزمان فوق جميع الأنبياء والمرسلين . وهو غلو ما يماثله غلو .

وطبيعى وقد بلغ بهاء الدين من الغلو فى عقيدته كل هذا المبلغ أن يدعو إلى سَبِّ من وقفوا —

---

(١) ديار : ساكن دار . الغبراء : الأرض .

فى رأى الشيعة – ضد على وحقه فى الخلافة وفى مقدمتهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق على نحو مانلقاه فى مثل قوله :

يا أيها المدَّعى حبَّ الوصىِّ ولم يَسْمَح بسبِّ أبى بكرٍ ولاعُمَرا
كذبتَ واللهِ فى دعوى محبَّتِهِ تَبَّتْ يداك ستَصْلى فى غَدٍ سَقَرا
فإن تكن صادقا فيما نطقتَ بهِ فابْرأْ إلى الله ممن خان أوغدرا
وأنكرَ النصَّ فى خُمٍّ وَبيْعتِهِ وقال إن رسول الله قد هجرا
أتيتَ تبغى قيامَ العذر فى فَدَكٍ أتحسب الأمرَ بالتمويهِ مستترا

وبهاء الدين يجعل سب أبى بكر وعمر فريضة مَنْ لم يؤدها صَلِىَ نار الجحيم وعذابها الأليم ، ويدعو صاحبه أن يبرأ من الشيخين الجليلين – كبرت كلمات خبيثة تخرج من فمه – ويعلل لما قاله بأنهما أنكرا نصَّ غدير خم ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعلى بالإمامة والخلافة ، وهو نص لم يثبت ، بل الثابت أن الرسول استخلف أبا بكر عنه فى الحج حتى إذا مرض استخلفه فى الصلاة كما هو معروف . وكل ذلك يؤذن بأن الرسول استخلف أبا بكر الصديق بعده واستخلف أبو بكر عمر ، وبهما انتشر الإسلام وفتح العالم القديمُ له أبوابه . ويتعلل بهاء الدين بأنهما منعا السيدة فاطمة الزهراء رضوان الله عليها من إرث فَدك فَيْئ رسول الله ، وإنما منعاها بوصية الرسول – كما ذكرنا مرارا – إذ قال : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة » . ومامن ريب فى أن للشيخين الجليلين قدسية عظيمة فى نفوس المسلمين . ولعل فى كل ماقدمنا مايصور كيف أن بهاء الدين العاملى كان رافضيا غاليا فى الرفض ، سواء فى مهاجمته أبا بكر وعمر أو فى خلعه على الإمام القائم صفات الله وكأنه يشركه فى تدبير الكون وتسخير المقادير ، تعالى الله علوا كبيرا عن كل مالجَّ فيه من رفع إمامه الخفى عن المستوى البشرى حتى للأنبياء المصطفين الأخيار .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب فى الأدب العربى منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة ، وحتى فى أغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جلبا للأسماع ، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسى للشعر العربى ، وهو أمر طبيعى لأنه يتناول عاطفة الحب الإنسانى الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة ، فيقع فريسة لحبها ، وتملأ قلبه وجدًا وشوقا إلى رؤيتها ، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعابها وغراما ، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد ، وحينا يتذلل لها ويستعطف ويتضرّع ، ومع ذلك لا يذوى الأمل فى نفسه بلقائها أبدا ، فهو دائما مؤمل فى اللقاء بعد الهجران وعلى الأمل فى الرؤية بعد الحرمان . ويبلغ الحب ببعض الشعراء قديما حد الجنون ، واسم قيس مجنون ليلى يشيع على كل لسان ، فقد ظل يتغنى باسمها وعيناه مصوّبتان إلى خيالها ، فهو لا يرى فى ليله ولا فى نهاره سواها ، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح فى البوادى معاشرًا آرامها ، إذ هجر حيّها ، بل هجر عالم الإنسان ، إنه لا يعرف سوى عالمها ، فهو العالم الفسيح الذى لا يزال بصره فيه شاخصا إليها . أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته ، وإنه ليفر منه منطويا على نفسه حالما بليلى وعالمها الساحر خالطا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين ، ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى . وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق فى الخيال ، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء ، وكأنما تحيط بها

هالة سحرية ، وبذلك تستحيل فى خيال الشاعر المحب لها أو العاشق إلى كائن شعرى ساحر . وقد يفيق المحب من حبه وسحره ، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا .

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامى من شعراء العصر العباسى الأول هو ديك الجن الحمصى ، فقد ظل يتغنى بمحبوبته « ورد » طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتانا ، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم . وظل البحترى مثله يتغزل بصاحبته « عَلْوة الحلبية » حتى شيخوخته على نحو ما صورنا ذلك فى كتابنا « العصر العباسى الثانى » . ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربى – على مر الأزمنة – أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا . ولولا ديك الجن ما اشتهرت « ورد » ولا عرفها أحد ولولا البحترى ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد ، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان فى القرن السابع الهجرى . على أن بين الشعراء من لم يقتصر فى غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية . ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل ، ففيه العفيف النقى الذى أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر ، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه فى هذا الكلف عذابا متصلا . وفى الغزل بجانب ذلك الغزل الحسى الذى يصور جمال المرأة ومفاتنها تصويرا ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمح العواطف . وظل هذان النوعان : الملائكى الطاهر والمادى الصريح يتقابلان فى الغزل العربى طوال الحقب الماضية . والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام ، وأول ما نسوق من ذلك قول كُشاجم فى صاحبة له[1] :

السِّحْرُ فى ألحاظها الفاتكه والرُّوحُ من إعراضها هالكهْ
والقهوةُ الصَّهْباء من رِيقها والمسكُ من أصداغها الحالكه
مَنْ لم ير الدرَّ وتأليفَهُ فى سِلْكه فليرها ضاحكه
قد كتب الحسنُ على خدِّها طُلَّ دمٌ أنتِ له سافكه

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة ، إذ ليس فيها حرارة ، إنما فيها تشبيهات واستعارات

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ١٣٩ .

محفوظة ، فريق صاحبته خمر والشعر على أصداغها مسك وأسنانها درّ ، وربما كانت الصورة فى البيت الأخير بديعة ، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته ، وهى مبالغة فى الخيال والتصور . ولأبى فراس الحمدانى أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته ، إذ يقول[١] :

سكرتُ من لَحْظِهِ لا من مُدامتهِ   ومال بالنّوم عن عينى تمايُلُهُ
وما السلافُ دهتْنى بل سوالفُه   ولا الشَّمول ازدهتْنى بل شمائلُهُ
ألْوَى بِكُبِّىَ أصداغٌ لُوِينَ لَهُ   وغال قلبىَ ما تحوى غلائلُه

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبته وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية ، ويقول ليست السلافة أو الخمر هى التى دهته بل صفحتا جيدها البديع ، وكذلك ليست الخمرُ أو الشَّمول هى التى استخفَّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المتسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه ، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلُها وثيابها مما سرق منه قلبه . وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالى حبه على طريقة عمر بن أبى ربيعة[٢] ، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرَّقا . ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار ، يحاكى فيها أبا فراس وابن أبى ربيعة ، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته ، وهى قديمة فى الشعر العربى . ولابن سنان الخفاجى[٣] :

أترى طيفكمُ لما سَرَى   أخذ النومَ وأعطى السَّهَرا
أم ذُهِلْنا وتمادى ليلُنا   فتوهمنا العِشاءَ السَّحَرا
يا عيونًا بالحمى راقدةً   حرَّم الله عليكنَّ الكرَى
سَلْنَ فروعَ البان عن قلبى فقد   وَهِمَ البارقُ فيما ذكرا

وليس فى الأبيات لهفة ولا لوعة ، ودعاؤه على صاحبته أو صواحبه — فى البيت الثالث — أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين . ولم يكن من أصحاب الحب . وإنما هى أبيات فى الغزل أو النسيب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله . ولابن الخياط أشعار غزلية

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ٢/٢٠٢
(٢) ديوان أبى فراس ٢/٣٩ .
(٣) ديوان ابن سنان الخفاجى (طبع المطبعة الأنسية) ص٣٩

كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة الحب وحرقة فؤاده من مثل قوله[١] :

خُذَا من صَبَا نَجْدٍ أماناً لقلبهِ فقد كاد رَيَّاها يطيرُ بلُبِّهِ
تذكُّرُ والذكرى تشوقُ وذو الهوى يتوقُ ومَنْ يَعْلَقْ به الحبُّ يُصْبِه
غرامٌ على يأسِ الهوى ورجائهِ وشوقٌ على بُعْدِ المزارِ وقُرْبِهِ
إذا خطرتْ من جانب الرَّمْل نفحةٌ تضمَّن منها داءه دون صَحْبِهِ
أغارُ إذا آنستُ فى الحىِّ أنّةً حذارًا وخوفاً أن تكون لحُبِّه

فحب صاحبته النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شَعاعا ، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصْبيه ، وييأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول فى القصيدة . ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسَّم فى الصَّبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء ، داء الحب وعذابه . ويبالغ فى وصف غيرته عليها ، حتى ليخشى أن تكون كل أنّة يسمعها فى الحى من محب لها محموم بحبها وبدائه العضال . ولمعاصره الغَزِّى المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة[٢] :

إشارةٌ منكِ تغنينى وأحسنُ ما رُدَّ السلام غَدَاةَ البَيْن بالعَنَمِ[٣]
حتى إذا طاح عنها المِرْطُ من دَهَشٍ وانحلَّ بالضمِّ سلكُ العقد فى الظُّلَمِ[٤]
تبسَّمتْ فأضاء الليلُ فالتقطتْ حبَّاتِ مُنْتَثِرٍ فى ضوءِ مُنْتَظِمِ

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم ، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها ، وتبسمت فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة فى ضوء اللؤلؤ المنتظم فى ثغرها البرَّاق الفاتن .

ودخل القيسرانى مدينة أنطاكية فى أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له ، وكان فى الثانية والستين من عمره ، فنظم مقطَّعات يشبِّب فيها بإفرنجيات ، أشهرهن مغنية تسمى ماريَّا ، خلبت لبه ، وله فيها غزليات كثيرة ، ومن بديع غزله قوله[٥] :

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠

(٢) ابن خلكان ١/٥٩

(٣) العنم : نبات لأزهاره قرمزية

(٤) المرط : كساء من حرير أو صوف تتلفع به المرأة

(٥) الخريدة (قسم الشام) ١/١٢٤

عفائفُ إلا عن مُعَاقرة الهَوَى ضعائفُ إلا فى مغالبة الصَّبِّ
ولما دنا التوديع قلتُ لصاحبى حنانيك سِرْ بى عن ملاحظة السِّرْبِ
تقضَّى زمانى بَيْنَ بَيْنٍ وهِجْرةٍ فحتامَ لا يصحو فؤادىَ من حُبِّ
وأهوى الذى يَهْوِى له البدرُ ساجدًا ألستَ ترى فى وجهه أثرَ التُّرْبِ

والصورة فى البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفة البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالى سجوده لصاحبته ولجمالها الساحر. ويقول إن زمانه تقضَّى فى حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة. وللعماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله[1] :

ألا هل لماضى العيشِ عندكِ مرجعُ وهل فيه بعد اليأس للصَّبِّ مَطْمَعُ
لقد أُولعتْ بالصَّدِّ عنى وإننى لفُرْقتها، ما عشتُ، بالوجد مولَعُ
أضاحكُ حُسَّادى فيغلبُنى البُكا وأكتمُ عُوَّادى وإنى لموجَعُ
إذا خطرتْ من ذكرها لىَ خطرةٌ تكاد لها أنياطُ قلبى تقطَّع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لايزال حبل الرجاء ممدودا، مع ولوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجْده وجدا ملتاعا. ويضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحسَّ كأن نياط فؤاده وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة. وقد أنشد له العماد غزلا كثيرا. ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقى المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبته قائلا[2] :

مَنْ منصفى من ظالمٍ متعنِّتٍ يزداد ظلما كلما حكَّمتُهُ
ملَّكته روحى ليحفظ مُلْكَهُ فأضاعنى وأضاع ما ملَّكته

وهى تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أى عطف، وويل له لقد ملَّكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هى تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خَواء بلا روح، فما أشقاه. ويقول فتيان الشاغورى متغزلا[3] :

ومهفهفٍ بلغَ المنى بصفاته حركاتُ غُصْنِ البان من حركاتِهِ

---

(١) الخريدة ١٣٧/٢
(٢) الخريدة ٣١٥/١
(٣) الديوان ص ٦٤

والشمسُ تَخجَلُ من ضياء جَبينهِ   والجُلّنارُ يَغارُ من وَجناتهِ
أضحى الجمالُ بأسره فى أسره   فكأن يوسف حاز بعضَ صفاتهِ
لا تَطْمَعَنْ يا عاذلى فى سَلْوتى   عنه لما أسلوه ، لا وحياته

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه للمرأة من حسن وجمال ، ويقول إن غصن البان الذى يميد ملاحة حركته مشتقة من حركاتها ، ويجعل الشمس تصفرّ خجلا من ضياء جبينها ، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهره الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية ، ويجعلها تحوز الجمال بأسره ، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا ! ويتوجه إلى عاذله باللوم ، فلن يكفّ عن حبه ولن يسلو صاحبته أبدا .

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة[١] :

وتنبّهتْ ذاتُ الجناح بسحرةٍ   بالواديين فنبّهتْ أشواقى
وَرْقاءُ قد أخذتْ فنون الحزن عن   يعقوبَ والألحانَ عن إسْحاقِ[٢]
أنى تُباريني جَوًى وصبابةً   وكآبةً وأسًى وفيضَ مآقى
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى   وهى التى تُملى من الأوراقِ

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوى الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين ، ويقول إنه يملى من خاطره حُرقته ولوعته ، بينما هى تملى من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد. ويقول للحّار الحلبى المتوفى سنة ٧١١ للهجرة[٣]

ما بثَّ شكواه لولا مسّه الألمُ   ولا تأوّه لولا شفّه السَّقَمُ
ولا توهّم أن الدمعَ مُهْجته   أذابها الشوقُ حتى سال وهْو دَمُ
يُبْدِى التجلُّدَ والأجفانُ تفضحهُ   كالبرق تبكى الغوادى وهْو يبتسم
يمسى ويصبح لا صَبْرٌ ولا جَلَدٌ   ولا قرارٌ ولا طَيْفٌ ولا حُلُمُ

والحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الألم ولا أنَّ إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم

---

(١) الخزانة ص ٣٢٦

(٢) يعقوب هو النبى يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن معروف . وإسحاق هو إسحاق للموصلى أشهر المغنين الملحنين فى العصر العباسى

(٣) فوات الوفيات ٢/٢٢١

أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا . ويمسى ويصبح وقد عزه الصبرُ والتجلد وتملكه قلق لا حدَّ له ، وضاع منه كل شيء حتى الطيف فى المنام ، وحتى الأحلام إذ لايزال مسهَّدًا لاينام .

ونمضى إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة[١] :

طرقتْ طروقَ الطيفِ وَهْنَا ... مَيَّالةُ الأعطاف حُسْنا
مَصْقُولةُ الخدَّين مثـ ... ـل السَّيف ألحاظاً ومَتْنا
فى حُلَّةٍ من جِنْسِ ما ... يكسو الربيعُ الغُصْنَ دَكْنا
الدَّلُّ يَنْبتُ من مسا ... حبِ ذَيْلها والحُسْنُ يُجْنَى
لو خاطبتْ وَثَناً لحـ ... ـنَّ مع الجمود لها وأنّا

وليس فى القطعة لوعة ، بل هو يصف جمال صاحبته ودلَّها وحسنها ، ويقول : لو خاطبتْ وثنا من الأحجار لحنَّ لها وأنَّ أنينا لا ينقطع . ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشرى المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل[٢] :

مَنْ عَذيرى فى حبِّ طفلٍ لعوبٍ ... عوَّدوه سَفْكَ الدِّما فحلاَ لَهْ
كلما صَدَّ عن سواىَ دَلالاً ... صَدَّ عنى تبرُّمًا وملالَهْ
لست أنسى يوم الفراق وقد أدْ ... رك من شملنا النَّوى آمالَهْ
غَصَب البَيْنُ من يدى كلَّ قَدٍّ ... سرقَ الغُصْنُ لينَه واعتدالَهْ
مَرَّ نَشْوانَ من جَوًى يشْتَكى ثِقْلَ ... الوردُ غُصْنَه فأمالَهْ

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة ، تصور خصب الخيال عند الحشرى ، فقد عوَّدوا صاحبته الطِّفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك . ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين الممشوق وينفذ إلى صورة طريفة ، فصاحبته تنثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة . وحرى بنا أن نترجم فى إجمال لبعض شعراء العصر الغزلين .

(١) نفحة الريحانة (طبعة الحلبى) ٢/٥٢٧ .

عبد[1] المحسن الصورى

هو عبد المحسن بن محمد الصورى ، أحد الشعراء المجيدين المبدعين ، وفيه يقول الثعالبى : « أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء ، وشعره بديع الألفاظ حسن المعانى رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » ويقول ابن خلكان : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان . توفى سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر » ، وكان ابن حيّوس الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة يُغرّى بشعره ، وكان يفضله على أبى تمام والبحترى والمتنبى . ويُرْوَى أنه مرَّ فى طريقه إلى حلب بشاعر المعرَّة بل الشام بل العالم العربى لزمنه : أبى العلاء ، وجرى بينهما حديث فى الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصورى بقصر أشعاره وأنه لا ينظم فى الغالب إلا مقطَّعات فقال له ابن حيوس : هو أشعر من طويلك يقصد المتنبى ، فمدَّ إليه أبو العلاء يده وقبض على أعلى ثوبه قائلا : الأمراء لا يناظرون ، يعنى أنه لا يقارَن بالمتنبى . وكان أبو العلاء معجبا بالمتنبى إعجابًا شديدا حتى سمى شرحه لديوانه باسم معجز أحمد . على أن قصر أشعار عبد المحسن الصورى لا يدفع أنه مجيد فى قصاره إجادة رائعة . وهو فيها يقترب فى فنه من أبى تمام فى دقائق تصاويره وأخيلته .

ولعل ذلك ما جعل ابن خفاجة الأندلسى يعجب بأشعاره حتى ليقرنه فى مقدمة ديوانه بالشريف الرضى ومهيار قائلا : إنه تملَّكته فى شبابه محاسن أشعارهم الرائعة الرائقة ، وألفاظهم الشفافة الشائقة . ويتوقف مرارا فى ديوانه ليدلنا على أن عبد المحسن الصورى ألهمه هذه المقطوعة أو القصيدة أو تلك ، وهو فيها جميعا يتغزل غزلا رقيقا ممتزجا بالطبيعة وجمالها المباهج فى الكون ، وكأنه يضع أيدينا على خصائص عبد المحسن فى غزله ، فهو فيه يمزج بين المحبوب وعناصر الطبيعة مزجا فيه كثير من الطرافة فى التصوير كقوله :

بالذى ألهم تَعْذيـ ـبى ثناياكِ العِذابَا
والذى ألبس خدَّيْـ ـكِ من الورد نِقابا
والذى صيَّر حظِّى منكِ هَجْرا واجتنابا
يا غزالاً صاد باللَّحْـ ـظِ فؤادى فأصابا
ما الذى قالته عينا كِ لقلبى فأجابا

---

(١) انظر فى ترجمة عبدالمحسن الصورى وأشعاره اليتيمة ١/٢٩٦ وتتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٣/٢٣٢ وعبر الذهبى ٣/١٣١ والنجوم الزاهرة ٤/٢٦٩ ومرآة الجنان ٣/٣٤ والشذرات ٣/٢١١ وديوانه مفقود .

فهو يصل بين رُضاب الثنايا فى ثغر صاحبته وبين المياه العذبة الحلوة ، ويجعل الحمرة على وجنتيها وردا تنتقب به . وهو بعد فى التصوير . ويجعلها غزالا من نوع غريب ، فهى غزال لا يُصاد ، بل يصيد بشباك لحظه ، وإنه ليخلب القلوب فتليه طائعة مستجيبة .

وقد استلهم ابن خفاجة هذا الجانب فى غزل عبد المحسن الصورى واستضاء به ، كما استضاء واستلهم فى أشعار أخرى له جانبا ثانيا فى غزل عبد المحسن ، ونقصد جانب الرقة والدماثة والنعومة على نحو ما نجد فى قوله :

أترى بثأرٍ أم بِدَيْنِ ... علقتْ محاسنُها بعَيْنى
فى لحظِها وقوامِها ... ما فى المهنّد والرُّدَيْنى
وبوَجْهِها ماءُ الشبا ... بِ خليطُ نار الوَجْنتين
بكرتْ علىَّ وقالتِ اخـ ... ـتَرْ خَصْلَةً من خَصْلتين
إما الصدودُ أو الفرا ... قُ فليس عندى غيرُ ذَيْنِ
فأجبتُها ومدامعى ... منهلّةٌ كالمِرْزَمَيْنِ[1]
لا تفعلى إن حان صَـ ... ـدُّكِ أوفراقُكِ حان حَيْنى
وكأنما قلتُ اذهبى ... فمضتْ مسارعةً لِبَيْنى

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها ، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا ، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء . وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها ، وكيف يختار لها الألفاظ التى تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها فى الآذان ، بل فى القلوب والأفئدة . ويقول فى صُدْغ شعر مرسل بين أذن صاحبته ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا :

جَنَى ما جَنَى وانْصَرَفْ ... وأنكرَ ثم اعترفْ
سلوا صُدْغه لِمْ جرَى ... ولما جرَى لِمْ وَقَفْ
وكان على أنّه ... يجوز المَدى فانْعَطَفْ

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله ، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف ، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجرى ثم يقف ، وهو يسترسل ثم

(١) المرزمان : نوءان شديدا المطر

ينعطف . وكان الشعراء يغارون على صواحبهم ، ويذكرون ذلك فى أشعارهم ، أما عبد المحسن فيقول :

تعلَّقتُه سكرانَ مِنْ خمرة الصِّبا ... به غفلةٌ عن لوعتى ولهيبى

وشاركنى فى حبِّه كلُّ أغيدٍ ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب

فلا تُلزمونى غيرةً ما عرفتها ... فإن حَبِيبى مَنْ أحبُّ حبيبى

وهو فى ذلك رقيق منتهى الرقة ، فهو لا يغار ممن يحب حبيبه ولا يكرهه أو يمقته ، بل أعجب العجب أنه يحبه ، وهى مبالغة مفرطة فى الرقة ورهافة الشعور .

ابن[1] منير

هو أحمد بن منير الطرابلسىّ ، ولد فى طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغنى فى أسواقها ، وأخذ ابنه فى نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وقدم دمشق وسكنها . ويقول العماد الأصبهانى كان شيعيا غاليا ، ويقول ابن خلكان : «كان رافضيا» . وكان هجاء خبيث اللسان ، وكثر هجاؤه فسجنه بورى بن طُغْتكين صاحب دمشق (٥٢٢ - ٥٢٥ هـ .) وعزم على قطع لسانه ، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز ، فأطلقه بورى على أن يغادر دمشق ، ورجع إليها بعد وفاته . غير أن حكامها بعد بورى ظلوا ينفونه مرارا ، مما جعله ينزل فى بلدان شامية متعددة وخاصة حماة وشَيْزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر ، وكان فى أثناء مقامه بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكى على الصليبيين فى بادين وغيرها من ساحات الحرب فى الشام. وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرُّها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى للمالك التى أسَّسها حملة الصليب . وأقام ابن منير حينئذ بحلب ، ونشأت بينه وبين ابن القيسرانى - بسبب المنافسة - معركة هجاء حامية الوطيس. وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكى ، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب ، وكان يصحبه فى غزواته ، واتخذه نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق فى بعض المهام ، ولم يلبث أن توفى بحلب سنة ٥٤٨ .

(١) انظر فى ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسى ٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٤٦/٤ .

وتناول ابن منير فى شعره أغراضا مختلفة فى مقدمتها المديح ، ومرَّ بنا – فى غير هذا الموضع حديث عن مديحه لعماد الدين زنكى وابنه نور الدين فى انتصاراتهما الرائعة على حَملة الصليب ، ويُشيد العماد الأصبهانى بشعره وروعته . وكان يكنى أبا الحسن ويلقَّب المهذب وقال فى وصف شعره أحد معاصريه : شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ ، أرقُّ من الماء الزُّلال ، وأدق من السحر الحلال ، وأطيب من نَيْل الأمنية ، وأعذب من الأمان من المنية . وله هجاء كثير. وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد ، وفى رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوى عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل الحسين ، وهو حزن صفَّى مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره ، ومن رائع غزله قوله :

مَنْ ركَّبَ البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ ... ومَوَّه السحرَ فى حَدِّ اليمانىِّ
وأنزل النَّيِّرَ الأعلى إلى فَلَكٍ ... مَدارهُ فى الكِساء الخُسْرُوانىِّ
طَرْفٌ رَنَا أم قِرابٌ سُلَّ صارمُهُ ... وأغيدٌ ماسَ أم أعطافُ خَطِّىِّ
أذلَّنى بعد عزٍّ والهوى أبدًا ... يستعبد اللَّيْثَ للظَّبْىِ الكِناسىِّ(١)
أما وذائبِ مسكٍ من ذوائبهِ ... على أعالى القضيب الخَيْزُرانىِّ
وما يُجِنُّ عقيقىُّ الشِّفاه من الـ ... ـرِّيق الرَّحيقىِّ والثَّغر الجُمانىِّ
أربَى علىَّ بشىٍ من محاسنه ... تألَّفتْ بين مسموعٍ ومَرْئِىِّ

والصور فى الأبيات طريفة غاية الطرافة ، فهو يتعجب من بدر يراه فى صدر رمح رديني مهيَّىء لإصابة المحب فى الصميم ، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين مموَّهًا فى حد السيف اليمانى وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض فى كساء فارسى حريرى . ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُلَّ سيفه القاطع ، وهل هو بإزاء قَدٍّ شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خَطِّىٍّ قاتل ، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبى الوادع الذى يعيش فى كناسه أو مأواه الآمن ، ويرى ذوائب الشعر على أعالى هذا الغصن الخيزرانى الأملس الناعم تقطر ذوب المسك ، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضى من الأسنان والريق الرحيق السائغ . وهى صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصور الشعرية عرضا طريفا . ويقول :

أتُرى يَثْنيه عن قسوتِهِ ... خَلُّه الذائب من رِقَّتِهِ

(١) الكِناس : مأوى للظبى فى الشجر يستتر به

أفأستنجده وهْو الذى لوّن الدمعَ على حِبْغتِهِ
ولهذا قَوْسُــه مُوتَــرَةٌ تستمدُّ النَّبلَ من مُقْلتِهِ
قمرٌ لا فخرَ للبَدْرِ سوى أنه صِيغَ على صورته
صُدْغُه كرمةُ خمرٍ قُسِّمتْ بين خَدَّيْه إلى نَكْهتِهِ
أتخالُ الخالَ بعلو خدِّه نَقْطَ مسْكٍ ذاب من طُرَّته
ذاك قلبى سُلِبَتْ حبّته واستوتْ خالا على وَجْنَتِه

والقطعة تموج بالصور ، فخدُّ صاحبته يلبوب رقة ، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القانى ، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل فى مقلتها يستمده . وقد بلغت من الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى ليفخر البدر بأنه صيغ على صورتها ، وكأن صدغيها أو خصلتى الشعر المرسلتين على خديها كَرْمَةُ خمرٍ قسمت بينهما واستحالت رضابا فى ثغرها يرشفه المحب . ويقول : لا تظن الخال على خدّها نقطة مسك سقطت من طُرّة شعرها ، بل هو حبّة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة .
وتكثر مثل هذه الصور البديعة فى شعره وغزله ، من ذلك قوله :

وتَوقَّدَتْ فى الرَّوْضِ من وجَناتِهِ نارُ الحياء يشبُّها ماءُ الصِّبا[1]

وقوله :

وكم له فى كبدى لَسْعَةٌ بُرودها التِّرْياقُ من فيهِ[2]

وقوله :

سلَّمتُ فازورَّ يَزْوِى قوسَ حاجبِهِ كأننى كأسُ خمرٍ وهْو مخمورُ

وقوله :

قمرٌ ما طلعتْ طَلْعَتُهُ قطُّ إلا سجدَ البدرُ لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والفصاحة فى الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة ، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل فى مملوكه « تتر » أنشدها الحموى فى خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة ، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه .

---

(١) يشبها : يوقدها .
(٢) بِرودها : شرابها. التّرياق : الترياق الشافى

الشاب[1] الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمسانى ، نشأ أبوه فى دمشق ، وخدم الدولة فى عدة جهات ، وعمل كاتبا وشيخا للصوفية وانتظم فى سلكهم ، ووفد على القاهرة ونزل بها فى خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم « سعيد السعداء » ووُلد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١ . وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح ، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر فى مثل قوله :

يا ساكنى مصرَ شَمْلُ الشوقِ مجتمعٌ   بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين فى دمشق ، وولى هو عمالة الخزانة بها ، وعاش مكفوف الرزق ، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون فى دورهم أو فى المتنزهات ، غير أنه لم يعش طويلا ، إذ عاجلته المنية فى الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨ .

وقد تناول الشاب الظريف فى شعره أغراضا مختلفة من المديح وغير المديح ، وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل ، لسبب طبيعى وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفى وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربى ، وكأنما تمثل ما فى أشعارهم جميعا من وجد قوى حار ، وبثَّ منه الكثير فى غزله ، مصورا ما يثير الحب فى القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء ، عارضا ذلك فى لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان والأفئدة . وفيه وفى شعره ورقته ينقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره :

« نسيم سَرَى ، ونعيم جرى ، وطيف لابل أخف موقعا منه فى الكرَى ، لم يأت إلا بما خف على القلوب ، وبرئ من العيوب ، رقَّ شعره فكاد أن يُشرَب ، ودقَّ فلا غرو للقُضُب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب ، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ ، سهل على الحفّاظ ، لا يخلو من الألفاظ العذبة ، وما تخلو به المذاهب الكلامية ، فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر » .

---

(١) انظر فى الشاب الظريف وأشعاره فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٢/٢ والنجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموى ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت .

وهى شهادة قيمة لابن فضل الله فى الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل ، إذ يموج شعره بالرقة وحسن الجرس وجمال التناسق ، مع خفة الروح ، وكأنما حمل فى صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشرهم فى نشأته ومطالع حياته ، ومن طريف غزله قوله :

لا تُخْفِ ما فعلتْ بك الأشواقُ ... واشرَحْ هَواكَ فكلُّنا عُشّاقُ
فعسى يُعينك من شكوتَ له الهوَى ... فى حَمْله فالعاشقون رفاقُ
لا تجزعنَّ فلستَ أولَ مُغرَمٍ ... فتكتْ به الوجناتُ والأحداق
واصبرْ على هجرِ الحبيب فربما ... عاد الوصالُ وللهوى أخلاق
يا ربِّ قد بَعُدَ الذين أحبُّهم ... عنى وقد ألِفَ الفراقَ فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة ، وهى تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمرى من أن الشاب الظريف كان يستخدم الكلمات العامية ، فليس فيها من العامية شىء ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة ، مما يُشيع الاستواء فى عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب فى تحدره ورقته وانطلاقه دون أى عائق لفظى ، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة ، على شاكلة قوله :

أعزَّ الله أنصار العيون ... وخلَّدَ ملكَ هاتيك الجُفون
وضاعفَ بالفتور لها اقتدارًا ... وإن تك أضعفتْ عقلى ودينى
وأبقى دولةَ الأعطاف فينا ... وإن جارتْ على قلبى الطَّعين
وأسبغَ ظلَّ ذاك الشَّعْرِ منه ... على قَدٍّ به هَيَفُ الغصون

وهو دعاء لصاحبته ملىء بالظرف والرِّقة والدماثة ، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وأن يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض من عالم الجمال والسحر ، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشرره تأثيرا فى القلوب . ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته فى الصميم : فى قلبه . ويستمر فى دعائه : أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة ، ويقول :

لى من هواك بَعيدُه وقريبُهُ ولك الجمالُ بديعُه وغريبُهُ
يا من أعيذُ جماله بجلاله حذرًا عليه من العيون تُصيبُهُ
إن لم تكن عينى فإنك نورُها أو لم تكن قلبى فأنت حَبيبُهُ
هل حرمةٌ أو رحمةٌ لمتيَّمٍ قد قَلَّ منك نصيرُه ونصيبُه
لم يبق لى سرٌّ أقول تذيعُه عنى ولا قلبٌ أقول تُذيبُهُ
والنَّجْمُ أقْربُ من لِقاك مَنالُه عندى وأبعدُ من رضاك مَغيبُه

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف ، فهو عاشق واله ، وهى ليست جميلة فحسب بل هى أيضا جليلة ، وهو يعيذ جمالها بجلالها حذرا من عيون الحاسدين . وهى نور عينه وَحبَّة قلبه ، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أوحرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود ، ويعترف بأن آلامه فى حبها ذاعت وشاعت ، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذاب التياعا لطول يأسه من لقائها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقائها منالا وأبعد من رضاها مغيبا . وهو فى غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله :

بِتَكَنِّى قوامك المشوقِ وبأنوار وجهك المشرقِ
جُدْ بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أوكلامٍ أو وقفةٍ فى الطريقِ
أو بإرسالك السلامَ مع الرِّ يح وإلا فبالخيالِ الطَّروقِ

وتدل كناياته فى وضوح على خفة ظله ، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظرف والتدله فى الحب وانقياد جلوته فى فؤاده . ولكل ذلك سماه معاصروه بحق « الشاب الظريف » . وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح ونفس اللغة .

حسن[1] البورينىّ

هو حسن بن محمد البورينىّ ، ولد بالأردن فى قرية صَفُّورية لسنة ٩٦٣ للهجرة ، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام ، واختلف فيها إلى حلقات العلماء ، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت

---

(١) انظر فى حسن البورينى وشعره ريحانة الألبا ٤٢/١ وخلاصة الأثر ٥١/٢

المقدس ، وفيه أتم تعلمه . وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس فى مدارسها والوعظ فى مساجدها . وتولى منصب القضاء فى الحج الشامى سنة ١٠٢٠ . وكان عالما ثبتا حُفظة فصيح العبارة . وله شرح على ديوان ابن الفارض الصوفى بحسب المعنى الظاهر ، دون أى محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود . وكان سنّيًّا شافعيا . وله كتاب فى تراجم الأعيان لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، وأفاد منه المحبى فى كتابه خلاصة الأثر .

وكان البورينى شاعرًا مجيدًا ، وجمع ديوان شعره ، ومنه مخطوطة فى مكتبة كوبريلى بالآستانة ، ويقول فيه الشهاب الخفاجى : « ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر ، ونكتة عطارد التى يفتخر بها الفخر » وروى له طائفة من غزله ، وهو فيه يستقى من نفس المعين الذى استقى منه الشاب الظريف ، ونقصد معين الشعر الصوفى وما فيه من وجد ملتاع ، ويكفى أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه ، فطبيعى أن يتأثر بحبه الإلهى الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى ، تصور الحب الملتاع الذى يصحبه دائما الفراق والحرمان ، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينعِق له غراب البين ، ويظل فى نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبته بمثل قوله :

يقولون فى الصبح الدعاءُ مؤثِّرٌ   فقلت نعم لوكان ليلى له صُبْحُ
وياعجبًا منّى أرومُ لقاءَهُ   وفى جَفْنه سَيْفٌ ومن قَدِّه رُمْحُ
وإنسانُ عينى كيف ينجو وقد غدا   يطول له فى لُجِّ مَدْمعه سَبْحُ
وليس عجيبا أنَّ دمعىَ أحمرٌ   وفى مهجتى قَرْحٌ وفى مقلتى رَشْحُ

فهو يعيش بدون صاحبته فى ليل لا آخر له ، ويعجب كيف يريد لقاءها وهى مسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق ، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التى يغرق فيها إنسان عينيه ، ومازالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما ، ويشعر كأن فى مهجته جرحا لا يبرأ وفى مقلته رشحًا لا يرقأ . ويقول :

وكنّا كغُصْنَىْ بانةٍ قد تألّفا   على دَوْحَةٍ حتى استطالا وأيْنَعا
يغنّيهما صَدْحُ الحمامِ مُرَجِّعًا   ويسقيهما كأسُ السحائب مُتْرَعا
سليمين من خَطْب الزمان إذا سَطَا   خَلِيَّيْنِ من قول الحسودِ إذا سَعَى

ففارقنى من غير ذنبٍ جَنَيْتُهُ وأبقى بقلبى حُرْقَةً وتوجُّعا
عفا الله عنه ما جَنَاه فإننى حفظتُ له العهدَ القديمَ وضَيَّعَا

وهى قطعة طريفة ، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبته كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان وُلدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معًا وتناولا الحياة تناولا واحدا ، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب متثنين هانئين ، لا عذول ولا حسود . وفجأة تهجره صاحبته من غير ذنب جناه . ويصطلى قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة ، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبته جنايتها ، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم ، أما هو فلا يزال ذاكراً له بل حافظا أمينا . ويقول :

منازلُ هذا القلبِ كنَّ أواهلاً وها هى من بعد الفراق طُلُولُ
ويا ظَبْىُ هل بعد النِّفار تأنُّسٌ ويا بدرُ هل بعد الأفول قفولُ
ويامنزلَ الأحباب أين ترحَّلوا وهم فى فؤادى - ما حييتُ - نزولُ
يميلون عنى للوشاة وإننى إليهم وإن طال الصدود أميل
علىَّ لهم حفظُ الوداد وإنْ جنَوْا وليس إلى نَقْض العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبته وأصبحت منازل قلبه طلولا دارسة ، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تآلف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع ، ويسأل منزل الحبية وقومها أين ترحلوا ، ويقول إنهم نزول فى قلبه لا يفارقونه أبدا ، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود ولا ينكثها ، بل سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه . وما يلبث أن يخاطب فى نفس القصيدة قمريا أوكما يسميه ابن ورقاء أى حمامة رمادية اللون قائلا :

وماهاجنى إلا ابنُ ورقاء سُحْرَةً له فوقَ أفنان الرياضِ هَديلُ
يُرَدِّدُ فى صُحْفِ الرياض . قصائدا من الشوق يُمْليها لنا ويَميلُ
يخَيَّلُ أن البَيْنَ آذَى فؤادَهُ وكيف ولما يَنْأَ عنه خليلُ
ولم تحتكم فيه الليالى ولم يَبِنْ عليه لبَيْنٍ رِقَّةٌ ونحولُ
أما والهوى لو ذقتَ ما ذقتُ فى الهَوَى لما ازدان بالأطواق منك تَليلُ

ألا إنه مافارقَ الإلْفَ دَهْرَهُ ومالى إلى وَصْلِ الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قمرى يتغنى سحرا بأشواق مابنى يرددها فى صحف الرياض ويمليها مخيِّلا كأنه يشكو من آلام بينٍ مبرِّح ولا بين ولا فراق ، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة ، ولا أصابه لفراقها ضَنًى ونحول . ويقسم له بالهوى لو ذاق أو جاعه وتباريحه مازدان تليله أوعنقه بطوق ، ويقول له إنه لم يفارق أليفتَه يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران . وكان يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله :

ورقُ الغصونِ دفاترٌ مشحونةٌ مملوءةٌ بـأدلَّة التـوحيـدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته ، وهو فيها دائما مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران . ومازال يردد هذا المعنى وما يتصل به ، حتى لبى نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة .

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية ، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما ، حتى سمى أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليباً لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ، وكان يزحمه من قديم شعر الهجاء ، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم ، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا فى الأعداء . وكانت معارك العرب – على مر السنين – بينهم وبين الأمم وقودًا مستمرًّا للفخر والهجاء ، فلم تخمد لها نار ، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن ، وكان شعراء الشام يشاركون فى تلك المعارك بسهام شعرهم النارية . ونكتفى بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحترى ، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين ، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم فى آسيا الصغرى ، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من مَحْق لا يكاد يبقى منهم باقية . وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربى كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم ، أو هم أنفسهم ، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم

أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع . وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحترى وغيرهما من الشعراء ، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم ، فنجد - بعامل المنافسة - شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه .

وكل ذلك نراه شائعا فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت الحرب محتدمة فى أوائله بين سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وبين الروم ، وكان يَكيل لهم ضربات قاصمة ، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقى ولا تذر . وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسَّرِىّ الرَّفاء . وشاعر الفخر الشامى الذى لا يبارى فى القرن الرابع الهجرى أبو فراس الحمدانى ، وسنخصه بترجمة مفردة . وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام فى القرن الخامس الهجرى قصيدة أبى العلاء المعرى التى أشرنا إليها فى ترجمته وفيها يقول[1] :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ
تُعَدُّ ذنوبى عند قومٍ كثيرةً   ولا ذنب لى إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى فى البلاد فمَنْ لهم   بإخفاء شمسٍ ضوءُها متكاملُ
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُهُ   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
ولى منطقٌ لم يرضَ لى كُنْهَ منزلى   على أننى بين السِّماكين نازلُ
ولما رأيتُ الجهلَ فى الناس فاشياً   تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنىَ جاهلُ
فواعجبًا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ   ووا أسفًا كم يُظْهِر النَّقصَ فاضلُ
ينافسُ يومى فىَّ أمسى تشرُّفا   وتحسُد أسحارى علىَّ الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبى العلاء المتشائمة الزاهدة فى الحياة وكل ما فيها من مجد ، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقيه فى فن الفخر ، وإما نظمها فى ساعة غضب ردا على بعض شانئيه وخصومه . ومع ذلك فهى تصور مكانته فى الأدب العربى ، وأنه فيه - بحق - السابق المجلِّى ، وهو يقول : من أين يلحقنى الذم وأنا أنهض بكل ما يكسبنى المجد والشرف من العفاف الطاهر

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٥١٩/٢ .

والإقدام الجرىء والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدَّت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا ، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا . وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذى لا يستطيع أحد إخفاءه ، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتى بما لم يستطعه الأوائل ، ومع أنه بين السماكين فى السموات العلا لا يزال منطقه أو عقله يطلب منزلة أعلى شأنا . ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل ، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسَّر على تظاهر الفاضل بالنقص . ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات ، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم يحسد عليه سحره . ويمضى أبو العلاء فى القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف .

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة ، وله يفتخر بقومه وبلائهم فى حرب الثغور ضد الروم[١] :

أهلُ الثغور إذا تلمّ مُلِمَّةٌ بَسَطوا رِماحًا دونها وسَواعدا
وأولو التُّقَى فإذا مررت عليهمُ لم تلق إلا مكرِما ومجاهدا
إن حاربوا ملئوا البلاد مَصارعًا أو سالموا عَمَرُوا الديار مساجدا
بيتٌ له النسبُ الجلىّ وغيره دعوى تريد أدِلَّةً وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم فى الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين. وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد ، ويقول إن بيتهم عريق فى العرب لا يطاوله أى بيت . ومن شعراء الفخر فى زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة - ولابن الساعاتى المار ذكره[٢] :

وإنى لآبى الضَّيْمَ من كل صاحبٍ وأكره قلبى أن يكون له خِدْنا
وإن بلدٌ لم أَغْدُ فيه مكرَّمًا نهضتُ فأعملتُ الجُدَيْلِيَّةَ البُدْنا[٣]
وما شان فَضْلى بين أهلى خمولُه وقد بلغتْ غاياتُه الإنْسَ والجِنَّا
فإنى كعود الهند هِينَ بِنَوْحِهِ وقد عبَّقت أنفاسُه السَّهْلَ والحَزْنَا

---

(١) ديوان ابن سنان الخفاجى ص ٢٣
(٢) ديوان ابن الساعاتى ٢/٢١٤
(٣) الجديلية البدن : النوق الضخمة

فهو يأبى الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا ، حتى لو أحسَّ أن بلدا ينبو به رحَل عنه إلى غير إياب ، ويبالغ فى بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن ، وإن اعتراه خمول بين أهله فمثله مثل عود الهند لا يُعرَفُ فضله فى دَوْحته ، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض .

ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش للمعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزرى للدار ذكره[1] :

يقدِّمنى عزْمى وحَظِّى مؤخِّرى ... ويوصلنى حزْمى ودهرى يقطِّعُ
وهمِّى من الدنيا المعالى ونَيْلُها ... وما همُّ قلبى الرَّقمتان ولَعْلَعُ[2]
ولا رَشأٌ أحْوَى ولا صَوْتُ قَيْنَةٍ ... ولا قَدَحٌ فيه الرَّحيق المُشَعْشَعُ[3]
ولكنما لَدْنٌ وأجْرَدُ سابحٌ ... ومسرودةٌ زَغْفًا وأبيضُ يَسْطَعُ[4]

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ فى الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر. وهمه طلب المعالى والظفر بها لا بمن يسكن روضتى الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه ، ولا بمن يتغنين غناء جميلا ، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه . إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضىءُ فى غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء . إنه من أهل العزم والحزم والمعالى لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر ، إنما يشغف بالبأس فى الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم .

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير ، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوفر وكثيرا ما كانت تحتدم بينهم المنافسات ، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء. وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة ، وقد يصبح سخرية جارحة ، وقد يصبح دعابة وإن لم تخل من مرارة ، كقول عبد المحسن الصورى وقد نزل ضيفا على أخ له[5] :

وأخٍ مسَّه نزولى بِقَرْحٍ ... مثل ما مسَّنى من الجوع قَرْحُ
بتُّ ضَيْفًا له كما حكم الدهـ ... ـرُ وفى حكمه على الحرِّ قُبْحُ

---

(١) ريحانة الالبا ١/١١٨
(٢) الرقمتان : قريتان فى شرقى نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل . لعلع : جبل فى نجد
(٣) الرشأ : ولد الظبية وتشبه به الفتيات ، والحوة : سمرة فى الشفة ، الرحيق المشعشع : العسل الممزوج
(٤) اللدن : الرمح . أجرد . فرس . مسرودة : درع . زغفا : سابغة . أبيض : سيف
(٥) اليتيمة ١/٣٠٠

قال لى إذ نزلتُ وهو من السُّكـ ـرة والهمُّ طافحٌ ليس يصحو
لم تغرَّبْتَ قلت قال رسول الـ ـلّهِ والقولُ منه نُصْحٌ ونُجْحُ
سافروا تَغْنَمُوا فقال وقد قا ل تمامُ الحديث صوموا تَصِحُّوا

وهى دعابة تلسع لَسْعَ الإبر ، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عَضِّ السلاح ونحوه ، كأنما نزوله عليه كان كارثة ، وقال إنه مسّه من الجوع قَرْحٌ لا يزال يَنِزُّ ألما ، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران : (إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله) أى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر . ويقول إن الدهر هو الذى حكم عليه هذا الحكم القبيح ، ولقد أصابته سكرة من الشح والهم ، فسأله سؤالا مزريا : لم تغربت ونزلت عندى ، فأجابه لقول رسول الله ﷺ : سافروا تغنموا ، فبادر إليه يقول : تمام الحديث : صوموا تصحّوا ، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده . ويقول الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ فى هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه[١] :

رأيتُ لؤما مصوَّرا جسَدًا شيمتُه الاحتيالُ والكذبُ
على سريرٍ كالنَّعْش لا رَهَبٌ يعلوه من هيبةٍ ولا رَغَبُ
يَحجُبُه بالهُجْر مَنْ يخاطبهُ بين السَّعالى وبينه نَسَبُ[٢]
يَفْرَقُه الناسُ للسَّفاهة والـ ـعقْرَبُ يُخْشَى وخدُّه تَرِبُ
للجَمْع والمنعِ قائمٌ أبدًا كالفيل لا تَنْثَنِى له رُكَبُ

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم ، بل لقد تحولت الأبيات فى يد الغزى إلى ما يشبه سياطا بل شُواظا من نار يصبه فوق رأسه صبا ، فهو تمثال للؤم والكذب ، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب فى ماله ، لما عُرف عنه من شحٍّ بغيض ، وأنه يصكُّ مخاطبه بكلام قبيح ، وكأنما هو ليس من البشر ، بل إن بينه وبين الغيلان نسبا قديما . والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب ، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه عن مستحقيه شُحًّا بغيضا لا يدانيه شح . وكان العرقلة الكلبى المتوفى سنة ٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه ، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا ، بل شعيرا فقال[٣] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعالى : الغيلان

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

يقولون لمْ أرخصتَ شِعْرَك فى الوَرَى فقلت لهم إذ ماتَ أهل المكارمِ
أُجازَى على الشعر الشعيرَ وإنَّه كثيرٌ إذا استخلصتهُ من بهائمِ

ومنذ زمن الغَزِّى يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم ، بل إن منهم من يعطيهم رُقَعًا مسطرة دون أن يفى بما فيها ، وكأنها كلام كاذب بكلام . ومن كبار الهجائين فى أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجِّف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة ، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول[١] :

يا ربٌ كيف بلوتنى بعصابةٍ ما فيهمُ فَضْلٌ ولا إفضالُ
متنافرى الأوصافِ يصدقُ فيهمُ الـ ـهاجى وتكذبُ فيهمُ الآمالُ
جُبنًا إذا استنجدتَهم للمُلِمَّةِ لُؤْمًا إذا استرفدتَهم بُخَّالُ
هم فى الرَّخاء إذا ظفرتَ بنعمةٍ آلٌ وهمْ عند الشدائد آلُ

وهو يخلى عصابته من كل فضل ويراها جديرة بكل ملمَّة فى مهجوٌ إذ تكذب فيها دائما الآمال . ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد ، لؤماء بخلاء ، وهم فى الرخاء أهل أو آل كما يقول ، وفى الضراء سراب أو آل يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وولَّى السلطان الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون للمذاهب الفقهية : للمذهب المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى ولقَّب ممثل هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكى بلقب شمس الدين ، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعا للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم[٢] :

أهـلُ الشـآم استرابوا من كـثرة الحكّـامِ
إذ هم جميعًا شموسٌ وحـالُـهم فى ظـلامِ

وكان شرب الحشيش المخدِّر عُرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه ، وشدَّد الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه ، ونظم كثير من الشعراء فى ذمه كقول الشاب الظريف[٣] :

(١) فوات الوفيات ٥٣٩/١
(٢) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبى شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧

ما للحشيشةِ فضلٌ عند آكلها | لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِهْ
صفراءُ فى وجهه خضراءُ فى فمهِ | حمراءُ فى عينهِ سوداءُ فى كَبِدهْ

وهو يقبِّحها غاية التقبيح بآثارها فى ماضغها من صفرة تعترى وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول فى كبده. ويقول مجير الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة فى هجاء كحّال[1] :

دَعُوا الشيخ من كحل العيون فكفُّه | يسوقُ إلى الطَّرْفِ الصحيحِ الدواهيا
فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسوادهِ | وألقتْ بياضًا خلفها ومآقيا

فكحله يعمى الأبصار ويقضى قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبق بها بَصيصا ولا غير بصيص. ولبعض شعراء دمشق فى هجاء القاضى شهاب الدين أحمد الباعونى الشافعى المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة[2] :

قضـاةُ الشـام أنشـدنى بـديـنى لا تـبـيـعـونى
صُفِعْتُ بكلِّ مصْفَعةٍ وبعدَ الكلِّ باعونى

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية. وفى كلمة «باعونى» تورية واضحة فهو لا يقصد «باعونى» من البيع وإنما يقصد القاضى الباعونى.

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه مَنْ لا يروقهم من الحكام ومن لا يسيغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبى المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة فى بخيل[3] :

بخيلٌ لو يبومٍ منه جادتْ | أنامِلُه لـخالتْهُ النَّدامَهْ
ولو فى النار أُلقِىَ ألفَ عامٍ | لما عُرِفَتْ له يوما سلامَهْ
ولو صارتْ بِسُفْرته رغيفا | ذُكاءُ لما بدتْ حتى القيامه

فهو شحيح لو فاته شحُّه يوما لظل نادما أبدا. وما تُرجى له سلامة من النار بل سيظل خالدا فيها، وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش للمستديرة كالشمس:

---

(١) فوات الوفيات ١/٥٤٠
(٢) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٤
(٣) ريحانة الألبا ١/١٠٨

ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لا ستترت الشمس حتى القيامة كسوفا وخجلا أن يرى شبيهها على سفرته أو مائدته . وحرىٌّ بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء .

أبو فراس[1] الحمدانى

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمدانى التغلبى ، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضى ، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة ، واقترن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهى كنية الأسد رمزا لفروسيته المستقبلة وهو رمز حققته الأيام . ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو فى سنته الثالثة ، وعنيت به أمه ، وأحضرت له المعلمين فى صباه . ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمدانى أن اشترك مع الأم فى العناية والرعاية ، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذى كفله وقام على تربيته فارسًا وأديبا خير قيام ، إذ أعطاه لبعض المدربين يدرِّبونه على الفروسية ، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن خالويه . وسرعان ما ظهرت فروسيته ونجابته ، فمنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب ، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وكان يلزم ابن عمه فى حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج ، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو ، وفى ديوانه مزدوجة طردية . غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوفا بصيد الحيوان إنما كان مشغوفا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم . ومرَّ بنا فى حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعى الهوى ، وقد عرضنا لميميته الملقبة بالشافية التى دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعا حارًّا ، وتشيُّع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية .

وظل يركب فى مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدقِّ أعناق الروم ، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب فى إحدى غزواته ، فاستعطفه راجيا أن يصحبه فى حربه . وكان دائما يبلى بلاء حسنا فى تقتيلهم وتمزيقهم شر ممزق ، وفى يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع

---

(١) انظر فى أبى فراس وشعره اليتيمة ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامى الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة مخطوطة فى مكتبات العالمين العربى والغربى ووضع حواشيه ورتب فهارسه .

غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة « تيودور » تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم فى فخذه ويبقى نصله فيه ، ويؤسر البطل المغوار ، ويَقْدُم به تيودور إلى خَرْشنة ويظل بها فترة . ثم ينقل إلى القسطنطينية ، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح ، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تنكسر أبدا ، بل تزداد مع الأيام عتوًّا وصلابة . ويُكْبِر الروم فى أبى فراس فروسيته وبطولته فينزلونه فى قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره ، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه ، فيظل بهما فى أسره .

ويطول الأسر أربع سنوات ، فتكثر أشعار أبى فراس إلى أهله وسيف الدولة وإخوانه مؤملا فى الإسراع بفدائه ، وكان مما أخره أن سيف الدولة يريده فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا فى شِراك الروم . وفى سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين ، وفى شهر رجب ينزل أبوفراس مع ثلاثة آلاف أسير عربى بخَرْشَنَةَ ، ويقْدُمُ سيف الدولة بأسرى الروم يفتدى بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب . ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب . ويتأثر تأثرا شديدا لمرض سيف الدولة وما أصاب جنوده من انكسارات وانهزامات متلاحقة . ويتوفى سيف الدولة فى السنة التالية ، ويدور العام ، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبى المعالى ويلقاه مولاه قُرْغُوَيْه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧ ويكون فى ذلك حَتْفُه ، ويقال إنه سقط جريحا فى ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزيًا قائلا فى ختام أبياته بلسان حالها :

زَيْنُ الشباب أبو فِرا   سٍ لم يُمَتَّع بالشباب

وطبيعى أن لا يكون المديح الموضوع الذى يستنفد شعر هذا الأمير الفارس ، إذ لم يكن فى حاجة إلى التكسب بشعره ، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذى يستغرق شعره : فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية ، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة ، وعلى الروم البيزنطيين ، وفخر بمثاليته الخلقية الكريمة وبطولته . وتُعَدُّ رومياته أو أشعاره فى أسر الروم القطعَ الأرجوانية فى ديوانه ، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كى يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر ، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن فى العرب وبسالتهم الحربية ، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه فى مَرْعش وجرح أبيه بها فى

وجهه ولأسر ابن أخته فى اللّقان وماكان من فراره على وجهه لا يلوى . وهو فى رومياته يحنّ إلى ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهى تسأل عنه الركبان حين أسر قائلا على لسانها :

يامَنْ رأى لى بحصن خرّشَنَةٍ أُسْدَ شَرًى فى القيود أرْجُلُها

ويرد عليها مسرعاً

يا أمّتا هذه مواردُنا نَعُلُّها تارة ونَنْهَلُها[1]

فواردهم الحرب ، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم . ويقول فى قصيدة ثانية : لولا أمى العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمى أبدا . ويقول لها :

يا أمّتا لا تيأسى لله ألطافٌ خفيّة
أوصيك بالصبر الجميـ ـل فإنه خيرُ الوصيّة

فهو واثق فى الله ثقة تامة ، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته ، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة ، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى فى الأسر ونزولهم به فى خرّشنة ، إذ سرعان ما أنشد :

إن زرتُ خرّشنةً أسيرا فلقد حللتُ بها مُغيرا
ولئن لقيتُ الحزنَ فيـ ـك فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات ، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئا مذكورا . ونشعر كأنما تجسدت فى روح أبى فراس كل معانى القوة العاتية التى تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شمالىّ إسبانيا ، على الرغم من أسره وماكان يعانيه من ألم وحزن ، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب .

وربما كان أروع قصائد أبى فراس حينئذ قصيدته الرائية التى نظمها حين قال الروم إن

---

(١) نعلُّها : نشربها تباعا . ننهلها : نشربها ابتداء

أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم تسلب منه سلاحه ، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه .

أراكَ عَصِىَّ الدمعِ شيمتُكَ الصَّبْرُ ... أما للهوى نَهْىٌ عليك ولا أمْرُ
بلى! أنا مشتاقٌ وعندىَ لوعةٌ ... ولكنَّ مثلى لا يُذاعُ له سِرُّ
معلِّلتى بالوصلِ والموتُ دونه ... إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القَطْرُ
تسائلنى مَنْ أنت؟ وهْىَ عليمةٌ ... وهل بفتًى مثلى على حاله نُكْرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاء لها الهوى ... قتيلُكِ قالت أيُّهم فهمُ كُثْرُ
وقالتْ لقد أزْرَى بكِ الدهرُ بعدنا ... فقلتُ معاذَ الله بل أنتِ والدَّهْرُ

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة ، فهو لا يبكى ، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء ، مع ما يستعر فى قلبه من لوعة إزاء معلله بوصل لا يناله ، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت؟ تجاهل العارف ، فيقول لها قتيلك ، فتسأله أيهم فهم كثيرون . وتقول له : لقد نال منك الدهر ، يكنى بذلك عن أسره ، فيقول لها معاذ الله : بل أنت والدهر . ويمضى فى حوارها قائلا لها : لا تنكرينى يا ابنة العم فإننى غير منكر فى معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعوَّدة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا ، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته :

أُسِرْتُ وما صَحْبِى بعُزْلٍ لدى الوَغَى ... ولا فرسى مُهْرٌ ولا ربُّه غُمْرٌ(١)
ولكنْ إذا حُمَّ القضاءُ على امرئٍ ... فليس له بَرٌّ يقيه ولا بَحْرُ
يمُنّونَ أنْ خَلَّوْا ثيابى وإنما ... علىَّ ثيابٌ من دمائهمِ حُمْرُ
سيذكرنى قومى إذا جَدَّ جِدُّهم ... وفى الليلة الظَّلْماء يُفْتَقَدُ البَدْرُ
ونحن أُناسٌ لا توسطَ بيننا ... لنا الصَّدْرُ دون العالمين أو القَبْرُ
تهونُ علينا فى المعالى نفوسُنا ... ومن خطب الحسناء لم يُغْلِهِ المَهْرُ
أعزُّ بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا ... وأكرمُ مَنْ فوق الترابِ ولا فَخْرُ

يقول : أُسِرت وورائى صحبى يشهرون السيوف فى الحرب ولا يغمدونها أبدا ، إنهم فرسان

(١) غمر : قليل التجربة . عزل : لا يحملون سلاحا

أبطال ، وما أُسرتُ جبنا ولا كان فرسى مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال ، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء ، وإنما هو القضاء الذى لا مَعْدَى عنه ولا مفر منه فى بر أو بحر . ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم مَنُّوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية ، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعده استشعار . ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم ، إذ طالما دقَّ نصال سيوفه فى أعناقهم وصدورهم . ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب ، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه فى الأعداء . وكأنما يضع قوانين الشباب العربى والأمة العربية ، إنها ترمى بنفسها فى أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر ، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم فى نيل المعالى ، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا ، بل إنه يقدمه راضيا حتى لوكان روحه وقلبه . ويقول مَنْ مثلنا : نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا . والقصيدة تصويدة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم ، وهى جديرة بأن يضمَّها كل شاب عربى إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة . وحانت منه التفاتة – وهو فى سجنه – إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح ، فأنشد :

أقولُ وقد ناحتْ بقربى حمامةٌ   أيا جارَتا هل تَشْعُرين بحالى
معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النَّوى   ولا خَطَرتْ منك الهمومُ ببالِ[1]
أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ   على غُصُنٍ نائى المسافة عالى[2]
أياجارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا   تعالَىْ أقاسمْكِ الهمومَ تعالى
أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقةٌ   ويسكت محزونٌ ويندبُ سالى
لقد كنتُ أولى منك بالدمع مُقْلَةً   ولكنَّ دمعى فى الحوادث غالى

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجونَ فى نفسه ، ويُعيدها من نوى وفراق كفراقه وغربة كغربته وهموم كهمومه . ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا ؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكى حرة طليقة ؟ بل كيف يسكت محزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا ؟ ولا يلبث أن يقول لها : لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة ، غير أن دمعى فى الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا ، وإنه ليتجشم أثقالها ويتحملها فى قوة . وشعر أبى فراس وراء رومياته يكتظ بالفخر

---

(١) النوى : الفراق   (٢) القوادم : ريشات أربع كبار فى مقدم الجناح

والحماسة ، وله قصيدة رائية فى ٢٢٥ بيتا فخر فيها فخرا مضطرما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم فى الإسلام وما شادوه من إماراتهم فى الموصل وحلب . وشعره - بحق - يُضْرِم الحميَّة فى النفس العربية .

عَرْقلة (١)

هو حسان بن نمير الكلبى الدمشقى ، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت ، فغدا بشعره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم . وكان لأسرة طُغْتِكين نصيب كبير من مديحه ، وخاصة آبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها . ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه ، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه فى تلك الرحلة ، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور ، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل فى قلعة جعبر ومدينتى آمد وماردين . وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيما بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا ، وله فيه طائفة من المدائح ، ويذكر له فى إحدى مدائحه أنه شيعى قائلا :

أنا من شيعة الإمام حُسَيْنٍ لستُ من سنَّة الإمام يَزيدِ

فهو ليس سنيًّا ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم ، بل هو شيعى من أنصار الحسين . وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين ، وكان أيوب بن شاذى وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين فى مقدمة حاشية نور الدين ورجاله ، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم ، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم فى مجالس لهوهم وسمرهم . وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحْضِره مجالس أنسه . ووصفه العماد الأصبهانى حينئذ فقال : « لقيته بدمشق شيخا خليعا رَبْعَةً مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشرا للأمراء ، شاعرا مستطرف الهجاء ، لم يزل خِصِّيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر ، وللملك الناصر صلاح الدين يوسف أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه

---

(١) انظر فى عرقلة الدمشقى وشعره الخريدة (قسم الشام ١/١٧٨) وفوات الوفيات والنجوم الزاهرة ٦/٦٤ والشذرات ٤/٢٢٠ وقد طبع بمجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه .

مدائح ، ولديه منه منائح » . وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار ، وَوَفَى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧ .

ويبدو أن عرقلة كان فى أوائل حياته يقصد أوساط الناس ، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا . فغضب ، وأنشد ما مرَّ ذكره من قوله :

يقولون : لِمْ أرخصتَ شعرك فى الورَى ... فقلتُ لهم إذ ماتَ أهلُ المكارمِ
أجازَى على الشِّعْرِ الشَّعيرَ وإنَّهُ ... كثيرٌ إذا استخلصتَه من بهائمِ

واشتهر فى زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد - كما أسلفنا - إنه كان مستطرف الهجاء ، إذ كان يحاول فيه التندير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره ، كقوله فى مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضَرْبه وتلحينه :

علىٌّ صَوْتُه سَوْطٌ ... علينا لا على الفَرَسِ
وجملةُ ضربه ضربٌ ... لمُتْرعِ ومُـــــــترسِ
يقول السامعون له ... رمـــاه الله بالخَرَسِ
وخُذْ يا ربُّ مهجتَه ... إذا غنَّى : (خُذِى نَفَسى)

فهو لا يجعل صوته يصكُّ الأسماع فحسب ، بل يجعله يكويها كى السياط للخيل ، أما ضربه فكأنه ضرب حقيقى يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانًا تُشجى السامعين وتطربهم ، مما يجعلهم يدعون عليه بالخرس بل بالموت حين يغنى ، وكان بالصدفة يغنى مقطوعة أولها : « خُذِى نفسى » . ويقول لبعض مهجويه :

لك وجهٌ كأنَّهُ الـ ... ـبَدْرُ لكنْ إذا كُسِفْ
وقوامٌ كـأنـــهُ الـ ... ـغُصْن لكنْ إذا انقصَفْ
وبـنـانٌ كـأنـه الـ ... ـبحر لكنْ إذا نَشِفْ
وأبٌ أكلبُ الأنـا ... مِ ولكنْ إذا حَلَفْ

وهو فى الأبيات الثلاثة الأولى يبدأ بالمدح لكن لا يلبث أن يمحوه بل أن يرده عليه هجاء وإقذاعا شديدا ، فهو صاحب وجه كاسف وقوام قصير منقصف وبنان شحيح لا يقطر بأى خير ،

أما أبوه فكذاب أشر. وكان بدمشق فى زمنه طبيب يسمى أبا الحكم تصادف أن وقع ليلا فانشتر جَفْنُ إحدى عينيه ، وكان هذا الطبيب كثيرا ما يرثى من يموت فقال عرقلة متندرًا عليه :

لنا طبيبٌ شاعرٌ أَشْتَرٌ ... أراحنا من شخصه اللّهُ
ما عادَ فى صُبْحةٍ يومٍ فَتًى ... إلا وفى باقيه رثاه

فهو يدعو عليه بالموت حتى يريح العباد منه ، إذ لا يعود ولا يزور أحدا صباحا حتى يكتب له قصيدة رثاء مساء. فهل وراء ذلك شؤم يتمنى الناس الخلاص منه. وكان يُقْذع أحيانا فى هجائه ، حتى فى الموت. ويقول فى رثاء بعض خصومه :

لقد حَسُنَتْ به اليومَ المراثى ... كما حَسُنَتْ به أمس الأهاجى
ولكنْ لجَّ فى شَتْمِ البرايا ... وكان القتلُ عاقبةَ اللَّجاجِ

وهى شماتة تدل على أنه كان عدوانى المزاج ، وله رثاء لاذع لبعض المجان ، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكينه بكاء مرا.

أسامة[1] بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبى ، من أعلام بنى منقذ أصحاب قلعة شَيْزَر إلى الشمال من حَمَاة ومن علمائهم وفرسانهم. ولد لأبيه سنة ٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا ، ولقى - وهو شاب - فى صيده أسدا فصرعه. ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخيه سلطان ولم يكن له ولد ، فتبنَّى أسامة وأخذ يعدُّه للإمارة بعده. وكان اسم عماد الدين زنكى قد أخذ فى التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق به أسامة وأبلى بلاء حسنا فى حروبه ضد حملة الصليب ، حتى إذا أغاروا على شَيْزَر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنها دفاعًا مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهم خاسئين. وبمقدار فرحه

---

(١) انظر فى أسامة وشعره تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ ومعجم الأدباء ١٨٨/٥ والخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ والنجوم الزاهرة : الجزءين الخامس والسادس فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقريزى ١٢٥/١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ ومرآة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة. وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته. وطبع له فى القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار.

بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى فى العام السابق لتلك المعركة . وصمم على المكث فى مسقط رأسه لحمايته غير أن عمّه لم يتركه طويلا ، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة ، فتفرقوا فى البلاد . ومضى أسامة إلى دمشق ولقيه حاكمها معين الدين أُنَر مدبر دولة أولاد طُغْتِكين لقاء حسنا ، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهرَّ الجو ولم يجد أسامة بُدًّا من مفارقة دمشق . فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد ، وكان الخليفة الفاطمى حينئذ الحافظ (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع سنىٍّ عاش به حياة رَغْدة .

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلاَّر لأسامة ، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل ، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجى ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة . ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه . وتطورت الأمور فتولّى الفائز بن الظافر الخلافة وهو صبى يحبو فى الخامسة من عمره ، وكاتَب أهل القصر طلائع بن رُزِّيك الوالى بالصعيد ، فقدم فى جيش إلى القاهرة ، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة ، وولوا وجوههم إلى الشام . وأسرعت أخت الظافر ، فكتبت إلى حَملة الصليب بعسقلان – وكانوا قد استولوا عليها حديثا – تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا ، والتقوا بهم وواقعوهم ، فقُتل عباس ، ورُدَّ نصر إلى القاهرة ، وفرَّ أسامة فى نفر معه إلى دمشق . وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذى استولى عليها فى سنة قدومه سنة ٥٤٩ ، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه ، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته ، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب فى مياه عكا وكانت مع الصليبيين ، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع ، وتجشمت الأسرة كثيرا من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم فى نفس أسامة .

ونزلت بأسامة فى سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولا ، إذ دمرت الزلازل قلعة شَيْزَر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتتوا فى البلاد ، وتملكها نور الدين خشية عليها من حَملة الصليب ، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته ، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه :

سلطانُنا زاهدٌ والناس قد زَهِدوا   له فكلٌّ على الخيرات منكمشُ
أيامُه مثلُ شهر الصومِ طاهرةٌ   من المعاصى وفيها الجوعُ والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوِّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد ، وأما

أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أُخذت قهرًا من حملة الصليب ، وفيها غير بلد عربى رُدَّ منهم إلى أهله . وقد شارك هو نفسه نور الدين فى بعض انتصاراته عليهم ، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة . وأدّته موجدته – فى رأينا – من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كَيْفَا بالموصل ويتخذها دار مقام له ، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه ، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه . ولبّاه مبتهجا ، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له فى مجالسه ، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لبّى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما .

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات ، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب ، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء . وأهم أبواب شعره باب الفخر ، إذ كان فارسا شجاعا ، وشارك فى حرب حَملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه ، وجلّى فى معارك عماد الدين زنكى ضدهم ، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه فى وجوههم حتى بلغ السبعين ، يقول :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى ... أن شِبْتُ فيها وخيرُ الخيلِ ما قَرِحا[1]
أخوضها كشهاب القذْفِ مبتسما ... طَلْقَ المحيَّا ووجْهُ الموت قد كَلَحا[2]
بصارمٍ من رآه فى قَتام وَغًى ... أفرى به الهامَ ظن البرقَ قد لمحا[3]
فسَلْ كُماةَ الوَغَى عنى لتعلم كم ... كربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بِىَ انْفَسحا

فهو قد نازل كماة الحرب أو شجعانها منذ سنه الخامسة عشرة ، وظل ينازلهم حتى اشتعل رأسه شيبا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة مستتمة سنوات فحولتها . وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسمَ الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه . وإن سَيْفَهُ ليلمع فى غبار الحرب – وهو يحطم به الرءوس حطما – كبرق يسطع ، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم فى الحروب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق . ومن قوله فى تنكيله بحملة الصليب فى غير موقعة :

---

(١) الكماة : الشجعان . قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره

(٢) طلق المحيا : مستبشر الوجه . كلح : عبس

(٣) قتام وغى : غبار حرب . أفرى الهام : أشق الرءوس

كم قد أبدتُ بسيفى كلَّ مفتخرٍ حامى الحقيقة يومَ الجَحْفل اللَّجِبِ[1]
وكم تركتُ بنى الإفرنج فى رُعُبٍ فصرتُ أُدعى لديهم جالبَ الرُّعُب
وكم جررت إليهم جَحْفلا لجِبًا بـالسَّـابِريَّـة والماذِىِّ والـيـلَبِ[2]

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم النزال الطاحن . ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب فى قلوب حملة الصليب حتى سموه - جزعا - جالب الرعب ، وكم قاد إليهم جيوشا لخفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم . ويقول :

سَلْ بى كماةَ الوَغَى فى كلِّ معترَكٍ يضيقُ بالنفس فيه صَدْرُ ذى الباسِ
يُنَبِّئوك بأنى فى مضايقها ثبتٌ إذا الخوف هزَّ الشاهقَ الرّاسى

فهو يجلّى فى المعارك حامية الوطيس التى تبلغ فيها الروح الحُلقوم ويرى الكماة فيها الموت نصب أعينهم ، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز الخوف والفزع الجبال الرواسى من الكماة العُتاة .

ولأسامة قصيدة نظمها على لسان نور الدين مفاخرا معددا لانتصارات البطل على حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول :

أبَى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ لتحيا بنا الدنيا ويفتخرَ العَصْرُ
جعلنا الجهادَ هَمَّنا واشتغالنا ولم يُلْهِنا عنه السماعُ ولا الخمْرُ
بنا أُيِّدَ الإسلامُ وازداد عِزّةً وذلَّ لنا من بعد عزّته الكُفْرُ
بنا استرجع اللّهُ البلادَ وأمّن الـ ـعبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قَهْرُ

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر فى دكِّ قلاع الصليبيين وحصونهم ، وبه استُرجع كثير من بلاد الشام وأُمِنَ فيها الناس ، ووُضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة . ونور الدين - بدون ريب - هو الذى هيأ لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم . ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك فى نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه ، فلم يعد يستطيع

---

(١) حامى الحقيقة . حامى الحمى . الجحفل اللجب : الجيش الكثيف كثير الضجيج

(٢) السابرية : الدرع المحكمة النسج . الماذى : السلاح . اليلب . الترس .

ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه :

رجلاىَ والسبعون قد أوهنتْ قُواى عن سعى إلى الحرْبِ
وكنت إن ثُوبَ داعى الوَغَى لبَّيْتُه بالطَّعْن والضَّرب[1]
أشقُّ بالسيف دُجَى نَقْعِها شَقَّ الدياجى مُرْسَلُ الشُّهْبِ[2]
أنازلُ الأقران يُرْدِيهُمُ من قبل ضربى هامَهم رُعْبِى[3]

فقد وهن عظمه وضعفت منَّته ، ولكن لاتزال روحه قوية ، وإنه ليذكر ماضى فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعى للحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس فى مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحجب الظلام فاتكا بالأقران ، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا .

ابن[4] عُنَيْن

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنَيْن ، يرجع بنسبه إلى الأنصار ، نزل أجداده الأولون الكوفة ، وتركتها أسرته إلى زَرْع فى حوران بالشام . وهاجر منها أحد أجداده الأقربين واستقر فى دمشق ، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة ، وكان منزله جنوبى الجامع الأموى ، فبعد أن حفظ القرآن أخذ يختلف إلى شيوخه وفى مقدمتهم الحافظ أبوالقاسم بن عساكر . وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو فى السادسة عشرة من عمره . ولا نعرف الأسباب التى جعلته يتجه بشعره فى بواكير حياته إلى الهجاء ، ربما كان عدوانيا بطبعه ، وربما رجع ذلك إلى أنه نشأ فى أسرة متواضعة ، وأن أباه لم ينشّئه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة فى التسامى وطلب المعالى ، وقد صرّح بذلك فى بعض شعره قائلا فيه :

وجنَّبنى أن أفعلَ الخيرَ والدٌ ضئيلٌ إذا ما عُدَّ أهلُ المناسبِ

---

(١) ثوب : دعا

(٢) النقع : غبار الحرب

(٣) يرديهم : يهلكهم

(٤) انظر فى ابن عنين وشعره ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣٨/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ٦٦٤/٨ ، ٣٩٨ ، ٦١٠ ومفرج الكروب لابن واصل ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل مردم (نشر دار صادر ببيروت) .

بعيدٌ عن الحسنى قريبٌ من الخَنا وضيعُ مساعى الخير جَمُّ المعايبِ
إذا رمتُ أن أسمو صعودًا إلى العلا غدا عِرْقُه نحو الدَّنِيَّة جاذبى

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقامَ لضعة أسرته وأبيه ، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبى البطل المغوار الذى أذلَّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس للمعظم منهم وغيره . هذا البطل الذى احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين فى العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه ، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضى الفاضل وكاتبه عماد الدين الأصبهانى وغيرهما من كبار حاشيته ورجاله وفيه يقول :

سلطانُنا أعرجٌ وكاتبُهُ ذو عَمَشٍ والوزير مُنْحَدِبُ

وكان القاضى الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفوة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول . وذاعت لابن عُنين فى دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض ، وضجَّ الناس من لسانه وبهتانه ، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين ، فأمر بنفيه عن دمشق ، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهندِ . ثم رحل إلى اليمن وحاكمها من قبل صلاح الدين أخوه طُغْتِكين (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ .) فوفد عليه ، وقدم إليه مدائحه فلقيه لقاء كريمًا وخفَّ على قلبه فاتخذه نديما ، وأخذ يكثر من مديحه وطغتكين يكثر من عطائه ، حتى أثرى ، وكثر فى يده المال ، فرأى أن يستثمره ، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر فى العقد التاسع من القرن السادس .

وكانَ العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفِّى صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها ، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التى يحملها إلى مصر ، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت فى أيام نيابته عن أبيه أو فى أيام سلطنته ، وهو فيها يهجوه بالشحِّ بينما يمدح عمَّه العزيز طغتكين بالكرم ، يقول :

ما كلُّ مَنْ يتسمَّى بالعزيز لَهُ فَضْلٌ ولا كلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ(١)
بين العزيزين بَوْنٌ فى فعالهما هذاك يُعطى وهذا يأخذ الصَّدَقَهْ

(١) غدقة : غزيرة المطر .

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله – لشدة شحه – شحاذا يأخذ الصدقة . ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها ، يقول ابن خلكان : « اتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل فى ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش». وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتولى بعده أخوه الأفضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين فى مصر والشام إلى أخيه الملك العادل ، فولّى على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى . وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له فى العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧ – ٦٢٤ هـ) يمدحه ، وقرّبه منه واتخذه بأخرة من أيامه وزيرًا له ، حتى إذا توفى رثاه رثاء حارا . وأبقى له منزلته ابنُه داود (٦٢٤ – ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض ، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما .

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية ، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء . وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر ابن عنين فى كتب التاريخ والأدب . وهو فى مقدمة شعراء دمشق بزمنه إن لم يكن سابقهم المجلىّ ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة ، غير أنه استغلها أكبر استغلال فى الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه – كما مر بنا – عن دمشق ، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلاًّ ولا ذمة ، إذ كان ما يلبث أن يعضّ أيديهم التى امتدت لإكرامه ، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذى فتح له أبواب دمشق ، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها :

إن سُلْطاننا الذى نرتجيهِ واسعُ المال ضيّقُ الإنفاقِ
هو سيفٌ كما يقالُ ولكنْ قاطعٌ للرسوم والأرزاقِ

وكان العادل يلقب سيف الدين ، وأنقذه من تشتته وضياعه فى البلاد وردّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التى طالما تغنى بالحنين إليها ، ومع ذلك جزاه بالهجاء . وحقًّا له فيه مدائح رائعة ، ولكن كان ينبغى أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته . وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيره ومستشاره ، ومع

ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها بن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية :

أرى ابن عُتَيْنٍ والبَها مذ توليا على الناس وَلَّى الخيْرُ عن كل مُسْلِمِ
فوالله ياعيسى بمن شِئْتَ منهما لُعِنْتَ ولوكنت المسيحَ بن مَرْيَمِ

وحقًّا هجا نفسه معه ، ولكن هذا لا يعفيه من قَسمه له بأنه لُعن لتوليته هو وصاحبه . وهجا نفسه في ديوانه غير مرة ، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه ، وأيضا فإنه استعار منه – كما مرَّ بنا – هجاءه لأبيه . وأهداه طبيب عيون – أو كما كانوا يقولون كحال – خروفاً هزيلا جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها :

أتاني خروفٌ ما شككتُ بأنّه حليفُ هوًى قد شفَّه الهَجْرُ والعَذْلُ
إذا قام في شمس الظهيرة خلتَهُ خيالا سرى في ظلمةٍ ماله ظِلُّ
فناشدتُه ما تشتهي قال قَتَّةٌ وقاسمتُه ما شفّه قال لى الأكْلُ
وظلَّ يراعيها بِعَيْنٍ ضعيفةٍ ويُنشدها والدمع في الخدِّ منهلُّ
أتتْ وحياضُ الموت بيني وبينها وجادتْ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة ، وقد جعل الخروف الهزيل نِضْوَ عشقٍ شفه الهجر واللوم ، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل ، وهي صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهي فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له ، فظل يراعيها بعين ذابلة توشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده ، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه . وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه في الحلقوم .

ويصور ابن عنين بخيلا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما ، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا ، ومُدَّت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام ، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلا :

فهدى به واليَدُ اليمنى يَكُفُّ بها غَرْبَ المدامعِ والأخرى على الكبِدِ
يقول للخبز : لا يبعد مَداك ولا أختى عليك الذى أخنى على لُبَدِ

ولبد آخر نسور لقمان في قصة مشهورة ، وهذا الشحيح يستر غرب دمعه بيد ويضع الأخرى

على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتى الدهر عليه كما أتى على لبد . وكان يهاجي رشيد الدين عبد الرحمن النابلسى ويزعم أنه صُفع وأنه معتاد الصفع دائما يقول :

تعجَّب قومٌ لصَفْعِ الرشيدِ وذلك مازال من دابِهِ
رحمتُ انكسارَ قلوبِ النِّعالِ وقد دنَّسوها بأثوابِهِ
فوالله ما صَفَعوه بها ولكنهم صفعوها بهِ

وله أهاج كثيرة فى القاضى الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجهابذة قضاتها وشيوخها ، وهو فيها أو على الأقل فى بعضها يفحش إفحاشا شديدا ، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها ، لا لفحشها فحسب : بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان .

ابن[1] النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبى المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه فى البلدان الشامية والمصرية والحجازية ، كان جميل الصورة فى صباه ومطالع شبابه ، ثم أصيب بمرض بدَّل محاسنه وزهده فى الحياة . ونراه فى شعره يرثى تلك الأيام أسفا محزونًا ، ويقال إنه تزيَّى بزى الزهاد ورحل عن بلده ، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما . وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر ، وكانوا يجتمعون فى نزه دمشق ، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات . وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذى تحدثنا عنه بين شعراء المديح ، وله فيه مدائح كثيرة . ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلا ومكانا طيبا ، وهاجر منها إلى مكة ، وألقى عصا تسياره بالمدينة ، إلى أن توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة . ويقول فيه المحبى فى كتابه : نفحة الريحانة : « أنا لا أجد عبارة تنى فى حقه بالمدح ، فأرسلت اليراع وما يأتى به على الفتح ، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره فى آذان الزمان ، وساحرٍ إذا أُشربتْ كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان » .

وابن النحاس شاعر مجيد ، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين ، وشعره استنفده فى المديح ، ويكثر فى مقدماته من الغزل ، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله :

---

(١) انظر فى ابن النحاس وشعره سلافة العصر ص ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ وديوان ابن النحاس مطبوع قديما فى بيروت بالمطبعة الأنسية .

ألا إن لى نفسَ الوَقورِ وعفّةَ الـ ـقليبو وقلبى فى المهمات قُلَّبُ
وما كلُّ مَعْسول اللَّمَى يستفزّنى ولا كلُّ مطلوبٍ لدىَّ محبَّبُ[1]
وأحتملُ المكروه ممن يملّنى ولم آلُو جيدَ الودِّ عمن ينكّب
إذا أنا لم أدفع عن النفس ضَيْمَها فلا انجاب عنها من دُجَا الضَّيْم غَيْهَبُ
ولا وَطِئَتْ خدَّ الفيافى ركائبى ولا سالَ حَزْنٌ بالمطىِّ وسَبْسَبُهُ

وهو يقول عن نفسه إنه وقور عفيف قُلَّب يحتال فى قوة للأمور ، ولا يستهويه جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس ، بل يطلب الأمانى الكبار ، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه ، ولا ينصرف عمن يُعْرض عنه من الأوِدّاء الأصدقاء ، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم ، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافى ركائبه ولا يسيل بها حَزْن من الأرض ولا مفازة . ويقول من قصيدة ثانية :

يـادهـرُ مـثلى لا يُـقْلْـ ـقَلُ عن سَنام المجد جَنْبُهْ
أنا لا أبالى إن رُميـ ـتُ وسبَّ عِرْضى مَنْ أسبُّهْ
الـعينُ يدميها الـذُّبا بُ ويُعْجِز الآسادَ ذَبُّه
والـتِّـبْرُ يعلوه الـتُّرَا بُ وفضلُه باقٍ ولُبُّه
تكفى فَتَى العِرْفان خـ ـلاَّتـا فضـائـلُه وكُـتْـبُـهْ
وارقبْ خُفُوقى إن سكنـ ـتُ فعاصفى يُزْجَى مَهَبُّه
والبدرُ يشرق فى المطا لع بعد ما أخفاه غَرْبُهْ
والروضُ يَذْبل ثم تُكْـ ـسَى النَّورَ والأوراقَ قُضْبُهْ

وهو يقول للدهر إن شيئا لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد ، وإنه ليرمى ، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم ، مثله فى ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته . ويفتخر بفضائله ومعارفه ، ويقول لخصمه : ترقّب حركتى ، فإنى كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع ، وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق ، أوكمثل الروض تذبل

---

(١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة

أشجاره ، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة . ويقول :

لا أقبل الضيم كيف أقبلهُ ؟ والمجدُ يأباه فيَّ والحسَبُ
والشمسُ صَوْنًا لضوء طلعتها قبل لِحَاقِ الظلام تحتجبُ

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالةً منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان . وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها ، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخى الليل سدوله على الآفاق .

٣

شعراء المراثى والشكوى

المراثى قديمة فى الشام منذ عصر بنى أمية فقلما كان يموت خليفة أموى إلا ويرثيه الشعراء من الشام والعراق والحجاز ، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثانى تشارك الشام بقوة فى الشعر العربى ، ولا يلبث أبو تمام الدمشقى أن يحمل راية الشعر وزعامته لا فى الشام وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه ، وتحتل المراثى بابا كبيرا فى ديوانه ، ويخلفه تلميذه البحترى المنبجى الحلبى المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المراثى حيزا كبيرا فى شعره . ونلتقى فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات بكشاجم . وله رثاء فى أبيه وأمه ، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبى فراس لأمه حين جاءه نعيها فى أسر الروم ، فأحس فى عمق بفجيعته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة . وله مرثية بديعة فى أخت له يقول فيها[١] :

أتزعم أنك خِدْنُ الوفاء وقد حَجبَ التُّربُ من قد حجبْ
فإن كنت تصدقُ فيما تقولُ فمُتْ قبل موتك مَعْ من تُحِبْ
وكنتُ أقيكِ إلى أنْ رمتْكِ يَدُ الدهر من حيث لا أحتسبْ
فلا سلمت مقلةٌ لم تَسُحَّ ولا بقيتْ لِمَّةٌ لم تَشِبْ
ولو رُدَّ بالرُّزْء ما تستحقُّ لما كان لى فى حياتى أربْ

---

(١) الديوان ٤١/٢

وهو يتمنى لو غُيّب الترابَ مع شقيقته وصِنْو روحه حبا لها ووفاء ، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التى أصابتها فى الصميم تحت بصره ، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمرة ويتمنى أن لا يتوقف انهمارها ، لعلها تشفى غُلّة نفسه وحُرْقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له فى حياته أرب ولقدّم روحه فداء لها .

ولأبى العلاء مرثية رائعة لأمه ، وكان قد بلغه نعيها وهو فى طريقه إليها من العراق ، ويقول فى مطلعها إنه سمع بداهية أصمّت أذنه وصكّت سمعه ، ويأسى أن تتقدمه إلى الموت ، ويُعْظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام ، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراسه فضلا عن مقادم أسنانه ، وينشد[1] :

ومَنْ لى أن أصوغ الشُّهْبَ شِعْرًا فأُلْبِسَ قَبْرَها سِمْطَىْ نظامِ
مضتْ وقد اكتهلتُ وخلتُ أنى رضيعٌ ما بلغتُ مدى الفِطامِ
فيا ركْبَ المَنُون أما رسولٌ يبلّغ روحَها أرَجَ السّلام
ذكيًّا يُصْحَبُ الكافورُ مِنْه بمثل المِسْك مفضوضَ الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ ، إذ هى جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزين جَدَثها الطاهر ، ويحس فى عمق – وهو فى سن الكهولة – كأن السنوات الطويلة التى فصلته عن صدر أمه من القِصَرِ ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه ، وهو فى حاجة شديدة إليها ، رضيع ضاع أى ضياع . ويتوسل إلى قوافل المنون التى تسرى فى ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجه من حولها ويسطع سطوعا . ويقول الماهر الدمشقى المتوفى سنة ٤٥٢ فى مرثية له[2] :

برغمى أن أعنّف فيك دَهْرًا قليلا فكرُه بمعنّفيهِ
وأن أرْعى النجومَ ولستَ فيها وأن أطَأَ الترابَ وأنت فيهِ

ويقول الباخرزى تعليقا على البيتين : « هذا أرقّ ما يكون فى المراثى ، إذ يكاد يفجّر عيون الأحجار ، فتسيل بمدود الأنهار ، بل بأمواج البحار » .

وتنشب الحروب الصليبية ، وفى بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١

---

(١) سقط الزند ١٤٥٩/٤ (٢) دمية القصر ١٥٨/١

يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قُول بن عثمان ، فيقتله الصليبيون ، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله[1] :

يالَلرِّجالِ لنازلٍ لم يُحتَسَبْ ولحادثٍ ما كان بالمتوقَّعِ
تالله ما جارَ الزمان ولا اعتدى بأشدَّ من هذا المصابِ وأوجعِ
ياقُولُ قَوْلَةَ مُكْمَدٍ مُسْتَتِرٍ ماءُ الشئون له ونارَ الأضلُعِ
أشكو إلى الأيام فيك رَزِيَّتِى لو تسمع الأيامُ شكوى موجَعِ
صُلْ بَعْدَها يادهرُ أوفاكْفُفْ وخُذْ مَنْ شئتَ ياصَرْفَ المنية أودَعِ

وهى مرثية رائعة تمتلىء بأبيات تصور لوعات الدمشقيين فى هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التى لا تماثلها فجيعة . وإن الشاعر ليستقلُّ الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة فى الصدور كمدًا عليه ، وليَنْزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكفَّ ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة .

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة ، وفى رثائه يقول العماد الأصبهانى فى إحدى مراثيه[2] :

يامَلِكًا أيامُه لم تَزَلْ لفضلِه فاضلةٌ فاخره
غاصتْ بحارُ الجود مذ غُيِّبَتْ أنمُلُكَ الفائضةُ الزاخره
مَلَكْتَ دنياك وخلَّفتَها وسرتَ حتى تملك الآخرهْ

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق ، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة فى جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته ، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة ، وبكاه الشعراء وفى مقدمتهم عماد الدين الأصبهانى ، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامى ، وفيها يقول[3] :

أين الذى شَرُفَ الزمانُ بفضلِهِ وسَمتْ على الفضلاء تشريفاتُهُ

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ والخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩ .

(٢) الروضتين لأبى شامة (طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة) ٢٢٨/١ .

(٣) انظر نهاية كتاب البرق الشامى للعماد والروضتين ٢١٥/٢ والنجوم الزاهرة ٦٠/٦

لا تحسبوهُ ماتَ شخصا واحدا قد عمَّ كلَّ العالمين مماتُه
لو كان فى عصر النبىِّ لأُنزلتْ فى ذِكْرِه من ذكره آياتُه
ياراعياً للدين حين تمكنتْ منه الذئابُ وأسلمتْه رُعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائمًا رِضْوانُ رَبِّ العرشِ بل صلواتُهُ

وحقا حامى صلاح الدين عن الإسلام حماية هائلة ، عرضنا لها فى حديثنا عن السياسة بالشام ومصر ، حماية جعلته فى الذروة من أبطال العرب الفاتحين ، مع ما عمَّره من المدارس والمساجد فى كل بلد بمصر والشام ، ومع كثرة ما وقفه عليها من أموال ، ومع دولته الواسعة لم يخلِّف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة ، إنما خلف بطولةً أحْنَى لها حَمَلةُ الصليب رءوسهم .

ولا يكاد يتوفَّى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء ، من ذلك قول الشهاب محمود فى ابن صَصْرَى قاضى دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة[١] :

قاضى القضاة ومَنْ حوَى رُتَبًا سَمَتْ عن أن تُسَام سَنًا وَبزَّتْ مَنْ سَعَى
شيخُ الشيوخ العارفين ومَنْ رَقَى رُتَبَ السلوكِ تعبُّدا وتورُّعا
حاوى العلومِ بما تفرَّق فى الوَرَى إلا الذى منها إليه تجمَّعا

وطبيعى أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا . ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنيين : المعرفة بالمنقول والبراعة فى المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة . ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين ، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسنى الحلبى المتوفى سنة ١٠٥٦ فى رثاء أخيه[٢] :

رُزْءٌ ألمَّ وحسرةٌ تتوالى ومصيبةٌ قد جَذَّتِ الآمالا
وفراقُ إلفٍ إن أردتُ تصبُّرًا عنه أردتُ من الزمان محالا
كنا كغُصْنَىْ دَوْحةٍ قطع الرَّدَى منها الأغضَّ الأرْطَبَ الميَّالا
أو كاليدين لذاتِ شَخْصٍ واحدٍ كان اليمينَ لها وكنتُ شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدودا فى أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٩/٢٢
(٢) نفحة الريحانة للمحبى ٢/٥٣٩

يلحّون عليه نوائب الدهر وتغافل للمدوحين وبؤس حظوظهم في دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير ، وما يلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء ، ويملأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات ، من ذلك قول أبي فراس [1] :

أراني وقومي فرّقتنا مذاهبُ   وإن جمّعتنا في الأصول المناسبُ
فأقصاهمُ أقصاهمُ من مساءتي   وأقربُهم مما كرهتُ الأقاربُ
غريبٌ وأهلي حيثما كرّ ناظري   وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ
وأعظمُ أعداء الرجالِ ثِقاتُها   وأهونُ من عاديته مَنْ تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله ، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد ، وأقربهم منه لا يحبون له الخير ، ويحبه له البعداء ، مما يجعله يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته ، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه . وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر ، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع ، وهو لذلك ليس صديقا ، بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك ، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى ، وهو لذلك أعدى أعدائك ، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهره بالحرب والخصومة ، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيانته وغدره . ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله [2] :

يا دَهْرُ يا منجزَ إيعادِهِ   ومخلفَ المأمولِ من وَعْدِهِ
أيُّ جديدٍ لك لم تُبْلِهِ   وأيُّ أقرانك لم تُرْدِهِ
تستأثر العِقْبان في جوّها   وتُنْزِل الأعصمَ من فِنْدِهِ [3]
إن زماني برزاياه لي   صيّرني أمرحُ في قِدِّهِ [4]
أفضلُ ما في النفس يغتالها   فنستعيذ الله من جُنْدِهِ
وربَّ ظمآنَ إلى موردٍ   والموتُ لو يعلم في وِرْدِهِ

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب ، ويُخلف دائما

---

(١) ديوان أبي فراس ٢/٢٠
(٢) سقط الزند ٢/١٠١٢
(٣) الأعصم : الوعل . الفند : قمة الجبل
(٤) القد : ما يُقَدُّ من الجلد ويُشَدّ به الأسير

الوعد بالخيرات والطيبات ، وإنه ليأتى دائما على كل جديد وكل قِرْن يدّعى أنه يماثله فى القوة أو الشجاعة ، فالكل أسْراه : العِقْبان فى أجوائها العليا والعُصْم أو الوعول فى أعالى الجبال ، فلا أحد ينجو من صولته . ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قِدًّا أو قيدًا له ولحياته ، وصار من طول ألفته لها يستحيها ويمرح فيها . ويعجب أن يكون أفضل ما فى النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلّط عليه من آفات الهوى ، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله . وهو لذلك يستعيذ من شرها ، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه ، فيكون فيه هلاكه . ويقول أسامة بن منقذ[1] :

حذَّرتْنى تجاربى صُحْبَةَ العا ... لَمِ حتى كرهتُ صحبةَ ظِلِّى
ليس فيهم خِلٌّ إذا ناب خَطْبٌ ... قلتُ مالى لدفعه غيرُ خِلِّى
كلُّهم يبذلُ الودادَ لدى اليُسْـ ... ـرِ ولكنهم عِدًى للمقلِّ
فاعتزِلْهُمْ ففى انفرادِك منهم ... راحةُ اليأسِ من حِذارٍ وذُلِّ

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما فى العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيه ما فى الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة . ويقول إنه ليس فى الناس خل صادق العهد فى النعماء والبأساء ، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك ، إنما يعرفك فى اليُسْر ، أما فى العسر فلا يودّك ولا يعرف لك طَوْلا ولا فضلا ولا يسدُّ لك ثلمة ولا يقدم لك عونا ، فاعتزل الناس وايأسْ من أن يردّوا لك معروفا أو جميلا تَعِشْ آمنا عزيزًا .

ويقول ابن عُنَين فى التشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزونا لغربته وما لقى فيها من ضنك العيش بعد أن طوّف فى العراق وإيران وخراسان والهند واليمن[2] :

فسَقَى دمشقَ ووَادِيَيْها والحِمَى ... متواصلُ الإرعادِ مُنْفصمُ العُرَى
فارقْتُها لا عن رِضًى وهجرتُها ... لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيِّرا
أسْعَى لرزقٍ فى البلاد مشتَّتٍ ... ومن العجائب أن يكون مقتَّرا
لا عيشتى تصْفُو ولا رَسْمُ الهوى ... يَعْفُو ولا جَفْنى يصافحُه الكرَى

فهو يدعو لدمشق – وكان يكثر من الحنين إليها – أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد

(1) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١

(2) ديوان ابن عنين ص ٤

أو الإمطار ، منفصم العُرَى واهيه يهطل مدرارا . ويقول إنه برغمه فارقها قسرا ، وهو إنما فارقها لهجوه أهلها وإفحاشه فى هجوه . ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدُّ رمقه ، فرزقه دائما مقتَّر أو قليل ، وعيشته دائما نكدة ، وهواه معلق دائما بدمشق ودائما مسهَّد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكتْ عليه من شغاف قلبه .

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة فى عهد الأيوبيين والمماليك ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمناظر وطنهم ومشاهده الجميلة ، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء . ونزل القاهرة ابن حِجَّة الحموى صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولى عدة وظائف لعهده ، ويقول متشوقا إلى بلدته حَماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله[١] :

ياساكنى مَغْنَى حَماةَ وحقِّكم ... من بعدكم ماذقتُ عيشًا طيِّبا
أرضٌ رَضعتُ بها ثُدِىَّ شبيبتى ... ومزجت للذّاتى بكاسات الصِّبا
وقد التفتُّ إليك يادهرى بطو ... ل تعتبى ويحقّ .لى أن أعتبا
قرَّرْتَ لى طولَ الشتات وظيفةً ... وجعلتَ دمعى فى الخدود مرتَّبا

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه فى حماة مسقط رأسه ، ويعاتب الدهر الذى قضى عليه بفراقها وطول تشتته بعيدا عن قرة عينه ، وإنه ليبكيها بدموع غزار . ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة .

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر ، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزرى أيام العثمانيين ، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا[٢] :

قد صرتُ أحترز الأنامَ وغَدْرَهم ... إن الطبيبَ يخاف مسَّ الدّاء
وقطعتُ باليأس الرجاءَ لديهمُ ... واليأسُ يَجْدَعُ أنفَ كلِّ رجاء
ولطالما أصفيت قبلك خُلّتى ... من لا أراه موافقا لإخائى
وبلوت منه ودَّه فرأيتُه ... متلوِّنا كتلوُّن الحِرْباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا ، فيئس

(١) خزانة الأدب ص ٤٠ (٢) ريحانة الألبا ١٢٤/١

منهم يأسا لا يداخله أى رجاء ، يأسا لا أمل معه فى وفاء ولا ما يشبه الوفاء ، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة ، لرؤيته الصديق وقد تلوّن ألوانا كألوان الحِرْباء ، إذ تتلون فى ساعات النهار ألوانا مختلفة . فاتخذ منها مثلا لتلونه . ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء .

ابن سنان [1] الخفاجى

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى تلميذ أبى العلاء المعرى ، وكان يتشيع وأنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا ، ولانعرف تاريخ ميلاده . ويبدو أنه أحب خوض معمعان السياسة إذ نراه فى حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح ، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة :

هذا كتابى عن كمال سلامةٍ   عندى وحالٍ شرحُها فى الجملةِ
همٌّ وإقتارٌ وعمرٌ ذاهبٌ   وفراقُ أوطانٍ وبُعْدُ أحبَّةِ

وعاد إلى حلب فى عهد أميرها ثمال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها منه ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولى فى كل قلعة من قلاع إمارته خليا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده . وطلب من وزيره ابن أبى الثريا أن يختار له من يوليه « عَزاز » فقال : لا أجد للملك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجى وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصوَّب الرأى فيه ، فأحضره محمود ، وولاه قلعةَ عزاز بعد أن امتنع ، وأخيرا أجاب . وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه ، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولايحضر ، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره . ومع ذلك اضطر – بأمر محمود – أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسَّ بالموت أنشد .

خَفْ مَنْ أمنتَ ولاتركنْ إلى أحدٍ   فما نصحتُك إلا بعدَ تجريبِ

---

(١) انظر فى ابن سنان الخفاجى وشعره زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم ، الجزء بن الأول والثانى (انظر الفهرس) وفوات الوفيات ١/٤٨٩ والنجوم الزاهرة ٥/٩٦ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص١٥٢ . وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت .

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة ، وهو كتاب نفيس . وديوانه مطبوع قديما ، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية فى الكاتب على بن محمد بن عيسى العمرى ، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر فى حصاره لحلب فقتله وصلبه ، وفى رثاء ابن سنان له يقول :

ومعذَّلٍ جارٍ على غُلَوائهِ ... يُرْوَى حديثُ نَداه عن أعدائهِ
عَجِلَتْ عليه يَدُ الحِمام وعودُه ... رَيَّانُ من خَمْرِ الشباب ومائه
عجبًا لحدِّ السيف كيف أصابه ... ومَضاؤه فى الرَّوْع دون مَضائه
ولمصعبٍ ملأ الزمانَ هديرُه ... قادوه بعد شِماسه وإبائهِ
إن يرفعوه فقد غنَوْا بعَلائه ... أو يَشْهَّروه فقد كُفُوا بثنائهِ

وابن سنان يؤبِّن صديقه تأبينا حزينا قائلا : إنه كان بحرا فياضا فى الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذى شهد به أعداؤه . ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا ، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه فى الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه . وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود . ويقول إن كانوا قد رفعوه فى الصلب ، فقد أغناهم علاؤه فى السماكين ، وإن كانوا قد شهَّروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه .

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه :

أيها الظاعنون لازال للغيْـ ... ـثِ رواحٌ عليكمُ وبكورُ
لستُ أرضى بالدمع فيكم فهل يَمْـ ... ـلك رِيٌّ البحور إلا البحورُ
قد رأينا دياركم وعليها ... أثرٌ من عُفاتكم مهجورُ
عَـرَصـاتٌ كـأنهن لـيالٍ ... فارقتْها عند الكمال البدورُ
بانَ ذُلٌّ الأسى عليها فلِلْغَيْـ ... ـثِ بكاءٌ وللنسيم زَفيرُ
يانجومَ العُلا غَرَبْتم وما فى الـ ... ـسيل من بعدكم نجومٌ تَغُورُ

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها السحب فى البكور والرواح بل حرىٌّ أن تُرْوِى البحور مَنْ فيها من بحور الكرم . ويقول إنه مرَّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها ، وقد أظلمت عرصاتها وساحاتها بمغيب بدورها ، وبدا ذل الأسى والحزن عليها

والسحب تبكى بدمع مدرار ، وللرياح زفير وشهيق . ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها فى الليل نجوم تغور فى سماء المجد والعلاء . وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حجّ بيت الله :

أبكيكِ لو نقعَ الغليلَ بكاؤهُ ... وأقول لو أن النوائبَ تسمعُ
لا يُغْبَطَنْ على البقاء مرزَّأٌ ... إن المودِّع إلفَه لمودَّعُ
قُبحًا ليومكِ فالنوائبُ بعده ... جَلَلٌ وكلُّ رزيَّةٍ لاتفجعُ(١)
لو كان ينفعنى السلوُّ نبذتُه ... أسفًا عليكِ فكيف إذ لاينفع
عجبًا لمن يُبْقِى ذخائرَ مالِهِ ... ويظلُّ يحفظهن وهو مضيَّع
ولغافلٍ ويرى بكلِّ ثَنِيَّةٍ ... مُلْقًى له بَطْنَ الصفائحِ مضجعُ(٢)
ياقبرُ فيك الصالحاتُ دفينةٌ ... أفما تضيقُ بهنَّ أو تتصدَّع

وهو يقول إن أى دموع له لاتفى بحقوق أمه عليه وأى أنين له لاتسمعه النوائب ، ويقول إن أحدا لايُغْبَطُ على بقائه ، فما تلبث رحى الموت أن تطحن الباقين المودعين . وما أقبح اليوم الذى سمع فيه رزء أمه . فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه ، ولو ينفعه السلو لسلا ، ولكنه لاينفع أى نفع . ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع ، وللغافل عن الموت وفى كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معدٌّ له : حفرة وصفائحها من الحجارة . ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لايتصدع وفيه هذه الأم الكريمة . وفى ديوان ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة .

الغزّى (٣)

هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى الغزىّ ، ولد بغزّة فى فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم ، وسال الشعر على لسانه ، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها ، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها فى المدرسة النظامية سنين كثيرة ، ومدح ورثى غير مدرس ، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتدح بها جماعة من الحكام والرؤساء . ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة : جاب البلاد وتغرّب ، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل فى أقطار كرمان بفارس وأقطار

---

(١) جلل : يأتى بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير، فاللفظة من ألفاظ الأضداد.

(٢) الثنية : الطريق والعطفة فيه . الصفائح جمع صفيحة وهى العريض من الحجارة والألواح .

(٣) انظر فى الغزى وشعره الخريدة (قسم الشام) ١/٣ وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ والنجوم الزاهرة ٢٣٥/٥

خراسان . ومن مداحه ناصر الدين مُكْرَم بن العلاء وزير كَرْمان ، وعماد الدين طاهر قاضى القضاة بشيراز . ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان ، ونقل جثمانه إلى بلخ ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما .

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره فى المديح . وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة فى حديثنا عن شعراء الغزل ، ويبثُّ فى أشعاره شكوى كثيرة ، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله . شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الاجواد للمؤمّلين قلوا فى البلاد ، وفى ذلك يقول :

قالوا هجرتَ الشعرَ؟ قلت ضرورةً باب الدواعى والبواعثِ مُغْلَقُ
خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرْتَجَى منه النَّوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائب أنه لايُشْتَرى ويُخانُ فيه — مع الكساد — ويُسْرَقُ

وهو لايشكو من كساد الشعر فحسب . بل يشكو أيضا من أنه يسرق ، وباب السرقات الشعرية فى النقد العربى باب واسع . ويقول العماد تعليقا على هذه الأبيات : « الغزى حسن المغزى ومايعزُّ من المعانى الغُرّ معنى إلا إليه يُعْزَى ، يُعْنَى بالمعنى ويحكم منه المبنى ، ويودعه اللفظ إيداع الدرِّ الصدفَ ، والبدر السُّدَفَ » ويورد طائفة من روائع أبياته منها قوله :

إنى لأشكو خطوبًا لا أعيِّنها ليبرأ الناسُ من لومى ومن عَذَلى
كالشمع يبكى ولايُدْرَى أعَبْرَتُهُ من صحبة النار أم من فُرْقة العسَلِ

فخطوبه كثيرة بحيث لا يستطيع أن يعين منها خطبا دون خطب ولا أن يعلل لخطب دون خطب ، فمثله كالشمع لايُعرَف هل يبكى من فرقة الرحيق أو من صحبة الحريق . ويقول شاكيا ضجرا من الأيام :

حملنا من الأيام مالا نُطيقُهُ كما حمل العظمُ الكسيرُ العصائبا
وليلٍ رجونا أن يَدِبَّ عِذارُه فما اختطَّ حتى صار بالفجر شائبا
فلا تحمدِ الأيامَ فيما تُفيدُهُ فما كان منها كاسيًا كان سالبا

والصور فى الأبيات بديعة ، فقد حمل من الأيام خطوبًا جعلته أشبه مايكون بعظم كسير شُدَّت عليه العصائب وهو يتضوَّر ألما ، ويصور قصر الليل فما اختطَّ عِذاره الأسود حتى أسرع إليه الشيب . ويقول لاتحمد الأيام فيما تحمله إليك من نفع فإنها تنفث فيه سموما ، وكل ماتظنه منها

كاسيا يسلبك الكساء المظنون ، فإذا بك تعرّى حرمانا وابتئاسا . ويقول :

الحظُّ من جوْهَرِ الأشياء سَلْهُ ولا تسألْ من الله قدًّا زانَه الهَيَفُ
فالقوسُ فى قبضة الرامى لعزّتها والسهمُ من هُونه يُرْمَى به الهدفُ
لم يُبْقِ لى زمنى شيئا أُسَرُّ بهِ فالحمدُ لله لا فوزٌ ولا أسَفُ
عَرَّى أكابرَه من ثوب مَحْمدةٍ فالقومُ فى السابغاتِ اللُّبَّسُ الكُشُفُ
لم يقنعوا بحجاب البُخْل فاحتجبوا كما غلا بعد سوء الكيلةِ الحشَفُ
وإن جرَى غلطٌ منهم بمكرمةٍ فَبيْضَةُ العُقْر لا يُرْجَى لها خَلَفُ
أعجبْ بهم قطُّ فى الآراء ما اتفقوا على صوابٍ وفى التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظّه التعس وأن الإنسان حرى أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب ، فالحظ مدار الحياة وقطبها ، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى ، وماأشبه الغرّى بقوس عزيز فى قبضة الرامى تصوّب منه السهام المهينة فتصيب الهدف ، ألا ما أتعس الحياة ! . ويقول إن الزمن قضى على كل مايدخل على نفسه السرور ، فلم يعد هناك شىء ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه . ويقول إن الزمن عرّى أكابره من ثياب المحامد ، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون يجردون من كل محمدةٍ ، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين ، كما يجمع بائع التمر بين حَشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه . وإن غلط أحدهم وجاء بشىء كان ذلك بيضة العُقْر التى لاتبيض الدجاجة بعدها . ومن عجب أنهم لايتفقون فى الرأى على شىء سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم . يقول :

وجفَّ الناسُ حتى لو بكينا تعذّر ما تُبَلُّ به الجُفونُ
فما يَنْدَى لممدوحٍ بنانٌ ولايَنْدَى لمهجوٍّ جَبِينُ

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم ، إذ لم يعد هناك ممدوح يندى بَنانه ، ويغدق على الناس نواله ، وأيضا لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفا . ويقول :

حبلُ المنى مثلُ حبلِ الشمس متصلا يُرى وإن كان عند اللَّمْسِ مبْتوتا

فلا تَقُلْ ليت صَرْفَ الدهر ساعدنى   فإنَّ فى ليت أُوَمًا يقطع اللِّيتا[1]

والصورة فى البيت الأول بديعة ، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول ، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتنى فإن فى ليت أوما أو عطشا شديدا دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق . فدع المنى والتمنى فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا . ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس فى شعر الغزى مدائح وغزليات – كما قلنا – رائعة ، وهو ديوان كبير جمعه بنفسه فى نحو خمسة آلاف بيت ، ومنه نسخ كثيرة فى مكتبات العالم .

فتيان[2] الشاغورى

هو فتيان بن على الأسدى الشاغورى وُلد فى أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجرى ببانياس على ساحل حمص ، وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق ، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهى الآن من أحيائها ، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن ، حتى إذا أتم حفظه أكبَّ – مثل لداته – على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية فى الجامع الأموى ، وحين أتقن العربية وعلومها فكر فى أن يصبح معلما لها ، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها . واختار قرية الزَّبدانى بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها ، فسكنها واتخذ لنفسه كتَّابا يعلم فيه الناشئة ، وله فى هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها . ومنذ أخذ صلاح الدين فى أواسط العقد الثامن من القرن يواقع الصليبيين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته فى مدائح كثيرة . وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢ ، واتخذ الأفضلُ مودودَ بن المبارك – وهو أخو عز الدين فرُّخشاه ابن عم الأفضل لأمه – شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفًا لها . ويلتحق فتيان بخدمة مودود . ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموى ، ونظن ظنا أنه ابتدأها فى أثناء تلك الخدمة أى منذ العقد التاسع من القرن السادس ، إن لم يكن بعد هذا التاريخ .

---

(١) أوما : عطشا شديدا . اللِّيت : صفحة العنق .

(٢) انظر فى فتيان الشاغورى وشعره الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالع البدور للغزولى ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣ . وديوانه طبعه مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندى وتقديمه .

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهانى والأفضل نور الدين وأخاه غازى صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣ . أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة ، ويقول مترجموه إنه عهد إليه – فيا عهد – بتعليم أولاده الخط والعربية . ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصرى صفى الدين بن شكر ، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه ، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته . وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى ، وله فيه عشر مدائح ، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس عشرة مدحة . ومدح كثيرين من البيت الأيوبى فى مقدمتهم صاحب حماة تقى الدين عمر (٥٧٤ – ٥٨٧هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين ، ومدح صاحب بعلبك فَرُّوخشاه (٥٧٥ – ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨ – ٦٢٧ هـ) . وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥ . وقد أنشدنا له فى حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه . وطبيعى – وهو شاعر مدح كبير – أن تكون له مراثٍ لمن لبى نداء ربه من ممدوحيه ، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم ، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام . ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ ، ويقول العماد الأصبهانى إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفاته ، وفيها يقول :

أىُّ ركنٍ وَهَى من العلماء   أىُّ نجمٍ هَوَى من العلياء
إنَّ رُزْءَ الإسلامِ بالحافظ العَا   لمِ أمْسَى من أعظم الأرزاء
أقفرتْ بعده ربوعُ الأحاديـ   ـثِ وأقوتْ معالمُ الأنباء
كان من أعلم الأنام بأسما   ء رجال الحديثِ والعلماء
كـان علَّامةً ونسَّابةً لم   يَخْفَ عنه شىءٌ من الأشياء
أنت أعلى من أن تُحَدَّ بوصفٍ   بـلـغـتـهُ بلاغةُ البلغـــاء

وفتيان فى المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيعة دمشق فى محدثها الذى لايبارَى ومؤرخها الذى لايجارَى . وهو فى البيت الثانى يصور فى ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذى يقال إنه كان يقع فى ثمانين مجلدا . وحقا كان من أعلم علماء عصره – إن لم يكن أعلمهم – بالحديث النبوى ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من

مختلف الأجيال ، مع الحلم ومع التقوى والورع ، ومع ما أُلقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم .

ويتوفى بعده فى السنة التالية القاضى ابو الفضل كمال الدين محمد بن الشَّهْرزورى وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكى فى الموصل ، وتوفى فالتحق بابنه نور الدين فولاه القضاء فى دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة ، وأقرّه صلاح الدين بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه ، ولم يلبث أن توفى . وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة :

عدمَ الإسلامُ معدومَ المثالِ ... وهوتْ من أَوْجِها شمسُ المعالى
ولسانُ الشَّرْعِ قد أُلبسَ عِيًّا ... بعد أن كان جريئًا فى المقال
وسماء الدين قد ران على ... بدرها النُّقْصانُ من بعد الكمال
والقضايا قاضياتٌ نَحْبَها ... إثْرَهُ حُزْنا على تلك الخلالِ
ماتَ من كان لأهل العلم كَهْفًا ... وثِمالاً مُحْسِنًا أىَّ ثِمالِ(١)

وهو يبكى الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه ، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة . وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه ، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا ، كما كان مرجعا للعلماء - كما يقول فتيان - وثمالا وسندا لهم وموئلا . ويتوفى تقى الدين عمر صاحب حَماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها :

أباحَ ثغورَ الكفرِ بالسيف عَنْوَةً ... وسدَّ ثغور السِّلم بالطَّعْن فى الثُّغَرْ
وكيف يُلام المسلمون على الأسى ... وقد عدم الإسلامُ ناصرَه عُمَرْ
لقد كانَ يلقَى المُرْهفاتِ بوجههِ ... وسُمْرَ القنا بالصَّدْر فى الوِرْد والصَّدَرْ(٢)
وكان يردُّ الجَحْفَلَ المَجْرَ وحده ... يَمسُّون بالأيدى الظهورَ من الخَوَرْ(٣)

وهو يشيد ببسالته فى حرب حَملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه ، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوّخ الصليبيين ، وطالما نازلهم راميا بنفسه فى أتون الحرب مقبلا دائما معرِّضا وجهه للسيوف وصدره للرماح ، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أدبارهم فزعين مروَّعين . ويتوفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، فيؤبنه بمثل قوله :

لئن كان خَلْقُ الخلقِ من طينِ آدمٍ ... فمن نورِ خَلْقِ الله خَلْقُك ياغازى

---

(١) الثمال : الملجأ والغياث
(٢) المرهفات : السيوف . القنا : الرماح
(٣) المجر : الكثيف

فمنْ لليتامى والأرامل بعده يقومُ بإكرامٍ عليهم وإعزازِ
مَضَى مُلْكُهُ المحروسُ من عيب عائبٍ ومن عَبْثِ الزّارى ومن عنَت الرّازى

وكان الغازى مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العارى ويطعم الجائع عالى الهمة حسن التدبير والسياسة ، محبا للعلماء ، مجزلا العطاء للشعراء ، فحمى ملكه – كما يقول فتيان – من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازى أو الممتحن المختبر .

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم كقوله :

علام تحرُّكى والحظُّ ساكنْ وماذا نهضتُ فى طلبٍ ولكنْ
أرى نَذْلاً تقدّمُه المساوى على حُرٍّ تؤخّرُه المحاسِنْ

وهى شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون مايتمنون أو مايرون أنهم جديرون به . ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا مايقوله فتيان من أن لافائدة فى الحركة وأن للمساوى تقدم أصحابها بينا تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدٌ فى الشكوى وإغراق فى التشاؤم .

مصطفى[1] البابىّ

هو مصطفى بن عبدالملك –وقيل عثمان– البابى ، ولد بالباب إحدى قرى حلب فى القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ونشأ بحلب وتتلمذ على شيوخها وأدبائها ، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها ، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعيّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا فى بلدان الدولة العثمانية بالعراق والحجاز فى المدينة المنورة ، وتوفى بمكة فى أثناء حجه سنة ١٠٩١ .

وكان البابى شاعرا جيدا ، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء فى تلك الحقب ، ويتخلل المديحَ أسراب من الشكوى . وقد يفرد للشكوى بعض القصائد ، من ذلك قوله من قصيدة استهلها محزونا لتحول عهد مية ، ويقول إنه مازال يبكى الأطلال حتى بكّته بدمعها إشفاقا عليه ، ويلتفت إلى الدهر شاكيا .

---

(١) انظر فى مصطفى البابى وشعره نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الأثر ٣٧٧/٤ . طبع ديوانه فى بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزرى وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ .

أىُّ ذنبٍ نعاتب الدهرَ فيهِ ... وعتابُ الأيام داءٌ عُضالُ
أنا مابين فرقةٍ تجمع السُّقْـ ... ـمَ ويُعْدٍ تدنو به الآجالُ
وخطوبٍ ألفتُها يستعيذُ الـ ... ـخوفُ منها وتُذْعَر الأهوال
وأمانٍ تجاذب الدهرَ ذَيْلَ الـ ... ـحظِّ والدهرُ جاذبٌ جدَّالُ
هِمَّةٌ أرَّقَتْ جفونَ الأمانى ... بوعودٍ للدهر فيها مِطالُ
أتمنّى من الـزمان وفـاءً ... ووفـاءُ الزمان أمرٌ محالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها ، أى ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها فى فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيذ الخوف من شرها وتفزع الأهوال . وتلك أمانيه مانزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا ، بل إنه جدال يصرع من ينازعه ، وفى صدره همة تؤرق جفون الأمانى بما تعرضه عليها من وعود مايزال الدهر لايفى بها ، وكأن وفاءه أمر محال . ويقول من قصيدة يشكو فيها من الزمان :

صاحبىَّ ابْغيا لنا خارجَ العا ... لَمِ دارًا فبئسَ دارُ الزِّحامِ
واصْدُقانى ألستما بين ليلٍ ... ونهارٍ مالى حليفُ ظلام
واستعيرا لمقلتى هجعةً عـ ... ـلَّ منامى يعود لو فى منام
من أمورٍ تَقْذِى العيونَ وأخرى ... تَصْدع السمعَ مثل وَخزِ السِّهام
مشربٌ كلُّه قَذًى سَوَّغَتْه ... إلفُ هذى النفوس للأجسامِ
من أراد العيشَ الهنىَّ فلا يُعْـ ... ـمِلُ فكرًا فالعَيْشُ عَيْشُ السَّوامِ

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسى وغير أناسى أنه يود لو خرج من هذا العالم جميعه ، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش فى ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه ، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو فى الخيال والمنام ، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام ، حتى لكأنها مورد من غسلين أو زقوم ، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تطلب من متاع مادى . ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر ، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل . وكل ذلك تشاؤم شديد ، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الربانى عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانيَّة فضلا عما فى ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربَّانية .

٤

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة ، ومرت فى كتاب العصر العباسى الأول عناية أبى تمام بوصف الطبيعة فى مقدمات مديحه أو مستقلةً فى بعض أشعاره ، من ذلك وصفه للربيع ، وكذلك وصفة للطير وأحاسيسه ، على نحو ماعرضنا هناك من تصويره لُقْمِرىٍّ وقُمريَّةٍ يتساقيان رحيق الهوى ، بينما هو محزون شديد الحزن . ووقفنا فى كتابنا العصر العباسى الثانى عند براعة البحترى فى وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة . ونلتقى فى أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب فى الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور ، وله قصائد مختلفة فى وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرةٌ فى وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله :

غيثٌ أتانا مؤذنٌ بِخَفْضٍ متصلُ الوَبْلِ حَثيثُ الرَّكْضِ
يضحك فى بَرْقٍ خفىِّ الوَمْضِ كالكفِّ فى انبساطها والقَبْضِ
والأرضُ تُجلَى بالنبات الغَضِّ فى حَلْيها المحمرِّ والمبيضِّ
وأُقْحُوانٍ كاللُّجَيْن مَحْــضِ ونرجسٍ ذاكى النسيم بَضِّ
مثل العيون رَنَّقتْ للغُمْضِ ترنو ويغشاها الكرَى فتُغْضِى

وهو مطر متصل الوبل يؤذن - كما يقول - بخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ماتنقبض ، والأرض كأنها فى حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تتكسر جفونها للنوم ، وهى تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضى أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة ، وتنسب إلى سيف الدولة الحمدانى الأبيات التالية فى قوس قزح[1] :

لقد نشرتْ أيدى الجَنوبِ مطارِفًا على الجوِّ دُكْنًا والحواشى على الأرضِ
يطرِّزها قوسُ الغمام بأصفرٍ على أحمرٍ فى أخضرٍ تحت مُبْيَضِّ

(١) اليتيمة ٣١/١

كأذيال خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فى غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بَعْضِ

يقول : رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكناء مغبرّة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض ، وقوس قزح يطرّزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياقوتية والزمردية ، وكأنما شابة جميلة أقبلت فى غِلالات أو ثياب رقيقة صُبِغَتْ بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض . وهى صورة بديعة . ويقول العرقلة من شعراء الخريدة[1] :

الشام شامةُ وَجْنةِ الدنيا كما إنسانُ مقلتها الغضيضةِ جِلِّقُ
من آسِها لك جَنّةٌ لاتنقضى ومن الشقيق جهنّمٌ لا تَحْرِق
فعلام تصحو والحمامُ كأنها سَكْرَى تغنّى تارة وتصفّق
وتلوم فى حب الديار جهالةً هيهات يسلوها فؤادٌ شيِّقُ

وهو يجعل الشام خالا فى وجنة الدنيا ويجعل دجِلّقَ، اسم دمشق القديم، إنسان مقلتها الغضيضة التى ترمقها باستحياء ، لجمال أزهارها من آس وغير آس ، وكأنما تخدّر بجمالها أحاسيس مُشاهدها ، فلا يصحو ، والحمام من حوله فرح بهيج يغنى ويصفق طربا . وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية .

ويقول فتيان الشاغورى فى وصف قرية الزبدانى بشهر كانون شتاء والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها فى شهر كانون زمن الشتاء مهيئة لازدهار أزهارها فى زمن الربيع[2] :

قد أجمدَ الخمرَ كانونٌ بكل قَدحْ وأخمد الجمرَ فى الكانون حين قَدحْ
ياجَنّةَ الزَّبَدانى أنت مسفرةٌ عن وَجْه حُسنٍ إذا وَجْهُ الزمان كَلَحْ
فالثلج قُطْنٌ عليكِ السُّحْبُ تَندِفُه والجو يَحْلجه والقَوسُ قوسُ قُزَحْ

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء فى الزبدانى بأقداح تحمل خمرا ، وقد جمّدها القرّ الشديد وأخمد الجمر فى الكانون أو الموقد حين اتّقد . ويتصور قرية الزبدانى جنة من جنان الدنيا ، ومايلبث أن يصوّر الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن ، والسحب تندفه بقوس قزح . والجو يحلجه . صورة بديعة .

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١ (٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤

ويقول الوداعي على بن المظفر في مناظر رأس العين ببعلبك[١] :

يا حاديَ الأظعان إن شارفتْ مِنْ بَعْلَبكٍّ سَفْحَ لُبْنانِهِ
فاقرأ تحياتى على نازلٍ في مَحْجِرِ العين كإنسانه
والروضُ يُهْدى مَعْ نسيم الصَّبا نَشْر خُزَاماهُ وريحانهِ
وراسلَ القُمْرِيُّ ورقاءهُ شَدْوًا على أوتار عيدانهِ

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبته ، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صاحبته شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان . وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصريه في زمن المماليك ، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع[٢] :

نثر الربيعُ ذخائرَ النُّوَّار من جَيْبِ الغَوادى
والوَرْدُ مخضُوبُ البنا نِ مضرَّجُ الوَجَنات نادى
حَرَسَتْهُ شوكةُ حُسْنِهِ من أن تُمَدَّ له الأيادى
والعندليبُ أمامه بفصيح نَغْمَتِهِ ينادى
من رام يَعْبَثُ بالخدو د فدونها خَرْطُ القَتادِ[٣]

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من جيب السحب الغوادى والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لآلئ الندى ، والشوك يحرسه من قطف الأيادى والعندليب ينادى : دون هذه الوجنات خرط القتاد ، وهو مثل يضرب للشيء لاينال إلا بمشقة شديدة ، والقتاد : نبات صلب له شوك الإبر وخرطه : انتزاع إبره .

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام ، إذ تمتلئ بالبساتين ، وكان له مجالس أخرى في الأديرة ، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتزج بوصف الطبيعة أو بالغزل ، وتمادى بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق[٤] الأنطاكي شاعر المعز الفاطمي وأبنائه ووزرائهم ، وكان

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٤٢

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانه ٥١٢/٢

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشيء لاينال إلا بمشقة شديدة.

(٤) انظر في أبي الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان ١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

لايستحى من التصريح بالفحش والمآثم على شاكلة أبي الحجاج ماجن العراق الذى تحدثنا عن مجونه وهزله فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ومن نظيف مجونه قوله[١] :

توهَّمتُ أُمرا فلم أنبسِ بحرفٍ ونـاديتُ بـالأكؤس
حُمَيَّا كأن سَنَا نورها سنا بارقٍ لاح فى الحِنْدس[٢]
يُعـاطيكها رَشأٌ طرْفُهُ سريعٌ إلى تلفِ الأنفُسِ
بِخَـدٍّ يـروقك توريـدُه وعينٍ تنوبُ عن النَّرجِسِ

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التى تلعب حُميَّاها بخياله ، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع فى دجى الليل ، وإن ساقية ساحرة الطَّرف لتقدمها إليك فتصيبك فى الصميم بخد مورَّدٍ وعين فاتنة .

ويقول الغزى الذى مرت ترجمته [٣] :

قُمْ نَفْتَرِعْها كأنها الذهبُ بِكرًا ، أبوها وأمُّها العِنَبُ
أرقّ مِنْ عَبْرة اليتيم ومن عبارةِ الصَّبِّ قلبه وَصِبُ
مدامةٌ تصقلُ القلوبَ إذا رانتْ عليها الهمومُ والرِّيَبُ
كئوسُها أنجمٌ تَضِلُّ بها لايهتدى من تُضِلُّه الشُّهُبُ
لاأفْدَمَ فينا ولا فِدامَ لها عروسُ دَنٍّ عقودُها الحَبَبُ

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها ، إنها فى رأيه -كعروس بكر- أبوها وأمها العنب ، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب للوجع قلبه . ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك ، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولا تهدى ، بل تضل صاحبها وأى ضلال بينا عادة النجوم أن تهدى ، ومن تضله لا يهتدى أبدا ، لأنه فقد هداه . ويذكر أن ليس فى رفاقه فدم أو أحمق وأنه لافدام لها أو مصفاة إذهى شديدة الصفاء ، ويقول إنها عروس دَنٍّ عقود جيدها لآلئُ الحَبَبِ التى تعلو كئوسها حين يمتزج بها الماء . ويدعو فتيان الشاغورى صديقا إلى نزهة قائلا [٤] :

---

(١) اليتيمة ٣١٢/١

(٢) حميا الخمر : سورتها وشدتها . سنا : ضوء . الحندس : دجى الليل الشديد السواد .

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١٨/١

(٤) الديوان ص ٢٦٨

بادرْ إلينا فإن الراحَ ممكنةٌ والكأسُ دائرةٌ والشَّمْلُ مجتمعُ
ويومُنا طيِّبٌ صافِ الأديم وما فيه هواءٌ ولا فى رأسه قَزَعُ
والطير ترقصُ فى الأغصان من طربٍ تكاد منه على هاماتنا تقعُ

وفتيان يصور لصاحبه مافيه من أنس مع رفاقه ، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا فى سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر ، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رءوسهم .

وتكثر مقطعات الشعر فى مجالس اللهو سواء فى الخمر أو فى الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموى فى خزانته فصولا طويلة هم مجير الدين بن تميم ، وسنخصه بترجمة ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضى محيى الدين بن قرناص الحموى معاصره وعلى بن المظفر الوداعى المتوفى سنة ٧١٦ ، ومن طريف ما أنشده الحموى لابن لؤلؤ الذهبى قوله (١) :

باكرْ إلى الروضة تَسْتجلها فثغرُها فى الصبح بَسَّامُ
والنرجسُ الغَضُّ اعتراه الحيَا فغضَّ طرفا فيه أسقامُ
وبلبلُ الدَّوحِ فصيحٌ على الأ يْكـة والشـحـرورُ تمتامُ
فعاطنى الصَّهباء مشمولةً عذراء فالواشون نُوَّامُ
واكتمْ أحاديث الهوى بيننا ففى خلال الروض نَمَّامُ

وهو خفيف الروح مثل زملائه المذكورين وكانوا جميعا يعنون بالتورية التى أشاعتها مصر منذ العصر الفاطمى عناية واسعة ، وقد ورَّى فى البيت الثانى بكلمة الحيا وهو الخجل عن الحيا بمعنى المطر . وجعل للبلبل لجمال غنائه وشدوه الفصاحة وللشحرور وهو نوع من العصافير التمتمة . ضرب من المقابلة . وجعل الصهباء مشمولة أو باردة طيبة واستتم الصورة بأنها بكر أو عذراء والواشون نوام . وعاد إلى التورية فى البيت الأخير بكلمة نمَّام – وهو ضرب من السَّعتر مزهر – عن النمام الحقيق من الأشخاص . ويقول محيى الدين بن قرناص (٢) :

روضةٌ من قَرْقَفِ أنهارُها وغناءُ الوُرْق فيها بارتفاعْ
لا تَلُمْ أغصانها إن رقصتْ فَهْىَ ما بين شرابٍ وسماعْ

---

(١) خزانة الأدب للحموى ص ٣٢٦ (٢) نفس المصدر ص ٣٣٠

وقد ورّى محيي الدين بكلمة قرقف وهو الماء البارد الصافى عن الخمر وهو اسم من أسمائها ، واستتم الصورة إذ جعل أنهار الروضة خمرا مسكرة بأن الحمام فيها أخذه السكر ، بل إن الأغصان نفسها التى رويت من تلك الأنهار سكرت فرقصت ، فلاعجب أن يشدو الحمام شدوا عاليا . وأنشد الحموى فى خزانته لابن قرناص مقطعات بديعة كثيرة فى الرياض ومثله الوداعى ، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة .

ويظل الفرضان : وصف الخمر ووصف الطبيعة حيّين طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول على بن محمد الحشرى الشامى المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة [١] :

قُمْ هاتِها وضميرُ الليلِ منشرحٌ والبدرُ فى لُجَّة الظلماء مُسْتَبِحُ
عجِّلْ بها وحجابُ الليل منسدلٌ من قبل يبدو لنا فى وَكْرِه الصُّبُحُ
واستضحكِ الدهرَ قد طال العُبوس به لايضحك الدهرُ حتى يضحك القدَحُ
ولا يطيب الهوى يوما لمغتبقٍ حتى يكون له فى اليوم مُصْطَبَحُ

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حوله ، مبتهج وأضواء البدر تلمع فى جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا . ويقول إن الدهر لايقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس فى يده ، ويزعم أن الهوى لايطيب لمن يشرب الخمر غَبوقًا وهو شربها بالعشى حتى يكون له منها صَبوح وهو شربها فى الصباح . ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو .

الوأواء [٢] الدمشقى

هو محمد بن أحمد الغسانى المشهور بالوأواء الدمشقى ، من أهل دمشق ، وُلد بها ونشأ ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب . يدل على ذلك مارواه الثعالبى فى اليتيمة من أنه لُقِّبَ بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة ، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ ، ينادى على الفواكه جلبا للمشترين . وقد ذكرنا مرارا فى حديثنا عن الشعراء أنهم - فى أغلب الأمر - كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه . يلقانا ذلك فى بغداد وفى القاهرة وفى

(١) نفحة الريحانة ٣٥١/٢

(٢) انظر فى الوأواء وشعره اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون من الشعراء للقفطى وفوات الوفيات ٣٠١/٢ وديوانه طبعه المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق د. سامى الدهان وراجع مقدمته له .

جميع بلدان العالم العربى . ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد ، وكانت دائما هى وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون ، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة مايزال يتردد عليها حتى يحسن مايريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر . ودائما كان يتخرج فى هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحوما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة فى حلقات الشيوخ بمساجد دمشق .

وليس بين أيدينا ولا فى ديوان الوأواء مايوضح متى وُلد . وأيضا ليس فى الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته ، وكل مافيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها يمدحه ، وأنه أعطاه فى أول مدحة له عشرين دينارا ، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء . ومدحه بثلاث قصائد أخرى ، دل فيها على شاعرية جيدة ، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقى أحمد بن الحسين العلوى ، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق . ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جوادا ممدَّحا ، وكان على صلة بسيف الدولة فى أول إمارته لحلب فى العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى . وربما كان هو الذى قدَّم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتى ٣٣٣ و٣٣٤ . وفى ديوانه ثلاث قصائد فى مديحه ، ولذلك عدَّ من شعرائه . ومن عطايا سيف الدولة والعقيقى أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به ، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة ، مما جعل أكثر شعره يدور حول محاور ثلاثة : الغزل والخمر ووصف الطبيعة ، وكثيرا مايمزج بينها جميعا مثل قوله فى القصيدة الأولى من ديوانه :

حازَ الجمالَ بأسْرِهِ فكأنما ... قُسِمتْ عليه محاسنُ الأشياء
متبسِّمٌ عن لؤلؤٍ رَطْبٍ حكى ... بَرَدًا تساقطَ من عقود سماء
تُغْنى عن التفاح حمرةُ خَدِّه ... وتنوب رِيقَتُهُ عن الصَّهْباء
فامزُجْ بمائك نارَ كأسِك واسقنى ... فلقد مزَجتُ مدامعى بدمائى
واشربْ على زَهر الرياض مُدامةً ... تنفى الهموم بعاجل السَّراء
لطفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها ... تجرى مجارى الروح فى الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره فى أشعاره ، فساقيه الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود فى السماء ، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح ، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر . ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء . ويقول لصاحبه اشربْ على زهر الرياض الذكى الرائحة تلك الخمر التى تجلب السرور كما يقول ، ويزعم

أنها تجرى فى جسمه مجرى الروح فى الأعضاء . ومن قوله فى وصف الراح :

وبنتِ كَرْمٍ كأنها لَهَبُ تكاد منها الأكفُّ تَلْتهبُ
تلعب فى كأسها إذا مُزِجَتْ كـأنما يستفزُّها طـربُ
فى عَرْصَة الكأسِ حين تمزجها سماء تِبْرٍ نجومُها ذهبُ

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكَرْم ، ويقول إنها حارَّة كأنها لسان لهب ، وإن الأكف فى زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها . ويزعم أنها تلعب فى كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حَبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عَرْصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه - بزعمه سماء فضية من فتات التبر ، نجومها - أى حبابها - ذهب . ويقول من قصيدة :

اسقيانى ذبيحةَ الماء فى الكأ س وكُفَّا عن شُرْب ماتسقيانى
إننى قد أمنتُ بالأمس إذ مـ ـتُّ بها أن أموت موتا ثانى
اسْقِنِى القهوةَ التى تنبتُ الوَرْ دَ - إذا شئتَ - فى خدود الغوانى
فى رياضٍ تريك فى الليل منها سُرُجًا من شقائق النُّعمانِ
كتبتْها أيدى السحاب بأقلا مِ دموعٍ على طُروسِ المغانى

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعدادًا لشربها ذبحا ، ويطلب إلى صاحبيه أن لايسقياه الماء وإنما يسقيانه دم الخمر المسفوح . ويزعم أنه لاخوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا ، ومثله من مدمنى الخمر يموتون مرارا . ويقول إن القهوة أى الخمر تضرِّج خدود الغوانى بالحمرة فتصبح كالورد ، ويقول إنه يحتسيها فى رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان . ويزعم أن أيدى السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هى دموع العشاق التى استحالت دما قانيا وقد دُوِّنت على طروس ، هى صحف المغانى أو الرياض . ودائما يعنى الوأواء فى شعره بالتصاوير والأخيلة ، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور :

فأمطرتْ لؤلؤا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وَرْدًا وعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعُنَّاب للأصابع والبَرَد للإنسان ، وهى صور لا تحمل شعورًا ، فضلا عن وجد ، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده ، وقد بنى الحريرى على هذا البيت نفسه مقامته الثانية . وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا فى عشر التسعين وثلاثمائة ، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين .

ابن[1] قُسَيْم الحَمَوِىّ

هو مسلم بن الخَضِر بن قُسَيْم التَّنوخى الحموى ، ولد ونشأ بحماة ، ويقول العماد : «كان ثالث القيسرانى وابن منير بلغ إلى درجتهما .. وفاق شعرَهما شعرُه ، لكنه خانه عمره ، وفلَّ شَبا (حدَّ) شبابه ، وحل شَعوب (الموت) بشِعابه ، وذلك فى سنة نيف وأربعين وخمسمائة » . والعماد يقول إنه توفى شابا ويبدو أن ميلاده لايعدو العقد الأول من القرن السادس الهجرى كما يبدو أن موهبته الشعرية نضجت مبكرة ، وسرعان ماعمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة ، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب ، وكان عماد الدين زنكى قد أخذ فى منازلتهم . وحدث أن خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه جيش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاعة وحاصر حصن شَيْزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكى فأسرع إليه فى عساكره ، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب ، فغنم زنكى وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصاره للحصن ، ومدحه الشعراء وفى مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله :

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصِّعابُ وتستقيمُ

وكان ابن قسيم حينئذ فى ريعان شبابه ، وطارت قصيدته كل مطار ، وفى عام ٥٣٤ حاصر زنكى دمشق ، وأعلن له أُنُرْ مدبر دولة أبناء طغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق فى طاعته . وفى هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكى ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا ، وأيضا فانه يمدح أُنُرْ مدبر دولة آبق بن محمد بن بورى ، وكان زنكى قد ارتضى أن تظل بها أسرة طغتكين والقائم على دولتهم أنر . فاتصل به ابن قسيم ومدحه ، وأسبغ عليه الجوائز كما أسبغها عليه من قبله زنكى ، وله فيه مدحة أرخها العماد الأصبهانى بسنة ٥٤٢ . ولانرتاب فى أنه ظل متصلا بزنكى يمدحه وخاصة حين استولى على الرُّها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفى زنكى سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُّها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن ، وأسرع إليه نور الدين فى عسكره ، فهرب جوسلين . وافتتح نور الدين الرُّها ثانية ،

---

(١) انظر فى ابن قسيم وشعره الخريدة (قسم الشام) ٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين لأبى شامة ٣٢/١

وهنأه ابن قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة . وتوفىّ الشاعر سريعا فى نفس السنة ويقول العماد الأصبهانى : إنه مات شابا .

وقد استعرض العماد فى خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة ، وهى تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر ، ويبدو أنه كان يغرق فى اللهو والمجون ، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله :

خيْرُ ما أصبحتَ خلوع العِذارِ فانْفِ عنك الهمَّ بالكأس المُدارِ
قم بنا نَنْتهبِ اللذةَ فى ظلِّ أيام الشباب المستعارِ
إنما العارُ الذى تحذره أن ترانى من لباس العار عارى
وسعيدٌ من تقضّى عمُره بين كاسات رُضابٍ وعُقارِ [١]
فى اصطباحٍ واغتباقٍ واقترا بٍ واغترابٍ وانهتاكٍ واستتارِ

وهو يصرِّح – ولا يخفى – بأنه يشرب الخمر المحرمة ، غير آبه لما يجرُّه عليه ذلك من عار بين أصحابه ، إذ يجد فيها هناءته وسعادته ، وهو لذلك يعكف عليها صباحا ومساء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول ، ويعكف عليها قارًّا فى بلدته حماة ومغتربا فى دمشق وغير دمشق ، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته . ومن قوله فى خمرية ثانية .

باكرا شمسَ القنانى تُدْركا كلَّ الأمانى
وخذا فى لذّةِ العيـ ـشِ على رَغْم الزمان
قهوةً ألبسها المز جُ قميصا من جُمان [٢]
كخدود الورد من تحـ ـتِ ثُغور الأقحوان
إنما البُغْية أن أصـ ـبحَ مخلوعَ العنانِ

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر ، ويصورها بصور جميلة ، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قميصا لؤلؤيًّا . ويصورها فى حمرتها والماء آخذ بتلابيبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية . ولايلبث أن يطن فى أبيات تالية عصيانه لربه ، فكل مايبغيه أن يظل سادرا فى خلع عنانه – أو كما قال فى المقطوعة السابقة – فى خلع عِذاره منتهكا ساجدا فى قبلة الكأس لتسبيح مثانى العود

---

(١) الرضاب : الريق . العقار : الخمر. (٢) الجمان : اللؤلؤ

وأوتاره . وكأنه يعيد لنا صورة أو صورا من خمريات أبى نواس المتهتكة الخليعة للارقة .

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار فى وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رُمّانة :

وعمرَّةٍ من بنات الغُصو نِ يمنعها ثِقلُها أن تميدا
منكَّسةُ التاج فى دَسْتِها تفوق الخدودَ وتحكى النُّهودا
تُفَضّ فتفترّ عن مَبْسمٍ كأن به من عقيقٍ عقودا
كأن المقابلَ من حَبِّها ثغورٌ تقبِّلُ فيها خُدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكّسة التاج فى دستها أو صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى فى غصنهاوعلى صدرها بقية نُوّارها . ويتصور حباتها عقودا من عقيق ، وكأنها تحمل بتلك الحبات ومايحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا . وكان ابن قسيم شاعرًا مجيدًا ، ومرَّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعى .

مجير[١] الدين بن تميم

هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم ، ولد بدمشق ونشأبها ، وسال الشعر على لسانه وانتقل الى مدينة حماة وعمل فى جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢-٦٨٣هـ) جنديا ، إحساسا منه بفتونه وشجاعته ، ويصور إقدامه وبسالته فى شعره قائلا :

دَعْنى أخاطر فى الحروب بمُهجتى إما أموت بها وإما أُرزَقُ
فسوادُ عيشى لا أراهُ أبيضًا إلا إذا احمرَّ السِّنانُ الأزرقُ

وقرّبه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به . ويقول صاحب فوات الوفيات : « هو فى التضمين الذى عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية ، وفى صحة المعانى والذوق اللطيف غاية ، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحلّ تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان ، حتى كأن الناظم

(١) انظر فى مجير الدين بن تميم وشعره فوات الوفيات ٥٣٨/٢ وخزانة الأدب للحموى ص ٣١٩ - ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفى مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدى فى ٤٧ ورقة

الأول ، إنما اراد به المعنى الثانى وقد أكثر من ذلك حتى قال :

أطالع كل ديوانٍ أراهُ ولم أزجرْ عن التضمين طَيْرى
أضمِّنُ كلَّ بيت فيه مَعْنىً فشِعْرِي نصفُه من شِعْرِ غَيْرى

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه «كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «كان من الشعراء المعدودين » . ولانعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة .

ومجير الدين بن تميم من أصحاب المقطَّعات الطريفة فى الغزل والطبيعة والخمر ، ولايبارَى فى ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات فى مقطعاته ، مع الظرف وخفة الروح والتعليلات الحسنة ، ونقتطف بعض أمثلة من أشعاره ، من ذلك قوله فى الساقية والطبيعة من حولها :

تأمَّلْ إلى الدولاب والنهرِ إذ جرَى ودمعُها بين الرياض غزيرُ
كأن نسيمَ الروضِ قد ضاع منهما فأصبح ذا يبكى وذاك يدورُ

ولكلمة « ضاع » معنيان : معنى سطوع الرائحة الطيبة التى يحملها النسيم عن الأزهار ، ومعنى الفقد والهلاك ، وبذلك تمت لابن تميم التورية التى يريدها من استخدامه للكلمة ، وقد أراد المعنى الثانى . ويقول مفاخرا بين الأرض والسماء :

ياجاعلَ الأفقِ مثلَ الأرض حُجَّتُهُ بالشمس إذ بزغتْ والبدرِ حين وَضَحْ
كم من شموسٍ وأقمارٍ إذا سَرَحتْ فى الأرض طرتَ إليها خِفَّةً وفَرح
ولا تَقُلْ : قُزَحٌ فى الجوِّ زَيَّنَهُ فى كل غُصْنٍ ترى فى الأرض قَوسَ قُزَحْ

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلا إن فى الأرض شموسا وأقمارا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا . ويقول لصاحب السماء : لا تحتج بجمال قوس قزح ، فأغصان الرياض فى الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرةً أرِجَة .
ويقول :

سبقتْ إليك من الحديقة وردةٌ وافتْك قبلَ أوانها تَطْفيلا
طمعتْ بلَثْمك إذ رأتك فجمَّعتْ فَمَها إليك كطالبٍ تقبيلا

وهى وردة فى بدء تفتحها وهى لاتزال فى كمّها ، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تتفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات . ويقول فى وصف ناعورة أو ساقية :

ناعورةٌ مذ ضاع منها قلْبُها ناحتْ عليه بأنّةٍ وبكاء
وتطلّبتْ بلقاءه فلأجل ذا جعلتْ تُدير عيونَها فى الماء

فقواديسها لاتهوى فارغة طلبا للماء والصعود به ، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذى ضاع منها ، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه . ويقول :

لمْ لاأميلُ إلى الرِّياض وزهْرِها وأقيم منها تحت ظلٍّ ضافِ
والغُصْنُ يلقانى بثغرٍ باسمٍ والماءُ يلقانى بقلبٍ صافِ

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا ، وفى البيتين رقة ودقة حس وخفة روح . وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما فى قوله :

كيف السبيلُ لأن أقبِّل خدَّ مَنْ أهْوى وقد نامتْ عيونُ الحرَّسِ
وأصابعُ المنثور تُومى نحونا حسدًا وتَغْمِزُها عيونُ النَّرجِسِ

والمنثور زهر ذكى يزهو فى أعلى سيقانه ، شبهه ابن تميم بالأصابع ، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم . وقد استغلها جميعا فى هذا التعليل ، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته . ويقول فى الخمر مداعبا :

روحى الفداءُ لمن أدار بلحظهِ صَهْباء فى عقلى لها تأثيرُ
فاعجبْ له أنّى يصونُ بلحظهِ مشمولةً وإناؤها مكسور

وكلمة « مكسور » إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه ، وإما كسر مافيه من الخمر بالماء وهو كسر حميَّاها وثورته ، وهو المعنى المراد فى البيت . ويقول أيضا فى الخمر :

وليلةٍ بتُّ أُسقَى فى غَياهبها راحًا تَسُلُّ شبابى من يَد الهرَمِ
مازلت أشربها حتى نظرتُ إلى غَزَالةِ الصبح ترعى نَرْجِسَ الظُّلَمِ

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم . ولم يكن ماجنًا مثل ابن قسيم ، ولاندرى هل كان يشرب الخمر حقا أو كان ينظم فيها محاكاة لمعنيها تظرفا . ومن طرائفه فى الرياض قوله

بعثَ النسيمُ رسالةً بقدومهِ للروض فَهْوَ بقربه فَرْحانُ
ولطيبِ ما قرأ المَزارُ بشَدْوِهِ مضمونَها مالتْ له الأغصانُ

والمزار : طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة . وواضح مافى ميل الأغصان لسماع شدو المزار من عنصر المفاجأة ، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر ومايحدث فى النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده ، وقد أنشد منها صاحبا الفوات والخزانة بدائع كثيرة .

ابن [1] النقيب

هو عبدالرحمن بن محمد الحسينى الملقب بابن النقيب ، ولد فى دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف ، وعُنى بتربيته ، فحفظ القرآن الكريم ، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح ، ولم يكن فى حاجة إلى تكسب به ، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه فى باب الإخوانيات ، وهى ليست الجوهر فى ديوانه المنشور ، إنما الجوهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومتنزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة . ويقول المحبى « ما أذكره له تشبيه زُهْر (حسان) أوزَهر ، أو وصف روض مطلٌّ على نهر ، وهو ممن أُغرىَ بهذين النوعين ، وذلك أما لميل غريزى فى فطرته ، أو لأن دمشق مروِّح فكرته » . ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التى كانت تخلب لبه . فقد توفى فى الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة . ومن قوله فى نهر وروض على حافتيه :

النَّهْرُ يَصْدَا بهاتيك الظلالِ كما يَصْدا من الغِمْدِ حَدُّ الصارم الذَّكَرِ
والزَّهْرُ يَفْرِشُ فى شَطَّيه مارقمتْ فيها السحائبُ من رَيْطٍ ومن حِبَرِ
رَبيعةُ الوَشْىِ لاينفكُّ زِبْرِجُها يجلو لنا من حِلاها أحسنَ الصُّوَرِ [2]

(١) انظر فى ابن النقيب وشعره خلاصة الأثر ٢/٣٩٠ ونفحة الريحانة ٢/٣٤ وديوانه (طبع المجمع العلمى العربى فى دمشق) وانظر مقدمتى أحمد الجندى وخليل مردم للديوان .

(٢) الزبرج : الحلية من الوشى أو الجوهر .

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها . وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف ، أما هي فتصدأ بأغمادها ، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله ، والزهر يفرش في شطيه مارقت أو نقشت فيها السحائب من رَيْط وحِبَر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشي ربيعي لايزال زبرجه ونقشه يحلو من حِلَى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور .. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متنزهات دمشق قائلا :

وبجلسٍ حفَّتِ الغصونُ بنا ... فيه ووجْهُ الرياض مبتهجُ
كـأن أوراقـهـا يرفُّ بها ... فوق الندامى نَسيمُها الأرِجُ
خُضْرٌ من الأُزْرِ لاتزال بها ... مـنـاكبُ الراقصـاتِ تختلـج

وهى صورة بديعة ، إذ يجعل أوراق الأغصان – حين يرفّ نسيمها فوق الندامى – كأنها أُزر أو شيلان تُظِلُّ مناكب الراقصات المختلجة المتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها . ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان :

كأنما الأغصانُ يَثْنيها الصَّبا ... والبدرُ من خَلَلٍ يلوح ويُحْتَجَبُ
حسناءُ قد عامتْ وأرْخَتْ شَعْرَها ... في لُجَّةٍ وللموجُ فيها يلعبُ

والصورة أيضا بديعة ، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء في لُجَّة مرخية ذوائبَ شعرها وموج أضوائها من حولها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة . وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل ، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله :

وزهرِ قَرَنْفُلٍ في الروض يَحكي ... عَقيقَ دمٍ على صفحاتِ ماء
رأى وَجناتِ من أهوَى فأغضَى ... فبـان بـوجهه أثَرُ الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبته ، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء . وله وراء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ماعارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته : « جادك الغيث إذا الغيث همى » . وله أيضا شعر دورى تتألف المنظومة منه ببيتين بيتين . وبدون ريب كان شاعرا بارعا ، وحقا مايقوله المحبى من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة البديعة في التشابيه العجيبة » .

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف ، وبها كان مهبط ديانتين : الديانة اليهودية والمسيحية ، ومر بنا فى الفصل الأول استعراض لنساكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوى وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة . وحين قام نظام الرهبنة فى المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك . وتعمها أضواء الإسلام ، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى ، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة ، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة ، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة ، عرضنا لأطراف منها فى غير هذا الموضع ، وطبيعى أن يجد ذلك صداه فى الشعر والشعراء الشاميين . ويلقانا فى ديوان أبى تمام باب للزهد ، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبى فراس (١) :

أما . يَرْدَعُ الموتُ أَهْلَ النُّهَى ... ويمنع عن غَيِّهِ مَنْ غَوَى
فيا لاهيًا آمنًا والحِمامُ ... إليه سريعٌ قريبُ المدى
إذا مامررتَ بأهلِ القُبورِ ... تيقَّنْتَ أنك منهم غدا
فلا أملٌ غيرُ عَفْوِ الإلهِ ... ولاعملٌ غيرُ ما قد مضى

وأبو فراس يقول : الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغَوِىَّ عن غيِّه ويرده إلى رشده ، ويعجب من لاهٍ آمنٍ على نفسه ولا يفكر فى هول مايتنظره من موت يوشك أن ينزل به ، وغدا يطير إلى رمسه ، ولا أمل له سوى عفو ربه فحرىٌّ به أن يكفَّ عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته ، وإنه لقريب . ويتعمق أبو العلاء التفكير فى الحياة والموت نهاية كل حى وينشد (٢) :

هىِ النَّفسُ تَهْوَى الرُّحْبَ فى كل موطنٍ ... فكيفَ بها إن ضاقَ فى الأرض قبرُها
وهل يَرْتَجِى خُضْرَ الملابس ظاعنٌ ... وقد مُزِّقَتْ فى باطن التُّربِ غُبْرُها
نوائبُ ألقتْ فى النفوس جرائحًا ... عَصَى كلَّ آسٍ فى البريَّة سَبْرُها
لىَ القوتُ فَلْيَغْمُرْ سَرَنْديبَ حظُّها ... من الدُّرِّ أو يكثُرْ بغانةَ تِبْرُها

---

(١) الديوان ٢/٦

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ١/٣١٢

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم . وربما كان يَكْنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبرُّ فيه هذه الثياب وتمزّق تمزيقًا . ويقول تلك نوائب تصيب النفوس فى الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصى سَبْرها ومعرفة غورها على كل طبيب ، ويذكر أنه لايفكر فى طيبات الحياة ولاتمر بخاطره ، إذ هو قانع بقوته وما يسدُّ رمقه ، ولتمتلئْ سرنديب – أوكما تسمى الآن سيلان – بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة فى غربىّ إفريقيا التبر كما يقولون ، فحسبى قوتى . ومرَّ بنا أنه كان زاهدا فى الدنيا ونعيمها ، مكتفيا بالعدس والتين . ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات فى مجلدين ، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال فى مقدمته . ويقول ابن سنان الخفاجى(1) :

استغفرِ اللَّهَ القديمَ وعُذْ بهِ ... من شرِّ غاوٍ فى الحُطام منافسِ
وافعَلْ جميلا لايضيعُ صَنيعهُ ... واسْمَحْ بقوتك للضعيف البائسِ
واقنَعْ فنى عيش القناعة نعمةٌ ... لاتتقى كفَّ الزمان الخالس
لاتفخرنْ وإن فعلتَ فبالتُّقَى ... ناضلْ وفى بَذْل المكارم نافسِ

وهو يستغفر الله من شركل غاوٍ منافس فى حطام الدنيا ومتاعها الزائل ، ويوصى بفعل الجميل ومدِّ اليد بالقوت للبائس الفقير . ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لايخاف على شىء يختلسه منه الزمن ، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقى ولاينافس إلا فى المكارم والمحامد . ويقول الحسن بن طارق الحلبى من شعراء الخريدة (2) :

عمرتَ دارَ فناءٍ لابقاءَ لها ... ظنًّا بأنك عنها غيرُ منتقلِ
أتعبتَ نفسك لا الدنيا ظفرتَ بها ... وأنت لاشكٌّ فى الأخرى على وجَلِ
دارُ الإقامة أولى بالعِمارة من ... دارٍ نعيمُك فيها غيرُ متصلِ
فاعمَلْ لنفسك ماترجو النجاةَ به ... فليس يُنْجيك إلا صالحُ العمل

وهو يزهِّد فى الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التى ينبغى أن يعمل لها الإنسان ، وهى حقا الأجدر بأن يقدم لها كل مايستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه .

---

(1) الديوان ص ٥٧

(2) الخريدة (قسم الشام) ٢/١٥٨

ويقول الإمام النووى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة[1] .

وجدتُ القناعةَ أصلَ الغِنَى فصرتُ بأذيالها مُمْتَسِكْ
فلاذا يرانى على بابهِ ولاذا يرانى به منهمكْ
وعشتُ غنيًّا بلا درهمٍ أمرُّ على الناس شِبْهَ المَلِكْ

وكان محيى الدين النووى إماما ورعا زاهدا مثابرًا على التقوى والقناعة ، فلا أحد من الحكام - كما يقول - يراه على بابه طالبا حاجة ، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا ، فانهماكه إنما هو فى العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس فى أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوى آخذا نفسه فى حياته بالتقشف الشديد . ويقول مصطفى البابى الذى مرت ترجمته : إن الأرض مقبرة كبرى نطؤها أقدامنا غير واعين ، بل إنه يبعد فى خياله قائلا .

قد غَنِينا عن الدروس بما تُمْـ ـلى علينا صحائفُ الأيامِ
من عظَاتٍ تُتْلَى بغير لسانٍ وسطورٍ خُطَّتْ بلا أقلامِ
ولو أنَّ العيونَ زال غِشاها لرأتْ كلَّ أخْمَصٍ فوق هام[2]
بل وفى كل وردةٍ ألفُ خَدٍّ وقضيبٍ يميسُ ألفُ قوامِ

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت ، وحرى بالإنسان أن يفكر فى هذا المصير المقدم عليه ، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا وواراهم أهلهم التراب ، حتى لكأن أى مكان لا يخلو منهم ، وحتى لكأننا نطؤهم بأقدامنا ، فهم منبثون فى كل بقعة وفى كل مكان . ويقول البابى لو زالت الغشاوة عن أعيننا لرأينا - وياهول مانرى - أقداما تطأ رءوسا ، ولعلنا أن الورد النابت من الأرض يستمد حمرته من ألف خد ، وبالمثل قضيب الأغصان الأهيف المائس المختال يستمد اختياله من ألف قدّ . ويلاحظ المحبى أن المشهور فى هذا المعنى قول أبى العلاء .

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظنُّ أديم الْـ أرضِ إلاّ من هذه الأجْسادِ

---

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبى) ٣٠١/١

(٢) الأخمص : باطن القدم : الهام : الرأس .

وقول مهيار :

رُوينَا بأخفافِ المطيِّ فإنما   تُداسُ جباهٌ فى الثرى وخدودُ

وكأن الباهى نظر إلى معنى البيتين جميعا ، ويضيف المحبى أن منزع هذا كله قول المتنبي :

ويَدْفِنُ بَعْضُنا بَعْضًا ويمشى   أواخرُنا على هامِ الأوالى

والأوالى : الأوائل . ولايكتفى المحبى بذلك ، بل يقول أن معنى بيتى الباهى دقيق ، وفى رُباعيات عمر الخيام بالفارسية من نوعه أشياء كثيرة ، ويذكر أنه ترجم له رباعية تحمل هذا المعنى على هذه الصورة :

فى الاعتبار بمن مضى من قبلنا   عِبَرٌ وتلك هدايةُ المسترشدِ
فلكم طوتْ ترباؤنا أمما وهل   ميْتٌ بغير تُرابها لم يُلْحَد
حتى كأن شَقيقَها دمُ أسرةٍ   سفكتْ دماءهمُ عيونُ الخُرَّدِ
وبَنفسجُ الروضِ الندىُّ كأنه   خِيلانُ وَجَناتِ الخدودِ الوُرَّد

فالشقيق الأحمر القانى يستمد مما سفكته عيون الجميلات من دماء العشاق ، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن . وكل ذلك بعد فى التصور والخيال .

وكان يرافق الزهد منذ القرن الثالث الهجرى نساك – كما مر بنا فى الفصل الأول – أقرب إلى المتصوفة منهم إلى الزهاد فى مقدمتهم ابن الجلاء ، وكانت الشام ساحة كبرى للنساك يؤمونها طوال هذا القرن والقرون التالية من العراق وإيران ومصر . واشتهرت جبال لبنان وأنطاكية بكثرة من كانوا يفيئون بها للنسك والعبادة ، وامتد ذلك إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام . وذكرنا فى الفصل الأول نزول الغزالى بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضىء بقوة بما كتبه أبونصر السراج والقشيرى فى الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة ، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل . وبذلك سدَّ الثلمة التى كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما . وزادها دعمًا نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة . وتبعهم فى ذلك نور الدين حين أصبحت الشام فى قبضته ، بل لقد اتسع فى العناية بهم ورَصْد النفقات عليهم . وظلت هذه العناية متصلة فى عهد صلاح الدين وخلفائه

الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف ازدهارا عظيما .

وكان قد أخذ يظهر فى التصوف تياران كبيران : تيار سنى كانت تتبعه جماهير الشعب ، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة ، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ماصورنا ذلك فى غير هذا الموضع . وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفى يقوم على أفكار الحلول والاتحاد بالله ، ولم تكن له شعبية التيار الأول ، وقد مثله فى القرن السادس الهجرى يحيى السهروردى الذى ترجمنا له فى إيران وأنشدنا بعض أشعاره . ومثل هذا التيار فى القرن السابع محيى الدين بن عربى الذى نشأ فى الأندلس ، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه فى دمشق ، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية . وله أيضا دواوين بديعة ، لأبياتها ظاهر وباطن ، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفى . وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل فى أعماقه . وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية ، وبالمثل أشعار السهروردى وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفى للفلسف القديم تؤثر هى وأشعار التيار الصوفى السنى فى كثيرين بحيث أصبح للشام تراث صوفى شعرى . وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية فى الناس ظهور الطريقة القلندرية التى ظهرت فى القرن السابع الهجرى مع مادا خلها من الخرافات ذكرناها فى الفصل الأول ، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك . وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفى الفلسفى ، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمسانى وعبد الغنى النابلسى ، أما ابن عربى فعداده فى الأندلسيين ، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره .

وكان يقترن بنزعتى التصوف والزهد مديح نبوى كثير ، وهو قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده فى سبيل الله وفتوحه . وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه ، إذ انبثّ كثير منه فى مدائحهم لأئمتهم العلويين وفى مراثيهم للحسين على نحو مانجد عند الصنوبرى الذى ترجمنا له فى كتاب العصر العباسى الثانى .. ولأبى العلاء فى اللزوميات قصيدة فى مديحه ، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلا :

دعاكم إلى خير الأمور محمدٌ … وليس العوالى فى القَنا كالسوافلِ
حداكم على تعظيم من خلَق الضُّحى … وشُهْبَ الدُّجَى من طالعاتٍ وآفلِ
فصلَّى عليه اللهُ ماذرَّ شارقٌ … ومافَتَّ مِسكا ذِكْره فى المحافِلِ

وعوالى القنا أو الرماح هى الماضية القاطعة ، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذى خلق الشمس وماتغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التى تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية ، فهو مدبر الكون وملكوته . ويدعو الله أن يحفّه ببركاته ماطلعت شمس وماعطر ذكره المحافل بمسك لايضاهيه مسك .

ويحتدم المديح النبوى مع الحروب الصليبية وحروب التتار ، إذ أحسّ الشعراء – بحق – أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم ، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتى شاعر صلاح الدين فى مدحة نبوية [١] :

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشــــهادة تجريحٌ وتعديلُ
لولاه لم تك لاشمسٌ ولا قمرٌ ... ولا الفُراتُ وجاراه ولا النّيلُ
مرتِّلُ الوَحْى يتلوهُ ويدرسه ... ولم يكن لكلام الله ترْتيلُ
وسيِّد الرُسْلِ حقا لاخفاء به ... وشافعٌ فى جميع الناس مقبولُ
بثّتْ نبوّته الأخبارُ إذ نطقتْ ... فحدّثتْ عنه توراةٌ وإنجيلُ

ويقول ابن الساعاتى هو البشير النذير الذى أشاع العدل فى أمته ، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده ، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولاحياة فى الأرض ولا أنهار ، ويقول إنه أول رسول رتّل الكلام ، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة ، وبه تحدثت الأخبار فى التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى . ويقول فتيان الشاغورى من مدحة نبوية مؤملا شفاعته فى يوم الحشر متمنيا زيارته [٢] :

أُؤمِّلُ من خير الأنامِ شفاعةً ... بها فى نعيمٍ بالجنان أخلَّدُ
وَدِدْتُ بأنى زرتُ قبرك راجلا ... وقبّلتُ تُرْبًا أنت فيها موسَّدُ
ومرَّغْتُ خَدِّى عند قبرك ضارعا ... بأرضٍ حَصاها لؤلؤٌ وزَبَرْجَدُ
وذاك ضريحٌ يَحْسُدُ المِسْكُ تُرْبَهُ ... وكلُّ شريفِ القدر لاشك يُحْسَدُ

وهو يؤمِّل فى شفاعة الرسول بالغفران ودخول الجنان ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلا وقبّله وعفّر خدّه بما حوله من التراب ضارعا متوسلا بأرض

(١) ديوان ابن الساعاتى ٤٨/١
(٢) ديوان فتيان ص ١٠٩

حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على مايحمل من طيب لا يماثله طيب . وللسخاوى على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع فى المديح النبوى . وفى مدحة نبوية يقول الشاب الظريف منوها بالبقعة مثوى الرسول الكريم[١] :

أرضَ الأحبَّة من سَفْحٍ ومن كُثُبٍ ... سَقاكِ منهمرُ الأنواء من كَثَبِ[٢]
ياساكنى طيبةَ الفَيْحاء هل زمنٌ ... يُدْنى المحبُّ لنَيْل الحبِّ والأربِ
أرضٌ مع الله عَيْنُ الشمس تحرسُها ... فإن تغِبْ حَرَسَتْها أعينُ الشُّهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كثب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر ، ويتمنى زمنا يحقق أربه وأمنيته من زيارة الجدث الطاهر . ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة برعاها لله جَلَّ علاه .

وللشهاب محمود ديوان فى مديح الرسول ﷺ سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهانية النبوية لإسماعيل النبهانى بطائفة من مدائحه ، وفى إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق فى غربيها ولم يلبثو أن زاروا القبر الزَّكِيَّ ، يقول[٢] :

وإذا شارفوا العَقيقَ تراءتْ ... من رُباه سَنا القِباب الزُّهْرِ
وتلقَّاهُمُ بَشيرُ التلاقى ... بِقَبولٍ تَسْرى قُبَيْلَ الفَجْرِ
وشَذا الروضةِ التى بين أزكى ... منبرٍ فى الدُّنا وأشرفِ قَبْرِ
حبذا ذاك من مقامٍ كريمٍ ... يُشْتَرى يومهُ بكلِّ العُمْر

وهو يصور فرحة ركبه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشرفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر . والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقى وعطر الروضة النبوية يفوح ، وهو يشير إلى الحديث النبوى : « مابين قبرى والمنبر روضة من رياض الجنة » ويقول إن فرحة المثول أمام القبرالطاهر يُشْتَرى يومها بالعمر كله . ولكمال الدين محمد بن على الزَّمْلكانى المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها[٣] :

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤
(٢) المجموعة النبهانية ١٧٣/٢
(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

محمدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهمِ وفاتحُ الخيرِ ماحى كلِّ إشراكِ
قد نال مرتبةً ما نالها أحدٌ من أنبياءِ ذوى فَضْلٍ وأملاكِ
ياصاحبَ الجاه عند الله خالقهِ ماردُّ جاهَك إلا كلُّ أفّاكِ
ها قد قَصَدتُك أشكو بعض ما صنعتْ بِىَ الذنوبُ وهذا ملجأُ الشاكى
عليك من ربِّك الله الصلاةُ كما منا عليك السلامُ الطيِّبُ الزاكى

والزملكانى يقرر حقيقة كبرى ، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وماحى الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة . ويتوسل إليه أن يستغفر له ربه وأن يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية ، وقد زاره وحط رحاله فى حماه لنوال هذا الأمل المنشود . وتكثر مثل هذه الاستغاثة فى المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة . ويقول مصطفى البابى من مدحة نبوية بديعة[١] :

إليك رسولَ الله قد جاء ضارعًا أخو عثْرةٍ يرجو الإقالةَ مذنبُ
فبابُك بابُ الله ما عنه مهربٌ وطالبُه من غير بابك يُحْجَبُ
أغثْنى تداركْنى أجِرْنى فإننى لَقًى، إن تراخى عنه لُطْفُكَ يَعْطَبُ
وأبعدُ شىءٍ أن تضيق بِرُحْبِها شفاعتُك العظمى بنا فَهْىَ أرحبُ

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقبله ويخلصه من ذنوبه ، ويستغيث به لائذًا أن يكون شفيعه يوم القيامة ، يوم يطول وقوف الناس فى المحشر ، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار ، وسعيد من يشفع له الرسول فى هذا اليوم ، فيفوز برضوان ربه . وللبابى يتوسل[٢] :

ياحىُّ ياقيُّوم قد بهرَ العقولَ سَنَا بهائِكْ
إنى سألتك بالذى جمعَ القلوبَ على ولائكْ
نورِ الوجود خلاصةِ الـ ـكونين صفوةِ أنبيائكْ
إلا نظرتَ لمستغيـ ـثٍ عائذٍ بك من بلائكْ
فالطُفْ به فيما جَرى فى طَىِّ عِلْمك من قضائكْ

---

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٧

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانة ٢/٤٣٤

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذى جمع أمته على الولاء له ، ويقول إنه نور الوجود ، فنوره يشاهد فى كل نور : فى نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين ، ويتخذه وسيلة إلى ربه وشفيعه ، حتى يلطف به فى قضائه وماجرى فى طى علمه . وحرى أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوى وهو أول من نقف عنده .

عبد (١) العزيز الأنصارى

هو شرف الدين الصاحب عبدالعزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصارى ، كان أبوه من فقهاء دمشق ، وحين عهد بقضائها فى عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزورى سنة ٥٧٢ جعله من نوابه . ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء ، ولانعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبى عصرون خليفة ضياء الدين . وأكبر الظن أنه بقى فى منصبه مدة ، أو لعله عمل فى منصب آخر . ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة فى سوق الخَوَّاصين ولاندرى هل كان يجمع بين عمله فى القضاء وبين التجارة أوكان يزاولها حين يعفى منه . وولد له ابنه عبدالعزيز سنة ٥٨٦ وطبيعى أن يُعْنَى القاضى بتربية ابنه ، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكبَّ عبدالعزيز على تلك الحلقات ينهل منها ، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب مافيها نزل به بغداد فاستمع بها إلى شيخ المدرسة النظامية ، وكان لايزال فى نحو العشرين من عمره . وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧-٦١٧هـ) وسكنها معه ابنه عبدالعزيز ، ويقربه منه المنصور وينظم فيه بعض مدائحه وكذلك فى زوجته عصمة الدين ، ويتوفى المنصور ويغتصب إمارة حماة بعده السلطان قلج أرسلان (٦١٧-٦٢٦هـ) ويظل بها عبدالعزيز . وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦-٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذه المظفر وزيره ومستشاره وشاعره ، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢-٦٨٣هـ) وكان صبيا فى العاشرة

(١) انظر فى عبدالعزيز الأنصارى وشعره فوات الوفيات ١/٥٩٨ وذيل مرآة الزمان ٢/٢٣٩ والعبر ٥/٢٦٨ وتذكرة الحفاظ ٤/١٤٤٣ وطبقات الشافعية ٨/٢٥٨ والنجوم الزاهرة ٧/٢١٤ والخزانة للحموى ص ٢٤٩ ، ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د . عمر موسى

من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذى ذكره مترجموه فى هذا التاريخ . وكان يلمُّ بحلب ، ونجده سنة ٦٤٧ فى صحبة أميرها الناصر يوسف فى زيارته لمصر . ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة .

وكانت تُعْقَدُ فى هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصارى الحلقات لسماع الحديث عنه ، وممن سمعه منه الحافظ الدمياطى محدث مصر واليونينى محدث دمشق ، ويقول ابن تَغْرى بَرْدى عنه : «برع فى الفقه والحديث والأدب وأفتى ودرس وتقدم عند الملوك وترسّل عَنهم غير مرة ، وكان شاعرا بارعا » وينقل صاحب الفوات عن الصفدى فى وصف شعره وشاعريته قوله : « لا أعرف فى شعراء الشام بعد سنة خمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ولا أَبْرَى ولا أكثر ، وإن له فى لزوم مالا يلزم ديوانا كبيرا ، وما رأيت له شعرا إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافى المتمكنة والتركيب العذب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ » وهو يمتاز بجمال موسيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنا بديعا .

وطبيعى والأنصارى شيخ الشيوخ الفقيه المحدث أن يعنى فى شعره بالمديح النبوى والزهد والوعظ ، ومن قوله فى أول مدحة نظمها للرسول الكريم وقد أنشدها تجاه حجرته الشريفة :

يا خاتمَ الرُّسْل الكرام وفارجَ الـ ... ـكُرَب العِظام بفعلهِ والمِقْولِ
ها قد ورَدْنا من ضَرِيحك موردًا ... نُشْفَى به من كل داء مُعْضِلِ
أدعوك للجُلَّى وتلك شفاعةٌ ... لم تَرْضَ لى أنى أخاف وأنت لى
ولقد أتيتك مادحا لتجيزنى ... فى الحشر كاساتِ الرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وهو يستغيث بالرسول الكريم ﷺ خاتم الرسل ومفرِّج الكرب الذى ورد على جدثه الطاهر ومغْنيه العاطر الذى يشفى من كل داء عضال أن يكون شفيعا له يوم الحشر وأن يتيح له فيه – حين يشتد بالناس أُوار العطش ولهيبه – كاسات من الرحيق الصافى . ويقول فى مدحة نبوية ثانية :

ويلاىَ من نومىَ المشرَّدْ ... وآهِ من شَمْلىَ المبدَّدْ
غُصْنُ نَقًا حَلَّ عَقْدَ صَبْرى ... بلِينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدْ
فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ ... ـصَّائمَ صلَّى على محمَّدْ

أشرفُ مَنْ فى النهار ناجَى وخيرُ مَنْ فى الدُّجى تَهجَّدْ
وغيرُ بِدْعٍ لمستجيرٍ به إذا نال كلَّ مَقْصِدْ

وموسيقى الأبيات بديعة . وقد تخلص تخلصًا رائعا من الغزل إلى مديح للمصطفى بذكر وشاح صاحبته الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه ، لمن رآها – كما يقول – صلّى على الرسول إعجابا بها واستحسانا لها ، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهارا وتهجده ليلا وأن من يستجير به ينال كل مأمول ومطلب . وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسا منها الشطور الثانية لقصيدته ، فإن لم يقتبس شطرا اقتبس قافية .

وزهديات الأنصارى كثيرة ، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقى فى متاع الحياة الدنيا . وفى إحداها يقول :

مُلْكُ القناعةِ عزٌّ يُذْهِبُ الذِّلَّهْ فمن حوى كنزَه لم يُؤتَ من قِلَّهْ
تبًّا للذى طمعٍ مستعبدٍ ومُنًى لاتستقرُّ على رِىٍّ بلا غُلَّهْ
يسومُ إبلاغَهُ من ريقِهِ بَلَلاً وليس يَرْوَى ولو أبلغتَهُ دِجْلَهْ
فانقَعْ غليلَك من نَهْلٍ بلا عَلَلٍ واقنع إذا أكلةٌ أغنتْك عن أكْلَهْ

فالقناعة – فى رأيه – عز مابعده عز ، ومن حوى كنزها الذى لايفنى لم يَشْكُ من قلة ، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لاتروى أبدا فدائما صاحبها يعانى من غُلّة العطش وحرارته ، ودائما يريد أن يبلّ ريقه ، إذ لا يَرْوى أبدا ولو أبلعته نهر دجلة ، فاكتف بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشَّربة الأولى من الماء ولاتطلب العلل أو الشربة الثانية منه . واقنع بكفاف العيش ، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل . يقول :

وابْغِ أخرى دائمٌ فيـ ـها نعيمٌ وشقاءُ
وتَنصَّلْ من خَطيئا تٍ لها النارُ جزاءُ
وإذا صحّ لك القو تُ على الدنيا العَفاءُ
كلُّ ما فى هذه الدُّنْـ ـيا قُصاراهُ الفناءُ
ولأهْلِ الخُلْدِ فى الخُلْـ ـدِ وللهِ البقاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة ، وأن

يتوب إلى ربه مستغفرا من خطيئاته وذنوبه . ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف ، وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل مافيها هالك وفان ، والسعادة إنما هي لأهل الجنة وفقه البقاء والدوام .

وفى الديوان أشعار كثيرة على طريقة لزوم مالايلزم . ومر بنا أن الصفدى قال إن له فيها ديوانا كبيرا . وقد عرض له الحموى فى خزانته طائفة من تورياته وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والاداء .

محمد (١) بن سوّار

هو محمد بن سوّار بن إسرائيل بن الخَضِر الشيبانى الدمشقى المولد والدار والوفاة ، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة . وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة ، واختلف إلى حلقات الشيوخ ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته ، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربى المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريرى المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له ، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله :

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جليلُ ذُهِلتْ لديه بصائرٌ وعقولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوِيَ نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهى دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الربانى . وإذا رجعنا إلى الحريرى عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله – كما أفتى فقهاء حلب بقتل السهروردى – لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة ، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردى المقتول . ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريرى لم تؤد به إلى الخرافات ، والسبب فى ذلك أنه كان متصوفا حقا ، إذ يقولون إنه تجرّد ولبس المرقعات الصوفية ورحل فى البلاد على قدم الفقر والتصوف . ولقى – فيمن لقى – شهاب الدين السهروردى الصوفى السنى البغدادى وسمع عليه وأجلسه فى ثلاث خلوات . ولقى أيضا ابن الفارض متصوف

(١) انظر فى محمد بن سوار وشعره وأخباره فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٣٥٩/٥ والوافى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين الحريرى فى الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الخيمى فى الفوات ٤٥٨/٢ .

مصر المشهور ، ويذكر الرواه لذلك قصة هى أن ابن سوار حجّ ، فرأى ورقة ملقاة فيها قصيدة - وكانت لابن الخيمى المتصوف المصرى تلميذ ابن الفارض - فادعاها لنفسه ، فراجعه ابن الخيمى وعبثا حاول أن يقنعه ، فتحاكما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروى ، وكانت القصيدة بائية ، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة ، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمى .

ولم نصل بين ابن سَوّار والسهروردى البغدادى لأنه كان سنى التصوف وتصوف ابن سوار فلسفى ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربى ومافيه من فكرة وحدة الوجود ، ولذلك وصلناه به ، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله :

إن أمّ صحبى سَمُرًا أو أَراكْ   فإنما مقصدهم أن أراكْ
وإن ترنَّمْتُ بذكر الحِمَى   فإنما عَقْدُ ضميرى حِماكْ
وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما   أحسب إلا أنه قد بكاكْ
ملأْتَ كلَّ الكون عشقا فما   أعرف قلبا خاليا من هَواكْ

فصَحبه إن أمُّوا به شجر السَّمُر والأراك فقصدهم أن يرى ربه محبوبه الذى يحل فى كل مكان ، وهو حين يذكر فى غزله الحمى إنما يريد حماه ، بل إن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحلُّ فى جميع الأشخاص والأشياء ، فما يعشق الناس شخصا أو شيئا إلا ويعشقونه ، وكأن كل شىء مرآة له ، إذ يتراءى فى كل الوجود . ويقول من قصيدة ثانية :

يامَنْ يشير إليهم المتكلّمُ   وإليهمُ يتوجَّهُ المتظلِّمُ
وعليهمُ يحلو التأسُّفُ والأسى   ويلذُّ لوعاتِ الغرام المُغْرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهرا   وحياتِكم مافيه إلا أنتمُ
وإذا نطقتُ ففى صفات جمالكم   وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكمُ
وإذا سكِرْتُ فمن مُدامةِ حبِّكم   وبذكركم فى سَكْرتى أترنَّم
وإذا نظمتُ تغزلا فى صورةٍ   فلأجل حُسْنِكمُ المحجَّبِ أنظمُ
أنتم حقيقةُ كلِّ موجودٍ بَدَا   ووجودُ هذى الكائنات توهُّمُ

والأبيات صريحة فى أنه مؤمن بوحدة الوجود . فالله يحل فى الوجود جميعه ، وكل مافيه من

أشخاص وأشياء مظاهر له ، وهو لذلك إن تحدث عن جميل أوسأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد فى كل جميل . وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهى الذى يترنَّم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار . وهو إذا تغزل فى صورة واستشعر وجدا إنما يستشعر الوجد الربانى . وإنه لينبثُّ فى كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته . وهى نفس الأفكار التى تلقانا عند ابن عربى ، ولذلك تكلم فيه أهل السنة ، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات . وعلى هذه الشاكلة قوله :

خلا منه طَرْفى وامتلا منه خاطرى ... فطَرْفى له شاكٍ وقلبىَ شاكرُ
ولو أننى أنصفتُ لم تشكُ مُقْلتى ... بِعادا ودارَاتُ الوجود مظاهرُ

فالله يمترج بروحه ولايراه ، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر ، ويقول إنه كان جديرا بمقلته أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره ، فكيف لاتبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهَدٌ فى كل الأشياء . وكان للمتصوفةلأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر وإنشاد الشعر عليه إلى السَّحَر ، ويُرْوَى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموى ليلة من تلك الليالى فغنى المغنى من شعره :

وما أنتَ غيرُ الكَوْنِ بل أنتَ عينُهُ ... ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ

فقال ابن الحكم : كفر ، فقال ابن سوار : لا ، ماكفر ، لكن أنت ماتفهم ، وتشوَّش المجلس . وفى البيت وفى بقية الشعر مايدل على ابن سوار يريد أن يقول – على أساس مايزعمه من فكرة وحدة الوجود – إن الله هو الكون أو الوجود بجميع مافيه ، والفكرة بأساسها – كما يرفضها ابن الحكم – يرفضها – كما ذكرنا ذلك أيضا – أهل السنة وأصحاب التصوف السنى .

عفيف (١) الدين التلمسانى

هو سليمان بن على بن عبدالله الكوفى التلمسانى ، وتدل نسبته إلى تلمسان فى الجزائر على أنه مغربى الأصل ، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو ،

(١) انظر فى عفيف الدين وأشعاره وأخباره فوات الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٤٦٣/٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩/٨ والشذرات ٤١٢/٥ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩ ، ٣٢٦ . وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت .

ولا نعرف شيئا عن نشأته ، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ماعندهم ، ولعل ذلك ماجعله يؤلف فى كل علم كما يقول صاحب الوفيات . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وعُرف فضله وأدبه ، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب ، وأغلب الظن أنها جميعا كانت فى دمشق وفى دواوينها وخاصة فى بيت المال . وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوى أحد أتباع ابن عربى ، ويبدو أنه اعتنق مذهبه فى وحدة الوجود على يده . ونزل معه فى العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، ومكثا بها مدة ، رُزق فى أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزل . ولقى فى القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوى ابن سبعين الأندلسى ، وكان على شاكلة القونوى وابن عربى يؤمن بوحدة الوجود ، فأكّدها فى نفس عفيف الدين . وعاد إلى دمشق ، وتارة كان يعمل بها فى الدواوين ، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربى ، ومذهبه فى وحدة الوجود . وترك دمشق مدة إلى الأناضول ، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم ، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية ، يخرج من واحدة ويدخل فى أخرى . ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة ، ولعله لذلك لم يتعقبه الفقهاء ، وظل موزعا بين عمله فى دواوين دمشق وعمله فى ميدان التصوف حتى توفى سنة ٦٩٠ للهجرة .

وكان تصوف عفيف الدين - كما ذكرنا آنفا - تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربى ، مما جعله يُعْنَى بشرح أعقد كتبه فى التصوف ونقصد كتابه : « فصوص الحكم » وفى مكتبة ولى الدين بإستانبول مخطوطة منه . وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربى فى ديوانه « ترجمان الأشواق » من مثل قوله فى قصيدته التى نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمى المذكورة آنفا فى ترجمة ابن سوار :

لولا الحِمَى وظباءٌ بالحِمَى عُرُبُ ... ماكان فى البارق النَّجْدِىِّ لى أَرَبُ
وفى رياض بيوت الحىِّ من إضَمٍ ... وَرْدٌ جَنِىٌّ ومن أكمامه النُّقُبُ
لاتقدر الحُجْبُ أن تُخْفِى محاسنَه ... وإنما فى سَناه الحجْبُ تنحجبُ
ياسالما فى الهوى مما أكابدُه ... رفْقًا بأحشاء صَبٍّ شَفَّه الوَصَبُ
هل السلامةُ إلا أن أموتَ بهم ... وَجْدًا وإلا فبُقْيَاىَ هِىَ العطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبه الربانى ، ويتحدث عنه حديثا رمزيا ، فلولا

حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدى ، ولا كان له ولوع بورد الخدود فى رياض بيوت الحى من إضم . ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التى تُسْدَلُ على تلك الخدود هى أكمام الورود ، ويقول إن الحجب لاتستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب فى سناه وضيائه للشرق . ويذكر أن أحشاءه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هى فى أن يموت فى حب ربه وجدا وهياما ، وإلا فبقاؤه هلاكه ، ويقول إن السكارى يفيقون من سكرهم ، وهو لايفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهى :

لاتحسبوا أننى عن حُبّكم سالى ... وحقّكم لم يزل حالى بكم حالى
يا ساكنين فؤادى وهو منزلكم ... لاعشتُ يوما أراه منكمُ خالى
أنتم بقلبىَ أدنَى من جوّانحه ... حقّا على رغم حُسّادى وعُذّالى
أوضحتمُ لمحبّيكم طريقكمُ ... حاشاكمُ تهجرونى بعد إيصالى

وفى البيت الأول تورية واضحة فى كلمة « حالى الثانية » إذ ليس المراد معناها الظاهر كما فى « حالى السابقة » وإنما المراد أن حاله لايزال بحبه لربه حاليا أومزدانا بحلى بديعة . ويقول إن محبوبه الإلهى حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه ومايحيط بها من صدره ، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التى كان يؤمن بها ابن عربى . ويضرع إلى محبوبه الربانى أن لايهجره بعد وصله . ويقول :

يا أُصَيْحابى بذى سَلَمٍ ... مَنْ أُصيْحابى وما السَّلَمُ
أنا عنى اليوم فى شُغُلٍ ... فاذكرونى إن نسيتكمُ
وأشيعوا فى الحِمَى خبَرى ... وأذيعوا السرَّ واكْتَتِمُوا
لايرانى الحِبُّ مُنْثَنِيًا ... بعد مالاحتْ لىَ الخِيَمُ
كنتُ قبل اليوم فى حُلُمٍ ... وتقضَّى ذلك الحُلُمُ
فزمانى كلُّه طَرَبٌ ... دونه الأوتار والنَّغَمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله فى الوصول إلى محبوبه الإلهى . وهو لذلك يخاطب أصحابه بذى سلم أحد المواضع النجدية التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى . ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوبه ، كما يقول ، فيعلن أنه فى شغل عن أصحابه وعن السلم ، وأنه لن ينثنى عن طريقه إلى محبوبه الذى طالما حلم بوصله ولقائه ، وقد انقضى عهد الحلم . وهو لذلك فرح

مبتهج ، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغام واللحون . ولما فى هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى متدلع خمَّسها عبدالغنى النابلسى مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها ، وهو وجد كان لايزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا .

عبدالغنى (١) النابلسى

هو عبدالغنى بن إسماعيل النابلسى الدمشقى الحنفى ، كان أبوه من فقهاء دمشق الأحناف ، وكانت له حلقة بجامعها الأموى . ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم ، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق . وولد له فيها ابنه عبدالغنى سنة ١٠٥٠ للهجرة ، وعُنى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الكريم ، فلقنه المذهب الحنفى ، ودفعه إلى حلقات العلماء فى دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوى والتفسير ، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها . وسرعان مانضج علميا وهو لايزال فى العشرين من عمره فأخذ يقرأ الدروس ويلقيها على طلابه ، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا ، وقد استغرقت فى كتاب سلك الدرر للمرادى سبع صفحات . واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة ، وأخذ يعنى بالتصوف ، فانتظم فى الطريقة القادرية ثم فى الطريقة النقشبندية ، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها : مفتاح المعية فى الطريقة النقشبندية ، ثم جذبه إليه مذهب ابن عربى الصوفى الفلسفى ، وكأنما عاش به وفيه وله ، إذ يصدر عنه بوضوح فى ديوانه الصوفى . ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق ، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التى آمن بها من قبله إمامه ابن عربى ، ويردِّد دائما : ليس فى الكون سواه ، فلا موجود إلا به ، وما الكائنات إلا صورة له ، يتجلَّى فيها بأسمائه وصفاته ، يقول :

إنه اللهُ وجودٌ واحدٌ حكمةٌ فينا حرامٌ وحلالْ
وهْوَ حقٌّ وسواهُ باطلٌ قال فى القرآن والسبع الطُّوالْ
أينما أنتم تولُّوا ثَمَّ وَجْـ ـهُ الإلهِ الحقِّ محمودِ الفعالْ

---

(١) انظر فى عبدالغنى النابلسى وأشعاره وأخباره كتاب سلك الدرر ٣/٠٣٠ وخلاصة الريحانة ٢/١٣٧ وتاريخ الجبرتى ١/١٥٤ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق فى صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية : طبع قديما بمصر بالمطبعة الأشرفية فى ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط .

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى فى سورة البقرة : (ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُوَلُّوا فثَم وجه الله) والآية إنما تشير إلى ان أى مكان من المشرق والمغرب يأمرهم الله باتخاذه قبلة تكون هناك جهته التى أمرهم بالاتجاه إليها لا أنه موجود فيها حالٌّ بها ومتحد معها كما يذهب النابلسى وابن عربى زاعمين أن ذاته هى ذات جميع الكائنات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ويقول النابلسى متحدثا بلسان الذات العلية :

ألا إن ذاتى ذاتُ كلِّ الخلائقِ وسَلْ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنِّى تعيَّنتْ لموصوفها إذ كنتُ أصلَ الدقائق
أنا الجوهرُ السَّارى بغير سِرايةٍ ألوحُ وأخفى فى جميع الحقائق
أنا النورُ نورُ العَيْن منى تكوَّنَتْ عيونُ البَرايا من مَشُوقٍ وشائق

فالله جوهر الوجود ، يلوح ويخفى ولاسواه ، إذ كل مافى الكون مظاهر له ، يصبغها بوجوده . ويحاول النابلسى جاهدا أن يفرِّق بين القول بالحلول وأن الله يحلُّ فى جميع الموجودات وبين مايزعمه هو وابن عربى من وحدة الوجود ، وإنما لتبلغ به أن يقول فى مخاطبة ربه ، « ها أنت أنا وليس فى الحضرة ثانى » أو كما يقول :

اثنان نحن وفى الحقيقة واحدٌ لكنْ أنا الأدنى وأنت الأكبَرُ

فهو والله واحد بل جميع الكائنات والله –جل جلاله– واحد . وهى نفسها فكرة وحدةالوجود التى يحاول جاهدا الخلاص منها ولاخلاص فهو غارق فيها . وهو بذلك من أصحاب التصوف الفلسفى على طريقة ابن عربى . وله شرح على ديوان ابن الفارض حاول أن يحيله رموزا خالصة على نحو مانجد فى شرحه لأول بيت فى القصيدة اليائية بالديوان :

سائقَ الأظعانِ يَطْوِى البِيدَ طَىّْ مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبان طَىّْ

يقول : « سائق الأظعان هو الله تعالى ، والأظعان : الناس وكثبان طىّ كناية عن المقامات المحمدية التى عددها كرمال الكثيب ، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يوصِّله – كما يوصِّل جميع المؤمنين – إليها » . وابن الفارض لم يقصد إلى شىء من هذا كله ، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طىء على حافتى نجد والحجاز ليتمهَّل قليلا حتى يحيِّى من يمر بهم فى طريقه إلى الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه . وطبيعى وهو قد قرأ ابن الفارض وابن عربى وتمثل كثيرا من

أشعار للمتصوفة مخمسا لها ومشطرا كما يتضح فى ديوانه الصوفى أن نراه تارة يتغزل فى بثينة وعلوة وسلمى وزينب وسعاد ، وهى كلها رموز للذات الربانية ، وتارة ثانية يصف الخمر وساقيها وكأسها وشرابها وحَبابها وما تحدث فى روحه من نشوة وفى عقله من شطح . ونراه يهاجم علم الكلام والمتكلمين إذ يدعون إلى ضرورة العلم بالله عن طريق النظر العقلى الفلسفى لا كما يؤمن المتصوفة بأن هذا العلم إنما يستمد من القلب ، وشتان بين علم العقل والفلسفة وعلم المحبة القلبية . وله قصيدة بديعة فى الاستغفار من ذنوبه وخطاياه امتدت إلى ٩٢ بيتا تلاها بالصلاة على الرسول الكريم وآله وأصحابه والتابعين وقصيدة ثانية توسل فيها بأسماء الله الحسنى أن يدفع عنه كل شر ويسبغ عليه كل خير ، وختمها أيضا بالصلاة على رسول الله وآله وأصحابه ، وله فى الرسول غير قصيدة نبوية وغير موشح وقد افتتح موشحا له بقوله :

نورُ طَهَ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ ويه كان الترقى فى جميع الدّرجاتِ

ونحسُّ فى الموشح إيمانه بفكرة الحقيقة المحمدية السارية فى الكون بأسره التى تحفظ عليه كيانه وتصون وجوده ، فكل وجود مستعار من وجوده وكل نور مستمد من نوره . وفى الديوان موشحات ودوبيتات أو رباعيات كثيرة ، وتكثر مثلها المواليا العامية ، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن «كان وكان» العامى .

٦

شعراء شعبيون

لانقصد بشعبية الشعراء فى الشام أنهم نشأوا فى بيئاتها الشعبية من سلالة عامتها ، فدائما جمهور الشعراء فى كل بلد عربى انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من أسر أرستقراطية ، وإذا استثنينا أبا فراس وبعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعارهم الثعالبى وأيضا بهرام شاه الأيوبى صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة ونفرًا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد فى خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الأشرف صاحب «حصن كيفا» حفيد الملك العادل أخى صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا مَنْ عداهم من أبناء الشعب . وكان بينهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه ، مثل يحيى الخباز الحموى الذى أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من تورياته ، وبالمثل صنع مع

شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنعته . شمس الدين المزين : لانريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم فى أوساط شعبية ، وإنما نريد أنهم اتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم فى أشعارهم .

وكانت قد أخذت تشيع فى الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هى : الزجل والمواليا والقوما والكان وكان ، ومعروف أن الزجل نشأ فى الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحبه فى القرن الخامس ثم شاع فى البلاد العربية . أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع فى البلاد العربية منذ القرن السابع . وربما كان الزجل أكثرها شيوعا فى الشام يدلّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة فى كتابه : « العاطل الحالى » ينوّه بشيوع الزجل لزمنه هناك ، ويقول إنه لقى من أعلامه بدمشق شهاب الدين أحمد الأمشاطى إمام هذا الفن الشعبى بها كما لقى بحلب راوية ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس ، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة على الأصل من ديوانى الزجالين الأندلسيين الكبيرين : ابن قزمان ومدغلّيس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق . ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين فى زيارته لمصر (٧٢٣ - ٧٢٦ هـ) غير أنهما كانا بخط مغربى تعسر قراءة بعضه ، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته ، وأجاز له بخطه مانقله عن نسخته ، وعرّفه بمشايخ الزجل فى حلب. ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماة علاء الدين بن مقاتل ، وسنترجم له عما قليل . ولعلنا لانعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هى القطر الوحيد الذى احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيدة التى عثر عليها جنزبرج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف . ولعل من الطريف أن نعرف أن .. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألّف شرحا على بردة البوصيرى باسم رقم البردة ، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضا استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم[1] ، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح . وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون مادة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة .

وكانت المواليا شائعة أيضا . وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها . وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا . وقلما تُصاغ صياغة فصيحة ، إذ تَطّرد فيها

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص ٦ ، ١٧٦ .

العامية ، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقى المتوفى فى حدود سنة ٦٨٠ للهجرة(١) :

أفارقُه وأول إنى قد اتسلَّيتْ وريحْت قلبى وزال الهم واتخلَّيتْ
واذكر مساوبه فى حقى إذا ولَّيتْ وإذا رجعْ نِسيتِ الكلّ واتخلَّيت

والتورية واضحة فى كلمة « واتخلّيت » المكررة قافيةً للبيتين ، والأولى من التخلّى بمعنى أنه أصبح خاليا من الهم والغم ، والثانية كلمة عامية من الخلل ، تقول العامة أصابه خلل واختل عقله . ويريد أنه إذا لقى صاحبته أصابه ذهول ، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُبعد عن الهم .

ونلتقى بمعاصره عز الدين بن السويدى المتوفى سنة ٦٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قومه الصحابى الجليل . وكان شيخ الأطباء بدمشق ، وكان – كما يقول بعض من ترجموا له – من أسرع الناس بديهة فى قول الشعر وأحسنهم إنشادا ، وله مواليا(٢) :

البدر والسَّعد ذا شِبْهك وذا نَجْمك والقدّ واللَّحْظ ذا رمحك وذا سَهْمك
والبغض والحب ذا قِسمى وذا قِسْمك والمسك والحسن ذا خالكْ وذا عَمك

فصاحبته تشبه البدر ونجمها أو حظها السعد ، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قاتل مثل السهم ، والبغض قسمها ونصيبها والحب قسمه ونصيبه ، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة « عمّكَ » تورية واضحة . وله مواليا أخرى فكهة :

ذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها : نِحْنا بأجمعنا
الرفع والنصب نا وانتى ومن معنا للجر ، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعابة للنحو والنحاة واضحة ، وكلمة نحنا هى نحن بالفصحى . ونظَم أصحاب المواليا فى جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة ، واستغلّها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة . ونلتقى فى ديوان عبدالغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله(٣) :

---

(١) فوات الوفيات ١/٢١٨

(٢) راجع فى هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافى لابن تغرى بردى ١/١٢٧

(٣) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٢٦٨ .

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أحلى من الشّوق
واخرج عن الكل أنت الكل يامعتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس فى الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل فى جميع مخلوقاته ، أو بعبارة أخرى هى وحدة وجود تغمر الكون كله .

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم استعدادا للصوم ، وكانوا يختمون كل بيتين منها أو دور بكلمة « قوما للسحور » ومن هنا أخذت اسمها وشاعت فى البلدان العربية . أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه للمواعظ والزهديات والحكم كما مر بنا فى قسم مصر . ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة[1] منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذى امتُحنت به الشام ومصر سنة وفاته . وفى ديوان عبدالغنى النابلسى منظومة صوفية منه فى عشرين[2] بيتا تصور عقيدته فى وحدة الوجود . وحرى بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن أبى العلاء بن مقاتل الزجال .

أبو[3] العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموى ولد سنة ٦٧٤ بحماة ، ويقول ابن حجر إنه « تعانى الأدب فنظم الشعر قليلا ، وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها ، وأزجاله فى ديوان مفرد فى مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه فى زمنه .. وكانت وفاته فى أوائل سنة ٧٦١ » ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشهورا فى الملك المؤيد صاحب حماة (٧١٠-٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباتة والصفى الحلى . وكان الصفى قد نزل حماة ومدح المؤيد وابنه الأفضل فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث من القرن الثامن . ويشيد به ابن حجة الحموى فى خزانته قائلا : « وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بَجْدته وأبا عُذْرته ، وممن سُلّمت إليه مقاليد هذا الفن. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدى نبذة من غرر أزجاله فى تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار فى ترجمته » . وينشد الحموى زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط :

---

(١) تتمة المختصر فى أخبار البشر لابن الوردى ٣٠٢/٢

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص ٣٥٦.

(٣) انظر فى أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموى ص ٤٧ ، ٥٠ ، ١٧٦ والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنفذ النواجى له فى كتابة عقود اللآل ستة أزجال (انظر الفهرس)

قلبي يحب تيّاه ليس يعشق إلا إياه فازمن وقف وحيّاه يرصد على محيّاه
بَدْر السَّما لو يطيع من رام وصالُو يعْطَبْ
صغيّر يحيّر فى أمرو غزال قهر بِسُمْرُو ليث الهوى ونمرو فاعجبْ لصغر عمرو
رِم ابن عشرٍ وأربع أرْدَى الأُسود وأرْعب
أذكر نهار تبعتو وروحى كنت بعتو وخَيَّب مافيه طمعتو فقال وقد سمعتو
ارجع ولالى تتبع أخشى عليك لتتعب
كم قدامو وخلفو مشيت مطيع لحلفو ورُمْت لثْم كَفُّو قال دَعْ مُناك وكُفُّو
فإنَّ لثم إصْبَعْ من الثريَّا أصعب

وبمجرد أن نسمع هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول « تيَّاه » تجذب إياه و « حيّاه » تجذب محياه ، وبالمثل « يطيع » فى القفل تجذب يعطب . وكأننا فى مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم فى الزجل اتساقا بديعا ، وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها ، فصاحبته بدر فى السماء لاتصل إليه الأيدى ، وهى غزال تقهر بعينيها الكحيلتين أو السمراوين .. مع صغرها الليوثَ والنمور . وتهلكها وترعبها رعبا . ونصحته أن لا يتبعها ، فأمله فيها سراب كاذب . ويحاول لثم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك . وهى صنعة زجلية رائعة منتهى الروعة . وقد تلاعب بالجناس المقلوب فى الأفعال تلاعبا يدل على مبلغ مهارته ، فيطيع تقابلها يعطب ، وأربع تقابلها أرعب ، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها أصعب . وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التى لاتحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع مايحمّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة ، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل : « سارت به الركبان » . وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم [1] أو ختم الرسائل التى تصدر عنه إلى الولاة ، ويهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون فى الذروة من البيان والبلاغة لزمنهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالى فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ماعنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون فى ديوان الرسائل [2]

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل فى دمشق بيد مولى لهشام هو سالم [3] ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسططاليس [4] ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول فى تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة [5] واحتفظ الطبرى برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهى تحمل عناية واضحة بالأسلوب ومايوفره له من الازدواج والترادف الصوتى . وتبعه فى النهوض بالرسائل

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ٢٤ .

(٢) انظر فى ذلك الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله ، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رياسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد »[١] ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل »[٢] ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التحميدات فى الكتب »[٣] واشتهر برسالة وجّه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية[٤]. وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى[٥] ، وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة[٦] طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجّهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيّب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدبير شئونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظلّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

---

(١) اليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ٣/١٥٤ . ٣/١٧٨

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء)

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٦٩

(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١٠/١٩٥ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغة الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة[1] ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العماد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينًا أثيرا ، لاقرين يجاريه ، ولانظير يماثله ويُباريه ، ولا متطاول بطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركته أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعوَّلنا عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناه كُفْأها وكافيها » .

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الرشاقة والعذوبة . وكتب بعده لسلاطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد[2] الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العماد شيئا من كتاباته .

ويُظِلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ – ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العماد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »[3] ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلها حكمه جاء فيه[4] .

« وقد علمتم – معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم – ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيِّقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوّض الله – عزَّ وجَلَّ – لنا – تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شُبْهة ولاتأولا » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر[5] شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

---

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٧٧/٧ والنجوم الزاهرة ٦٥/٦ .

(٣) الخريدة ١٢٥/١ .

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ٢٧٠/١ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

فأقام العماد الأصبهاني مقامه ، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضي الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكتابه في ديوانه بالشام ، وسنفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غيرَ منازَع . وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر ، ومثل عبد الرحيم بن على بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق ، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدى الصليبيين نوّه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين في اللهو ، يقول[1] :

« وكانت الخلفاء والملوك مافيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌّ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصْف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسِّكّة والخطبة ، وأموال تُنْهب ، وممالك تذهب » .

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على في عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندى في صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل فى ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله فى التهنئة بتقليد سيف[1] :

« وقلده مِنّا : سيفا تلمع مخايل النصر من غِمْده ، وتشرق جواهر الفتح فى فِرِنْده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حَدّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتْ عزائمه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعز نِجاده وفى يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر فى دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخصه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وَصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول[2] :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العِدا ، وفتح على ثغر الزمان بَشيخ ملك زُويتْ له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى ولله الحمد — بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الأرداء ، آمنة من الرَّدى ، وامتنّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدَّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح فى هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما فى « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الأرداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والرَّدى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخل فى السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهبية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار فى جناحه . ونجاد السيف : حمائله .

(٢) صبح الأعشى ١٢١/١٠ وانظر فى ترجمته النجوم الزاهرة ١٦١/١٤ .

وعيّن ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السر ابنه كمال الدين ، وكان تارة يُعزَل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

ووراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كتّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كتّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها للملك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كتّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة [١] :

« لاترى العيونُ لبعد مرماها إلا شزرا ، ولاينظر سكانُها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كتّاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها الفتح [٢] الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إماما بارعا أديبا فصيحا ذكيا [٣] » .

ومازالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

---

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين ، فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤

العماد[1] الأصبهاني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقرَّ بها . وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٤ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقدَّمه قاضي دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح في مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق لدراسة الفقه الشافعي ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رياسة ديوان الإنشاء . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض في طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد ثَوًّا ، والتقى بصلاح الدين في حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل ، ورغَّبه في إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصبهاني أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

---

(١) انظر في ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع متفرقة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبي ٢٩٩/٤ والوافي بالوفيات ١٣٢/١ وطبقات الشافعية للسبكي ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفي كتابيه : البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالى . ومرَّ بنا فى حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامى الذى وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو فى سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى فى وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة القَطْرة فى تاريخ السلاجقة ووزرائهم : وذكرنا - فى غير هذا الموضع - أن الفتح البندارى اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو فى شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته فى أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُتْبى والعُقْبى فى بيان الأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق فى ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد فى كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل - رغم مافيها من تكلف - على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحا دَحَرَ فيه حَملة الصليب ومزَّقهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين فى سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازى بن مودود - إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من عَبيد بنى عُبَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة لمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل - والعياذ بالله - بها فتق لأعضل رَتْقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين فى بَيْكارها (حربها) متمَّا من كفارها متحملا لمشاقّها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد فى أول القطعة بين « عَبيد وعُبَيْد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل فى

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات فى كل انتصار لصلاح الدين على حملة الصليب ، وما كان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العماد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التى كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه فى تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتحُ العظيم ، والنُّجْحُ الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرةِ تمنِّيه ، وحيرة ترجِّيه ، ووحشة اليأس من تسنِّيه (انفكاك عقدته) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعاذه من الرِّجْس ، وحقق من فتحه ما كان فى النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزَّ يومه ماحيًا ذُلَّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقَسِّ ، وعبدة الصليب ومستقبل الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقمع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح » .

والطباق كثير فى القطعة ، والجناس يُنثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه فى بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعى أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدى بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله فى جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض فى شكر فضل فَيْضه المستفيض ، وتبلَّج (إشراق) وجه وجاهته وتأرُّج (انتشار) نبأ نباهته ما عرَّفه من عَوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدى معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه فى هذا الترتيب » . ويقول السبكى معلقا على كلام الصفدى : « الأمر كما وصف ، ولقد مجَّ سمعى فواتحُ أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردِّ العجز على الصدر » . على أن الصفدى نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العماد المسجوع فى رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب فى السمع وقعه ، ويتسع فى الإحسان صُقْعه (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مُدامه ، ويكون عند مَن له ذوقٌ أطيبَ من تغريد حمامه » .

الصَّفدى (١)

هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدى ، ولد بصَفد فى فلسطين سنة ٦٩٦ وعُنى فى أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد ، يكتب مايوقِّع به كبار الكتاب فى دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدى ، وعيَّنه فى كتابة الدَّسْت ، حتى يعاونه فى عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتبا مجيدا . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو مامرَّ بنا فى ترجمته ، وظل الصفدى يعمل فى دواوين الشام ، وعيِّن رئيسا لديوان الإنشاء بحلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها فى كتابة الدَّسْت مساعدًا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة فى كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر فى الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته فى الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبى وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى فى خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا فى سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله . وشعره فى جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بسَهْم ألحاظِهِ رمانى   فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنهْ

---

(١) انظر فى الصفدى وترجمته النجوم الزاهرة ١١/١٩ والدرر الكامنة لابن حجر ٢/١٧٦ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤/٣٠٣ وطبقات الشافعية للسبكى ١٠/٥ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٠٠ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وخزانة الأدب ص ١٧ وفى مواضع متفرقة من صبح الأعشى وخاصة ١٢/٨٦ ، ٣٥١ .

إن متُّ مالى سواه خَصْمٌ ... فإنه قاتلى بعينِهْ

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكْت الهِميْان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح ملىء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ما اتهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشَرَحَ رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصنَّف معين من المجلدات وخلَّف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنَّة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرْزَقون ، وهى زهرة ملكنا ودُرَّة سلكنا .. تعيَّن أن ننتدب لها من جرَّبناه بعدًا وقربا ، وهززناه مثقَّفًا[1] وسَلَلْناه عَضْبا[2] وخبَّأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايُدَّخر ، وأعزَّ مايُخبَّأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرًا لما وزر ، وكم غنيتْ به أيامنا عن الشمس ولياليها عن القمر ، وكم علا ذُرَى رُتَب تعزّ على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقّل فى المباشرات[3] من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى[4] فأعادها ربيعا غرَّد به طائر الإقبال وصفر . فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذى نعهده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

(١) مثقفا : سيفا مصقولا
(٢) عضبا : قاطعا .
(٣) المباشرات : الأعمال
(٤) جمادى : يريد قليلة

ولايجحده ، حتى يثمّر الأموال فى أوراق الحُسّاب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافى السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا فى اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس فى المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد [1] بها تتبين فوارس الجلاد فى مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ، وتبدو شموس الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية – أثاب الله تعالى واقفها – هى الواسطة فى عقودها . والدرة الثمينة بلاكُفْء لها بين قيِّمٌ نقودها ، قد تدبَّج فيها البناء وتأرَّج عليها [2] الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواضح مافى التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب فى مثل « جلاد وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف فى جناساته ، بل هى تأتى عنده نادرة إذكان حسبه أن يأتى بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة فى التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

---

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم.

(٢) تأرّج عليها : عطّرها :

ابن حِجّة[1] الحموى

هو تقى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حِجّة الحموى ، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائها وأدبائها . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكانس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتابة السر بهما ؛ وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذه كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر طَطَر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حماة ، وظل بها مكبًّا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمَّل أبياتها من محسنات البديع لزمنه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح –كما سماه – خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكانى ١٦٤/١ والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنبهانى ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتبا ، وأنشد فى الخزانة كثيرا من شعره ، ويقول الشوكانى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا — بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولا بالشام ثم ما أنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضا كتاب له مخطوط باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقّ قفا السودان فالرايةُ البيضاء من كل قِلْع [1] عليه ، وقبّل ثغور الإسلام وأرْشفها ريقَه الحلو فمالت غصونها إليه .. وخَضّنَّ مشتهى الروضة فى صدره وحنّا عليها حُنُوّ المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمإٍ زُلالاً ألذَّ من المدامةِ للنديمِ

وراق مَديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النّوى والحبّ ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النّوى ، وهامت به مخدّرات [2] الأشجار فأرخَتْ ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة » .

والسجع فيه حلوية ودلالة واضحة على طواعيه لوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتبا مجيدا إن لم يكن بارعا ، وأطال السجعات ليحمّلها ما يريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، وما نمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

---

(١) يريد قلع السفن وشراعها

(٢) المخدّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجابا عن الرجال . والاستعارة واضحة

الأبيات فلا يريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات المصحف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورِّيا بها فهو لا يريد الأبَّ الحقيق كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذا من قوله تعالى : (وفاكهةً وأبًّا متاعا لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لا يريد نوى التمر الحقيق وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون فى كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا فى كلمة الجوارى تورية إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع مايوشح لها من ذكر المقصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفى الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم فى شكل رسالة مطولة يكتبها منشئ الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقينى الشافعى بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذى ولَّد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذى شَهَر من العُدَّة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه فى الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذى تهذيبه فى أدب القاضى كفاية ، وهو البحر الذى مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه فى البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعى ، وقد بدأها فى السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعى ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية فى اختصار النهاية للعز بن عبدُ السلام ، والنهاية هى نهاية المطلب فى دراسة المذهب لإمام الحرمين الجوينى ، وأشار معه فى نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالى وتقريب القفَّال الشاشى ، ثم ذكر اللُّباب وهو لباب الألباب للآمدى فى علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيرا إلى كتاب الإبانة فى فقه الشافعية للفورانى ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبى إسحاق الشيرازى ونهاية المطلب المذكورة آنفا والمذهب لأبى شامة المقدسى والتهذيب للبغوى وأدب القاضى للماوردى والبسيط للغزالى والشامل لإمام الحرمين الجوينى . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء فى التقليد لا يتنبه إليها إلا بعد رويَّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

٢

الرسائل الشخصية

مرَّ بنا أن الشام هى التى وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الاسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتهيأ لها حينئذ من كبار الكتاب من لاتزال أصداؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة[1] تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ماعُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث العَتَّابى كلثوم بن عمرو ، وله بدوره – رسائل شخصية[2] تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع فى الرسائل الديوانية ، فشاع فى الرسائل الشخصية لسبب طبيعى هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم فى كتاباتهم فعمَّموه فى رسائلهم الشخصية . ولعل كاتبا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد[3] الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَبَّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا ، وفى كتاباته يقول الثعالبى « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبى من رسائله كقوله مثنيًا ، مطريا .

« شهابُ ذكاء ، وطَوْد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتَه ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَزِعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابى الحلبى) ٤٣٤/٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمته ورسائله فى اليتيمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته فى تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبى ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولاها رسالة المَنِيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن على المغربي ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب – أطال الله بقاء سيدنا – نسيم يتضوّع [١] ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَغَمنا [٢] على بُعْد الدار أَرَجُ [٣] أدبه ، وعشا الليل عنا ذكاؤه بتلهُّبه ، وخوّل [٤] الأسماع شُنوفا [٥] غير ذاهبة ، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا – معشر أهل هذه البلدة – وُهب لنا شرف عظيم ، وأُلقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحبْر [٦] ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسْك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلّ [٧] عن التقبيل فظلاله المقبَّلة ، ونُزِّه أن يبتذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة [٨] ، على ماضمن من الملاحة ، والخشيةُ على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللثم ، والمَوارن [٩] بالانتشاء [١٠] والشمّ ، حتى تصير سطوره لَمًى [١١] في الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ما حظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التي ليست لحظ

---

(١) يتضوع : يفوح .
(٢) فغمنا : ملأ أنوفنا .
(٣) أرج : شذى
(٤) خول : أعطى
(٥) شنوفا : أقراطا
(٦) الحبر : العالم
(٧) جل : تنزه
(٨) الإلاحة : الإشفاق
(٩) الموارن : الأنوف .
(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .
(١١) اللمى : سمرة حسنة في الشفة .

بالحائزة .. فيا شرفه من صَكٌ بالفخر ، يَبْجَحُ به على النُّظَراء حِيرِىَّ[١] الدهر ، موشّحًا بكل شَذْرة أعذب من سُلاف العنقود ، وأحسن من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أو يوحَ[٢] عند الشروق » .

وإذا مضينا بعد ذلك فى قراءة رسالة المنيح – وهى طويلة – أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها مايقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ فى كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أو كأنما كان يعده زينة ينبغى أن لاتخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يهمه أن تكون الكلمة مما دُوِّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالا لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو ماتقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ماينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لاتنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت عُرْف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ، إذا قلت زيدُ أقبلْ ، والإبلُ الإبل ، بعد ماكنت كهاء الوقف ، إن أُلقيتْ فواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب[٣] ، إنى وإن غدوتُ فى زمن كثير الدَّدِ[٤] كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر ، مع إلْفٍ يرانى فى الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت[٥] الرصين ، فهى لاتثبت على طريقة ، ولاتُدْرَكُ لها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أوكما يقول إلى أن تدغم الطاء

---

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أبد الدهر .
(٢) يوح : اسم الشمس .
(٣) لازب : لازم .
(٤) الدد : اللهو واللعب .
(٥) الحروف المصمتة ما سوى حروف اللين والمد .

فى الهاء وهى لاتندغم فيها أبدا ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت – كما يقول – والهاء حرف مهموس لايكد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لايدَّغمان أبدا ولايتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب فى الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ فى النحو ، إذهما بسبب رفعهما فى أعلى الرتب . ويدعو له أن لايلحقه خفض فى رتبته كالفعل لايلحقه خفض ولاجرٌّ أبدا . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فكأنها محفوظ ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فكأنه محفوظ ، فتقول : محمد أى يامحمد ، وتقول كتاب الأدب أى هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضمه أبو القاسم فى منزلته الرفيعة كالهاء التى تلحق ببعض الكلمات فى الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهى تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن فى الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو مايلاحظ فى هاء العدد أوتاده من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس فى العربية العكس . ولايكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط فى درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا فى لغة تميم ، فيقولون فى أن عَنْ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أوكما يقول « بين بين » وقد تسهَّل تماما فتصبح حرف لين مثل سال فى سأل ، وقد تحقق وخاصة فى أول الكلمات فلا تسهَّل مثل أمر ، فهى كما يقول أبو العلاء لاتثبت فى العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعِّب نثره على قارئه ، بحيث لايستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة فى الرسالة لايستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمى النحو والصرف ، وقد مضى فى الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين للموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر فى الرسالة المعارف عن المرأة وحليها ولابأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعِّبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشطر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريضية . وتقل المصطلحات العلمية فى بقية رسائله غير أنه لايزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء فى عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

للمصطلحات تصويرًا لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقي واجتماعي وسياسي وأدبي، وأكثرها في الثناء على من يكتب إليهم، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله في فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبي طاهر المشرَّف بن سُبَيْكة الحلبي:

«شوقي إلى سيدي الشيخ شوقُ البلاد المُمْحلة، إلى السحابة المُسْحلة[١]، وانتفاعي بقربه انتفاع الأرض الأريضة، بالأمواه الغريضة[٢]، وتشوُّقي لأخباره تشوُّفَ راعي أنعام[٣] أجدب في عام بعد عام، لبارق[٤] يمان، هَوَّلَه مرتقب مُهان[٥]. وأسفي لفقده أسف وَحْشيَّة[٦]، رادت[٧] بالعشيَّة، فخالفها السِّرحانُ إلى طَلَا[٨] راد فحار[٩] فهي تطوف حول أُميل[١٠]، وترى صبرها ليس بجميل. وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدْى الوالدة، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وَفْدَ[١١] الأعاجم، وربُّ الماشية ظهورَ النَّبْت الناجم[١٢]».

وبدون ريب تُعَدُّ رسائل أبي العلاء الشخصية في الذروة من البلاغة، وهو دائما يُعْنَى فيها بالسجع إلا قليلا، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما في هذه القطعة، فإن السجعتين فيها تتفقان لافي الحرف الأخير فحسب المقابل للروى في الشعر، بل في حرفين أو ثلاثة حروف، ودائما نلتقى في رسائله بالألفاظ الآبدة الممعنة في الغرابة وإن لم تمعن فيها بهذه القطعة. وهو يستغل في سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا في هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح، وذكر عهدًا لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين. والجناس الناقص مثل: «الممحلة والمسحلة» واضح في القطعة، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير.

---

(١) المسحلة: الممطرة

(٢) الأريضة: الطيبة. الغريضة: المبكرة

(٣) الأنعام: الابل.

(٤) البارق: السحاب يلمع فيه البرق، وجعله يمنيا حتى لايخلف مطره

(٥) مهان: متطاول

(٦) يريد بقرة وحشية

(٧) رادت: ذهبت تطلب الكلأ

(٨) الطلا: ولد البقر. السرحان: الذئب

(٩) حارهنا: تحير

(١٠) أميل: كثيب عال

(١١) يريد: قدوم وفود الحجيج الأجانب

(١٢) الناجم: الذى لاساق له

(ب) رسائل متنوعة

طبيعى أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء، شاكرين صنيعا أو مهنئين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألمّ بأصدقائهم أو فى فقيد عزيز، وتارة يؤبنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات. وكثيرا ما كانوا يتراسلون، من ذلك مراسلات الطغرائى الشاعر الكاتب والغزّى إبراهيم بن عثمان الذى مرت ترجمته بين الشعراء، ويقول العماد الأصبهانى: «كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المودّة الوكيدة» ويسوق العماد للغزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها [1]:

لسان الحسود - أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا، ولبيضة المجد حاميا - إذا علق بعرْض الكرام كان كالنار فى المندلىّ [2]، يبوح بسرّ طيّه الخفىّ.. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظهر لهم من انتمائه، وانتساب مُزْنته إلى سمائه».

وانتخاب الغزى لألفاظه واضح، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر، وهو يعنى فيها بالتصاوير، وكان خصب الخيال، ومرت بنا فى ترجمته روائع طريفة من أشعاره. وكان ابن منير الطرابلسى الذى ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شيْزر فى الشمال خوفا من ابن الصوف وزير حاكمها آبق، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها [3]:

«إن جراحى إلى الآن لم تلق حلاوة الاندمال، وقُروحها تزداد قَرْحا مع الحلّ والترحال، وبين جوانحى من الأبن [4]، لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن، مالايحلّه إلا عَقْدُ الكفن، ولا يرفع حَدَثه إلا التيممُ بصعيد [5] المدفن. ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلْق دَميم [6]، وخلق ذميم، وأصل لئيم، وفرع زَنيم [7]، ووجه لَطيم، وقفًا كليم [8]، وهلم جرّا من عذاب أليم، وصراط فى الود غير مستقيم».

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا، تواتيه الكلمة وتنزل فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٢٧

(٢) المندلىّ: عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/٩٢

(٤) الأبن: العناء.

(٥) الصعيد: التراب

(٦) دميم: قبيح. ذميم: مذموم

(٧) زنيم: دعىّ

(٨) كليم: جريح

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة[1] :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبة من بحره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتِ فصاحةٍ كادت أن تُتْلى فى المحاريب ، إذا استُنْطقتْ ازدحمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حُلْوٌ سلسال » .

ونمضى إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله — كما أسلفنا — كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهنئة بعيد الأضحى جاء فيها[2] :

« جعله الله أبركَ الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأجدَها ، وأجملَ الأوقات وألذَّها وأرْغَدها ولابرح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودًا ، مهنًّا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلّة ، ومنحه من المكارم أحسن خُلّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنًّا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول[3] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقَتْ[1] أجفان المملوك بالدموع ، وأُحْرِق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزّى فيه ، والأقلام تمشى على الرءوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده .. ولاخاصٌ إلا حزن قلبه ، ولعامّ إلا طار لُبّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضا فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورّى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رءوسها حزنا وهى فعلا تمشى على رءوسها أو بعبارة أخرى تكتب برءوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سِكّينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله[2] :

« المملوك يُنْهِى وصول السكّين التى قطع بها أوصال الجَفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرْءُ والشفا ، وتالله ماغابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحَفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النِّصاب[3] ، وذلّ بعد أن خضعت له الرءوس والرِّقاب .. أَنْمُلة صبح تعمّمت بسواد الدجى ، فعوّذتُها بـ (الضحى والليل إذا سَجَا) .. تَطْرِف بأشمتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاّق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لايريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبة[4] :

---

(١) شرقت : غصّت .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧

(٣) نصاب السكين : مقبضها

(٤) نفحة الريحانة للمحبى ١/٢٤٧

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه فى الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكَر ولا يُبصَر ، أو كالعنقاء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فمثلهم . . كلمع السراب ، للمستحيل فيه الشراب ، أو كالخيال الذى يبدو فى المنام ، وهو فى الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى فى نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسى الصوفى ، وله يقول متوددًا مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى [1] :

« مولاى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواسِّ الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر بنازله ، كأنه البدر والدنيا مَنازله ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحتك [2] ، وغصن من سَرْحتك [3] ، بل نَبتٌ سقتْه أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » [4] .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المماليك ، فهو يعتمد دائمًا على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذانى فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لايزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئا من عطائهم يعينه على سدِّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام – مثل بقية البلدان العربية – المقامات قبل بديع

---

(١) نفحة الريحانة ٢/١٣٩

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٣) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريرى وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المماليك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريرى ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قصًّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط[1] :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبَّ عمرى عن الطَّوق ، مُغْرى بالغرام والتَّوق ، وأهيم بالشَّمول[2] والشمائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض[3] ، ووَلجت[4] بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة[5] العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشْف الرَّحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الممتاعة[6] :

---

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان الظريف (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) .

(٢) الشمول : الخمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٥٦٥/٢

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ٢٠١/١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عَقائقُ[1] اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرتْ فى حداد الظلام مُعَصْفراتِ[2] ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَباتُ ذوائبها . . وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى (ترمى بشررٍ كالقصر) ، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايليها وتفنى مايَسْفلها ويعتليها » .

وواضح فى سجعاته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضى فى مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمنه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعًا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر فى الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التى تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذى ابتُليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرر كالقصر) وهى فى وصف جهنم ومايتصاعد من شررها ووقودها كالقصر فى ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السور ، فذكر (الزمر) أى الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى فى سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القَصَصُ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضا فى أيام العثمانيين ونلتقى فى نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو[3] .

« نَرْجِسٌ نَعْته الفتور ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

---

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفدى اللهب

(٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٢/٣٥

وشَقيقٌ كأنه أقداح العقيق[1] ، قد رسب بقرارتها مِسْكٌ فَتيق
وآذَرْيون[2] كأنه مداهن عَسْجدٍ ، على سواعد زبرجد
وسوسن كبياض السوالف ، أو جياد[3] الوصائف
وقَرنفلٌ كأنما توقّد بالجَمْر ، وانعقد من الخمر »

ويظل طويلا فى وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها على قصر عالى البنيان فدخلاه ، يقول[4] :

« فصعدنا إلى قصر مَشيد[5] ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشّيد[6] ، فيه الغرف الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات[7] الطّرْف عِين . قد طلّت شبابيكه على تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشى والديباج ، وقد أطلقت فيه مَباخرُ الطيب فزاد فى الابتهاج .. فجلست أنا وصاحبى على تلك الأرائك الممنوعة[8] ، والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبّث بأذيال الأفكار » .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له : « ما ذلك القصر الموصوف سوى جُبّتى هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبابيك جيوبه وأطواقه ، ولا عجب أن تَفَحْت فيه مباخر الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل مافى المقامة رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى فى تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردىّ أهم كتّاب المقامة الشاميين .

---

(1) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .
(2) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب
(3) جياد هنا : جمع جيد أى عنق .
(4) نفحة الريحانة ٢/١٥٢ وما بعدها
(5) مشيد : عال مرتفع .
(6) الشيد : كلّ ماطُلى به البناء من جصٍّ وغيره
(7) قاصرات الطرف : خجلات حييات . عين : جميلات واسعات الأعين .
(8) الأرائك : مقاعد منجدة،والممنوعة : أى عن الناس

ابن[1] الوردىّ

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة ، وخاصة على قاضيها وفقيهها ومفتيها الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزَّمْلكانى قاضى قضاة الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه : ورأى ابن الزملكانى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولَّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابهين ، ويقول ابن شاكر : «أجاد فى المنثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية» . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبدع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية . ومنها يُجْرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لايتبعون للنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : «إن المتصوفة اليوم أصحاب

---

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠ والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولايتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا » . والمقامة طريفة فى عرضها لأحوال الصوفية فى تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى فى مقاماته ، يقول[١] :

« حكى إنسان ، من معرَّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجترت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرَّمضاء[٢] ، وقال : حكمتَ على الوادى الذى تروع حصاه حالية العَذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولافخر ، فروَّيت كبدَ صادٍ[٣] من تلك العين ، ولكن نُغِّص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين » .

وقد تصنع ابن الوردى فى أول مقامته لمصطلح التعريف والتنكير فى النحو ، ولم يلبث أن اقتبس فى وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر فى وصف واد للمَنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحةَ الرَّمضاء وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ
تروع حَصاه حاليةَ العَذارى فتلمسُ جانب العقد النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك فى التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله فى كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نمض فى قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية بالمقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حَوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة فى حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرسها

---

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص ١٣٢
(٢) الرمضاء : شدة الحر
(٣) صاد : عطشان شديد العطش

القاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشيء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتى شعر ، سامها[1] فضل سحر ، وأقام وزنها ، وقال إنها وإنها ، وأنا رسول أصحابى إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ماأردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا فى الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقى شخصٌ معرّىٌّ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك فى هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزَّمْلكانى الذى أمر بإبطالها وشدد فى النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نَداه[2] مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقربين والبعداء، من وُصل به نال عُرْفا[3] ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا ، ولايبرح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تُبْنى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو فى عبارات الثناء على ابن الزملكانى وسجعاته ، فلازال ابن الزملكانى مثل حرف النداء فى النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، وللملك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبا » واراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده فى هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا فى نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة فى وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(١) سامها فضل سحر. غالى بها فى السحر (٣) العرف : المعروف

(٢) نداه : كرمه

وصف الحريق » . وله رسالة بديعة فى وصف وباء الطاعون الذى فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميها ابن حجر مقامة ، وتسميتها - كما جاء فى الديوان - باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ فى خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك فى الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القُصّاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيَّن للقصاص مرتبات [1] خاصة . ويشتهر فى زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حَيْوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقى وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثانى وفى مقدمتهم الأوزاعى صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًّا مزدهرا فى القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا فى حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبى العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد فى متاع الدنيا يكثر فى أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ماهو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان فى العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له فى النثر دعاء

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى
(طبع دار المعارف - الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر فى الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون لينا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو فى عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقى من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية فى نفوس الناس ، حتى يجاهدوا فى سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم فى حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها ، وهو الذى خطب أول جمعة صُلّيت بالقدس بعد فتحه ، وسنلم بخطْبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقى الذى لقيه العماد الأصبهانى – كما يقول بخريدته – بدمشق سنة ٥٧١ وسنلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزى يوسف بن قزوغلى أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ فى حجر جده ابن الجوزى واستمع إلى مواعظه الرائعة التى نوهنا بها فى حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته فى الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلو فى الوعظ والتذكار ولكلامه موقع فى القلوب [1] » ويصف أبو شامة مجلس وعظه فى كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم فى مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال فى جامع دمشق ، وجامع الجبل . حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى فى الموضعين مرارا ، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفضّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته فى الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبسَطُ السجادات والحُصْر والبسط فى كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة فى يوم الجمعة ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٣٩

ويبيت الناس ليلة كل سبت حَلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن »[١] .

ومن كبار الوعاظ فى أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس فى تفليس إبليس » وهى رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعْلِم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغى . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر فى تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبِّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته[٢] » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وإن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن[٣] نباتة الفارق

ابن نباته الفارق هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ماعُمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه فى الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمَع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله فى الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم ياعباد الله

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩

(٢) خزانة الأدب ص ٢٠

(٣) انظر فى ابن نباتة الفارق ابن خلكان ٣/١٥٦ وعبر الذهبى ٢/٣٦٧ والشذرات ٣/٨٣

الرحيل الرحيل ، هو للموت الذى مافيه فوتٌ ولاتعجيل ، ولايقبل الله فيه الفداء ولايرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل » .

ولغة ابن نباتة فى خطابته عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مربنا عند العماد الأصبهانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحْبطوا صيامكم بالغَيْبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهائما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُّشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابته ببيانه الرائع .

(ب) الفصول[1] والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلىّ الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة[2] للقرآن الكريم . ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة[3] ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

---

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناتى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف الخاء .

(٢) راجع سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص٤٢٦

« الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » وهو لايريد محاذاة القرآن فى أسلوبه وإنما يريد محاذاته فى تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول فى كتابه : « علم ربنا ماعلم ، أنى ألفت الكلم ، آمل رضاه المسلِّم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهَبْ لى ماأبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول(١) :

« لو نقلتُ مياه اللُّجَج على منكبى فى قُداف(٢) ، ولمرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُثبان الأرض وصَرائمها(٣) فى جُرٍّ أو مِشْآةٍ(٤) ، فألقيتها فى الخُضَر(٥) الدائمات ، حَفْنًا(٦) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصِّرين ، ولو أذن لى وأَبِنْتُ فابتنيتُ مَراهص(٧) من الثرى الأسفل إلى الثريَّا ، ومن الوتد ، المتَّخذَ من عود إلى وَتِد السُّعود(٨) ، لم أؤدِّ مايوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصُر الصلاة ، وأدانى بين الركعات » .

وهو يقول : مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه فى جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كثبان الأرض كثيبا وراء كثيب فى زنابيل وألقاها فى لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد الميدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجبه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه فى جزع لايدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غمامتا شَتِىٍّ(٩) تَبِلان(١٠) الصباح والمساء(١١) » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذه الصيحة أخوات كثيرة فى الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

---

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قداف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشآة : زبيل

(٥) الخضر : اللجج

(٦) حفنا : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تبلان : تهطلان ، من الوبل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهي بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما . وليس هذا كل ماصعّبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا مايضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يحليها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهرًا لبعض مصطلحات علم الصرف[1] .

« لاتجعلنى ربُّ معتلاًّ كواو يقوم ، ولامبدلا كواو موقن من الياء ، ولاأحب أن أكون زائدا مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واوعمرو فأعوذ بك ربِّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايحسب من النّسمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واويقوم أصلها يقوم فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ماقبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها ميْقن ، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ماقبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقتان من الجدل والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولاتنطق تمييزًا للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ماقدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

---

(١) الفصول والغايات ١٤٢/١

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى

أما الخطيب فهو محيى[1] الدين محمد بن الزكى على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة فى دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محيى الدين حاضرا فتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها فى أول يوم جمعة ، وأعدَّ من كانوا فى حضرته خطبا بليغة يخطبون بها فى هذا اليوم واختار صلاح محيى الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات فى أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر ، ثم شرع فى الخطبة . وقال[2] فيها .

« الحمد لله معزُّ الإسلام بنصره ، ومذلُّ الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدَّر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلِّه ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة[3] ، من الأمة الضالة ، وردِّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة[4] الشِّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التى لايجاريكم فيها مجار ، ولايباريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلَّجت[5] بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيْنا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى مَنْ تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الرَّدَى ،

---

(١) انظر ترجمة محيى الدين فى طبقات السبكى ١١٠/٢ ، ١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦ والشذرات ٣٣٧/٤

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل : الحكمة ضالة المؤمن

(٤) إماطة : تنحية وإبعاد

(٥) تبلجت : أشرقت

ورجوع القهقرى .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر » .

والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التى تصور فرحة المسلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن (١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسى الواعظ المشهور لزمنه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب فى ٣٠ صفحة ، ذكر فى مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا : « قد وضعت كتابى هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتنى به الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه خرج يوما ليتأمل فى الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقَّ نسيمها وغنَّى عندليبها ، وكان وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله فى خلقه وعظيم صنعته ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار وأحد عشر نوعا من الأزهار استهلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتى فالوقت سيف ، أُعطيت نفسَ العاشق وكُسيت ملاحة المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع فى بقائى فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدور ، والعيش المحرور ، أنى حيثما نبتُّ رأيت الأشواك تزاحمنى وتجاورنى ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكى مجروح . وهذا دمى على عَنْدمى يلوح ، وهذا حالى وأنا ألطف الأوراد ، وأشرف الورَّاد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد » .

و ختم ابن غانم الكلمة بالعظة التى يريدها ، وجعل الورد ضيفًا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

(١) انظر فى ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعى ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥ .

مشرقة زاهية بل لابد من ظلمة تغشاها ، بل هى مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وحزن ، وحرىٌّ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى طللا ذكر المحبون فى لينه وتمايل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد اتقد ، وإلى الحَبِّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربُها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صَمَد ، وموجدها بالقدرة قد انفرد ، لايشاركه فى ملكه أحد ، ولايفتقر هو إلى أحد (لم يَلِد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد) » .

وهى عظة بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، وماأعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لايشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شىء وهو على كل شىء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولهان ، أنا الهائم اللهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض (١) أردد الألحان . . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان (٢) ، وانت تحسبنى فى ذلك عابثا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حانثا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترحا لافرحا ، لاأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولاخضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولاعيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلٌّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان مايفكر فى انتهائه ، فينتحب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل مافيها من صفاء لايلبث أن تغشاه كدرة قاتمة ، وكل مافيها من عيش حلو لايلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل مافيها هالك فان . وسَعِد من كُتبت له السعادة ، وشقى من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف المعروفة
(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النملة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تهيأ للسير فَسِرْ قبله ، ولاتكن فى تدبير عيشك أبله ، تعلَّمْ منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلِّفت جمع المئونة بتيسير المعونة ، وأُعْطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أُعْطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبِّر ماأدَّخره من الحب لقوتى ، فى بيوتى » .

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير فى الطريق السديد ، واعيًا لحكمة الله فى خلقه ، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء تنير له دنياه ، وتعده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل :

خلَّفت الشام فى هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا فى مفتتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وماقيل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب فى البيزرة أو بعبارة أخرى فى جوارح الصيد ، وكتاب فى أدب النديم . ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هى رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفى الخريدة أيضا رسالة [1] طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصَّة فى دنيالا يدوم نعيمها ولاتندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هى الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض فى وصف الصيد وماركبوا فيه من خيل وماحملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبُزاة وشواهين ، ويطيل فى بيان صيد

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ٣٨٩-٣٥٤/١

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه مانظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب مايتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وماروى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٥٥٢ أتى على حصن شَيْزر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها[1] حَوْله وحيْله[2] ، فأصبحتْ (كأن لم تَغْنَ بالأمس) موحشة العَرَصات بعد الأنس ، قد دَثَر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها[3] رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربع والدِّمن [4] والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطير والحيوان والأخلاق وسنلمّ به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ، فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

---

(١) تعفيتها : دثورها وطمسها

(٢) الحيل : الحول والقوة

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

وبأخرة من عصر المماليك نلتقي بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرد له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقي ببهاء الدين العاملي الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المخلاة ، وهي كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو في مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(أ) رسالة[1] الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وهي تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة في الجنة يلتقي بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفر لهم ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظاراً لمصيره وقد ظل في المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَم القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقي حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبي طالب ، ورأى أبا على الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبي طالب منه شاهداً على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لا سبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقي ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د . بنت الشاطئ) وهي طبعة محققة (نشر دار المعارف)

أشعارهم التى جمع منها المرزبانى قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر فى الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامرأ القيس وعنترة واثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبى ويحاورهم جميعا . ويعود فيلتقى بآدم عليه السلام وببعض الحيّات التى ظلمت فى الدنيا ، وكوفئت فى الآخرة بدخول الفردوس ونزولها فى روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجّاز ، ويحاورهم فى أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهى رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب فى الجحيم ومن نعيم لايماثله نعيم فى الجنة ، ويمضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول فى الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق فى الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالى المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث فى ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولايزالون مشغولين .

والقسم الثانى من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبى العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه فى زمن يعز فيه الوفاء : ويتحدث عن حرفة الأدب وهمومها ، ويدفع عن المتنبى مايقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك فى عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفى مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة فى زمنه ، وفى مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحلول من الصوفية كالحلاج ، وأَصْلَى ابنَ الراوِنْدِىّ الزنديق[1] هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التى طعن فيها على الدين الحنيف نارًا حامية من الذم والتقريع ، ومن قوله فى التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لايصلح أن يكون نعلا ، وأُفٍّ وتُفٍّ ، وجورب وخُفّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ فى مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وببعض علماء حلب وبليات العرب فى الجاهلية وببعض مسائل فرعية .

---

(١) راجع فى ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ، لعبد الرحمن بدوى

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صوّر فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق فى حواره مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وماذكر من قصائدهم . وقد عرض فى القسم الثانى للنحل الكثيرة فى زمنه ومافيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بلدم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمّل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذى ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة فى الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لايكتفى بالإغراب فى ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا فى غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ - ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده فى العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة[1] النسر والبلبل

هى رسالة بديعة للمهذب أبى طالب محمد بن حسان الدمشقى ، ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته . وقال إنه زاره فى مدرسته العمادية التى كان يدرس بها لطلابه فى ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. » ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها ، وهى تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملأه غبطة وفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شىء من سحره وجماله؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لايهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفَلَق[2] وانخرق قميص الغَسَق[3] مشهور بالقَسْر[4] ، موسوم بالنَّسر ، والليل قد شابت ذُؤابته[5] ، وابيضَّت لمته . .

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ١/٣٤٠ وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره فى كتاب المحمدون من الشعراء والوافى بالوفيات ٢/٣٣٠

(٢) الفلق : الصبح

(٣) الغسق : الليل .

(٤) القسر : القهر

(٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة واضحة

كأنما أجنحته رُكّبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق [١] عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق فى أفق السماء .. يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قوادمه [٢] أعطاف القَبول [٣] وأطراف الصَّبا ، وَيُقدُّ الشمال بخوالفَ [٤] كأنها غروب [٥] الظُّبا ، ويفتق بخوافيه [٦] جُيوبَ الجنوب [٧] ، ويخرق بصدره صدر الرياح فى الهبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض [٨] . وظلٌّ عريض ، وأنهارٍ متدفّقة ، وأشجار مونقة ، وطلٌّ منثور ، ووَرْد ومنثور [٩] ، ومكان بَهج ، وزهر أرِج .. فن وردٍ فضىٌّ الأوراق ، ذهبى الأحداق ، كافورى الصِّبغة ، مسكى الصِّيغة ، مائىّ الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت [١٠] الصَّبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفتّحت الجَنوب أكمامه ، وحسرت [١١] الدَّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر فى أفق الشجر ، كأنه شهب السَّحَر ، أو خدود الحُور فى القصور ، ظهرت فى غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنّح وتعتنق ، والنسائم تحلُّ عَقْد أزرار الزَّهَر ... والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزالة [١٢] يبدو ويحتجب .. فوقف [النسر] فى الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وبينا هو صافٌّ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحرىٌّ على وَكْر شجرىٍّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنّة أوتاره .. وألحان أعذب من نغرات المزاهر ، ينثر درًّا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف افتنانه بين أفنانه [١٣] ، ويرجّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسابيحهم فى الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تتجافى [١٤] جُنوبهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ فى المزمار ، فرأى البلبل يرجّع سجع ألحانه فى ربع أحزانه » .

---

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل فى مقدم الجناح

(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هى الريش فى مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد – والظبا : جمع ظبة وهى الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوافى : الريش القصير فى الجناح

(٧) الجنوب : ريح جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المنثور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسرت : كشفت . والدبور ريح تهب من الغرب

(١٢) الغزالة : الشمس .

(١٣) أفنانه : أغصانه .

(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب فى هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره. ويَفْتِن النسرَ صوتُ البلبل وجمال تلاحينه ، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير فى منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما فى نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، مايكون الدر بقدر الصدف ، وشتان مابينهما فى القيمة والشرف ، ولا الآدمى كالفيل ، وبينهما بَوْنٌ فى التفضيل .. وأما النغمة التى قرع سمعَك سوط لذتها .. فإننى رصَّعت شَذْرها(١) فى عقد ألحانى على نغم بعض الأغانى » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوَّن ألحانه من احتفال يعقد فى الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولَّى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجَّع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم فى لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحلو حلوه فى الاستماع إلى رنات الغناء فى هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت فى الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجِّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب فى العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتمّ الرسالة بفصل وعظى ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجد فى طلب المنى دون مهلة أو مايشبه المهلة فضلا عن الغفلة ومايشبه الغفلة .

(جـ) كتاب الاعتبار(٢)

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا فى الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى فى

---

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب فى برنستون سنة ١٩٣١ وراجع ماكتبناه عنه فى كتابنا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

شَيْزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل – كما مر فى ترجمته – بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحَملة الصليب ، وشارك – كما مر بنا – فى أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ماكان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفا حيا معيشة حَملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين – حين تضع الحرب أوزارها – علاقات من حسن الجوار ، مما جعله يتزل بينهم فى بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر فى صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لاتوجد عندهم غيرة على نسائهم ، ويصورهم متخلفين فى الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (فى أعالى الشام) كتب إلى عمى أمير شَيْزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ماأسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم : هذا مايعرف شيء (فكيف) يداويهما؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى ، وشقَّ رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكَّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلىَّ حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم ومأأخذوه من العادات الإسلامية الشرقية فى المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس فى هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولاتكلف ، فلا سجع بداخله ولامحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ماشاهد وصفا نابضًا بالحياة فى لغة سهلة ، حتى لتقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ فى الإعراب وفى نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل فى الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمنه . وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجلها مشاهد لما رآها تحت بصره .

(د) نسيم[1] الصّبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعَدّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عيّن محتسبًا بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل فى طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام فى الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق فى عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ فى سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك فى دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه فى أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله فى السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب فى أشرف المناقب ، والمقتفى فى ذكر فضائل المصطفى .

---

(١) انظر فى نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١ والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريظ الصفدى لنسيم الصبا بين يدى طبعه سنة ١٢٩٠ هـ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلا أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحيانا ، إذ له فيها ثمانية فصول فى وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحيانا اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول فى الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحيانا أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يضنيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو مايلقانا عن فصول السنة فى الفصل الخامس . ونشعر دائما بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله فى الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عُبابه :

« هزَّنى رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبَج[1] البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفْر مثْواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ اللهِ مَجْراها ومُرْساها) .. يالها سفينةً ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُر[2] وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جَناح ، وتعتاض عن الحادى[3] بالملاَّح ، تخوض وتلعب ، وتَرِد[4] ولاتشرب ، لها قِلاع كالقلاع[5] ، وشراع يحجب الشُّعاع ، وسكينةٌ وسُكَّان[6] ومكانةٌ وإمكان ، وجُؤْجُؤٌ وفَقارٍ[7] ، وأضلاع محكمة بالقار[8] .. بعيدة مابين السَّحْر والنَّحْر[9] ، من أحسن الجوارى[10] المنشآت فى البحر ، معقودٌ بِنواصيها[11] الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

---

(١) ثبج : وسط .

(٢) دسر : حبال :

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحداء وهو الغناء للإبل

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهى الحصن

(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دفتها

(٧) الجؤجؤ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٨) القار : القطران

(٩) السحر : الرئة ، النحر . أعلى الصدر

(١٠) الجوارى : السفن

(١١) نواصيها : مقدماتها . وفى الخيل : الشعر فى مقدمة الرأس

ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما ٭ سواها تَسيرُ سَيْرَ القِداحِ [١]

كأنها وَعِلٌ [٢] ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ [٣] سابق يحثّه سائق ، أو عقرب شائلة [٤] ، أو عُقاب صائلة [٥] .. حاكمها [٦] عادل فى حكه ، عارف بنقض أمرها وبَرْمه [٧] ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحى القيُّوم .. وبينا نحن من البحر فى قاموسه [٨] ، كتب الجوُّ حروف الغيم فى طروسه ، وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فمالت بنا الفلْك [٩] واضطربت ، ودنت شفتها من رَشْف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد [١٠] ، وتهيم فى كل واد . وتضرم فى الكبود نار ناجرٍ [١١] ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر [١٢]) .. ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية [١٣] بِحَمْل عبيده إلى بعض الجزائر » .

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا فى رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن حبيب فى الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان بجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظًا له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرَ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكَر إذا غنتْ على غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتُقى جوهره وأُجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشِّى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

---

(١) القداح : السهام

(٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى

(٣) العرباض : البعير الضخم

(٤) شائلة : رافعة ذنبها

(٥) صائلة : واثبة جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجه العظيم

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع

(١٣) الجارية : السفينة

(هـ) فاكهة[1] الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقي الحنفي ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيا ، حتى كانت طامّة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلتْ إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثماني محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التي كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفي الذي أتمّ تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف ، وهاجر إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور في نوائب تيمور ، وهي مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة -كما أسلفنا- في العربية والفارسية والتركية ، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفي سماه « مرزبان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد في نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أوكذبه . فجمع الملك

(١) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عربشاه النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوي ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه : « فاكهة الخلفاء »

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه فى أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول فى ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسى الأسطورى القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان فى القرن الرابع الهجرى وقَتْل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساسانى الذى كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التى رآها وسرعان ماصادته - كما يقول ابن عرب شاه - بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثانى فى وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم القاتل . والباب الثالث فى قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وماينبغى أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان مايأمل ، ويأمن مايحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف فى مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وماهو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت فى مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقتها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسى الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه فى الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر فى الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذى رآه يغرس فى بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه فى زرع غرسه ونصَبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذى طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التى تهذب النفوس والتى تعود على الناس بالتهذيب فى معاملتهم والعدل فى حكمهم والكسب فى معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلحُّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنْفَق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائماً لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعِلْيَةِ الناس وصعاليكهم . ولابد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألممنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحِكَمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلِّم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة ومافيها من فضائل تكتسب ، ورذائل تجتنب ، وما أروع الحكمة التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنىَّ اكتسبوا العلم والفضل وادَّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خاتمة

تحدثنا فى هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبى فى عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إلمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقبة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرُّها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حَملة الصليب فى حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسَحْقُهُم للمغول فى عَين جالوت مشهور . وكانت مصر والشام فى أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع فى الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر فى الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهى المسماة بالفداوية وبالحشاشين. وقد مضت الشام تُعْنَى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يونانى علمى وفلسفى ، وقد نفذت بمجرد دخولها فى الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكثر فى بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى وفى العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ماعُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجى وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسى ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة مابلغه أبو العلاء المعرى ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبى العلاء إلى يوسف البديعى أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجي إلى عبدالغنى النابلسى فى بديعيتيه المشهورتين . وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها فى القرن الثانى الهجرى أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى فى القرن التاسع الهجرى . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوى ويتكاثر حفاظه التابهون ، وبالمثل تنشط دراسة للمذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعى وابن تيمية الحنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات فى مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام لا على الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب ، بل أيضا فى داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا فى أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام فى الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بنى أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة فى نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر فى القرن الرابع وخاصة فى حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو مايصور ذلك الثعالبى فى اليتيمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصبهانى شعراء الشام فى القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام فى القرن السابع الهجرى ومابعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أيدمر المحيوى والمخّار الحلبى ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخياط وابن القيسرانى وابن الساعاتى والشهاب محمود ومنجك . وتدبّج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيّوس وبهاء الدين العاملى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير فى النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقرأ عند عبدالمحسن الصورى وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم فى سحق الأعداء وبفضائلهم أوبهجائهم ومايرمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقرأ عند أبي فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والشكوى مثل ابن سنان الخفاجى والغزى وفتيان الشاغورى ومصطفى البابى . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو فى المتنزهات والأديرة على نحو مانقرأ عند الوأواء الدمشقى وابن قُسّيم الحمويّ ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية ومايتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبدالعزيز الأنصارى ومحمد بن سوّار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبي العلاء بن مقاتل .

وتُعْنَى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة فى عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصبهانى الناثر الشاعر والصفديّ وابن حجة الحموى وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ماأملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ماكانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائى والغَزّى ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولاتعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريرى ، إذ تُعْنَى بالوصف أو بالوعظ أو للمفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخوض فى موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفى مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبى العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى . وتتكاثر فى العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصَّبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهـــرس

صفحة